العودة إلى الأصل

إلى آل محمد (ص)

الجزء الأول

(الموسع)

دواعي العودة 1

غسان نعمان ماهر

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر

يتقدم المؤلف بخالص الشكر إلى الأخوين العزيزين خضير فاضل عباس والدكتور محمد الحكيمي على مراجعتهما الكتاب وإبداء الملاحظات القيمة حوله.

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب ، ولا خزنه في أي وسيلة استرجاعية ، ولا إرساله ، بأي شكل أو واسطة ، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو غيرها ، بدون الموافقة المسبقة من الناشر .

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011م

المحتوى

المقدمة 7

الباب الأول: الرحلة

الفصل الأول: ما قبل العودة 15

الفصل الثاني: إشارات 25

الفصل الثالث: على شاطئ الحقيقة 33

الفصل الرابع: العودة عملياً 39

الباب الثاني: دواعي العودة

الفصل الخامس: القرآن الكريم 49

الفصل السادس: الحديث الشريف 73

الفصل السابع: الزهراء(ع) أحاديث وقضية 109

الفصل الثامن: حديث الغدير 133

الفصل التاسع: العلم 159

الفصل العاشر: السيرة 191

الفصل الحادي عشر: مقارنة سريعة 283

خاتمة الجزء الأول 297

ملحق الجزء الأول 299

إهداء

إلى روح العم السيد عبد القادر ماهر

الذي علمني – تلقائياً – كيف يستطيع الولاء الحقيقي

عبور جميع الحواجز...

وإلى روح العم الأستاذ عبد الرزاق الهلالي

الذي علمني – تلقائياً – كيف تكون حرية الفكر

هي الأساس للوصول إلى الحقيقة...

مقدمة

لماذا الكتاب

هناك دواع مختلفة جعلتني أقرر كتابة هذا الكتاب. أولها أنه تجربة إنسانية تستحق الذكر وتستحق التبيان للآخرين لأن فيها آثاراً متنوعة فهي تمسّ الجوانب النفسية والفكرية وما يتفرع عنها من آثار على العلاقات وعلى المصالح. ونحن نرى أن الناس في مختلف المجتمعات وعلى مختلف العصور سجّلوا تجاربهم على تنوّعها، حتى التجارب التي تشكّل جانباً بسيطاً من حياتهم أو التي لم تؤثر تأثيراً كبيراً عليهم، بل ربما لم يكن لها أثر كبير فاعل على الآخرين. وهذا ما نشاهده في الغرب بالخصوص حيث تنتشر كتب السيرة الذاتية وكتب الذكريات والمذكرات، التي لا ينشرها المشاهير من السياسيين والفنانين والرياضيين وغيرهم فقط، ولكن حتى عامة الناس فيستعرضون ذكرياتهم في قراهم التي نشأوا فيها أو يعبرون عن جوانب يحملون نحوها مشاعر قوية تخص حياتهم العملية أو الدراسة أو الأسفار أو غير ذلك.

أما عندما تكون هذه التجربة تتعلق بالعقائد، والعقائد الدينية بالخصوص، فإنها تأخذ مدى أوسع وترتفع إلى مستويات أعلى في جميع هذه الجوانب الإنسانية، أعني بما تمسّه في النفس والفكر والعلاقات وما يتبع ذلك من تفاعلات بين هذه الجوانب.

الداعي الثاني إلى ذلك هو أن كتابة هذه التجربة ونشرها بين الناس نوع من التحدث بنعمة الله. فإن الله سبحانه وتعالى عندما أمرنا بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:11)، فإن ما أفهمه من التحدث بنعمة الله هو أولاً إعلان هذه النعمة، الإعلان أن هذه النعمة أصابتني فأنا أخبر عنها؛ الأمر الثاني هو تعبير عن الفرح بهذه النعمة لأنها نعمة وبالتالي يفرح بها الإنسان، وأنا أريد أن أعبّر عن فرحي، والإنسان يعبّر عن أفراحه للناس من قريبين أو بعيدين، وعندما يمسّ هذا الأمر أهم القضايا في حياته فإنه يريد أن يعبّر عن ذلك ويرسله إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه من الناس؛ ثالثاً هو شكر لهذه النعمة، فإن ما يمكن أن أفهمه من قوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:7) ليس فقط الشكر باللسان بين العبد وخالقه على نعمه، وإنما من جوانبه أيضاً القول للآخرين بأن الله تعالى قد أنعم عليه، فكأنما هو يثني على الله تعالى عندما يشكر هذه النعمة بأن لا يبقيها بينه وبين الله سبحانه، وهو نوع من الشكر على تلك النعمة، ويتبع ذلك الزيادة في هذه النعمة، بالتوسع فيها طولاً وعرضاً، والزيادة في غيرها؛ بل إن من مصاديق الشكر على النعمة بذلها لمن يستحقها، إذ أن البذل ليس محصوراً بالماديات وحدها كما لا يخفى.

الأمر الثالث في دواعي هذا الكتاب هو أني أحسبه مفيداً للقارئ. ذلك أن أي تجربة إنسانية تحمل جوانب لا بد أن يكون فيها ما يمكن الإستفادة منه في اكتشاف هنا أو التفاتة هناك أو انفتاح على الحق هنا أو اتباع للحق هناك أو موقف صادق أو تحمّل للأذى أو غير ذلك. فحتى التجارب التي ذكرنا أعلاه أنها تخص جوانب بسيطة من الحياة، يكتب فيها الناس وينشرون بعض الفوائد، وإن كانت قليلة، لمن يقرأها. ولو

لم يحقق كتاب كهذا غير شيء من السرور أو الفرح في نفس مؤمن فهو فائدة تحققت وإن كانت على نطاق ضيق. هذا الداعي يخص عموم الناس.

الأمر الرابع لكتابة هذا الكتاب لعله متفرع مما ذكرناه الآن، وهو دعوة ذوي الأصل العلوي ممن يشعرون بتميّز أجدادهم، أعني أئمة أهل البيت(ع)، في الوقت الذي هم يتبعون في مذاهبهم الإسلامية أئمة آخرين، سنوجّه النظر في هذا الكتاب إلى أنهم لا يصلون إلى المستوى السامي الذي وصله أئمة أهل البيت(ع) في علم أو عمل أو منزلة إلهية منصوص عليها. وهذا ليس له علاقة لا بالعصبيات القبلية ولا ببعض العصبيات الناتجة عن ضعف العقول بأن ما عندي هو أفضل مما عندك وأنت ليس عندك شيء، وإنما هو سبيل وجدناه يأخذ بالألباب إثباتاً من الكتاب والسنة والسيرة وأقوال السلف بأنه هو الطريق الأصح الذي ينبغي اتباعه. وبالتالي فإنها ربما تشكّل مفارقة أن يشعر الإنسان العلوي بتميّز أجداده – وهذا شعور لعلّه موجود في جميع من لهم هذا النسب الكريم – ولكنه في نفس الوقت يتّبع غيرهم، ربما لأنه لم يلتفت إلى أن هؤلاء الآباء الطاهرين كانوا أصحاب مذهب فكري ولم يكونوا فقط أفراداً أتقياء ممدوحين في كتب التاريخ.

لماذا الآن

في البدء أقول أن هذا الكتاب تأخّر لأكثر من خمس عشرة سنة، وبالتالي لم تتولّد الفكرة من ورائه قريباً. وكان سبب تأجيل الكتابة فيه هو وضع بلدي العراق أولاً، وظروفي الشخصية ثانياً. على أن هذا التأخير أحسبه مفيداً لأن في هذه السنين نضجت هذه التجربة من خلال الإطلاع والتفكير والكتابة، ومن خلال بعض ما شهدته الساحة الإسلامية عموماً في العالم أجمع. بالإضافة إلى هذا، فإن التأخير جعل من هذا الكتاب يدون بعد أن تجاوزت الخمسين وبالتالي ربما أكون قد أصبحت أفكّر بطريقة أكثر هدوءاً، إن صحّ التعبير، وأقلّ عاطفة، ولعل هذا مطلوب أكثر من غيره عند طرح مثل هذا الموضوع.

ولكن ربما يقال أننا نعيش الآن أجواء فتنة مذهبية، ولعلّنا نعيشها منذ سنين طويلة، فلماذا الخوض في مواضيع ربما تسهم في تأجيج هذه الفتن؟

نقول: أولاً إن الفتنة التي يُشار إليها يصحّ أن تسمّى فتنة طائفية أكثر من كونها مذهبية، بمعنى أن الناس يتعلّقون بانتمائهم إلى الطائفة بكونها مجموعة من الناس تتعرّض إلى عوامل متشابهة أو حتى مشتركة من الأفعال وردود الأفعال من الطوائف الأخرى، وأن هذه الطائفة تُعنى بما عندها من شعائر ومن مصالح، أكثر من التفكير بأن المسألة هي مسألة تتعلّق بالمذهب بأُطره العقائدية والفكرية والأخلاقية. وهذا فارق كبير يؤثّر بشكل مباشر على هذا الطرح سواءً في هذا الكتاب أو في غيره أو في أي مجال آخر. حيث أن الكلام في المذاهب هو كلام علمي يتعلق بما يفكر فيه الإنسان وما يؤمن به وما يستتبع ذلك من أمور لها علاقة بالعبادات والمعاملات والتصرفات، وليس هو شعائر أو طقوس أو مصالح. نعم، إن الإنتماء المذهبي هو

أيضاً انتماء طائفي لأن الإنسان سيوضع شاء أم أبى تحت هذا العنوان أو ذاك، وربما يتعرض لما تتعرض لـه تلك الطائفة وأفرادها بغض النظر عن طريقة تفكيره أو ممارساته أو غير ذلك.

إذاً هذا الكتاب يسهم في مواجهة الفتن وذلك من خلال توضيح بعض الأمور – يلتفت الإنسان إلـى جماعته أولاً فيكون أكثر عدلاً وصدقاً في توضيح الفارق بين ما يتضمنه إتباع أهل البيت(ع) والتشيّع لهم من فكر عميق وإطار إنساني عام وأخلاقيات وخط مبدئي وبين ما يمكن أن يحتكّ به إنسان هنا أو إنسان هناك من جوانب سلبية أو تصرفات غير مناسبة من بعض من ينتسب إلى هذا الخط المبدئي الصـادق. ذلـك أنـه لم يكن من فراغ أن يدعونا الأئمة(ع) بالقول «أحبونا حب الإسلام، فما زال حبكم لنا حتى صار شيناً علينا» (الإرشاد للمفيد ج2 ص141)، وقولهم «كونوا زيناً لنـا ولا تكونـوا شـيناً علينـا» (أعيـان الشـيعة ج10 ص374)، فإن من أكثر ما يصيب أي فكرة وأي خط من مشاكل هو ليس بسبب ما فيه من أفكار مجـردة أو نظريات وإنما يأتي ممن يسيء أو ممن لا يظهر الوجه المشرق أو الجوانب الصحيحة لمن ينتسب إليـه. وهـذا عام في جميع النظريات وجميع المجتمعات وليس حصراً على جهة دون أخرى، إلا أننا ينبغي أن نلتفت إلى أنفسنا أولاً كيلا نلطخ، بأمور من اختراع عقولنا القاصرة، الطريق المرتبط بأئمة أهل البيت(ع) الـذين هـم – كما نعتقد – حرّاس العقيدة الخاتمة التي أراد الله تعالى أن تكون النظرية والتطبيق في آخر الأمر.

كما يمكن لنا أن نسهم في مواجهة الفتن عن طريق الرد على طروحات الـبعض مـن أن التبشـير يـثير الفتنة. ذلك أننا نسمع بعض الدعوات من مشايخ وغير مشايخ بأن لا يكون هناك تبشـير – كمـا يصـفونه – للمذهب الشيعي في المناطق السنيّة أو البلدان السنيّة المذهب ولا التبشير السنيّ في البلدان أو المناطق الشيعية على أساس أن ذلك يثير الاحتقانات الطائفية ويثير الفتن. ونحن هنا نرد على هؤلاء بالقول:

أولاً، إن هذا ينطبق على الدعوة للإسلام نفسه، بمعنى أنه يمكن أن نؤمر بـالتوقف عـن الـدعوة إلـى الإسلام في البلدان الغربية على أساس أن ذلك يثير المشـاكل في تلـك المجتمعـات، ولاسـيما أن بعـض هـذه المجتمعات تعرّضت ولا تزال تتعرّض لتهديد من جماعات تنتسب إلى الإسلام.

ثانيًا، نتساءل: لم الخوف من الدعوة إلى مذهب أهل البيت؟ ذلك أننا نفهم من مثـل هكـذا دعـوات أنها تستهدف الدعوة إلى التشيّع بالخصوص، وذلك لأن المناطق الشيعية أو التي تنتسب إلى التشيّع هي أقل بكثير من مثيلاتها التي تتبع المذاهب الأخرى. كذلك فإن الإعلام السـنيّ أكـبر وأقـوى بكـثير مـن الإعـلام الشيعي، مع تحفظنا على مدلولات هذا العنوان، أي الإعلام، ولكننا نقول بأن الإعلام السنيّ بأنواعه (المقروء والمرئي والمسموع) هو أقوى ويحظى بدعم أوسع بكثير من الإعلام الذي ينتمـي أصـحابه إلـى مـذهب أهـل البيت(ع). فلمَ الخوف إذا كان الطرح علمياً هادئاً ويتجنب الإثارات الجماهيرية؟

ثالثًا، أليس مما يقتضيه الانتماء، أي انتماء، الدفاع عنه إزاء الهجوم الظالم الذي يمكن أن يتعـرّض له؟ وأي انتماء تعرّض ولا يزال إلى هجمات متواصلة ملؤها الكذب والافتراء والتحريف، ناهيك عن التكفير والتبديع والتفسيق والشتائم، مثلما تعرّض له مذهب أهل البيت(ع) وشيعتهم؟ إذاً ينبغي على من ينتمي إلى

هذا الخط أن يدافع عنه، بشرط أن يكون قادراً على ذلك، وأن يكون حريصاً على عدم صب الزيت على النار لأن ذلك مما لا يرضي أئمته(ع) في خطهم المعروف.

رابعًا، نقول لهؤلاء ما فائدة الحفاظ على العقائد بالكتمان والتحريف؟ ذلك أننا نفهم من دعوات التوقّف عن التبشير كما يسمونه ليس فقط إيقاف وصول الأفكار الموجودة في مذهب أهل البيت، وهي أفكار العدل والحق والسيرة الطيبة، وإنما هو للحفاظ على الوضع المسيطر للمذاهب الأخرى في غالبية العالم الإسلامي. بمعنى أنه دفاع عن العقيدة وليس فقط صد عقيدة أخرى. فهنا نسأل مرة أخرى: إذا كانت عقائد هؤلاء من القوة بحيث أنهم متمسكون بها ويدافعون عنها فلم الخوف من التعاطي مع الحالة الحوارية وحالة البحث العلمي في ما يمكن أن يشكل نقاط ضعف فيها أو نقاط قوة في غيرها من المذاهب؟

ولكن لا بد من القول بأن طريقة الطرح لها أثر واضح على النتائج، ولذلك نقرأ كيف أن الأئمة(ع) كانوا يشجعون أصحابهم على كيفية التعامل في مثل هذه الأمور، بل وكانوا يمنعون بعض هؤلاء الأصحاب من الولوج في هذا المعترك في حين يشجعون أصحابًا آخرين على ذلك، كلّ ذلك من أجل إيصال دعوة الحق وفي نفس الوقت تجنّب أي خسارة في هذا الشأن. بمعنى أن الدعوة إلى الحق إن كانت بطريقة ما أو عن طريق أشخاص ما أو في ظروف ما بحيث تؤدي إلى زيادة الفرقة بين المسلمين وإلى زيادة الابتعاد عن خط أهل البيت(ع) فإنها تحمل فشلها بل وتصبح وَبالاً بدلاً من أن تكون طريقاً إلى الهداية وإلى نفع الداعي والمدعو.

خامسًا وأخيراً، إن الدعوة إلى النظر والاعتبار ودراسة التاريخ هي من أهم الأسباب التي قادت إلى التطور الذي حصل في المجتمعات والبلدان الغربية في مجالات حقوق الإنسان التي استفاد منها المسلمون ولمسوها أكثر مما لمسوها في بلدانهم الأصلية، وهي من أبرز الأسباب التي أدت إلى التطور حتى في المجالات العلمية والإقتصادية هناك. ونجد هنا حالة فصام عند المسلمين بين الدعوة إلى أن ننجح مثلما نجح الغرب والدعوة إلى انتهاج منهج يرفضه الغرب جملة وتفصيلاً لأنه رأى فيه تكبيلاً للطاقات البشرية وأنه يحمل من المظالم أكثر مما يحمل من العدل.

وإن المسلمين ما فتئوا يقولون بأن هذا المنهج الذي نجح في الغرب إنما هو منهج إسلامي حيث أنه يدعو إلى العدل والمساواة والعلم والحوار ولكنهم عندما يأتون إلى بحث أهم الأمور التي تستند إليها عقائدهم فيما بينهم فإنهم يحجمون عن ذلك ويعودون فيتخذون نفس المنهج الكَنَسي الذي تخلّص منه الغرب لينطلق، وهو ما يذكره هؤلاء المسلمون الدعاة باستمرار. بكلمة أخرى، أنهم بينما يدينون سلطة الكنيسة التي تخلّص منها الغرب وكيف أن الغرب عندما تخلّص منها انطلق إلى الآفاق الواسعة وبنى حضارة قائدة إذا بهم يسلكون نفس النهج الكنسي عندما يأتي التعامل مع أمور كهذه والتي تشكّل بالنسبة لأمتنا القاعدة الأساسية الأولية لكي ننطلق كما انطلقوا، بل ولكي ننطلق كما انطلقنا من قبل وبنينا حضارة رائدة.

إن هذا المنهج ليس منهجاً غربياً، بل هو منهج إسلامي قرآني في الصميم. ذلك أن القرآن الكريم قد حثّ على إعمال النظر في ذلك ودراسة التاريخ وتجارب الأقوام ومسيرة البشرية، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك، بل يؤكد عليه، في موارد كثيرة: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ... أفلا يتفكرون... أفلا يعقلون...

فاعتبروا يا أولي الأبصار... لآيات لأولي الألباب...﴾ وهكذا. وفي جميع هذه الأمور التي ذكرها القرآن من تاريخ الأمم بل ومن تاريخ الإسلام في العهد النبوي فإنه ذكر جانبيها المشرق والمظلم، الإيجابي والسلبي، بدءاً من قصة ولدي آدم(ع) والتي نزلت الآيات بصيغة أمر للنبي(ص) بالقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيهِم نَبأَ ابنَي آدَمَ بالحَقّ﴾ (المائدة:27)، وهو ما جاء منذ أحقاب وفيه الجانب المشرق والجانب المظلم؛ وكذلك عندما يأتي على ذكر الممدوحين والمذمومين من الرجال والنساء في الأمم السابقة؛ وكذلك فيما جرى في العهد النبوي، ولاسيما في العهد المدني، وما كان من أفعال وردود أفعال المسلمين في بدر وأحد وحنين والأحزاب، بل وحتى في أمور خاصة ربما بقضية ما تلقي ضوءاً على واقع المجتمع لتعرف منه كيف كانت الأحوال وبالتالي لترى لماذا كان هذا الضعف ولماذا كانت هذه القوة لتأخذ منها الدروس وتتبع ما أدّى إلى هذه المواقف المشرقة وتتجنب ما أدّى إلى تلك المواقف السلبية. فإنه ليس من قبيل الكلام المثير للفتن مثلاً أن يتعرض القرآن الكريم إلى موقف المسلمين وكيف أنهم زُلزلوا زلزالاً شديداً في الأحزاب، أو كيف أنهم هربوا في أُحد ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ﴾ (آل عمران:153)، أو ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ (التوبة:26) ثم ولّوا مدبرين منهزمين، ولا في قضايا أخرى بعيداً عن الحرب وفي أجواء السلم والراحة، مثلاً عندما كان النبي(ص) يخطب على المنبر وإذا به يجد نفسه في مسجد شبه فارغ مع إثني عشر رجلاً من الذين بقوا يستمعون إليه وقد زهد الناس في مواعظه وخرجوا إلى التجارة التي سمعوا ضجيجها في خارج المسجد، فخلّد القرآن الكريم ذلك في سورة الجمعة. كلّ هذا ليس فقط من قبيل القصص الذي نقرأه أو الذي يقرأه كل مسلم ويعتبر به لوحده، وإنما هو منهج ينبغي أن نأخذ به في تعاملاتنا مع العقائد والأفكار والأخلاقيات بل وفي ما نقوم به في مجالات الحياة المختلفة، وإلاّ صار القرآن كتاباً لبعض القصص السابقة التي ليس لها أثر على الواقع الحالي، مع شيء من العبادات والمعاملات.

أخلص إلى القول بأن هذا الكتاب هو طرح لتجربتي التي مررت بها والتي ترسّخت ونضجت، رغبةً في فائدة الآخرين، وتحدثاً بنعمة الله تعالى، وتنبيهاً إلى من يريد أن يرجع إلى أصوله، وإسهاماً في مواجهة الفتن، وإسهاماً في تغيير الواقع المؤسف لهذه الأمة، عسى أن يتحقق ذلك الإنطلاق الذي هو المأمول من هذه الدعوة الخاتمة التي هي دعوة العقل والفكر قبل أن تكون دعوة المشاعر والعواطف.

تنبيـــه: موقفنا تبع لأئمتنا

أحب التنبيه إلى أن ما أطرحه هو دعوة إلى الطريق الصحيح لفهم الإسلام أو قل الطريق الأصح. بمعنى أننا لا نكفّر ولا نُخرج من الأمة من نشاء ونُدخل النار من نشاء كما يفعل البعض من المسلمين من شتّى الطوائف، بل نعتبر ذلك جرأة على الله تعالى الذي أخبرنا بأن رحمته وسعت كل شيء، ولم يعطنا الحق في أن نكون الحكام بدلاً عنه سبحانه.

إن موقفنا هذا تبع لموقف أئمتنا(ع) الذين ما أجبروا أحداً على اتّباعهم ولا على بيعتهم ولا نكّلوا ولا حاصروا ولا فعلوا ما فعل غيرهم. بل كانوا يؤخّرون الحروب رجاء هداية الأعداء كما قال علي(ع): ‹‹فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها›› (نهج البلاغة ج1 الخطبة 55). بل كانوا يأمرون بالإحسان إلى قاتليهم كما فعل الإمام علي(ع) مع ابن ملجم، ويؤوون عوائل أشدّ أعدائهم كما فعل الإمام السجاد(ع) مع عائلة مروان بن الحكم والأمويين عندما ثار أهل المدينة المنورة. بل وحتى وصلوا إلى البكاء على أعدائهم في سوح المعارك كما في الموقف الذي نقله التاريخ عن الإمام الحسين(ع) يوم الطفّ في كربلاء.

لذا، نرجو أن نكون واضحين في أن ما نطرحه من رأي مخالف للقارئ لا يعني أننا نشطب على هذا القارئ الكريم، فإن اتّباعنا لآل محمد(ص) هو الذي جعلنا نحب الناس جميعاً ولا نبغض إلا أعداء الله تعالى. والحمد لله رب العالمين.

النسخة الموسّعة

ألفت نظر القراء الأعزاء إلى أن هذه هي نسخة موسعة من النسخة المطبوعة من الكتاب "العودة إلى الأصل إلى آل محمد(ص)"، الجزء الأول، فيها مزيد من الشروح والمناقشات وبعض الإثارات الأخرى، علماً أن التوسع في الجزء الأول هو حسب النسب التقريبية التالية:

الباب الأول /	الفصول الأول-الرابع	لا تغيير
الباب الثاني /	الفصلان الخامس والسادس	20%
	الفصل السابع	50%
	الفصل الثامن	25%
	الفصل التاسع	55%
	الفصل العاشر	70%
	الفصل الحادي عشر	15%
	الملحق	35%
	الزيادة الإجمالية	حوالي 40%

العودة إلى الإصل

إلى آل محمد(ص)

الباب الأول

الرحلة

الفصل الأول

ما قبل العودة

المنطقة والعائلة والتعليم

الأفكار

"ولا أدري إن كان في مثل هذا التنوع ... ما له أثر غير مباشر ربما على من يسكن في مثل هذه المنطقة، خصوصاً إذا كان من عائلة تتفاعل مع هذا الجو وتتأثر به وتؤثر فيه."

(المؤلف)

هذا الفصل يخص المرحلة منذ ولادتي في عام 1955 وحتى تخرجي من الجامعة في عام 1977. الغاية من الفصل هو التعريف المختصر جداً بالمنطقة والنشأة والأفكار التي ترعرعت عليها في تلك المدة.

المنطقة والعائلة والتعليم

فقد نشأت في منطقة تابعة إلى قضاء الأعظمية المعروف في بغداد والمأخوذ إسمه من الإمام الأعظم وهو الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه اللّه إمام المذهب المعروف، المدفون في المسجد الجامع المسمّى بإسمه على شط دجلة عند الجسر المعروف بجسر الأئمة كونه يربط بين الأعظمية حيث الإمام أبي حنيفة رحمه اللّه وبين الكاظمية حيث الإمام الكاظم وحفيده الجواد عليهما السلام. المنطقة التي ولدت فيها ونشأت وقضيت فيها جميع إقامتي في العراق تسمى محلة نجيب باشا وتقع في الجزء الجنوبي من منطقة الأعظمية وتبعد دقائق بالسيارة عن الإمام أبي حنيفة، وهي منطقة مختلطة بالنسبة إلى التكوين المذهبي وإن كانت سنيّة في الغالب بمعنى أن أكثر ساكنيها من أتباع المذهب السنيّ، وبالخصوص المذهب الحنفي الذي هو المذهب السائد في بغداد بالنسبة لأهل السنّة.

وهذه المنطقة من المناطق المهمة في تاريخ الدولة العراقية الحديثة حيث سكنها العديد من السياسيين وضباط الجيش الذين شاركوا في الأحداث الهامة، ومن الأدباء والشعراء والفنانين وغيرهم ممن كان له الأثر، كبر أو صغر، في القرن العشرين منذ تأسيس الدولة العراقية وربما حتى السبعينات أو الثمانينات. فمن مشاهير هذه المنطقة من السياسيين المرحوم رفعت الحاج سرّي أحد الضباط الأحرار لثورة 14 تموز 1958 وأحد أصدقاء والدي القريبين وهناك شارع كان بإسمه في محلتنا وسوق عند بيت والده الحاج سرّي. وهناك اللواء محمد نجيب الربيعي أول رئيس لمجلس السيادة ومجلس الرئاسة بعد ثورة 14 تموز 1958. وهناك من سياسيي العهد الملكي مثل نور الدين محمود رئيس الوزراء والوزير عبد المجيد محمود وأركان العبادي قائد القوة الجوية وغيرهم. وسكن في المنطقة ممن اشتهر من الضباط والسياسيين ومن الضباط الأربعة الذين قادوا ثورة مايس 1941 ضد الوجود البريطاني في العراق ومنهم اثنان محمود سلمان وكامل شبيب.

وسكن في محلتنا أيضاً من القادة العسكريين المعروفين الضابط الكردي المعروف عمر علي الذي كان قائد القوات العراقية التي قاتلت في المعارك المشهورة في جَنِين في فلسطين سنة 1948.

كما سكنها اللواء محمد نجيب الربيعي أول رئيس لمجلس السيادة (أي المجلس الرئاسي الذي كان في الواقع صورياً لأن السلطة كانت بيد رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم... ولعله يناسب أن أذكر أن مجلس السيادة كان يتألف من رئيس سنّي – هو الربيعي المذكور – ونائبين أحدهما شيعي والآخر كردي، وهذه مهداة لمن يقول أن هذا التقسيم جاءنا مع احتلال عام 2003!)

ومن سكنة شارعنا المرحوم محمد شفيق العاني رئيس محكمة التمييز أعلى سلطة قضائية في العراق. ومن الأصدقاء القريبين في محلتنا أيضاً أخصائي الريّ والجغرافية والتاريخ اليهودي، وصاحب المؤلفات في هذا المجال مثل "العرب واليهود في التاريخ"، المرحوم الدكتور أحمد نسيم سوسة (والذي كان أحد شاهدي عقد زواجي قبل وفاته بثلاث سنوات عام 1980).

وفي شارعنا من الناحية الثانية كان هناك بيت عمي، أخ والدي، مزاحم ماهر الذي عمل في فترة العهد الملكي محافظاً (كان يسمى في ذلك الوقت متصرفاً) في السليمانية في شمال العراق ومديراً لشرطة السليمانية ومديراً لشرطة البصرة. وفي نفس الشارع كان يسكن ابن عمة والدتي المرحوم الدكتور جلال العزاوي طبيب العيون الشهير وعميد كلية الطب في الأربعينات.

والذي نذكره من هؤلاء هو فقط في الشوارع الخمسة من المحلة والذي يطلق عليها "شارع طه" والتي كتب عنها بشكل مقارنة بينها وبين منطقة هَمَرسمِث في لندن المعمار العراقي الشهير رفعت الجادرجي، الذي هو أيضاً من سكنة محلتنا، وفي الشارع الواقع في ظهر شارعه بيت والده كامل الجادرجي الذي يسميه البعض أبو الديمقراطية في العراق، الذي أسس مع آخرين الحزب الوطني الديمقراطي في العهد الملكي.

وبذكر المعماريين، فقد سكن محلتنا أيضاً المعماران الشهيران قحطان المدفعي وقحطان عوني.

وسكنها العديد من الأدباء ورجالات الفكر مثل المرحوم عبد الرزاق الهلالي (والد زوجتي الذي سأشير إليه في فصل قادم)، والمؤرخ جواد علي، والدكتور علي الوردي المؤرخ المعروف الذي سكن المنطقة فيما بعد. وممن سكنها الخطاط المعروف هاشم محمد الخطاط البغدادي، ومن الفنانين إسماعيل فتاح الترك النحات المعروف.

وسكنها من الرياضيين المرحوم فاروق الخطيب لاعب كرة السلة المعروف، وزوج أختي الكبرى أحمد الحجّية رئيس الفريق العراقي في كرة السلة ورئيس اللجنة الأولمبية العراقية بعد 2003، ولاعب كرة القدم الأشهر جميل عباس، أو جمولي، رئيس الفريق العراقي في كرة القدم، وعامر ناجي بطل الملاكمة. وهناك أيضاً حسين الخضيري صاحب محلات الخضيري أشهر متجر للأجهزة والمعدات الرياضية في شارع الرشيد.

والكثير الكثير من غير هؤلاء في مختلف الاختصاصات من المشاهير في ذلك الوقت.

ولعلّه مما يناسب ذكره في مثل هذا الكتاب الذي يتحدث عن التحوّل المذهبي أن الشيخ الوحيد في العراق الذي كان يتمذهب بالمذهب الوهابي كان يسكن في منطقتنا وهو المرحوم الشيخ بهجت الأثري.

ولا أدري إن كان في مثل هذا التنوع الذي يضم في داخله تنوعاً في الاختصاصات وفي المهن وفي الإتجاهات السياسية والفكرية وفي الإنتماء المذهبي بل والقومي ما له أثر غير مباشر ربما على من يسكن في مثل هذه المنطقة، خصوصاً إذا كان من عائلة تتفاعل مع هذا الجو وتتأثر به وتؤثر فيه.

أما العائلة فإن والدي، نعمان ماهر الكنعاني (رحمه اللّه)، معروف في العراق كونه من الضباط القوميين العروبيين ومن شعراء العراق المعروفين، ولكن للظروف الخاصة التي مررنا بها لم أتعرف على أفكاره إلا لاحقاً. ذلك أنه بعد أن طرد من الجيش لاكتشاف تآمره على الحكم الملكي في عام 1957 وعودته إلى الجيش في يوم ثورة 14 تموز 1958 وعمله بشكل لصيق في وزارة الدفاع مع الزعيم عبد الكريم قاسم، أخذ موقف الضباط القوميين بقيادة صديقه العقيد رفعت الحاج سرّي والزعيم ناظم الطبقجلي الذين رفضوا الاتجاه غير القومي للزعيم عبد الكريم قاسم مما اعتبروه خروجاً على مبادئ الثورة ومما اعتبروه نهجاً شعوبياً معادياً للعروبة، فبدأوا بالتآمر عليه، ثم اكتشف الأمر بعد أن تحرك العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل وفشل وقُتل وأُلقي القبض على الكثير من الضباط، فهرب والدي إلى سوريا، ثم حوكم غيابياً وحكم بالإعدام، وذلك في ربيع سنة 1959 وأنا لمّا أبلغ الرابعة من العمر، ولماّ عاد بعد سقوط عبد الكريم قاسم عام 1963 وأنا في الثامنة لم أسكن معه في دار واحدة حيث سكن في بيت منفصل مع زوجته الثانية. لذلك لم أكن قريباً منه أو أتعرف على أفكاره، ولاسيما تلك التي تخص الناحية المذهبية، إلا بعد أن وصلت إلى الجامعة بل وتخرجت منها كما سأشير إلى ذلك في الفصل القادم. ولكني أستطيع القول أني في تلك المرحلة حيث ألتقي به أو نذهب سوية إلى سامراء حيث بيت عمي الكبير أو إلى المزرعة هناك لم يكن هناك طرح لهذا الموضوع حيث لم يكن يخطر لي ببال ولم يكن موضوعاً مطروحاً أصلاً.

أما والدتي فهي الحاجة جميلة عبد الوهاب (رحمها اللّه) من المدرسات ربما من الجيل الثاني من المدرسات في العراق، بعد الجيل الأول الذي بدأ ببعض المدرّسات من لبنان وفلسطين حيث بدأ التعليم الحكومي الحديث في العراق، وهي التي نشأتُ وعشت في بيتها وتزوجتُ وسكنتُ في ذلك البيت حتى خروجي من العراق عام 1982. والدتي من منطقة الأعظمية فهي من بغداد، فتكون ذات نشأة بغدادية، بخلاف والدي الذي نشأ في سامراء. وفيما يخص موضوعنا هذا فقد كانت والدتي محبة لأهل البيت(ع) لدرجة كبيرة جداً وكانت تشارك في مجالس الحسين في عاشوراء التي تقام في بيوت الأصدقاء أو المعارف من الشيعة في محلتنا كل عام دون انقطاع في انتماء عاطفي واضح دون الانتماء المذهبي الحنفي. ومما يجده كل من يلتقي بها أو يعرفها عن قرب أنها تمقت الطائفية وتمقت إثارة الفتن بين المسلمين وتحث على الوحدة ولا يصدها لا عن هذا

المنهج ولا عن اشتراكها السنوي في مراسم عاشوراء ما يمكن أن تسمعه من نيل لبعض المقدسين عندها أو غير ذلك مما يمكن أن يطرح عادة.

بالإضافة إلي فإن أخوتي وأخواتي الأشقاء الأربعة كلهم أكبر مني تربّوا في هذا الجوّ في هذه المنطقة فنشأوا في نفس تلك الفضاءات على مستوى التعليم والنشأة والأفكار والقيم في تلك المنطقة وفي تلك المرحلة وفي مثل تلك العائلة (هناك ثلاثة غير أشقاء، في منطقة أخرى غير بعيدة، ولكن في زمان متأخر نسبيًا).

أما التعليم فقد كان في روضة الأطفال وتسمى روضة الجمهورية وبعدها التعليم الابتدائي في مدرسة الحريري الإبتدائية وهي مدرسة نموذجية معروفة في المنطقة، وكنت فيها متفوقاً حائزاً على المركز الأول منذ دخولي في السنة الأولى وحتى تخرجي منها في الصف السادس الإبتدائي، ولعل صورتي ما تزال معلّقة هناك مع صور الأوائل في كل سنة عند مدخل المدرسة. في تلك الفترة إضافة إلى التفوق في الدراسة كنت نشطاً في الرياضة وفي الفن بنوعيه التشكيلي والمسرحي. ربما يبدو ذلك كلاماً أكبر مما تحتمله المرحلة، ولكنه بلحاظ العمر ومحدودية النشاط في المدرسة يمكن أن يستحق الذكر بأني كنت من المتفوقين في الرسم كما كنت من المشاركين في المسرحيات والأناشيد والألعاب الرياضية التي تقدمها المدرسة في حفلة المدرسة السنوية، والتي أذكر أنه في آخر سنة قدمنا مسرحية في المدرسة ثم قدمناها مرة ثانية في قاعة الشعب وهي قاعة معروفة في بغداد وتم نقل هذا العرض من قاعة الشعب في تلفزيون بغداد وذلك في ربيع سنة 1967 (لعله مما يبعث على السرور إلى الآن أني قمت بالدور الأول في المسرحية، دور "العراق").

أما التعليم المتوسط والثانوي فكان في الثانوية المسماة كلية بغداد في منطقة الصليخ التي هي شرق منطقة الأعظمية. هذه المدرسة، التي لا تزال موجودة، أسسها الآباء اليسوعيون الأمريكيون في الثلاثينات ثم انتقلت إلى هذا الموقع فيما بعد وبقيت تحت إشراف الكنيسة اليسوعية وبالإدارة الأميركية ولكن بتدريس بعض من الأمريكيين القساوسة أو من غير السلك الديني وبعض من المدرسين العراقيين وذلك حتى سنة 1969 أي بعد سنتين من دراستي فيها، حيث أمّمت وخرج الآباء والإدارة الأميركية منها وأصبحت إدارة عراقية وذلك في السنوات الأربع من الدراسة حتى تخرجي سنة 1973. في هذه المدرسة أيضاً كنت من المتفوقين من البداية إلى التخرّج، وكنت من المتفوقين في الرياضة ولاسيما في لعبة كرة القدم. وقد كانت هذه الفترة هي الفترة التي تبتدئ فيها سنوات التكليف الشرعي وبداية تكوّن الوعي. وعندما أنظر إليها الآن أتساءل عما كان عليه الكثير من الأمور في تلك السنوات التي كانت من أجمل السنوات التي عشتها، في تلك المدرسة المعروفة في مساحاتها الواسعة وفي حدائقها وفي ملاعبها وصفوفها ومختبراتها في تلك المنطقة الجميلة من بغداد؛ أتساءل عما كانت عليه أحاسيس ومشاعر الآخرين من غير المذهب الغالب في الحكم (وهو المذهب السنيّ) بل ومن غير المسلمين. أقول ذلك لأن المدرسة بسبب كونها تحت إشراف كنيسة يسوعية تبشيرية توفّر التعليم الديني للطلاب المسيحيين فإنها كانت تتميز عن المدارس الحكومية (تشبه مدارس كمدارس الراهبات الفرنسيات بالنسبة إلى مدارس البنات) بأنها تجذب الطلاب من العوائل المسيحية المتمكنة

مالياً، ومثل ذلك العوائل المسلمة المتمكنة مالياً والتي كان الكثير منها من التجار الشيعة في بغداد؛ فأتساءل الآن: كيف كانت نشأة زملائي وأصدقائي من الشيعة ومن المسيحيين ومن الأكراد أيضاً في تلك المرحلة التي مهما قال البعض وحاول أن ينفي فإنها كانت مرحلة الدولة العراقية التي أسست بين 1921 وحتى سنة 2003، دولة تتميز بسيطرة السياسيين أو الضباط أو حتى المغامرين من المذهب السنيّ على الآخرين كائناً من كانوا، فكان لا بد أن يكون لذلك أثر على تنشئة الأولاد وهم ينشأون بطريقة فيها بعض الاختلاف عن بعضهم. مثلاً لا يجد الطالب السنيّ من فارق بين ما يعلمه أهله في البيت من العبادات والعقائد وما يتعلمه في منهاج التربية الدينية في المدرسة، في حين يجد الطالب الشيعي أن أهله يعلمونه كيفية ممارسة هذه العبادات ويعلمونه جملة من العقائد والأفكار التي لا يجد لها ذكراً، ربما يجد ما يناقضها، في منهاج التربية الدينية والتي يجد أنه مجبر على أن يتعلّمها ويجيب في الإمتحانات على وفقها. إن هذا وأمثاله مما يكوّن مادة تستحق الإهتمام لمعرفة السبل للحؤول دون التمييز بين المواطنين وتكوين الفجوات والعقد بدلاً من مدّ الجسور.

أما فترة الجامعة فقد شهدت نشاطاً علنياً للحزب الشيوعي العراقي بعد أن دخل فيما يسمى الجبهة الوطنية والقومية التقدمية مع حزب البعث الحاكم والحزب الديمقراطي الكردستاني، وفي فترة تكويني الفكري هذه ترسّخت نظرتي السلبية إلى حزب البعث، ربما من جانب شخصيتي التي تمقت التسلط بأي شكل كان ومن جانب آخر لما تعرض له أخي الأكبر من السجن والتعذيب بعد أن اعتقل في المسيرات التي كانت تتوجه صوب السفارة المصرية للتعزية بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر في اليوم التالي لوفاته يوم 29 أيلول 1970. أيضاً ترسّخ الشعور المجانب للفكر الهابط أو غير الناهض الذي كنت ألمسه عندما تجري بعض النقاشات بين الطلبة الشيوعيين والطلبة البعثيين حيث كان يبدو التفوق الثقافي الواضح للشيوعيين على أولئك. ولعل من أوكد الأسباب على هذا هو أنه في أي بلد يحكمه حزب واحد فإن الكثيرين وربما الأكثرين ممن يدخل في هذا الحزب سيكون دخولهم لأسباب مصلحية نفعية ولا يقومون ببذل الجهد لتحصيل حتى ولا القدر الأدنى من الثقافة السياسية.

أما في التعليم الجامعي فقد دخلت في كلية الهندسة قسم الهندسة الكهربائية في جامعة بغداد وذلك في مقرها في باب المعظم، وبالحقيقة الحد الجنوبي لقضاء الأعظمية، وذلك من سنة 1973 وحتى سنة 1977، ولم أدخل في كلية الطب كما كان يأمل والدي كثيراً، وكما كانت تأمل والدتي كثيراً، على الرغم من أن خطأ حصل في التوزيع المركزي للطلاب على الجامعات فظهر اسمي في الكليتين لأن معدلي في الثانوية العامة كان 92 مما يؤهلني لدخول أي كلية ومنها طب جامعة بغداد فكان أن ظهر اسمي في جريدة الجمهورية مع الداخلين إلى الطب ففرح والدي واتصل بي يتصور أني قد أعددتها مفاجأة له ولكني خيّبت أمله بأن أظهرت تعجبي من ذلك! في كلية الهندسة كنت أيضاً نشطاً في الرياضة إلى حد ما، فدخلت في فريق كرة القدم حيث كنا نلعب على مستوى جامعة بغداد، وهذا في السنة الأولى فقط ثم عندما حصل لي سقطة في

لعبة كرة مع فريق المحلة أثناء العطلة الصيفية بعد السنة الأولى وحصل لي انزلاق في الغضروف فمنعت من ممارسة هذه الرياضة أو غيرها.

وفيما يخص موضوع الكتاب لعل في المرحلة الجامعية هناك بعض ما يلامس بعض جوانب الكتاب بشكل غير مباشر وهو مسألة الأفكار العامة التي ربما تخص العدل والظلم مما له علاقة بالحكام، وليس ما له علاقة مباشرة في التمذهب لأنه استمر بكونه شيئاً غير مطروح بالنسبة لي أو ممن هم حولي من الأصدقاء من المذاهب المختلفة.

أما الأصدقاء فكان معظمهم من تلك المحلة وتلك المنطقة وبالتالي كانت نشأة متشابهة إلى حد ما، وإن كان هناك أثر أيضاً للحالة المالية أو للتفوق في التعليم وبعض الأمور الأخرى.

الأفكار

لا شك في أن الأفكار لا تتكون بشكلها النهائي في السنوات الأولى من حياة الإنسان ولكن من المؤكد هو أنها تبدأ بالتكون في المرحلة الثانوية من الدراسة ومن ثم تتطور وتبدأ بالتبلور في المرحلة الجامعية وما بعدها. وبلحاظ طبيعة العائلة التي نشأت فيها والحقبة التي مر بها العراق والأحداث التي مرت بها الأمة العربية ولاسيما فيما يتصل بقضية فلسطين وما حولها فإني أستطيع أن أقسم هذه الأفكار إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول ما يخص الأفكار والعقائد الدينية بشكل عام، والثاني ما يخص النظرة إلى الحاكم والحرية والعدل والإسلام، والثالث ما يخص النظرة إلى الشيعة والتشيع الذي يتعلق بشكل أخص بموضوع كتابي هذا.

أما الأفكار الدينية فكانت هي الأفكار التي نجدها عند المسلمين عموماً وعند أتباع المذاهب السنيّة خصوصاً. ويمكن تلخيص هذه الأفكار بأننا مسلمون أتباع الدين الخاتم والشريعة الخاتمة، دستورنا القرآن، وهو أمر يصادم الواقع على الأرض فيما يخص الحكومات، وأننا يجب أن نتبع القرآن أو الكتاب والسنة، وهو أمر آخر يصدم ما كان موجوداً على الأرض من اقتراف المحرمات ومن الانحراف بشكل عام، وأن المسلمين كانوا يعيشون أسياد أنفسهم وتحت ظل دولة الخلافة الإسلامية التي كان لها تاريخ رائع لا يكاد يشوبه شيء منذ بداية هذه الخلافة وحتى سقوط الخلافة العثمانية واحتلال المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الأولى. وبالتالي فإن هذه الأفكار تقود بالضرورة إلى الاعتقاد بأنه لم يكن هناك إلا الخير وإلا السير على الكتاب والسنة منذ وفاة رسول الله(ص) وحتى بداية القرن العشرين، وهي دعوة عريضة جداً لا تكاد تُصدَّق حتى من الأطفال محدودي الفهم والوعي ولكنها كانت هي السائدة في أوساط أتباع المذاهب السنيّة عموماً.

وهذا يقودنا إلى النظرة إلى الحكام، حيث نشأتُ على أن الحكام المسلمين كانوا إما من القداسة بحيث لا يمكن أن يخطئوا كما العقيدة في الخلفاء الراشدين، أو أنهم كانوا يجمعون بين بعض مفاسد السلطان والحكم والصلاح والخير الذي جاء به جهادهم وفتوحاتهم ونهجهم بشكل عام كما في خلفاء بني أمية والعباس وآل عثمان الأتراك. وحتى النظر إلى الحكام الذين جاءوا بعد سقوط الخلافة العثمانية فإن التنشئة في الوسط السنيّ هي بالضرورة في صالح مساندة الحاكم إلا أن يأتي بكفر واضح صريح. وهذا ما كان يعد السلاح الأمضى في يد الأحزاب القومية كحزب القوميين العرب والناصريين وحزب البعث لإسقاط الأحزاب الشيوعية ومنها الحزب الشيوعي العراقي من أعين الناس ومن التفافهم حوله كونه الحزب الذي لا يقيم للدين وزناً، وبالتالي فكأنه، لو تسلم الحكم، سيكون أول حكم في تاريخنا لا يطبق الإسلام. بل وجرّوا التهمة إلى الزعيم عبد الكريم قاسم كجزء من الحملة العامة لإسقاطه.

بكلمة أخرى فإن التنشئة السنيّة تضع لإسلام الحاكم الأسبقية على عدله، وهي نقطة اختلاف كبيرة بين السنة والشيعة في تقييم أيهما أهم في إدارة المجتمع والحفاظ على مصالح العباد.

على أنني شخصياً كنت أشعر بالميل نحو الحرية بشكل عام وكراهية الظلم بشكل عام بحيث لم أجد نفسي ميّالاً إلى هذا الحكم أو إلى هذا الحاكم أو إلى هذا الحزب أو ذاك، ربما لأني لم أكن قد وجدت ضالتي بعد في نهج العدل الذي عند أئمة أهل البيت(ع). أيضاً فإن تلك النظرة إلى الإسلام في مؤسسته السلطوية الحاكمة على امتداد التاريخ الإسلامي كانت تشكّل تناقضاً مع الإسلام الذي نُدرَّس ونُعلَّم كيف هو من حيث الخير والعدل، في صور وردية اكتشفت فيما بعد أن الكثير منها في عالم التطبيق لم يكن واقعياً حيث يصوّر المجتمع النبوي وكأن الناس في ذلك المجتمع كانوا ملائكة لا يخرج منهم إلا الخير والصلاح، كأن الناس في ذلك المجتمع كانوا قد انقلبوا انقلاباً كاملاً بمجرد أن تشهدّوا الشهادتين ودخلوا في الإسلام، مما يشكّل تناقضاً واضحاً مع الطبيعة الإنسانية التي عشتها في المجتمع والتي لا بد أن يعيشها أي إنسان في أي مكان آخر.

أردت أن أقول أن هذا التناقض في النظرة إلى الخلافة الإسلامية مع ما يُتوقع فطرياً، وتلك النظرة إلى الحاكم ووجوب طاعته إلاّ أن يخرج بكفر واضح مع ما علمناه من العدل والرحمة التي في الإسلام وفي القرآن ومع ميلي الشخصي نحو ذلك، ربما شكّل بعض الأرضية لذلك التحوّل الذي جرى بعد ذلك.

تبقى النظرة إلى الشيعة والتشيّع، وأظن أن هذه كانت نظرة غير مثقلة بطائفية بعض الأوساط السنيّة، والتي من العدل القول بأنها غير موجودة في العراق كما وجدتها في بعض دول الخليج العربي أو مما نسمع عنه في بعض الدول الإسلامية، ولكن يبقى أن هناك اختلافاً بين النظرة التي ينشّأ عليها الفرد السنيّ في العراق بين منطقة وأخرى، كما هو الحال فيما يخص كيف ينشأ عليه الفرد الشيعي أو المسيحي في مناطق مختلفة. ولكن خلاصة نظرتي إلى الشيعة كانت تتلخص في أنهم من المسلمين لهم طقوس خاصة ولهم أفكار

معينة ولهم اعتقاد مبالغ فيه في علي بن أبي طالب، وربما لهم اعتقاد في النبي(ص) أقل من اعتقادنا نحن أهل السنة والجماعة. هذا من جانب، من جانب آخر هو أن الشيعة هم ما بين إيراني أو موال لإيران، بمعنى أن هناك رابطة ما بين الشيعي والتشيع وإيران. هذا الأمر الذي نشأت عليه وأخالُه السائد عند جميع أهل السنّة والجماعة، ليس في العراق فحسب بل وفي مناطق أخرى، لم يكن ليبلغ هذا المستوى من الشدة في النظرة السلبية لولا أنه مرتبط – أصلاً – بتعبئة الإنسان السني في العراق بمشاعر الكراهية والعداء لإيران. نعم أكرر بأن جميع أهل السنة في العراق، وربما معظمهم (لكي لا يقال بأني أعمم من دون عمل إحصاء علمي)، ولكن الأحداث ولاسيما الآن تبين هذه النظرة المترسخة منذ التنشئة الأولى، بأن إيران عدو تاريخي أو على الأقل هي جار غير مرغوب فيه، بحيث كنا نقرأ أو نسمع عن ذلك الخليفة الراشدي الذي يقول "ليت بيني وبين فارس جبلاً من نار" وأمثالها بحيث تشكل حاجزاً عالياً معبأ بالكراهية لإيران. ولما كانت النظرة أو الفكرة القائمة السائدة عن الشيعي بأن له علاقة ما مع إيران فبالتالي سيوضع هذا الشيعي – أي شيعي – في زاوية غير إيجابية مطلقاً.

وهنا ينبغي الإشارة إلى نقطة لعل لها أثراً في تقوية مثل هذه الحواجز وهي أن الشعور القومي العربي، وقد نشأت في بيت شديد الإحساس بالانتماء القومي العربي، مع تربية عامة عند العرب العراقيين على تسمية الشعوب الأخرى بأسمائها، فالتركي هو تركي والصيني هو صيني والفرنسي هو فرنسي والروسي هو روسي وما شئت سمِّ، ولما يأتي الدور إلى الإيراني يسمى أعجمياً أو "عِجْمي" حسب اللهجة العامية العراقية. هذا يقول للسامع من طرف خفي بأن الفرنسي هو فرنسي وكفى والصيني هو صيني وكفى والتركي هو تركي وكفى له خصوصياته كونه كذلك، ولكن الإيراني ليس هو إيرانياً وكفى إنما هو غير عربي أيضاً، وبالتالي فإنه يختلف عنك في هذه النقطة، وهذا حسبما أرى يشكل حاجزاً نفسياً خفياً له أبلغ الأثر في عدم الانفتاح على ما يمكن أن يأتي من ذلك الجانب بحيث لو جاءت كلمة الصدق من هناك لا تقبل ولو جاء الكذب والافتراء من مكان آخر من الممكن أن يقبل لوجود الحاجز النفسي هناك وعدم وجوده هنا (الأحداث الأخيرة أوصلت الكثيرين إلى اعتبار إيران العدو الأول وإسرائيل عدواً أقل ضراوة، بل صديقاً محتملاً، أو صديقاً متحققاً بالفعل عند البعض). هذا، مع أنه لا يوجد حاجز نفسي تجاه تركيا والأتراك على الرغم من أنهم حكموا العراق لما يقرب من أربعة قرون مظلمة لاقى فيها العراقيون أصنافاً من العسف والذل والهوان والتمييز العرقي والقومي، وعلى الرغم من أنهم لم يعينوا، في أي من الولايات الثلاث التي تشكل العراق اليوم: بغداد والموصل والبصرة، والياً عراقياً واحداً، بل كان جميع الولاة دون استثناء من الأتراك العثمانيين! وتصبح المفارقة مدعاة للدراسة حقاً عندما تجد نفس الموقف من البلدين، تركيا وإيران، حتى عند القوميين العروبيين الذين يقولون بأن الوجود العثماني في البلاد العربية كان احتلالاً أجنبياً – على أن هذا موضوع آخر.

أخلص إلى القول في هذا الفصل أن نشأتي كانت في هذا الخصوص، أي في مسألة المذهبية، هي نشأة في صالح ما جرى معي بعد ذلك، بمعنى أني نشأت في منطقة مختلطة منفتحة متنوّرة، وفي عائلة لا يوجد فيها من ملامح الطائفية الكثير كما في غيرها، ولم أخرج من ذلك كله مثقلاً بتلك الأغلال التي يجد الكثيرون أنفسهم مثقلين بها فيعانون الأمرّين مع الحواجز النفسية التي بُنيت في دواخلهم رغماً عنه

الفصل الثاني

إشــارات

في المدرسة الخالصية

مع عمّي الأصغر

"لو كان الأمر مهماً عندي لتشيّعت ولأعلنت ذلك!"

(نعمان ماهر الكنعاني)

هذا الفصل يتعرض إلى المرحلة القصيرة ما بين سنة 1977 وسنة 1979، حيث شهدت هاتان السنتان الإشارات الأولى إلى دور أهل البيت(ع) وذلك من خلال شخصين، الأول هو والدي والثاني هو عمي، أخ والدي الأصغر.

ففي هذا الصيف سنة 1977 حيث تخرجت من الجامعة وكنت أستعد لدخول الخدمة العسكرية، وأنا لا أدري ما الذي سيحصل لأني كنت أريد الإعفاء منها بسبب مشاكلي الصحية ولكن لم أستطع أن أحقق ذلك عن طريق اللجنة الطبية عندما كنت لا أزال في السنة الأخيرة من الدراسة الجامعية، ولذلك كان القرار أن أبدأ بالخدمة العسكرية وأعرض نفسي من خلالها على اللجنة الطبية مرة أخرى. إلى ذلك الحين كان نشاطي الديني، إن صح التعبير، في إقامة الفروض وصلاة الجمعة بشكل أساسي في جامع مصطفى العمري (وفي العراق نسمي جميع المساجد والجوامع بإسم جامع حتى لو كانت مساجد صغيرة)، الواقع في شارع أبي طالب الذي يمثل الحد الشرقي من منطقتنا، وذلك بإمامة المرحوم الشيخ محمود الحاجم السامرائي، وفي بعض الأحيان القليلة في جامع الدهان، الواقع في شارع الإمام الأعظم الذي يمثل الحد الغربي من المنطقة.

يكون النشاط العبادي أكثر في شهر رمضان كما هو معلوم حيث صلاة التراويح وبعض الدعاء، والذي وجدته فيما بعد أقل بكثير كمّاً وأقل تفصيلاً وعمقاً مما وصل إلى يد الشيعة من أئمتهم(ع)، ما يقرأونه في رمضان وغيره.

على أية حال، في تلك السنة كان هناك مما أذكره هو أني قمت بعدة ختمات من القرآن الكريم في شهر رمضان، والذي حصل أنه في بعض الأحيان كانت ترد في ذهني آية ليست من الآيات التي أحفظها مثلاً أو أرددها ثم عندما أعود وأقرأ فإذا بي أقرأ هذه الآية في تلك الساعة مثلاً. ومن هذه التي بقيت عالقة في ذهني، والتي ربما تشير إلى ما سيحصل لي كما أظن، هو أنني كنت واقفاً في الشارع الرئيسي في منطقة الكمب حيث السوق وكانت والدتي في داخل محل الحلويات على ما أذكر وأنا كنت واقفاً إلى جانب السيارة أنتظرها وأنظر إلى الأفق من بعيد وإذا بالآية الكريمة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:99) تقفز إلى ذهني، وعندما عدنا وبدأت أقرأ في تلك الختمة فإذا بهذه الآية هي الآية الأخيرة في ما كنت قد قررت قراءته. تكرر هذا الأمر أكثر من مرة مما أعطاني شيئاً من الراحة الروحية والفرح الداخلي من هذا القدح في الذهن الذي يتوافق مع القراءة فيما بعده مباشرة.

في المدرسة الخالصية

في هذه الأجواء صحبت والدي إلى المدرسة الخالصية في منطقة الكاظمية بمناسبة الاحتفال الذي يقيمونه بمناسبة جرح الإمام علي(ع) والذي يصادف في إحدى ليالي القدر من شهر رمضان المبارك كما هو معلوم.

أما والدي فهو:

نعمان بن ماهر بن حُمّادي بن الحسن بن خليل بن ابراهيم بن علي بن كنعان بن الخضر بن الشريف عباس (الجد الأعلى لعشيرتي ألبو عباس وألبو نيسان في سامراء) بن جمعة بن عبد الله بن علي بن الحسن بن رضاء الدين بن محمد بن عمر بن عبد اللطيف بن مرتضى بن محمد الأمين بن حُميضة (أمير مكة) بن محمد أبو نُميّ بن الحسن بن علي الأكبر بن قتادة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه الأكبر بن محمد الأكبر بن موسى الثاني بن عبد اللّه الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبد اللّه المحض بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب(ع).

نعمان ماهر الكنعاني يوصف دائماً بالشاعر الضابط القومي حيث عرف عنه أنه أحد الضباط القوميين الذين شاركوا في معارك الجيش العراقي في ثورة 1941 ضد الانجليز، ثم في حرب فلسطين، ثم في التخطيط للإطاحة بالنظام الملكي الذي تم فعلاً في 14 تموز 1958؛ كما كان الشاعر المعروف، بل من أحد أشهر الشعراء العراقيين الذين ظلوا ملتزمين بالشعر العمودي منذ بداياته الشعرية في الثلاثينيات وحتى وفاته في صيف 2010.

كنا في السيارة أبي وأنا وأخي يقظان (أستاذ ومفتش دروس الفنون في وزارة التربية، يكبرني بأقل من ست سنوات)، وفي الطريق كان أبي يتحدث وإذا به يتحدث عن الإمام علي سلام اللّه عليه وبعض ما تعرّض له من مشاكل أثناء خلافته بالخصوص، ثم اندفع يتحدث، بشكل شكّل صدمة لي، عن أم المؤمنين عائشة قائلاً ما نصه: "أنتِ أرملة محمد، ما أنتِ وإشعال الحروب والخروج على الإمام علي الخليفة المبايَع الذي يعرف الناس جميعاً دورَه وحقه؟!"

بالنسبة لأي سنيّ هذا الكلام يشكّل صدمة ومفاجأة لأن عند أهل السنّة الباب مقفول تماماً أمام مناقشة أي شيء جرى في ذلك العهد الذي صوّر لنا بأنه كان عهداً وردياً جميلاً، وكما قلت في الفصل الأول يعطي الإنطباع وكأن الناس الذين كانوا في ذلك الزمان من صحابة وتابعين كالملائكة لا يخرج منهم إلا كل خير وإذا خرج منهم شيء فهو من قبيل الاجتهاد الذي يُثابون عليه وبالتالي يجب أن لا نتحدث ولا نبسّ ببنت شفة في نقدٍ أو تساهل حتى. أما بخصوص عائشة أم المؤمنين، وزوج النبي(ص)، فالأمر أشد وأشد.

في احتفال المدرسة الخالصية (وهي مدرسة أسسها الشيخ مهدي الخالصي أحد قادة الجهاد العراقي في ثورة العشرين، واستمرت مع ولده الشيخ محمد الخالصي الذي عُرف بموقفه القوي من الشيوعيين في أثناء ما سمّي بالمدّ الشيوعي عام 1959، ثم آلت المشيخة إلى ولده الشيخ مهدي الخالصي). في الاحتفال كان هناك، بالإضافة إلى كلمة الشيخ الخالصي، قصيدتان إحداهما لشاعر لا أذكر اسمه والثانية لوالدي. قصيدة والدي كانت قصيدة قوية مطلعها:

أبا الحُسينِ وَحَسْبُ المَرءِ ذِكرُكُما   أباً يَشُقُّ الذّرى وَابْناً أَبى الذّاما

قصيدة قوية نالت استحسان الحضور الذين كانوا يطالبون بإعادة الكثير من أبياتها.

وبعد القصيدة بدأت الأدعية، وإذا بهم في أحد الأدعية يرفعون نسخاً من القرآن الكريم على الرؤوس في منظر غريب بالنسبة لي لم أشاهده من قبل وبدأوا بالدعاء والتوسل والبكاء بالنحو المعروف لدى الشيعة عموماً وممن شارك وحضر في مثل هذه الأجواء الروحانية في ليالي القدر خصوصاً. أذكر أني جلست أستمع، يعني لم أضع القرآن على رأسي ولم أدر ماذا أقول، كنت جالساً إلى أن انتهى الاحتفال ونحن ضيوف شرف الاحتفال في صدر المجلس عند الشيخ الخالصي، الذي كان على الرغم من أنه أصغر من والدي بكثير ولكنه كان من أصدقائه القريبين وبينهما زيارات بين الحين والآخر.

بعد ليلة المدرسة الخالصية جرت دردشة بيني وبين والدي، كنا نتحدث عن تلك الليلة وكان يثني على كلمة أو خطبة الشيخ الخالصي وأنه كان متمكناً من الكلام وغير ذلك. وهنا سألته بأني انتبهت إلى أنه يذهب في كثير من الأحيان ربما مسافة ثلاثة أو أربعة أضعاف المسافة إلى المدرسة الخالصية ليصلي الجمعة خلف الشيخ الخالصي ولا يذهب إلى مسجد قريب من مساجد أهل السنّة قرب بيته في منطقة الصرّافية التي هي عند جسر الصرافية، فقال لي أنه لا يجد أنه يحصل على شيء من خطب الجمعة في هذه المساجد وذلك لأن علماء الشيعة طرحهم أعمق وأهم، وقال ما نصّه:

"لو كان الأمر مهماً عندي لتشيّعت ولأعلنت ذلك!" هذا كلامه بنصه.

كان هذا شيئًا يبعث على التساؤل والتفكر.

على أنه ينبغي القول بأن من الجوانب القوية جداً في شخصية والدي هي تلك النزعة العربية القومية، كما قلت، والتي تمتزج مع الشعور بالفخر والاعتداد بنسبه العلوي مما يجعله، حسبما أظن، لا يجد معنى لاتّباع غير هؤلاء الأجداد أصحاب المذهب المعتد به ويذهب إلى اتباع مذاهب أخرى ولاسيما تلك المذاهب التي أسّست من غير العرب من الفقهاء، (مع أن أهالي سامراء يتبعون المذهب الشافعي لمحمد بن إدريس الشافعي الذي ينتسب إلى هاشم ولا يتبعون المذهب الحنفي الذي هو المذهب الرسمي في العراق المنسوب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان الذي هو من أصل فارسي كما هو معروف).

مع عمّي الأصغر

في تلك السنة بدأت علاقتي أيضاً بعمي الأصغر تتوطد ولو بشكل أقل مما حصل بعد ذلك بسنة.

عمي هو عبد القادر ماهر (أصغر أشقاء والدي)، وكان قد تقاعد من آخر عمل له في الشرطة العراقية وهو مدير شرطة الأعظمية. الأمر الذي تميز به عن والدي وأعمامي الآخرين هو أنه دخل في الإلتزام الديني عن طريق التصوّف وذلك في إحدى المراحل التي كان فيها معاوناً لشرطة سامراء حيث تنقّل في أماكن مختلفة من العراق. وكما هو معروف من المتصوفين أنهم يقولون بأن طريقتهم تمتد من شيخ إلى آخر ومن المريد إلى الشيخ إلى شيخه حتى تصل إلى الإمام علي بن أبي طالب(ع)، وأنهم يميلون ميلاً واضحاً نحو أهل البيت وإن كان انتماء هذه الطرق الصوفية إلى المذاهب السنّية المختلفة. (وفي العراق هناك الطرق المختلفة الرفاعية والجيلانية، وفي سامراء التكايا الرفاعية بشكل خاص والتي يقومون فيها بمجالس الذكر المعروفة وحسب طرقهم.)

عمي هذا كان حلو المعشر جداً ومحببًا إلى النفس وسريع البديهة، ولكونه خدم عشرات السنين في سلك الشرطة فهو يعرف من الناس وعن الناس وعن المناطق وعن الأحداث ما لا يعرفه غيره في المهن الأخرى. وكان يتردد بين بغداد وسامراء حيث بستانه في قرية العباسية، المسماة على إسم عشيرتنا، شمال مدينة سامراء بحوالي 14 كم، ويحب الخلوات هناك، ولا ينقطع طبعاً كحال أهل سامراء عن زيارة الإمامين الهاديين العسكريين اللذين يشكّلان، ولاسيما الإمام الهادي(ع)، الشخصية التي تأتي بالنسبة إليهم بعد النبي(ص). بمعنى أنك لو تسأل شخصاً منهم فإنه يقول لك – عقلياً – أنه بعد النبي يوجد الخلفاء الراشدون الأربعة إلخ، ولكنه – نفسياً وعاطفياً – يجد نفسه متعلقاً بالإمام الهادي(ع) بعد النبي(ص) بشكل لا نظير له، فهو(ع) محور سامراء – المدينة والناس.

بهذا، كان في عمي هذه الصفات الثلاث: الجانب الصوفي الذي يميل إلى أهل البيت(ع)، والمشترك السامرائي الذي يميل إلى الإمام الهادي بالخصوص وإلى باقي الأئمة بشكل أقل، وشخصيته المرحة المنفتحة التي لها أثر جميل عند من يحضر عنده. هذه الصفات التي امتزجت في هذه الشخصية جعلتني أميل إلى ما يقوله والذي كان في أغلبه ينحى المنحى الصوفي في العلاقة باللّه والأفكار والأوراد وقصص الأولياء وبعض من شيوخه، ولاسيما الشيخ الأول وهو السيد يحيى الأعرجي من السادة الأعرجية في الموصل والذين هم فرع من السادة الأعرجية في النجف وفي الكاظمية، والسيد خضر السامرائي وكان شرطياً تحت إمرة عمي في معاونية شرطة سامراء ولكنه في التصوّف كان شيخه. هذا إضافة إلى القصص الأخرى عن كبار المتصوفين في سامراء سواء الذين كانوا من المعاصرين أو من أسلافهم.

وبعد أن دخلت في الخدمة العسكرية الإلزامية في عام 1977 ثم أُعفيت منها لأسباب صحية في ربيع عام 1978 وقرّرت أن أسافر إلى إنكلترا لإكمال الدراسة أو للعمل أو للإثنين جميعاً صادف أن كان عمي

قرر الذهاب للعلاج حيث شُخّص بمرض سرطان الرئة، الذي نتج – فيما يبدو – عن التدخين لمدة ثلاثين سنة، فصحبته إلى هناك وكنا في معظم المدة في فندق واحد فلا شك أن العلاقة صارت أقوى، نقضي ساعات سوية كل يوم في حديثه الشيّق عن قصص المتصوفة وعن الأفكار والأوراد، وبدأ يأمل في أن أكون أنا الذي أتبعه في ذلك وبدأ يعطيني أوراداً يومية لأقوم بها مع ملاحظات وإرشادات وغير ذلك.

في ذلك الوقت عندما كان يتحدث وكأي صوفي تجد أن الحديث يأتي إلى ذكر الإمام علي أو الإمام الحسن أو الإمام الحسين، أو بالنسبة إليه كسامرائي إلى الإمام الهادي، وأئمة العراق أو المدفونين في العراق الكاظم والجواد، وليس هناك من ذكر للصحابة الكبار الذين عُلّمنا ونُشّئنا ودُرّسنا على أنهم مقدّمون على عليّ وأولاده، حيث القناعة والإيمان في المذهب السنيّ أن أفضل الناس بعد رسول الله(ص) هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم يأتي علي رابعاً. كذلك فإنه ليس هناك من ذكرٍ لخلافة الإمام الحسن السبط(ع) وكأنها لم تكن حيث تعتبر الخلافة قد انتقلت من الخلافة الراشدة إلى الدولة الأموية وثم إلى الدولة العباسية وهكذا. وأما هؤلاء الأئمة، الذين نسمع عنهم في العراق بالتأكيد ويذهب إليهم الناس من سنّة وشيعة للنَّذر وطلب الحاجات، فهم أفراد كانوا على درجة عظمى من التقوى ومن القرب من الله تعالى وكفى، بمعنى ليس هناك إشارة أو ربط بينهم وبين مذهب فقهي. وحتى عندما يقال عن الشيعة أنهم أتباع المذهب الجعفري فإننا كنا نفهم أن المذهب الجعفري أسسه جعفر الصادق أسوةً برؤساء المذاهب الأخرى، مع فارق هو أن هذه المذاهب الأخرى تُتبّع ومذهب جعفر الصادق لا يُتّبع بالنسبة إلى أهل السنّة والجماعة.

هذا الأمر أصبح يزداد وضوحاً عندي في حديث عمي بين الكلام عن هذه المنازل العظيمة لأهل البيت وعدم ذكر الصحابة الكبار ولاسيما الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان وبين الحال المختلف بالنسبة إلى المذهب السنيّ الذي يتّبعه هو نفسه من تقديم هؤلاء الصحابة الكبار الثلاثة على أهل البيت وعدم اتّباع المذهب الجعفري الذي يُنسب إلى أحد عظماء أهل البيت.

بدأتُ أسأل عمي عن هذا وأنه كيف يكون ذلك وألحّ في السؤال وهل أن هناك تفسيراً لذلك على أساس أنه لا يمكن الجمع بين هذه المتناقضات، ألحُّ عليه في السؤال وهو يقول بأنه لا يتحدث في هذه المواضيع، وأزداد إلحاحاً وهو يجيبني بنفس الجواب.

وهكذا كان عمي رحمه اللّه تعالى لا يريد أن يفصح عن رأيه في قضية الخلافة وذلك من منطلق التزام لا أدري إن كان قطعه على نفسه مع اللّه تعالى أو مع شيخه من ذلك الطريق بأن لا يتكلم في هذه الأمور. ولكني لم أتركه إلى أن استطعت أن أنتزع منه رأيه الصريح.

ففي أحد الأيام ألححتُ عليه حيث قلتُ بأننا أمام مفترق طرق: إذا كان ما يقوله الشيعة صحيحاً فإن علياً هو المقدم بعد النبي(ص)، وإذا كان ما كان يقوله السنّة صحيحاً فإن الأمر على ما جرت عليه الخلافة بحسب الشائع عند أهل السنّة؟

أجاب: أنظر! سأقول لك رأيي بإختصار ولكن على أن لا تسألني بعد ذلك أبداً!

قلت له بلهفة: نعم، قُل رأيك؟

فقال لي ما نصّه: إبن أَخُوي نِهبُوهَه!

قلتُ له: ما هي؟ ما نهبوا؟!

قال لي: الخلافة، نهبوها من أمير المؤمنين!

طبعاً كان هذا قبل أن أقرأ كلمة أمير المؤمنين(ع) في نهج البلاغة في الخطبة الشهيرة بالشقشقية التي يقول فيها «**أرى تُراثِي نَهْباً**».

وجدت نفسي أسأله مباشرة: إننا هنا أمام مفترق طرق، لأننا إما أن نتولّى صاحب الحق الشرعي ونتخذ موقفاً من الذين نهبوا حقّه وإما أننا نستمر فيما نحن عليه فنتبّع من نهبوا الحق ونترك صاحب الحق على ترتيبه الرابع، فما تقول؟

قال: قلتُ لك بأن هذا جوابي ولن أكلمك في الموضوع مطلقاً.

قلتُ له: إذاً هناك سؤال لا بد من أن نفكّر فيه، وهو أنه إن كان علياً(ع) هو صاحب الحق في الخلافة وإن كان هو وأولاده كما أنت يا عمي ومن مثلك من أهل السنّة التفضيليين، وأيضاً من الشيعة، يقولون أن هؤلاء وصلوا الغاية في التقوى والعلم فعلى هذا يكون المذهب الذي عليه الشيعة والذي يُسمّى المذهب الجعفري هو المذهب الأحق بالاتباع من غيره؟

فأجابني بجواب لا يسمن ولا يغني، قال: نعم، هؤلاء هم المقدّمون على غيرهم، ولكن الشيعة لا يتّبعون أئمة أهل البيت بالشكل الصحيح.

قلتُ: إذاً هذا يعني أن هؤلاء الأئمة قد انتهوا وانتهى معهم علمهم لأن لا السنّة يتبعونهم ولا الشيعة يتبعونهم، فنكون نحن أمام حقيقة مُرّة وهي أن الأفراد الذين أخذوا العلم من رسول الله(ص) ووصلوا القمّة في العلم والتقوى باتفاق الفريقين إذا بهم ينتهون ومعهم علمهم إلى زوايا النسيان ولا يعود هناك من يتبعهم، أي ما من أحد يتبع إسلامهم الأكثر صحة!

بقي هذا سؤالاً مفتوحاً بيني وبينه، ولكن هذا السؤال لم يستمر طويلاً حتى بدأت الإجابات عليه تأتي بشكل تدريجي عندما بدأتُ أطلع وأبحث في ما كتبه الشيعة لإثبات رجوع مذهبهم إلى الأئمة(ع).

أخلص إلى القول في هذا الفصل بأن فترة السنتين هذه كانت فترة بداية التحوّل ليس في المعرفة بقدر ما في الإهتمام بهذا الأمر الذي ليس هناك ما هو أهم منه، ويعود الفضل في ذلك إلى اللّه تعالى طبعاً، ولكن من الأسباب هذه الإشارات من والدي ولكن بدرجة أكبر إلى عمي رحمه اللّه تعالى.

الفصل الثالث

على شاطئ الحقيقة

مع والد زوجتي

رحلة مشتركة مع صديق

مغادرة العراق إلى الكويت

"كنت في وضع ... "لا شيش ولا كباب"! ولكن كان هناك توافق بين القراءات وبين ما يجري على الأرض وبين الجوانب الأصيلة في نفسي من بغض التسلط والرغبة في العدل"

(المؤلف)

في المدة ما بين الأعوام 1979 و1983 إطّلعت فيها على ما يقوله الشيعة عن أنفسهم، وذلك بأكثر من طريق، طريق قراءة الكتب وطريق الممارسة وأيضاً طريق التطبيق في جانب الثورة على الظلم، في فترة من الفترات المهمة جداً في تاريخ العراق والمنطقة بل والعالم. وإني على الرغم من أني تركت العراق عام 1982 فإني أحسب السنة ما بين 82 و83 جزءاً من هذه الفترة لأن الاطلاع استمر وتضمن تحديات أكبر بعد تركي العراق وذهابي إلى الكويت وعملي هناك.

لم يكن عندنا في بيتنا ببغداد كتب في هذا الصدد اللهم إلا كتاب ربما عن ثورة الإمام الحسين أو بعض الكتب التي فيها من الأشعار في هذا الجانب، ولكني عندما دخلت في مكتبة المرحوم عبد الرزاق الهلالي وجدت فيها كتباً متنوعة منها كتب مهمة كتبها علماء ومؤلفون شيعة تتصل بموضوعنا ههنا.

مع والد زوجتي

والمرحوم عبد الرزاق عبد المجيد الهلالي هو والد زوجتي، من الأدباء المعروفين في العراق، وُلد ونشأ في البصرة ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد وعمل في وظائف مختلفة منها في التشريفات الملكية في البلاط الملكي من نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات فترة سبع سنوات، وبعد ذلك عمل في المصرف الزراعي وغير ذلك، مما أعطاه الفرصة للاطلاع على الواقع السياسي من جهة والواقع الزراعي وواقع المشاكل الاجتماعية الأخرى فكتب مؤلفات مهمة كان بعضها ولا يزال المرجع الوحيد لطلبة الجامعات أو للدراسات العليا أو البحوث، ونخص بالذكر كتاب "التعليم في عهد الإنتداب البريطاني" و"التعليم في العهد العثماني" وبحوث أخرى عن مشكلة الأرض والفلاح، وبحوث أدبية كالبحث الذي قدمه في مهرجان إبن زيدون في المغرب. واستمر هذا الرجل بالعطاء الفكري حتى وفاته عام 1985.

كان مما ساعد في مجال بحثي عن الحقيقة هو أن هذا الرجل، الذي أفضل وصف له بأنه كان رجلاً فاضلاً بكل ما تعنيه الكلمة، كان هادئاً في طرحه عندما كنت أستعير منه الكتب وأقرأها ثم أعود وأطرح ملاحظات، ربما كانت ملاحظات تثير الضحك، ملاحظات شاب لا يعرف كثيراً عن ذلك المذهب أو عن الفقه أو غير ذلك ويطرح ملاحظات على مؤلفات لأناس هم في القمّة من الفقاهة أو العلم أو المعرفة في مختلف

العصور – كالمحقق الحلّي مثلاً – ولكنه كان يتقبّلها برحابة صدر بل ويبدي تأييداً عندما أطرح إشكالاً هنا أو إشكالاً هناك. وحتى في الكتب التي كنت أقرأها أو أستعيرها منه كان أحياناً يقترح عليّ بعضها وأحياناً أخرى يتركني وما أختار. هذا التعامل هو التعامل الذي ينبغي لرجل العلم ولمن يعرف بأن هذه الأمور وغيرها لا تأتي إلا بالبحث والمشاهدة والاقتناع، فترك إقامة الحجة على أولئك المؤلفين الكبار ولم يدخل في هذه المعمعة إلا في بعض الأحيان حينما كنا نجلس سوية لبحثه بشكل بسيط.

إشارة سريعة إلى القراءات التي استفدتها من مكتبته والتي أتذكرها الآن من أهمها كتب العامليين كتب "السيد عبد الحسين شرف الدين" و"السيد محسن الأمين العاملي" و"السيد هاشم معروف الحسني"، كتب من أمثال "المراجعات" أو "النص والاجتهاد" أو "نقض الوشيعة" أو كتب الشيخ مغنية مثل "الشيعة في الميزان". أيضاً كتب مؤلفين عراقيين كالمؤلفين من آل المظفر أو آل ياسين أو آل الصدر في تبيان حقيقة التشيّع وحقيقة الشيعة وهو تبيان يُفتَقَد في كتب المذاهب السنيّة وذلك لأن المذهب الشيعي يشعر دائماً بأنه مهاجم مفترى عليه من جانب، ومن جانب آخر يشعر بالواجب لتعريف الناس بدور أهل البيت(ع)، أو لِنقُل هو استجابة لأمرهم عندما قالوا(ع): ((**رَحِمَ اللهُ عَبداً أَحيا أمرَنا**)) (الكافي ج2 ص175)، وفي رواية سُئل الرضا(ع): "وكيفَ يُحيي أمرَكُم" قال: ((**يَتَعَلَّمُ عُلومَنا ويُعلِّمُها الناس، فإنَّ الناسَ لو عَلِموا مَحاسِنَ كلامِنا لاتَّبعُونا**)) (عيون أخبار الرضا ج2 ص275)؛ وفي رواية عن الصادق(ع) أجاب: ((**بالتَّذاكُرِ لَه – أي الأمر –**)) (مناقب أمير المؤمنين(ع) للكوفي ج2 رواية 770)، وفي رواية أخرى عنه(ع): ((**تَذكُرُونَهُ عندَ أهلِ العِلْمِ والدِّين واللُّبّ**)) (مستدرك الوسائل للنوري ج8 رواية 9565)؛ وفي جواب آخر للباقر(ع): ((**أنْ تُذاكِرَ به أهلَ الدِّينِ وأهلَ الوَرَع**)) (الفصول المهمة للحر العاملي ج1 رواية 667)؛ وفي رواية عن الصادق(ع): ((**يتألَّفُوا في البُيوتِ ويتَذاكَروا عِلْمَ الدِّين، فَفِي ذلكَ حَياةُ أمرِنا، رَحِمَ اللهُ مَنْ أحيا أمرَنا**)) (بحار الأنوار ج78 ص219).

ومما أحب أن أشير إليه هو أن ذلك الجو العائلي غير الطائفي الذي نشأتُ فيه وتلك المحلّة والمنطقة المتنوعة المنفتحة، التي أشرتُ إليها باختصار في فصل سابق، كانت إحدى الأسباب وراء السهولة النسبية لتقبّل ما كنت أقرأ. ذلك أنني وجدت بعد ذلك بسنوات أن هناك جدراناً من الرفض عند الكثير من الناس بحيث يصعب عليهم تقبّل ما يُقام الدليل عليه بشكل واضح، وهو أمر سأبحثه في كتاب "ما بعد العودة" عندما أحاول أن أسلّط الضوء للقارئ على ضرورة البحث في داخل النفس عن أسباب الرفض أو أسباب القبول عندما يتّضح أن الفكر والعقل يؤيدان ولكن النفس ترفض. ولكني ولله الحمد كنت أتقبّل ما يُقام عليه الدليل وأبحث فيه فيما هو موجود من تفسير للقرآن أو للأحاديث الشريفة، ولكنه بالتأكيد يزيد من نهمي في محاولة معرفة المزيد من أجل تفسير هذه المفارقات التي مرّت على المسلمين في مذاهبهم وفي مجتمعهم وفي دولهم وما وصلنا إليه من أفكار ولاسيما في موضوع قبول الأمر الواقع في السابق وفي اللاحق. وهذه

تقودني إلى أن أذكر أن الوضع في العراق ساهم في تقوية الإيمان بما يقوله الشيعة في جوانب العدل والظلم الذي تميّز به خط أمير المؤمنين وأولاده(ع) في قبالة الخط الآخر الذي كان يعتمد المصالح إلى جانب المبادئ، لأننا لا نريد أن نحكم كم كان للمبادئ من وزن في قبالة المصالح.

رحلة مشتركة مع صديق

في تلك الأثناء لعلّه ساعد على البحث أن أحد أصدقائي الأعزاء بدأ هو الآخر يشتد التزامه الديني وهو الآخر يقرأ ما يقوله الشيعة، ومن حسن الحظ أن هذا الصديق العزيز كان من أنقياء القلب، بل ربما لم أصادف مثله في نقاء القلب ونقاء السريرة إلا القليل جداً من غيره من أمثاله ممن هم حقاً نعمة من نعم الله الكبرى في حياة الإنسان.

صديقي اسمه بنان ناجي الزهاوي، والده المرحوم الدكتور ناجي عبد القادر الزهاوي عميد كلية الهندسة جامعة بغداد لمدة 11 سنة، وفي أثناء دراستنا في تلك الكلية بعد ذلك كان يأتي لإعطاء بعض الدروس لطلبة الدراسات العليا ويعمل في مكتبه الهندسي في بغداد، وصديقي هذا كان معي في الدراسة المتوسطة والثانوية وصرنا نلتقي بشكل أكثر ونتناقش فيما نقرأ ونلقي الإشكالات ونحاول الإجابة عليها، وكنا نجد نفسينا يداً بيد تتجه نحو قبول هذا الطرح من دنيا التشيّع. ولعله من قبيل التوافق الفكري أنني تركت العراق وصارت الاتصالات بيننا شبه معدومة ثم عادت في منتصف التسعينات ، بعد أن غادر العراق هو الآخر، وكلّ منا في مكانه شيئاً فشيئاً أخذ بالتشيّع حتى أخذه بشكل كامل تام والحمد للّه رب العالمين.

تزامنت القراءات والاطلاع على الفكر والفقه، وإن كان بدرجة أقل، والتاريخ الإسلامي من وجهة النظر الشيعية مع الأحداث السياسية الكبيرة التي كانت تجري في إيران وآثارها على العراق والمنطقة والعالم. فكنت أنتظر ما يؤول إليه الأمر بعد الاطلاع اليومي على شعارات ومظاهرات المعارضة الإيرانية التي كانت تنطلق في لندن في السنة 1978 عندما كنت هناك أي في الأشهر القليلة قبل انتصار الثورة في إيران، وعندما عدت إلى العراق كنت منهمكاً في العمل ولكن كان هذا الاطلاع المستمر والقراءات تتزامن مع ثورة يقودها عالِم شيعي في بلد شيعي تطرح الشعار الإسلامي وهدف الثورة هو إقامة العدل والتخلّص من الظلم. هذا بالمقارنة مع الواقع الإسلامي في البلدان الأخرى ولاسيما في العراق الذي يقوده حزب علماني يتجرع المواطنون مرارات ظلمه كل يوم وكل ساعة شكّل هو الآخر جانباً دافعاً باتجاه المذهب الذي يجد طريقه إلى التطبيق على مستويات أكبر وأوسع من المذاهب الأخرى التي تنادي ليل نهار وتأمر مواطنيها بطاعة الحاكم كائناً من كان وعلى طريقة الحديث الذي يُتلى وهو "أطعِ الأميرَ وإنْ جَلَدَ ظَهركَ وأخَذَ مالَك".

بغض النظر عن رأي الآخرين في الثورة الإسلامية في إيران فإن الذي حصل في وقتها هو انبهار بتلك الثورة في مفرداتها الجهادية والاستشهادية وفي قيادتها العلمائية التي لم تتنازل مطلقاً، وهو أمر كان ولا يزال

متوافقاً مع ما أراه صحيحًا. في تلك المرحلة كان حب تلك الثورة والرغبة في انتصارها والدعاء لها في الوقت الذي كنت لا أزال أقوم بالعبادات على الطريقة السنيّة الحنفية التي تعلمتها من أمي ومن المدرسة. بل وفي الوقت الذي كنت مقتنعاً بالكثير من الطروحات الشيعية مما قرأت لو أن شخصاً ما سألني هل أنت سنيّ كنت سأجد صعوبة بأن أجيب بنعم، ولو سألني هل أنت شيعي كنت سأجد صعوبة أيضاً بأن أقول نعم، يعني كنت في وضع ربما كما يقول العراقيون "لا شيش ولا كباب"! ولكن كان هناك توافق بين القراءات وبين ما يجري على الأرض وبين الجوانب الأصيلة في نفسي من بغض التسلط والرغبة في العدل والنظرة السلبية بشكل كامل للحكم في العراق.

مغادرة العراق إلى الكويت

بعد تأجيل لما يزيد عن السنة قررتُ ترك العراق عندما أصبح الوضع صعب التقبل بالنسبة لشخص مثلي بهذه المواصفات (كان هناك إلحاح من بعض الأهل على المغادرة، على أساس الذهاب للعمل ولكن يبدو أن الخشية كانت من بقائي في العراق في تلك الظروف وهم يرون أفكاري واتجاهي). فإنه بعد سنة ونصف من اندلاع الحرب مع إيران والمظالم التي كانت قد بدأت قبلها واستمرت في تسفير مئات الألوف من العراقيين على أساس كونهم من أصول إيرانية ومن الإعدامات المستمرة ومن الخوف المطبق على أنفاس جميع العراقيين، مع شخص مثلي لا يستطيع أن يقول كلمة مجاملة لهؤلاء وعيونهم المبثوثة في كل مكان، كان سيكون من الصعب جداً إن لم يكن من المستحيل أن شخصاً مثلي سيبقى على قيد الحياة، لولا الأجل المكتوب. لذا تركت العراق في عام 1982 للعمل في الكويت.

وأذكر أن الطائرة كانت عن طريق عمّان لمدة أقل من 24 ساعة ثم إلى الكويت، وأني في عمّان ذهبتُ إلى كشك يبيع الصحف والمجلات ويبيع بعض الكتب وحالما وقعت عيني على كتابي "فلسفتنا" و"اقتصادنا" للشهيد محمد باقر الصدر اشتريتهما، ومعهما كتاب ثالث وهو "حرب أكتوبر" للواء سعد الدين الشاذلي هذا القائد العسكري المصري المعروف، ذلك لأني لم أجد أثراً لكتب الشهيد الصدر في مكتبة عبد الرزاق الهلالي حيث على ما أظن الآن كان قد تخلص منها لأنها كانت تعني أشد العقوبات التي تصل إلى الإعدام في ذلك الوقت. وحالما وصلت الكويت بدأت أقرأ فيها وكنت كلما أقرأ مزيداً من الصفحات في هذين الكتابين كان يزداد حنقي وغيظي على من قتل هذا المفكر العملاق، وهذا ربما زاد من الانحياز النفسي إلى جانب هؤلاء الشيعة الذين يثرون الدنيا بالفكر ويخرجون إلى المواجهة مع أعتى الظالمين، مما كان متوافقاً، وكما قلت عدة مرات، مع النزعات التي في داخلي ومع الأفكار التي أحملها وأفهمها عن الإسلام كونه دين العدل والعزة ورفض الظلم.

في الكويت كان هناك المجال الأرحب للقراءات الكثيرة الأخرى، ولإعادة قراءة بعض الكتب التي قرأتها في العراق حيث كان الجوّ جوًّا آمناً وكان هناك الحرية المفقودة في العراق، وإن كانت قد تأزّمت الأوضاع بعدها إثر تفجيرات مشبوهة في الكويت وبعد اشتداد الحرب بين العراق وإيران، وهو أمر لم يكن مستغرباً أن يلقي بظلاله على الساحة الكويتية لأن الذي وجدته في المجتمع الكويتي، وهو ما لم يكن في المجتمع العراقي، هو الجوّ الطائفي الواضح عند الطائفتين دون استثناء.

ذلك أن النظرة التي يجدها الذي يعيش هذه الأمور عن قرب هناك سواء في المساجد أو في بعض ما يطرح في بعض المجلات هو رفض كامل من كل طائفة لأفكار الطائفة الأخرى ومجانبة واضحة حتى على الصعيد الشخصي عند الكثيرين بل الأكثرين، وليس هناك من تزاوج أي زواج بين الطائفتين كما هو في العراق بشكل موجود في كل مكان وانتشار التكفير تكفير أتباع كل مذهب لأتباع المذهب الآخر بشكل واضح. وقد ساهمت الحرب العراقية الإيرانية في تعميق الفجوة بين الطائفتين وهذا مما أدخل عوامل التشكيك في إخلاص المواطنين إلى هذه الجهة أو تلك وتسفير بعض العلماء الشيعة وحتى المراقبة الشديدة لمساجدهم كما في مسجد النقي في منطقة الدسمة الذي كنت أصلي فيه الجمعة حيث هو نقطة المراقبة الأولى كونه يعتبر المسجد الأول للشيعة هناك. وإن كنا نصلي أكثر أيضاً في أماكن أقرب إلى السكن كما في منطقة العُمَرية وميدان حَوَلّي وغيرها.

خلاصة القول أن هذه الفترة كانت فترة اطّلاع على عالم جديد، عالم يعرض نفسه بحجج قوية مستندة إلى الكتاب والسنّة وإلى التفسير والتحليل الواضح والمنطقي لما جرى في التاريخ وبأسلوب يبتعد عن أسلوب الخطابة وبأسلوب فيه الكثير من الندى الأدبي والشعري والعاطفة، وهو ما يجعله متكاملاً في جوانبه الفكرية والعقلية، فإذا جمعته مع ما كان يجري على الأرض من ثورة كبيرة تعلن عن الرغبة في تطبيق هذه الأفكار وليس بقاءها في الكتب فإني وجدتُ نفسي فعلاً كأني أبحر باتجاه شاطئ الحقيقة، أو باتجاه ما يدعيه ويثبته بشكل واضح هؤلاء الناس بأن ما عندهم هو الحقيقة وهو الطريق الأصح إلى الكتاب والسنّة.

بقيت نقطة هامة في هذا المجال وهي أن الكثير من الكتب التي قرأتها كالمراجعات أو النص والإجتهاد أو في الكتب الأخرى كانت تتميز بلغة ونَفَس أخويّ يمدّ اليد إلى جهة أخرى تبدو معارضة على الرغم من أنها هي الجهة المسيطرة التي لا يفترض أن تشعر بالتهديد، فكان هذا الموقف الفكري الذي يتخلّق بأخلاق أدب الحوار والبحث العلمي الأكاديمي الواضح والذي لا يستعمل أساليب اللف والدوران والذي يفضح المفتريات التي سمعنا بعضها ونحن في عمر التنشئة أو ما سمعناه وكانت تضج به وسائل الإعلام الظالمة كان هذا كله له أثر في أن يكون دافعاً شخصياً لي بأن أنحاز إلى هذه الجهة التي تنتهج هذا النهج الصحيح الكريم المباشر الصادق مع جوهر الموضوع وهي هذه الحجج التي تطرحها.

الفصل الرابع

العودة عملياً

صديق جديد

التحوّل العبادي

مجمل التغير في النظرة إلى الشيعة والتشيع

دخول نواح جديدة

محاولة تقديم شيء ما

"بدأت رحلة العودة إلى الأصل، وأقول بدأت لأنها مستمرة طولاً وعرضاً حيث أن مثل هذا الأمر من السعة ومن الأهمية ومن العمق ... ما لا يمكن أن يُقال ... بأن هذا شيء يمكن أن ينتهي وإنما هي رحلة تصاعدية بإذن الله."

(المؤلف)

هذا الفصل يخص بداية الانتماء فيما يخص العبادات والانتماء إلى الجماعة مما أستطيع أن أضعه خلال العام 1983. ففي ذلك العام كنتُ قد تعرّفت على بعض الأخوة الجدد هناك من عراقيين وغيرهم وذلك في نهاية سنة 1982 ولا شك أن الكلام حول العراق وحول القضايا الإسلامية يدور ويمس هذه المواضيع، والذي ساهم جوّ الكويت في الأمان المتوفر وعدم وجود الخوف المطبق على الأنفاس في العراق من جهة، أيضاً الخروج من بيت العائلة في بغداد والتي أحد أبعادها البعد المذهبي والذي لم يكن طافياً على السطح بشكل واضح كما كان الواقع السياسي فيما يخص الحرب العراقية الإيرانية في النقاشات اليومية التي تدور في بيتنا حيث استبدلنا النقاش المحتدّ اليومي بخصوص فلسطين بإيران والثورة الإيرانية والحرب العراقية الإيرانية. إذاً كان هذا الجوّ ملائماً لبداية الانتماء إلى الجماعة الموالية لأهل البيت وذلك في إطار الإسلام وفي إطار العلاقات الأخرى العائلية التي ربما تتأثر من قريب بقليل أو كثير.

إلى ذلك الوقت كنتُ لا أزال أقوم بالعبادات على الطريقة السنيّة، وبشكل أخص فيما يخص الوضوء والصلاة على أساس أنهما من العبادات اليومية، وبدرجة أقل فيما يخص الصيام وهو قضية تتجدد سنوياً. أما الأفكار التي لها علاقة بالعقائد فكنت في ذلك الوقت قد قطعت شوطاً كبيراً في الأخذ بمذهب أهل البيت(ع) بحيث كنتُ في ذلك الحين متفقاً مع الشيعة فيما يعتقدون ويقولون، ربما فيما عدا بعض الأمور التي لم تكن قد ترسّخت والتي لي عليها ملاحظات أو تساؤلات إما بسبب ضعف الأساس العلمي لها أو بسبب ارتباطها بأمور إجتماعية لا علاقة لها بالمذهب كما أُسّس على يد الأئمة(ع)، وهو في حقيقته وكما صرت أعتقد منذ ذلك الحين أنه هو الإسلام الذي نزل على رسول اللّه(ص) في أصوله وفروعه ولكن صار يُنظر إليه كمذهب أو طائفة تأخذ به طائفة في قبالة المذاهب التي تأخذ بها الطائفة الكبيرة في العالم الإسلامي.

صديق جديد

من الأصدقاء الذين لهم علاقة بهذا الموضوع ما ينبغي ذكره هم: الأخ العزيز "خضيّر فاضل عباس" وهو عراقي من البصرة وخرّيج اللغة العربية من جامعة البصرة، كان في الكويت يعمل في جريدة

القبس الكويتية، وكان لسكننا في محلّتين متقاربتين في الكويت – حيث كنتُ في محلّة الفروانية وكان هو في محلة خيطان المقابلة لها على الطرف الآخر من الطريق السريع – فقد كنّا نتزاور لعدة مرات في الأسبوع، ووجدنا كعائلة أنا وزوجتي مع هذا الأخ وزوجته ومن ثم الأولاد راحة مع بعضنا وانفتاحاً ومحبة كبيرة اشتدت بشكل سريع، ويمكن أن أقول أنه أحد أولئك الأخوة القلّة الذين وجدت فيهم ذلك النقاء في القلب والصفاء في النفس والبساطة في العلاقة الذي افتقدته مع الأخ الذي ذكرته سابقاً.

أذكر أني أول مرة دخلت فيها مسجداً للشيعة في الكويت كان مع الأخ خضيّر في مسجد الإمام الحسين(ع) في منطقة ميدان حَوَلّي، وأذكر إلى الآن أني كنتُ أصلّي متكتّف اليدين وعلى الطريقة السنيّة الحنفية ولم أتناول تربة من صندوق الترب لأسجد عليها، صلّينا سوية جماعة أنا وهذا الأخ العزيز وخرجنا.

وأذكر أني كنت لا أزال على هذه الحال حتى أخذت رأي العلاّمة المرحوم السيد "أمير محمد الكاظمي القزويني"، وكان علاّمة البصرة والكويت، في هذا الموضوع حيث كنت أرى أن هذا يشكّل ربما علامة فصل بيني وبين من يمكن أن أتكلم معه في هذا الموضوع في نطاق مكان العمل أو غيره، فالسيد رحمة اللّه عليه قال لي بأن هناك من السنة وهم أتباع الإمام مالك من يصلّون مُسبلي اليدين، وهذا هو فعلاً الذي نجده في معظم أتباع المذهب المالكي في شمال إفريقيا وفي جنوب شرق آسيا، وقال لي بأن من الضروري أن تكون الصلاة وفق مذهب أهل البيت(ع).

وبعد ذلك أذكر جملة من الأخ العزيز خضيّر عباس قال لي: "خذ راحتك، من الآن فصاعداً أنت صلِّ كما ينبغي أن يصلي من يتبع مذهب البيت(ع)".

كانت تلك هي نقطة التحوّل في هذه المسألة اليومية التي لو يُنظر إليها بشكل بسيط يجد أنها ليس فيها الكثير من الفروقات إلا في الشكل، ولكن في حقيقة الأمر هناك بالإضافة إلى الإختلافات الفقهية في تفاصيل الأركان (حيث أن الأركان هي نفسها الأركان السبعة في الصلاة عند الفريقين وللّه الحمد) ولكن القضية في عمقها هي قضية عبور حاجز آخر وهو حاجز بدأ يخرج عن نطاق الفكر والنظر العقلي في الأمور إلى تطبيقات ذلك على أهم أمر وهو العبادات بل وعلى الشكل الأهم من ذلك وهو في الصلاة التي هي عمود الدين.

وهكذا أستطيع أن أقول أنه بدأت رحلة العودة إلى الأصل، وأقول بدأت لأنها مستمرة طولاً وعرضاً حيث أن مثل هذا الأمر من السعة ومن الأهمية ومن العمق وما يحوي من التفاصيل الكثيرة ما لا يمكن أن يُقال – بالنسبة لي على الأقل – بأن هذا شيء يمكن أن ينتهي وإنما هي رحلة تصاعدية بإذن اللّه تعالى، ينفتح فيها المرء على جوانب جديدة وعلى تفاصيل جديدة وحتى على رؤى جديدة، خصوصاً عندما يواجه تحديات فكرية جديدة.

التحوّل العبادي

التحوّل في العبادات يمكن أن نضعه في نقاط وأذكره بشكل سريع كالآتي:

أولاً: التقليد، أي تقليد مرجع شيعي في أمور العبادات والمعاملات، وهو أمر غير موجود عند المذاهب السنيّة فيما يخص العلماء الموجودين المعاصرين على أساس أن التقليد هو لمؤسسي المذاهب الذين سُدّ معهم باب الإجتهاد. بمعنى أن الحنفي يقلّد أبا حنيفة، وإنما يرجع إلى العالم من علماء المذهب الحنفي فيما يتوقف عنده من مشاكل في المعاملات أو فيما يريد التوضيح فيه من العبادات وفقاً لما قد انتُهي منه في زمن أبي حنيفة، وهكذا فيما يخص المذاهب الأخرى. أما هنا فقد وجدتُ نفسي أمام أمر لا مناص منه حيث تسالم الشيعة الإثني عشرية جميعاً على وجوب تقليد مجتهد جامع للشرائط أصبح الكثيرون يرجعون إليه فصار مرجعاً للتقليد. وهذان المصطلحان، المرجعية والتقليد، هما مصطلحان جاءا من نصوص عن أئمة أهل البيت(ع)، وبالتحديد النص الذي ورد عن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري(ع): ‹‹**فأمّا مَنْ كانَ مِنَ الفُقَهاء صائِناً لنَفسِه، حافِظاً لدِينِه، مُخالِفاً لَهواه (روي أيضاً: مخالفاً على هواه)، مُطيعاً لأمرِ مَولاهُ فلِلعَوامِ أنْ يُقَلِّدُوه**›› (الوسائل ج27 ص131)، وفي رواية (تفسير العسكري(ع) ص300): ‹‹... **مُخالفاً لِهواه**››، والحديث عن الإمام الثاني عشر الإمام المهدي(ع): ‹‹**وأمّا الحَوادِثُ الواقِعة فارجِعوا فِيها إلى رُواةِ أحادِيثِنا فإنّهُم حُجَّتِي عَلَيكُم وأنا حُجَّةُ الله**›› (الوسائل ج27 ص140)، وفي رواية (كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق ص483) ففي آخرها ‹‹... **وأنا حُجَّةُ اللهِ عَلَيهم**››. هذا الأمر ربما من أهم الأمور التي تجعل الصلة بمذهب أهل البيت مسألة مفروغاً منها بمعنى أن الارتباط مع مرجع معين ينهي العلاقة المذهبية السابقة والتي كانت على كل الأحوال بطبيعتها علاقة مع مرجع قديم مات منذ قرون متطاولة فتكون أقل أثراً فيما يخص ذلك القيد على الإنسان.

ثانيًا: الصلاة وقد ذكرنا أن الصلاة أصبحت تأخذ شكلها بحسب مذهب أهل البيت(ع)، وذلك بتفاصيل الأركان، وأيضاً في ذلك الأمر الهام الآخر وهو أوقات الصلاة حيث هناك فرق في مواقيت بدء صلاة العصر وصلاة العشاء وأيضاً صلاة المغرب مما له الأثر على الترقب والقيام بهذه الفريضة ذات الأهمية القصوى والتي هي مسألة يومية لا بد من القيام بها.

ثالثاً: الصيام، وهذا بالإضافة إلى بعض الأحكام المختلفة، وهي ليست كثيرة، هناك مسألة تُرسِّخ الانتماء إلى الطائفة وهي مسألة رؤية الهلال وإعلان شهر رمضان أو شوال أو ذي الحجة بالخصوص، حيث أن المسلمين السنّة في البلدان الإسلامية وبالتأكيد في العراق حيث نشأتُ وكبرتُ يتّبعون الدولة فيما تعلن عنه من ثبوت الرؤية أم عدم ثبوتها، وذلك وفقاً للهيئات الدينية الحكومية التابعة لوزارات الأوقاف أو أي هيئة شرعية هي المعتمدة في هذا المجال. أما فيما يخص المسلمين الشيعة فهم ينتظرون الإعلان من مرجع تقليدهم،

وهو أمر يؤدي أحياناً كثيرة إلى أنهم هم أنفسهم لا يبدأون الشهر الجديد سوية. هذه النقطة رؤية الهلال صارت بالنسبة لي أمراً جديداً يُنتظر ولا يُحسم إلا في ليلة الشهر ربما في وقت متأخر بعد أن كانت مسألة غير موجودة أصلاً لأنها مسألة متروكة للإعلام الرسمي الذي يعلن عنها من خلال الهيئات الشرعية الرسمية. الأهم في ذلك هو الارتباط وزيادة الارتباط بالمرجعية واشتداد البعد عن الهيئة الرسمية أو عن الدولة أو على السلطة، وهو أمر لم يكن ليزعجني بعد أن بيّنت في فصول متقدمة من الكتاب بأني لم أكن أثق بالجهات الرسمية ولم أكن معجباً بحالها على أقل تقدير، ولكنه أمر يؤدّي إلى بعض التساؤلات أو المفارقات أو الحرج حتى أحياناً لشخص مثلي ذي علاقات متنوعة مذهبياً ولاسيما إذا كان المتوقع مني أن أكون متمذهباً بالمذهب السنّي.

كما وجدت من خلال تجربتي فإنه على الرغم بأني لم أجد تلك الصعوبة في نفسي للانخلاع من جملة من الأفكار في إطار معين والأخذ بجملة أخرى من الأفكار في إطار آخر إلا أن هذا الانخلاع النفسي يبقى تدريجياً يستغرق فترة غير قليلة من الزمن، ثم يجد الإنسان نفسه وقد صار مؤمناً بأمور لم يكن يؤمن بها، ويكتشف أنه قد جرى تغيير كبير جوهري في جملة من أفكاره ولاسيما التي تتعلّق بالطائفة الأخرى.

مجمل التغير في النظرة إلى الشيعة والتشيع

من ذلك:

أني بعد أن كنت أرى أن الشيعة طائفة لها طقوس غير مقبولة صرت أعتقد أنها هي الطائفة المحقة التي تتبع الطريق الأصوب نحو إصابة تفسير الكتاب العزيز والسنّة الشريفة وما الطقوس إلا شيء جانبي في حقيقة التشيّع (وسأتناول في كتاب "ما بعد العودة" مدى نجاح أو فشل الطائفة الشيعية في التعبير عمّا عندها).

وبعد أن كنتُ أعتقد أن الخلافة الصحيحة هي حسب ما جرى في التاريخ من تقدّم ثلاثة من الصحابة البارزين على أمير المؤمنين(ع) ومن ثم بإمكانية أن تصبح وراثة تؤخذ بالغلبة والقوة كما حصل فعلاً، صرتُ أرى أنها أمر ليس له علاقة بذلك التاريخ وإنما هي إمامة ونص من اللّه ورسوله(ص).

وبعد أن كنت أرى وأعتقد أن الشيعة شيء له علاقة بإيران، صرتُ أرى أنهم عراقيون – فيما يخص شيعة العراق – لهم نفس مذهب إيران ليس إلا.

وعندما كنت أرى أن هؤلاء الشيعة يكرهون ويحبون لأسباب غير واضحة لي، أصبحت أعرف أنهم إنما يفعلون ذلك على أساس الموقف من أهل البيت(ع) ومن الشريعة.

وبعد أن كان لدي أفكار غير واضحة مفادها أن هؤلاء الشيعة يحبون ويقدمون علياً(ع) على النبي(ص)، صرتُ أرى بوضوح أنهم على العكس من ذلك لا يخدشون صورة النبي(ص) كما يفعل غيرهم.

وبعد أن كنت أرى أنهم يبكون على رجل مات قبل أربعة عشر قرناً، صرت أعرف أن الأمر أعمق من ذلك وأن له امتدادات في النفس وفي ترسيخ العقيدة وفي ترسيخ التعامل مع الظلم بأشكاله المختلفة.

وبعد أن كان عندي بعض الحساسية من كلمة هنا أو كلمة هناك أو بعض الممارسات، أصبحت أتفهم كيف يمكن أن تأتي هذه الممارسات أو هذه الكلمات حتى وإن كنت لا أوافق عليها لأني لا أراها مستمدّة من سيرة النبي(ص) والأئمة الأطهار(ع).

بالجملة فإني لا أتذكر أنه كان هناك يوم شعرت فيه فجأة بأني صرت منتمياً إلى هذا المذهب وهذه الطائفة، وإنما الأمر حصل شيئاً فشيئاً وبعد مكابدة ومجاهدة ودراسة وبحث كما أشرتُ هنا وما سبق من الفصل إلى مراحله.

دخول نواح جديدة

الإنتماء إلى هذه الطائفة من خلال هذا المذهب الشريف الذي أخذتُ به أدخل نواحي جديدة في الحياة فيما عدا القضايا العبادية. من ذلك ما يخص العلاقات وما يخص بدء الإحساس بما يجري على أفراد هذه الطائفة من ملاحقة أو تنكيل أو تمييز ما كنتُ أشعر به ولا أعرفه عندما كنتُ في الطائفة الأخرى. فبعد أن كان خبر يخص اعتقال شخص أو إعدام شخص أو هرب شخص لا يأتي إلا بين الحين والآخر أصبحت أسمع عن مئات من المصائب النازلة للناس ولاسيما في العراق من سجن وإعدام وملاحقة وهرب والذي يصل إلى الهرب على الأقدام إلى خارج العراق، وهو أمر عرفته فيما حصل مع والدي عندما هرب إلى سوريا عام 1959 وحكم عليه بعد ذلك بالإعدام غيابياً وبعدها بسنتين عندما تم تهريب أخي الكبير إليه إلى سوريا مشياً على الأقدام، في حالات فردية هنا وهناك. ولكن عندما صرت في وسط الطائفة الشيعية وإذا بهذه المسألة لا تكاد تجد شخصاً من شيعة العراق إلا وله فيها قصة معه أو مع أهله أو أصدقائه أو أقربائه، وهو أمر جعلها مصداق لما تدّعيه من اتباع أولئك الصفوة من أهل البيت(ع) وغيرهم من أبطال أهل البيت في التاريخ الذين وجدوا أن على عاتقهم تقع مسؤولية إنقاذ الأمة والوقوف مع المظلومين ضد الظالمين، وبالتالي كان هذا أمراً آخر يضاف إلى سلسلة الأمور التي زادت من اندكاكي في وسط هذه الطائفة وفي جملة الأفكار والامتدادات الفكرية لمذهب أهل البيت(ع).

ولعل في الذهاب إلى الحسينية، كمكان للعبادة ولإقامة الشعائر الدينية بالإضافة إلى المسجد، من الأمور التي ميّزت هذه الطائفة بحيث جعلت وجود هذه النوادي المسماة الحسينيات المشاركة في الاحتفالات

الدينية، وهي كثيرة في هذه الطائفة، جعلت منها أمراً ميسّراً مشجعاً عليه للجميع من الرجال والنساء والكبار والصغار وبدون القيود الشرعية للمسجد وآدابه، وهو أمر يبدو أنه يجد صعوبة في القبول لدى الكثيرين من أهل السنة، وربما لعدم فهم الأسباب وراء وجود مثل هذا المكان بالإضافة إلى المسجد، وربما في حالات أخرى ليس قصورًا في الفهم وإنما كجانب من الحملات المستمرة لمحاصرة التشيّع عبر الأجيال. فإننا نجد الهجوم المستمر على الحسينيات وأنها أمر لم يكن على عهد رسول اللّه(ص) وكأنما هم يتكلمون عن ملاهٍ ليلية أو كازينوهات للقمار، ولا يتكلمون عن أماكن تقام فيها الصلوات ويقرأ القرآن ويدعى فيها اللّه تعالى بأجمل الدعاء الذي لا يعرفه هؤلاء.

لذا فإن الاحساس بهذا الانتماء ازداد في مثل هذه الأجواء الجديدة وبوجود الرفقة من هؤلاء الإخوة الأعزاء المحبين والمخلصين، وهو ما يعوّض على كل حال خصوصاً عندما يكون الإنسان في الغربة ويشعر أنه يعيش الغربة. بل لعله لو وجد نفسه وحيداً كان هذا الولاء لهؤلاء الصفوة من آل محمد(ص) مما يكفي عن الناس، كما قال دعبل الخزاعي:

وفي مَوالِيكَ لِلمَحزُونِ مَشغَلَةٌ   مِنْ أنْ تَبيتَ لَمفقُودٍ عَلى أَثرَ

محاولة تقديم شيء ما

أخيراً، ينبغي القول أنه في هذا العام أو بُعيد هذا العام، ربما في عام 1984، بدأت بالنشاطات محاولاً تقديم بعض العطاء لما أصبحت أعرفه وآخذ به وأنا مسرور به مرتاح إليه واثق منه. وقد كان من ذلك أول الطريق في مجال التأليف، حيث قمت بتأليف كتاب سمّيته "حُجَجُ النَّهج"، بمعنى حججنا من نهج البلاغة، ليس فقط من "نهج البلاغة" نفسه أي مجموع خطب ورسائل وكلمات أمير المؤمنين(ع) التي اختارها وجمعها السيد الشريف الرضي رحمة اللّه عليه، ولكن أيضاً من "شرح نهج البلاغة" لإبن أبي الحديد المعتزلي والشرح الآخر للشيخ محمد عبده مفتي مصر في بداية القرن العشرين. وكان هذا الكتاب مناسباً للتحوّل الذي حصل معي حيث هو في الحجج التي تثبت ما يذهب إليه شيعة أهل البيت مما يخص الإمامة والنص عليها ودور الأئمة في الإسلام. على أن ذلك الكتاب لم ير النور إلا بعد أربع سنوات بعد أن تركت الكويت وانتقلت إلى إنكلترا فكان هو فاتحة الخير لمجموعة من المؤلفات في هذا الموضوع وفي غيره.

خلاصة الكلام في هذا الفصل هو أن العودة عملياً قد بدأت وذلك في اتباع المرجعية الشيعية في العبادات والمعاملات وأيضاً في تأسيس العلاقات الجديدة وفي حضور مجالس الدعاء والمجالس الحسينية في الحسينيات والمساجد وأيضاً في بداية العطاء الفكري، مما شكّل بداية الاحساس بالانتماء بشكل كامل لهذه الطائفة المسلمة من خلال اتباع مذهب أهل البيت(ع) في الأصول والفروع وفي تفسير التاريخ ومع الأمور الأخرى مما يشمل العلاقة مع اللّه تعالى والأمور الخاصة بتفاصيل أصول الدين وفروعه وفي جانب تكوين

هذه العلاقة عن طريق الفكر وأيضاً عن طريق العاطفة وأيضاً عن طريق الدعاء وما تركه الأئمة(ع) مـن إرث لا نظير له في هذا المجال.

العودة إلى الإصل

إلى آل محمد(ص)

الباب الثاني

دواعي العودة

الفصل الخامس

القرآن الكريم

مقدمة

أولاً: آية التطهير

ثانياً: آية الولاية

ثالثاً: آية المودة

رابعاً: آية المباهلة

آيات أخرى

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتُ اللّهِ عَلَى الْكَـذِبِينَ﴾

(القرآن الكريم)

لا شك في أن أي قضية دينية لا تجد لها دليلاً من كتاب الله العزيز فإن ذلك يضعفها، بل ويجعلها قضية تدور في إطار الفكر التجريدي، لذا كانت طريقة المسلمين، من علماء وباحثين وغيرهم، النظر أولاً في كتاب الله تعالى، ثم الاتجاه نحو السنة النبوية الشريفة، لمعرفة الدليل على هذه المسألة أو تلك، ثم محاولة معرفة وزن هذا الدليل وعلاقته بالمسألة موضع البحث. ولعلهم يرجئون الدليل العقلي إلى ما بعد ذلك، ربما لأن عوام المسلمين يقتنعون بدليل الكتاب والسنة بشكل تلقائي، إيماناً منهم بهذين المصدرين الأساسيين أولاً، ولصعوبة تلقيهم، أو تلقي الكثيرين منهم، للدليل العقلي وفهمه بشكل يؤسس لقناعات راسخة ثانياً. وربما لهذا السبب أيضاً تجد القرآن الكريم، وهو الكتاب الموجه للبشر جميعاً على اختلاف مستوياتهم، يقدم الدليل على أية قضية بشكل يمكن تناوله من المستويات المختلفة – المستوى المبسوط لعامة الناس، ثم المستوى الأعلى الذي ينفتح على تفاصيل ودقائق، ثم الأعلى وهكذا حتى يصل إلى مستويات عالية جداً لا يتأتى فهمها إلا لمن اختصه الله تعالى بذكاء ونعمة من عنده؛ ولعل هذا من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العجيب الذي لا تنقضي عجائبه كما ورد في الخبر.

من هنا، تجد السؤال كان ولا يزال موجهاً لشيعة أهل البيت(ع): أين ذكر علي(ع) والأئمة(ع) في القرآن؟ أين ذكرت إمامتهم في القرآن؟ أين ذكرت عصمتهم في القرآن؟ وكان الشيعة ولا يزالون يجيبون فيما يكتبون ويحاضرون وينشرون ويناقشون، وكان – بالنسبة لي – هو أول ما نظرت فيه في هذا الأمر.

وجدت أن هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تعلن بشكل واضح جلي عن تقديم علي(ع) وأهل البيت(ع) على غيرهم، وعن خصوصيات فيهم(ع)، وعن دورهم(ع) في دنيا الإسلام. فآيات القرآن الكريم لم تكتف بتبيان تقدم علي(ع) وأهل البيت(ع) على باقي المسلمين، مما هو مقبول وربما مأخوذ به كاعتقاد عند بعض أهل السنة، لأن هذا التقدم، كما هو مأخوذ عند هذا البعض من أهل السنة، إنما هو بعنوان عاطفي جانبي غير أساسي ولا يرتبط بدور مميز لهم، كأنما أراد الله تعالى لهؤلاء الأفراد أن يجعل لهم منزلة شريفة دون دور مميز، أي على شكل الوجاهة العشائرية والاجتماعية مثلاً.

في الحقيقة فإن الأمر ليس كذلك، إذ أن آيات الكتاب العزيز ذهبت إلى تبيان أمر هام جداً يتعلق بخصوصيات فيهم(ع)، كما في تطهيرهم من الخطأ والخطيئة، مما يجعل منهم الأفراد المناسبين لحمل أمانة القرآن الكريم؛ كما

ذهبت أكثر من ذلك لتبيان دورهم القيادي في المجتمع بحيث تأخذ بيد المسلم القارئ للقرآن الناظر فيه في تسلسل جميل: تقديمهم(ع) على غيرهم، الإعلان عن نفوسهم(ع) المطهرة المنزهة عما يقع فيه الآخرون، دورهم(ع) الذي هو النتيجة الطبيعية لكل ذلك، بغض النظر عن اختيار الله تعالى في إرادته التي لا يعترض عليها المؤمن.

وجدت أن الشيعة يحتجون بالقرآن الكريم على ما يعتقدونه في الأئمة من أهل البيت(ع). إلا أن من أهم الآيات في هذا المجال هي: آية التطهير، وآية الولاية، وآية المودة، وآية المباهلة، والتي كتبوا في تفسيرها ومناقشة دلالاتها ومناقشة الذين يريدون تغيير معانيها أو يعتمون عليها الكثير الكثير، لذا أكتفي بمرور سريع على كل آية من هذه الآيات لتبيان ما اكتشفته فيها مما لا مفر من الاعتراف به ومن ثم اتباعه.

(راجع الملحق لذكر مصادر الآيات وبعض الملاحظات حولها.)

أولاً: آية التطهير

وهي قوله تعالى: ﴿إنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ الأحزاب:33.

الآية واضحة في أن الذين تسميهم "أهل البيت" قد خضعوا لإرادة إلهية "يريد"، في تخليصهم مما يقع فيه غيرهم من البشر من "الرجس" ويطهرهم، أي يطهر ذواتهم بلحاظ المفعول المطلق "تطهيراً" الذي يؤكد الفعل. هذه الآية هي من أهم الحجج الشيعية على المكانة البارزة لأئمتهم(ع) في قيادة الأمة، وذلك على أساس أن هذا التطهير ينتج عنه عصمة من الذنوب، وبالتالي ضمانة لعدم الانحراف، أن في التبليغ عن النبي(ص) أو في عدم الخضوع لأهواء النفس، وهي من المحتوم في حالة الحكام والقادة والأئمة، وكما حصل في التاريخ الإسلامي كله بدءاً من الخلافة الأولى، المسماة بالخلافة الراشدة.

هذه نقطة؛ والنقطة الثانية هي أن الله تعالى لا يمكن أن يكون فعل ذلك مع هؤلاء الذين تسميهم الآية الكريمة "أهل البيت" دون حكمة لأنه تعالى منزه عن العبث. إذاً، لا بد أن تكون هذه الإرادة الإلهية المتحققة في هؤلاء إنما هي من أجل أن يكونوا هم القادة في الأمة، وإلا صاروا أتباعاً لمن هم أقل منهم ممن لم يذهب الله عنهم الرجس ولم يطهرهم تطهيراً.

أما عن فعل النبي(ص) لتبيان هذه الآية المباركة فقد قال السيد شرف الدين (الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع) ص24): "وقد تكررت منه(ص) قضية الكساء حتى احتمل بعض العلماء تكرار نزول الآية أيضاً. والصواب عندنا نزولها مرة واحدة، لكن حكمة الصادق الأمين في نصحه ببلاغه المبين اقتضى تكرار تلك القضية مرة في بيت أم

سلمة عند نزول الآية وتبليغها لأهلها المخاطبين فيها، وأخرى في بيت فاطمة، وفي كل مرة يتلو عليهم الآية مخاطباً لهم بها، وهم في معزل عن الناس تحت ذلك الكساء درءاً للشبهة في نحور أهل الزيف".

وقد أشار في الهامش إلى الأحاديث التي وردت عن أم سلمة رضوان الله عليها بنزول الآية في بيتها في أصحاب الكساء كما فيما أخرجه الإمام أحمد (المسند ج6 ص323) وما رواه الثعلبي في تفسيره وغيرهم. وأيضاً أشار إلى الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد (المسند ص107 من ج4) عن واثلة بن الأسقع أنه أتى فاطمة(ع) يسألها عن علي(ع) وبعد أن جلس ينتظره جاء النبي(ص) ومعه علي وحسن وحسين فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ثم أجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لفّ عليهم ثوبه ثم تلا آية التطهير وأعلن قائلاً: «اللهم هؤلاء أهل بيتي..» وأخرج هذا الحديث آخرون منهم إبن جرير في تفسيره والطبراني والبيهقي وغيرهم.

الأمر الثاني نبّه إلى أن النبي(ص) سلك في إعلان هذه الآية واختصاصها بأهل بيته مسالك ينقطع معها شغب المشاغب، فذلك كان بعد نزول الآية كلما خرج إلى صلاة الفجر يمرّ ببيت فاطمة فيقول: «الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»، وقد استمر على هذا ستة أشهر كما في رواية أنس (مسند أحمد ج3 ص259)، أو سبعة أشهر كما في رواية إبن عباس (الشرف المؤبد للنبهاني ص8)، أو ثمانية أشهر حسبما قال غيرهما.

وقد وجدت أنه فيما عدا ابن تيمية (ومن تابعه في زماننا بعدما انتشر مذهب ابن تيمية) لم يكن هناك من علماء أهل السنة من يتبنى الرأي الشاذ أن "أهل البيت" في الآية هم نساء النبي(ص)، على أساس أن آية التطهير جاءت في سياق آيات نساء النبي(ص). ووجدت أن رأي ابن تيمية إنما استند إلى حديث رواه عكرمة أو مقاتل، الذي كان معروفاً بنصرته لمبدأ الخوارج، وهم من هم في معاداتهم لعلي(ع)، فلا يعود رأيه – بغض النظر عن شذوذه – معتداً به. وقد ناقش السيد شرف الدين في كتاب "الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع)" (راجعه من ص24) هذا نورده ببعض التفصيل.

نبه رحمة الله عليه أن البعض من أعداء أهل البيت حاولوا صرف الآية عن أهلها فقال بعضهم أنها خاصة بنساء النبي(ص) متشبثين بسياق الآية، حتى بالغ عكرمة ومقاتل بن سليمان في الانتصار لهذا الرأي، حتى كان عكرمة ينادي به في الأسواق فيما نقله عنه الواحدي في كتابه أسباب النزول وإبن حجر في صواعقه وغيرهما. ونبه السيد شرف الدين إلى الإتجاه الخارجي لعكرمة مستدلاً بقول يحيى بن بكير: "قدم عكرمة مصر وهو يريد المغرب، قال: فالخوارج الذين هم في المغرب عنهم أخذوا"؛ وذكر في الهامش ما نقله القاضي الجعابي في كتاب الموالي أن عكرمة "دخل في رأي الحرورية من الخوارج فخرج يدعو إليهم بالمغرب"؛ وذكر قول أبي علي الأهوازي الوارد في ترجمة عكرمة في معجم ياقوت أن عكرمة "كان يرى رأي الخوارج"؛ وذكر قول خالد بن عمران قال كنا في

المغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم فقال: "وددتُ أن بيدي حربة فأعترض بها من شهد الموسم يميناً وشمالاً" (لبنائه على كفر من عدا الخوارج من أهل القبلة)؛ وعن يعقوب الحضرمي عن جده قال: "وقف عكرمة على باب المسجد فقال: ما فيه إلا كافر، قال: وكان يرى رأي الإباضية"؛ وعن ابن المدائني قال: "كان عكرمة يرى رأي نجدة الحروري" (وكان نجدة من أشد الخوارج عداوة لأمير المؤمنين)؛ وعن مصعب الزبيري: "كان عكرمة يرى رأي الخوارج"؛ وعن عطاء: "كان عكرمة إباضياً"؛ وعن أحمد بن حنبل أن "عكرمة كان يرى رأي الصفرية" (وهم من غلاة الخوارج أيضاً).

ثم ذكر قول يحيى بن سعيد الأنصاري بأن "عكرمة كذاب"، وكذلك كذبه ابن المسيّب، وروي عن ما رواه الذهبي في ميزان الاعتدال عن عبد الله بن الحارث أنه دخل على علي بن عبد الله بن عباس فوجد عكرمة موثقاً فسأله فقال له: "ألا تتقي الله؟" أو في رواية أخرى وقد رآه موثقاً في باب الكنيف (أي المرافق الصحية) فقال: "أتفعلون هذا بمولاكم؟ فأجابه علي: إن هذا الخبيث يكذب على أبي".

وذكر قول ابن المسيب الذي مولاه برد: "لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس". وقد ورد مثل هذا القول عن ابن عمر لمولاه نافع.

بل وذكر قول يحيى بن سعيد: "حدثوني والله عن أيوب أنه ذُكر له أن عكرمة لا يحسن الصلاة فقال أيوب: أَوَ كان يصلي؟!"؛ وذكر قول مطرف بن عبد الله: "سمعتُ أن مالكاً يكره أن يذكره ولا يرى أن يروي عنه"؛ وقول أحمد بن حنبل: "ما علمتُ أن مالكاً حدث بشيء لعكرمة إلا في مسألة واحدة". ويبدو أن أمره كان منتشراً فقد رووا أنه مات عكرمة وكُثيّر عزّة (الشاعر الذي كان مغرماً فشبب بحبيبته عزّة) في يوم واحد فشهد الناس جنازة كُثيّر وتركوا جنازة عكرمة.

وأما مقاتل بن سليمان فإنه كان عدواً لعلي(ع)، ذكر قول الجوزجاني لترجمة مقاتل في ميزان الذهبي: "كان مقاتل كذاباً جسوراً، سمعت أبا اليماني يقول قدم ههنا فأسند ظهره إلى القبلة وقال: سلوني عما دون العرش". وذكر أيضاً أن مقاتلاً كان من الرجال المرجئة المشبهين كما ذكر ذلك إبن حزم (الفصل بين الملل والنحل ص205 من ج4)، كما عده الشهرستاني في كتاب الملل والنحل من المرجئة. وفي ترجمة مقاتل في ميزان الإعتدال ذكر قول الإمام أبي حنيفة: "أفرط جهم في نفي التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشيء، وأفرط مقاتل في معنى الإثبات حتى جعله مثل خلقه".

وذكر قول أبي حاتم بن حيان البستي في ترجمة مقاتل من وفيات إبن خلكان: "كان مقاتل يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم وكان يشبه الرب بالمخلوقين"، قال: "وكان يكذب مع ذلك في الحديث".

فهذان اللذان كانا ينتصران لصرف الآية عن أهل البيت(ع) وإثباتها لنساء النبي(ص) بالاعتماد على سياق الآية كونها واردة في سياق آية الخطاب مع أمهات المؤمنين.

وإضافة إلى هذا ردّ السيد شرف الدين هذا الرأي من عدة وجوه:

أولاً: أنه اجتهاد في مقابل النصوص الصريحة والأحاديث المتواترة الصحيحة.

ثانياً: لو كانت خاصة بالنساء لكان الخطاب في الآية بما يصلح للإناث أي بـ "نون النسوة"، كأن يقول عنكن ويطهركن إلى غير ذلك كما استخدم نون النسوة في باقي الآية عند الخطاب مع النساء.

ثالثاً: أن الكلام البليغ يدخله الاستطراد والاعتراض، وذكر مثلاً لذلك قصة يوسف ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيدِكُنَّ إنَّ كَيدَكُنَّ عَظيم . يوسُفُ أعرِضْ عنْ هذا واستَغفِري لذَنبِكِ﴾ (يوسف:29) فقوله ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ مستطرد بين خطابيه معها. وذكر مثلاً آخر كلمة ﴿وكذلك يفعلون﴾ التي في قوله تعالى ﴿إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلوا قَريَةً أفسَدُوها... إلى قوله... فناظِرَةٌ بِمَ يَرجعُ المُرسَلون﴾ (النمل:24-25).

وبالتالي فآية التطهير جاءت مستطردة بين آيات النساء، فتبين بسبب استطرادها أن خطاب الله لهن بتلك الأوامر والنواهي والنصائح والآداب لم يكن إلا لعناية الله تعالى بأهل البيت (أعني الخمسة) لئلا ينالهم، ولو من جهتهن، لوم، أو ينسب إليهم، ولو بواسطتهن، هنات، أو يكون عليهم للمنافقين، ولو بسببهن، سبيل، ولولا هذا الاستطراد ما حصلت هذه النكتة الشريفة التي عظمت بها بلاغة الذكر الحكيم وكمل إعجازه الباهر كما لا يخفى.

رابعاً: أن القرآن لم يرتب عند جمعه حسب ترتيبه في النزول، ولذلك فإن حمل الآية على ما يخالف السياق غير مناف للبلاغة ولا مخلّ بالإعجاز حتى لو سُلّم ظهوره بما يزعمون.

شبهة شمول الآية لجميع بني هاشم

وفي مورد آخر ناقش السيد شرف الدين الشبهة التي تقول أن بني هاشم كلهم مشمولون بلفظة "أهل البيت"، وذلك استناداً إلى الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه برواية زيد بن أرقم (رواية 4425) عندما سئل: "من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها؛ أهل بيته (أهله وعصبته) الذين حرموا الصدقة بعده"، وذلك بما يلي:

أولاً: أن رد زيد كان عندما سئل عن مراد النبي(ص) بأهل بيته الذين ذكرهم في قوله: ‹‹إني تارك فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي›› فأجاب عن خصوص هذا السؤال بما سمعت ولم يتعرض

لبيان المراد بأهل البيت المذكورين في الآية... فهذا مغالطة. ولو سئل زيد عن الآية لأجاب بالصواب كما فعل أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة وغيرهم، وما كان ليخفى عليه حديث الكساء ولا ليخالف بتفسيرها سيد الأنبياء(ص). الخلاصة أن ما نقله مسلم عن زيد خارج عن الموضوع فالاستدلال به لا وجه له.

ثانياً: لو فرض أن زيداً فسّر الآية بهذا فإنما هو مفسر لها برأي قد رآه لا تثبت به حجة، إذ لم ينقل ذلك التفسير عن رسول الله(ص)، فكيف نعارض به الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة والأحاديث المتواترة.

شبهة شمول الآية لنساء النبي(ص) مع أهل البيت(ع)

وهذه شبهة وجدتها منتشرة – ولا تزال إلى اليوم – وذلك لأنه لما لم يكن ممكناً إنكار حديث الكساء الذي جعل الآية نازلة في الخمسة الأطهار – محمد(ص) وعلي وفاطمة والحسنين(ع) – جاء الالتفاف من ناحية القبول بذلك ولكن بضم نساء النبي(ص) إلى أهل البيت على أساس سياق الآية. وقد ردّ السيد شرف الدين ذلك بالقول أنه(ص) منع أم سلمة من الدخول تحت الكساء فهو أقوى دليل على خروج النساء. والأمر الثاني أنه لو كان غير علي وفاطمة وابنيهما مراداً لقال(ص) حين جللهم بالكساء "اللهم هؤلاء من أهل بيتي" ولم يقل: ‹‹اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً››. وذكر في ذلك أيضاً حديث أم سلمة (مسند الإمام أحمد ج6 ص296)، قال: "قالت: بينما رسول الله(ص) في بيتي يوماً إذ قال الخادم: إن علياً وفاطمة بالسدّة ، قالت: فقال لي: ‹‹فتنحّي لي عن أهل بيتي››، فقالت: فقمت فتنحيت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين ووضعهما في حجره فقبلهما واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى فقبل علياً وقبّل فاطمة فأغدق عليهم خميصة سوداء فقال: ‹‹اللهُمَّ إليَكَ لا إلى النارِ أنا وأهلُ بَيتي››".

أخيراً، العصمة والإمامة

نبّه السيد شرف الدين إلى أمرين: الأول، أن الآية دلّت على عصمة الخمسة لأن الرجس عبارة عن الذنوب كما في الكشاف وغيره، وقد تصدرت بأداة الحصر وهي ﴿إنَّما﴾ فأفادت أن إرادة الله تعالى في أمرهم مقصورة على إذهاب الذنوب عنهم وتطهيرهم منها، وهذا كنه العصمة وحقيقتها.

ثانياً، أنها دلت بالالتزام على إمامة أمير المؤمنين، لأنه ادعى الخلافة لنفسه وادعاها له الحسنان وفاطمة ولا يكونون كاذبين لأن الكذب من الرجس الذي أذهبه الله عنهم وطهّرهم منه تطهيراً.

ثانياً: آية الولاية

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُم اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُم راكِعُون . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغالِبُون﴾ المائدة:55-56.

يكاد يجمع المفسرون أنها نزلت في علي(ع) عندما تصدق بخاتمه أثناء الصلاة في حال الركوع لسائل دخل يسأل الناس في مسجد النبي(ص)، فما حصل على شيء حتى أشار له علي(ع) أن ينتزع منه خاتمه، ففعل الرجل ونزلت الآية. والآية واضحة في حصر الولاية بأداة الحصر "إنما" في اللّه تعالى وفي رسوله(ص) وفي مؤمنين معينين قاموا بفعل محدد واضح المعالم. وإلا، ما معنى إعطاء الولاية العظيمة، ولاية اللّه ورسوله(ص)، لكل مؤمن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة؟ وكيف يكون هذا المؤمن ولي على غيره ممن يقوم بنفس الأمر؟ فإن ولاية الأخوة الإيمانية جاءت في آية أخرى ﴿والمؤمِنُونَ والمؤمِناتُ بَعضُهُم أولياء بعض﴾ وهي ليست الولاية الحصرية ههنا. ثم ما معنى إعطاء الولاية لمن هو في حالة الركوع؟! إذاً، لا بد أن الآية نازلة في خصوص حالة معينة لا تتعدى إلى غيرها.

أما المحدثون فقد قال الآلوسي (تفسير روح المعاني ج6 ص186): "والآية عند معظم المحدثين أنها نزلت في علي كرم اللّه وجهه"، منها ما رواه السيوطي (الدرّ المنثور مجلد 2 ص293) الذي أخرج عدة روايات أنها نزلت في علي(ع) مروية عن ابن عباس وسلمة بن كهيل وعمار وغيرهم أن علياً(ع) تصدّق بخاتمه وهو راكع في الصلاة فسأل النبي(ص) ذلك السائل من أعطاه الخاتم فأشار إلى علي فأنزل الله هذه الآية. وأخرج مثله الطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم وابن عساكر أيضاً روايات مشابهة وسؤال النبي(ص) للسائل إن كان قد أعطاه أحد شيئاً فعندما أخبره بأنه أشار إلى علي وأنه أعطاه إياه وكان راكعاً كان النبي(ص) يكبّر ويتلو الآية ويتلو الآية بعدها ﴿ومَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ ورَسُولَهُ والَّذينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ اللّهِ هُم الغالِبُون﴾ (المائدة:56).

ورويت في ذلك الأحاديث (كما في كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص106) ومعها أبيات لحسان بن ثابت:

أبا حَسَنٍ تَفديكَ نَفسي ومُهجَتي ... وكُلُّ بَطيءٍ في الهُدى ومُسارِعِ
ويذهَبُ مَدحي في المُحَبَّرِ ضائعاً ... وما المدحُ في ذاتِ الإلهِ بضائعِ
وأنتَ الذي أعطَيتَ إذْ أنتَ راكعٌ ... فِداكَ نُفوسُ القَومِ يا خَيرَ راكعِ
فأنزلَ فِيكَ اللّهُ خَيرَ وِلايةٍ ... فَأَثبَتَها في مُحكَماتِ الشَّرائعِ

(هذه الأبيات لعلها غير موجودة في ديوان حسان بن ثابت المطبوع اليوم، فيرفضها البعض لذلك، وكأن علياً(ع) محتاج لحسان وغير حسان، لا العكس: إنها فضيلة لحسان أن يمدح علياً(ع).)

وكما مع غيرها، أثيرت حول الآية شبهات، أجاب عنها المرحوم الشيخ محمد مرعي الأنطاكي (الذي كان مفتي المذهب الشافعي في حلب ثم تحول إلى مذهب أهل البيت) في كتابه "لماذا اخترت مذهب أهل البيت". قال بأن هذا التفسير لم يخالف فيه أحد، وأن الآية يستفاد منها تعيين علي(ع) إماماً وخليفة بعد النبي(ص) لأن الله تعالى قرن ولايته بولايته وولاية رسوله(ص)، وأن لفظة "إنما" تفيد الحصر فتكون الولاية محصورة بهم، والمراد بالولي هو الأولى بالتصرف ولا يكون أولى إلا إذا كان خليفة وإماماً... كما يُقال وليّ الدم ووليّ الميت وولي القاصر وولي المرأة في الزواج إلى آخر ذلك.

شبهة التعبير بالجمع

ثم ناقش القول بأنه إذا كان المراد علياً وحده فكيف كان التعبير بالجمع بكلمة الذين آمنوا؟ (وهو إشكال يورده منكرو فضائل أهل البيت إلى يومنا هذا) فأجاب:

أولاً: أن ذلك ورد كثيراً في كلام العرب، ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿الَّذينَ قالَ لَهُم الناسُ إنَّ النّاسَ قَد جَمَعوا لَكُم فَاخْشَوهُم﴾ (آل عمران:173) مع أن المراد بالناس هو نُعيم بن مسعود الأشجعي وحده وذلك بإجماع المفسرين والمحدثين.

ثانياً: إن الله تعالى وصف الذين آمنوا في هذه الآية بوصف غير شامل للجميع لأنهم يؤتون الزكاة وهم راكعون.

ثالثاً: أن أهل اللغة يعبّرون بلفظ الجمع عن الواحد لأجل التعظيم والتفخيم.

رابعاً: يلزم على إرادة الجميع، أي إذا كان المقصود هو الجميع وليس علياً وحده، يلزم اتحاد الولي والمتولي، بمعنى أنه إذا كانت الولاية للجميع على الجميع فهذا لا معنى له لأن اللازم اختلافهما.

خامساً: ذكر قول الزمخشري (الكشاف ص 422) بأن لفظ الجمع جيء به ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ولينبه إلى أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء حتى إن لزّهُم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخّروه.

شبهة التفات علي(ع) للسائل وهو في الصلاة

وأجاب الأنطاكي على من يقول بأن علياً(ع) كان يصلي ولا يشعر بشيء خارج الصلاة فكيف شعر بكلام السائل وفهمه، بأن ذلك لا ينافي لأنه في عبادة أخرى.

أقول: بل لعل الأمر هو أن الله تعالى لما أراد أن يبين دور وليه(ع) وتعيينه ولياً على المؤمنين بعد الله ورسوله(ص) فإنه سبحانه بيده أن يشعر علياً(ع) بسؤال السائل حتى وإن كان علي(ع) يندمج عادةً اندماجاً كليّاً في الصلاة، لأن الأمر أهم بما لا يقاس بمسألة اندماج علي(ع) أو عدم اندماجه في صلاة واحدة، بل في لحظة من لحظات الصلاة.

ولعله يناسب أن نذكر هنا بعض مكامن الروايات المناقضة لهذه الروايات الكثيرة التي تؤكد نزول الآية المباركة في أمير المؤمنين(ع). من ذلك ما رواه الرازي في (تفسيره الكبير ج12 ص23) قال: "القول الثاني: أن المراد من هذه الآية شخص معين، وعلى هذا ففيه أقوال: روى عكرمة أن هذه الآية نزلت في أبي بكر، والثاني روى عطاء عن أبن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام)"، ثم ذكر روايتين في تصدق علي(ع) على الفقير عن عبد اللّه بن سلام وأبي ذر. وكما يرى القارئ أن الذي صرفها من علي(ع) إلى أبي بكر هو عكرمة الخارجي الناصبي (راجع أحواله في آية التطهير آنفاً).

ثالثاً: آية المودّة

وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أسأَلُكُم عَلَيهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾ الشورى:23

اللّه تعالى يأمر نبيه(ص) أن يقول للمسلمين أنه لا يريد منهم أجراً على تبليغه القرآن، أو الدين، سوى "المودة في القربى". وهنا مباحث عديدة: لماذا استفتحت الآية بكلمة "قل"؟ ما هي "المودة"؟ من هم "القربى"؟ لماذا قال "في القربى" ولم يقل "للقربى"؟

هذه المباحث كانت من ضمن ما قرأت بتمعن بحيث توصلت إلى أن أي تفسير لها بغير المودة لأهل البيت(ع) إنما هو تكلّف أو محاولة غير محمودة لصرف الآية عن دلالتها.

أما دلالة الآية فإنه يكفي القول أنه طالما أن اللّه تعالى لم يأمر المسلمين بأداء أجر أعظم نعمة في حياتهم، وهي الإسلام، غير مودة أهل البيت(ع) فلا بد أن لأهل البيت(ع) منزلة خاصة فريدة. فهل كانت هذه المنزلة تشريفية، كالوجاهة الاجتماعية، أو لكي يسر نبيه(ص)؟ هل أن اللّه تعالى يتعامل مع خلقه بهذا الشكل؟ لا بد أن منزلتهم تلك إنما هي لدورهم المميز في حمل الأمانة بعد النبي(ص)، وإلا تصبح المسألة وكأنها مجاملات مع النبي(ص)، واللّه تعالى لا يتعامل بالمجاملات ولا بمنطق القرابات.

لأجل صرف الآية عن دلالتها فإنهم جاءوا بأقوال عديدة في تفسيرها، نذكرها هنا ومناقشتها من بعض العلماء، وذلك باختصار شديد.

القول الأول: أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن جرير وابن مردويه أن ابن عباس سئل عن معنى قوله تعالى: (إلا المودّة في القربى) فقال سعيد بن جبير: "هم قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عجلتَ، إن النبي(ص) لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة". أي أن الخطاب لقريش والأجر المسؤول هو مودتهم للنبي(ص) لقرابته منهم وذلك لأنهم كانوا يكذبونه ويبغضونه لتعرّضه لآلهتهم فأمر(ص) أن يسألهم أن يودّوه لمكان قرابته منهم حتى وإن لم يؤمنوا به ولم يبغضوه ولم يؤذوه.

القول الثاني: مثل القول الأول بالنسبة لمعنى القربى ولكن الفرق هو أن الخطاب للأنصار وليس لقريش. فقد قيل أن الأنصار أتوا النبي(ص) بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فردّه إليهم.

القول الثالث: الخطاب لقريش أيضاً، ولكن المودة المسؤولة ليست مودة قريش له بل العكس، أي مودة النبي(ص) لهم. فيكون لسان حاله(ص) على هذا التفسير: أني لا أطلب منكم جزاء لكن حبي لكم بسبب قرابتكم مني دفعني إلى أن أهديكم إليه وأدلّكم عليه.

القول الرابع: أن المودة لا للنبي(ص) ولا لقريش، وإنما لقرابة المخاطَبين بمعنى: لا أسألكم على دعائي أجراً إلا أن تودّوا أقرباءكم.

القول الخامس: ومعنى القربى، حسب هذا الوجه، هو التقرّب إلى الله تعالى والتودد إليه بالطاعة والتقرّب. أي أن القربى بمعنى التقرب بالعبادات.

القول السادس: وقد أورده جميع علماء الشيعة دون استثناء، والكثير من علماء أهل السنة، أن المراد بالمودة في القربى هي مودة قرابة النبي(ص) وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام. والمعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلاّ أن تودّوا أهل بيتي.

مناقشة الأقوال

أما القول الأول ففيه أن سؤال الأجر من قريش، وهم كانوا مكذبين للنبي(ص) كافرين بدعوته إنما كان يصح على تقدير إيمانهم به، وإلاّ إن كانوا مكذبين وكافرين بدعوته فهم لم يأخذوا منه(ص) شيئاً فكيف يمكن أن يستحقوا أجراً؟ وأما على تقدير أنهم كانوا مؤمنين به، بمعنى المؤمن منهم أو الذي سيؤمن فيما بعد، فإنهم لا بد وأنهم يحبونه ولا يبغضونه لأن من ضروريات الدين محبة المرسل به. فهذا الوجه الذي أورده البخاري ومسلم لا يمكن أن يصح مطلقاً. على أن هذا كان من حديث ابن عباس وليس من حديث النبي(ص)، فهو ليس بحجة مع وجود غيره من الأقوال المستندة إلى حديث النبي(ص).

كما ردوا هذا الوجه من التفسير بأن النبي يقول لمشركي قريش يطلب منهم أن يودّوه في قرابته منهم ويصلوا الرحم الذي بينه وبينهم (السيد شرف الدين، الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع) ص 24) من عدة وجوه، أحدها، أن الآية مدنية وبالتالي فلا مكان لمشركي قريش؛ ثانيها، أن سبب النزول هو بما ذكر من حديث عرض الأنصار أموالهم لرسول الله(ص) أو لمفاخرتهم لبني هاشم يكون الخطاب معهم لا مع مشركي قريش؛ ثالثها، لا يصح أن يطلب الحكيم الأجر على أداء الرسالة ممن كفر بها وجحدها وكذبها وإنما يحسن ممن آمن بها وعدّها نعمة عليه؛ رابعها، أن القول مخالف لنصوص الأحاديث التي تجعل نزولها في علي وفاطمة وأبنائهما؛ خامسها، أن هذا القول إنما هو من قول عكرمة الخارجي والذي هو من أعداء أهل البيت فلا تقبل أقواله هنا. (ونبّه إلى أن ما رواه البخاري من نسبة هذا القول إلى ابن عباس فيه محمد بن بشار ومحمد بن جعفر وهما ضعيفان وقد ضعّف الأول يحيى بن معين في ميزان الإعتدال.)

وأما القول الثاني فمبنيّ على اتّهام الأنصار في شعورهم نحو النبي(ص)، فإن حبهم أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب وهم الذين سألوه أن يهاجر إليهم ويأووا له الدار وفدوه بالأنفس والأموال والبنين وبذلوا كل جهدهم في نصرته وحتى في الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به، وقد مدحهم الله تعالى بمثل قوله: ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ الحشر:9، وهذا مبلغ حبهم للمهاجرين إليهم لأجل النبي(ص) فما هو الظن في حبهم له؟ وإذا كان هذا مبلغ حبهم له فما معنى أن يؤمر النبي(ص) أن يتوسل إلى مودتهم بقرابته منهم؟

والقول الثالث مردود بأن الله ذكر في كتابه أن الأمر في الهداية إليه سبحانه وليس للنبي(ص) من الأمر شيء وأن ليس له أن يحزن بكفرهم وردّهم دعوته، وإنما عليه البلاغ فلم يكن له ليندفع إلى هداية أحد لحب قرابة أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهة. ثم إن هذا يتضمن تناقضاً: فإنه(ص) كيف يؤمر بأن يخبر كفّار قريش أنه إنما اندفع إلى دعوتهم وهدايتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه ثم يردف قائلاً، وفي نفس الآية، أنه يسألهم أجراً على ذلك؟

وأما القول الرابع وهو أن الخطاب لقريش وعامة الناس أن يودّوا قراباتهم هم كأجر له(ص) على التبليغ ففيه أن مودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه في الإسلام حيث قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه﴾ المجادلة:22. وسياق الآية لا يلائم كونها مخصصة أو مقيدة لعموم قوله: (إلا المودة في القربى) أو إطلاقه حتى تكون المودة للأقرباء هي أجر الرسالة، بمعنى أن الآية تطلب المودة مهما

كان حال القربى المعنيين، في حين أن آية سورة المجادلة تذل من يوادد الأقرباء إن لم يكونوا مؤمنين. وأما إعطاء المال للأقرباء وصلة الرحم التي ندب إليها الإسلام فهي لا تتضمن المودة بالضرورة.

جاء القول الخامس بمعنىً مختلف للقربى إذ جعلها تعني التقرب إلى الله عز وجل وليس القرابة والأقرباء. وهذا القول مبهم ولا يصلح مخاطبة المشركين به فإن المشركين ما كانوا ينكرون التقرب إليه سبحانه، بل كانوا يرون ما هم عليه من عبادة الآلهة تودداً إليه بالتقرب منه، وكما ذكر التنزيل: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى﴾ الزمر:3. فسؤال التودد إلى الله للتقرب إليه من غير الاشتراط عليهم بعبادته وحده فيه إبهام لا يعين النبي(ص) في دعوتهم إذ سيردونها بأنهم إنما يفعلون ذلك أصلاً.

القول السادس، وهو قولنا أن المراد بالمودة في القربى مودة قرابة النبي(ص) وهم عترته من أهل بيته. فقد وردت بها الروايات من طرق أهل السنة وتضافرت الأخبار من طرق الشيعة على تفسير الآية الكريمة بمودتهم وموالاتهم. ويؤيد ذلك الأخبار المتواترة من طرق الفريقين على وجوب موالاة أهل البيت(ع) ومحبتهم.

وهنا تجدر ملاحظة، إن كل من يقرأ القرآن الكريم يجد أن الأنبياء(ع) السابقين لم يطلبوا أجراً على تبليغ رسالاتهم، حيث كان كل منهم يقول لقومه ﴿ما أسأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِي إلاّ عَلَى رَبِّ العالَمِين﴾، فلماذا يطلب خاتم الأنبياء(ص) أجراً على التبليغ؟ تجيب عن ذلك آيات أخرى – والقرآن بعضه يفسر بعضاً –، فقد أمره ربه أن يقول للناس: ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إنْ أَجري إلاّ عَلى اللّه﴾ سبأ:47، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ ما أَسأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إلاّ مَنْ شاءَ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ الفرقان:57. إذاً، طلب الأجر في آية المودّة إنما هو لمصلحة الذين يعملون بالآية، وليس للنبي(ص) الذي ضمن جزاءه من ربه الذي أرسله؛ وإذاً، طلب الأجر، وهو المودة، هو طريق مفتوح لمن يشاء أن يصل إلى اللّه تعالى في عمل أمر به القرآن في آية المودة.

بعض الأحاديث في تفسير الآية

ذكر السيد شرف الدين (الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع)) بعض الأحاديث، منها ما أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وابن أبي حاتم كما في تفسير الآية 14 من الآيات في الصواعق لابن حجر أن النبي(ص) سئل بعد أن نزلت الآية: "يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال(ص): ‹‹علي وفاطمة وابناهما››".

وهو الحديث الذي أخرجه الثعلبي والبغوي في تفسيرهما والجلال السيوطي في الدر المنثور وغيرهم.

وذكر أحاديث أخرى في هذا الشأن منها الحديث الذي أخرجه الثعلبي في تفسيره الكبير عن جرير البجلي وهو قول النبي(ص): ‹‹من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا

ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة›› (تفسير الكشاف ج3 هامش تفسير آية مودة القربى، والقرطبي في تفسيره ج13 ص23 بهذه الرواية وبرواية أخرى مختصرة فيها ‹‹ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي››، والثعلبي في تفسيره ج5 ص157 مختصراً على قوله(ص): ‹‹من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بغضهم لم يشم رائحة الجنة››).

(أقول: ونقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير ج27 ص165 هذا الحديث عن الكشاف، وعلق: "وأنا أقول: آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك في أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل.)

وذكر السيد شرف الدين تأكيد ذلك من الإمام السجاد(ع) عندما قال له أحد الشاميين: "الحمد لله الذي قتلكم فقال له الإمام: ‹‹أما قرأت ﴿قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيهِ أجراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾؟›› قال: وأنتم هم؟ قال: ‹‹نعم››". وهذه رواية الطبري كما في الصواعق.

مكانتهم(ع)

ونبّه السيد شرف الدين إلى أن هذه المنزلة السامية ثبتت لهم لأنهم خلفاء الله في أرضه وأولياؤه وحججه البالغة فصار المحب لهم محباً لله والمبغض لهم مبغضاً لله، بحيث قال الفرزدق في ميميته الشهيرة :

مِنْ مَعشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وبُغضُهُمُ   كُفرٌ وقُربُهُمُ مَنجى ومُعتَصَمُ

إنَّ عُدَّ أهلُ التُّقى كانوا أئمَّتَهُمْ   أوْ قِيلَ مَنْ خَيرُ أهلِ الأرضِ؟ قِيلَ هُمُ

وتتمة الآية

وذكر أيضاً ما أخرجه الطبراني (المعجم الأوسط ج2 ص336) وغيره (الحاكم في المستدرك ج3 ص172) من كلام خطبة الإمام الحسن(ع): ‹‹وإنا من أهل البيت الذين إفترض الله عز وجل مودتهم وموالاتهم فقال فيما أنزل على محمد(ص): ﴿قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيهِ أجراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى ومَنْ يَقتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيها حُسناً﴾ قال:

واقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت››، وهو ما يجعل تتمة الآية متممة لها بحيث أن الاستجابة لطلب النبي(ص) في مودة القربى هي الحسنة التي سيزيد الله تعالى في حسنها، بمعنى أن لها مكاناً مميزاً عن سواها من الحسنات.

وهذا ذكره ابن حجر في الصواعق المحرقة من حديث علي(ع) قال: ‹‹فينا آل حم لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن، ثم قرأ: ﴿قُلْ لا أسألُكُمْ عَليهِ أجراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى ومَنْ يَقترِفْ حَسَنَةً نَزدْ لَهُ فيها حُسناً إنَّ اللهَ غَفورُ شَكور﴾.

والآية التي تليها

ثم أخرج رواية تخص الآية 24، عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعن أبي حمزة الثمالي، عن ابن عباس أن النبي(ص) قرأ هذه الآية على الأنصار فقال لهم: ‹‹تَودُّونَ قَرابَتي مِنْ بَعدِي››، فخرجوا مسلّمين لقوله، وقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد به أن يذللنا لقرابته من بعده، فنزلت ﴿أمْ يقولُونَ افتَرى على اللهِ كَذِباً﴾. وهذه الرواية أخرجها أيضاً القرطبي في تفسيره (ج16 ص26) وتفسير الجلالين (هامش 686) وتفسير الآلوسي (ج25 ص38) وشواهد التنزيل للحسكاني ج2 ص200.

شبهة النسخ

رد السيد شرف الدين القول أن الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة سبأ (الآية 47) ﴿قُلْ ما سأَلتُكُم عَليهِ مِنْ أجرٍ فَهُوَ لَكُم﴾، بأن هذا القول "من أغرب وأعجب الأقاويل لأن وجوب مودة القربى بكل المعاني مستمر إلى يوم القيامة بحكم الضرورة من دين الإسلام. كما أنه لا تنافي بين الآيتين لتكونا من قبيل الناسخ والمنسوخ، لأن معنى آية الشورى أنه(ص) لا يسألهم أجراً إلا مودة القربى في حين أن معنى آية سبأ أني ما أسألكم على أداء الرسالة شيئاً من الدنيا وإنما هو لكم لأن قرابتي حجج الله البالغة لديكم ونعمه السابغة.." إلى أن قال: "أرجع البصر هداك الله وأمعن النظر في الآيتين.. تجد الثانية مؤكّدة بمفاد الأولى ومشوقة إليها كما لا يخفى".

شبهة التعبير بـ "في" وليس "لـ"

ذكر السيد شرف الدين اعتراضاً للمخالفين أنهم قالوا أن لو كان الله تعالى يريد مودة القربى لقال "إلا مودة القربى"، أو "إلا المودة للقربى" (أي وليس ﴿المودة في القربى﴾)، وأجاب بأن هذا تجاهل وتغافل بمواقع الكلام لأن الإضافة أي "مودة القربى" واللام أي "المودة للقربى" لا يفيدان ما أفادته من المبالغة بمودة القربى (وذكر في الهامش قول النبهاني في الشرف المؤبد أنه عبّر بـ ﴿في﴾ ولم يعبّر بـ"اللام" لأن الظرفية أبلغ وآكد للمودة) بجعلهم موضع الود والموالاة كما يعرفه أئمة البلاغة الكلام العربي. وأيّد ذلك بقول الزمخشري في تفسير الكشاف أنه ردّ هذا القول بأنهم "جعلوا مكاناً للمودة مقرّاً لها كقول القائل: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى

وحب شديد، تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله، وليست بصلة المودة كما إذا قلت إلا المودة للقربى.." إلى آخر كلامه.

شبهة مكية السورة

وذكر (رحمه الله) اعتراضاً آخر، وهو أن الآية في سورة الشورى مكية والحسنان ولدا في المدينة فلا يمكن إرادتهما منها. وأجاب على ذلك أن الآية وما بعدها إلى آخر ثلاث آيات مدنية قطعاً بحكم الأخبار عن أهل البيت كما ورد في الأحاديث التي ذكرها. من ذلك ما ذكره الواحدي في أسباب النزول قال ابن عباس لما قدم رسول الله(ص) المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق، وليس في يديه بذلك سعة، فقال للأنصار: "إن هذا الرجل قد هداكم الله به وهو ابن أختكم وتنوبه نوائب وحقوق وليس في يده لذلك سعة فأجمعوا له من أموالكم ما لا يضركم فأتوه به ليعينه على ما ينوبه"، ففعلوا ثم أتوه به... فعرضوا ذلك على النبي(ص)... فنزلت الآية".

وذكر الرواية الأخرى في الكشاف أن "الأنصار فاخروا بعض بني هاشم فعاتبهم النبي(ص) بذلك، فجثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله، فنزلت الآية فقرأها عليهم".

ثم يتساءل السيد شرف الدين أليست هذه الأخبار كلها صريحة بنزول الآية في المدينة وأن المخاطبين فيها إنما هم الأنصار؟ ثم يلفت إلى أن السورة مكية وأن هذه الآيات مدنية لأن الكتاب العزيز لم يرتب حسب النزول وهذا بالإجماع ولذلك فإن أغلب السور المكية لا تخلو من آيات مدنية والسور المدنية لا تخلو من آيات مكية، وأن وصف السورة بكونها مكية أو مدنية تابع لأغلب آياتها.

على أنه لا مانع من تناول الآية الكريمة للحسنين(ع) قبل ولادتهما لأن المودة فيها غير مقصودة على من كان من القربى موجوداً حين نزولها بل هي ثابتة فيهم وهم على الإطلاق مكانها.

ثم نبّه إلى أن النبي(ص) يجوز أن يكون قوله هذا «هم علي وفاطمة وأبناؤهما» متأخراً عن نزولها أو أنه خبّر عن الله عز وجل بالغيب فيكون من أعلام النبوة. ثم ضرب الأمثال لذلك بإخباره عن خلفائه الإثني عشر وعن يوم الجمل وكلاب الحوأب والفئة الباغية التي تقتل عمار بن ياسر والناكثين والقاسطين والمارقين وغير ذلك مما يجري في أمته.

الأمر الآخر أن تفسير القربى بعلي وفاطمة وأبنائهما هو الذي ذهبت إليه جماهير أهل السنة وقطعت به أكابرهم، وحسبك قول إمام الخلف منهم والسلف محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله:

يا أهلَ بَيتِ رَسُولِ اللهِ حُبُّكُمُ ... فَرضٌ مِنَ اللهِ في القُرآنِ أنزَلَهُ
كَفاكُمُ مِنْ عَظيمِ القَدرِ أنَّكُمُ ... مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَليكُمْ لا صَلاةَ لَهُ

وقول الشيخ القطب الصوفي الكبير إبن عربي:

رأيتُ وِلائي آلَ طهَ فَريضَةً على رَغمِ أهلِ البُعدِ يُورِثُنِي القُربى
فما طَلَبَ المَبعُوثُ أجراً على الهُدى بتَبلِيغِهِ إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى

رابعاً: آية المباهلة

وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكَـذِبِينَ﴾ آل عمران:61.

الآية المباركة في سياق الكلام عن حقيقة المسيح(ع) التي كان النبي(ص) في خضم بحثها مع وفد من نصارى نجران (جنوب غرب الجزيرة العربية)، والتي أكد اللّه تعالى فيها أن المسيح(ع) عبد مخلوق للّه وأن خلقه من أم فقط وليس من أم وأب لا يعني ألوهيته، ثم يضع لذلك البحث نهاية قاطعة بأن يأمر نبيه(ص) أن يدعو الوفد المسيحي إلى المباهلة، أي الملاعنة، وذلك بأسلوب معين، وبالوقوف في مجموعة معينة من الأبناء والنساء والأنفس. يجمع المفسرون دون استثناء على نزول الآية في علي وفاطمة وابنيهما(ع). من ذلك ما ذكره الزمخشري (الكشاف ج1 ص482) أن وفد نصارى نجران جاءوا وتحدثوا مع النبي(ص) ماذا يقول في عيسى(ع) وبعد أن أوضح لهم العقيدة الحقة فيه، ثم نزلت الآية تأمر النبي(ص) بأن يتوقف عن المحاجحة فيه وأنهم إذا أرادوا الإستمرار في ذلك يدعوهم إلى المباهلة، فضرب لهم موعداً وجاء وهو محتضن الحسين وآخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمّنوا»، فعندما رآهم الأسقف وهو رئيس وفد النصارى قال: "يا معشر النصارى إني أرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة!" فقالوا: "يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك ونثبت على ديننا"، قال: «فإذا أبيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فأبَوا ولكنهم انتهوا في الأخير إلى المصالحة والسلم بين الطرفين، إلى آخر الرواية.

هذه من الآيات التي لا يعرفها أهل السنة، أعني عوامهم، حيث يعتم علماؤهم عن هذه الآية وغيرها كي لا ينفتحوا على الحقيقة. وإلا، فإن النبي(ص) بفعله على أرض الواقع يفسر الأبناء بأنهم الحسن والحسين(ع) والنساء بأنها الزهراء(ع) وبالأنفس أنه علي(ع)، ما يرفع هؤلاء الأربعة إلى أعلى منزلة ممكنة. فإن قيل أنه(ص) أتى بالحسنين(ع) لأنه لم يكن عنده ولد (كون ولديه من خديجة(ع) توفيا رضيعين في مكة وولده إبراهيم(ع) من مارية توفي

صغيراً)، فماذا يقولون عن الإتيان بفاطمة(ع) وليس بإحدى بناته الأخريات (أو ربيباته كما يذهب البعض) أو بإحدى نسائه، سيما من يضعها أهل السنة في أعلى منزلة؟

وبعيداً عن كل هذا، ما معنى أن يأتي بعلي(ع)؟ بل ما معنى أن تأمر الآية بالإتيان بالأنفس؟ المتوقع أن يأمر المولى سبحانه نبيه(ص) بشيء مثل "نأتي نحن وأنتم"، لا "ندعو أنفسنا وأنفسكم"، إذ ما معنى أن يدعو شخص نفسه؟ بل لا يوجد هناك حاجة لهذا لأن النبي(ص) هو بلا شك الذي سيقود هذا الطرف فتكون دعوة الأبناء والنساء مفهومة أن الله يأمر بأن يضم الطرف المباهل هذا هؤلاء الأبناء والنساء. إذاً، ليس أمر الله تعالى في هذه الآية المباركة بالقول ﴿وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾ إلا لإظهار المنزلة الكبرى لابن عمه علي بن أبي طالب(ع)، تلك المنزلة التي لا منزلة فوقها وهي نفس النبي(ص) خير البشر أجمعين. ولا شك أنه لا علي(ع) ولا غيره يمكن له أن يصل إلى منزلة النبي(ص)، لا بمعنى الاتحاد بين شخصين، ولا بمعنى المساواة في الفضل، فإن النبي(ص) لا يوازيه أحد في فضل، ولكنها تقول للناس جميعاً بأن هذا العبد الصالح وصل عند الله تعالى منزلة عبر عنها بهذا التعبير بحيث كأنه وصل الغاية في الكمال الإنساني الذي وصله النبي(ص).

وقد وجدت بعد ذلك أن النبي(ص) أكد هذه الحقيقة عندما أرسل رسالة إلى قوم يسمون بني وُليعة يهددهم فيها بأنه سيرسل إليهم من هو كنفسه، ثم بعد ذلك أرسل علياً(ع) فعلاً لتأديبهم.

ولأني أعتبر هذه الآية أعظم فضيلة لعلي(ع) – كونها تجعله نفس النبي(ص) – فإني أحب أن أذكر ههنا بعض الروايات التي تذكر كيف أن النبي(ص) أكد هذا المعنى في الآية، كما هي عادته(ص) في التنبيه إلى مكانة أخيه وابن عمه ووزيره(ع).

منها ما رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص120 من حديث عبد الرحمن بن عوف بعد فتح مكة ومحاصرة الطائف أن النبي(ص) قال بعد ذلك: «أيها الناس إني لكم فرط وإني أوصيكم بعترتي خيراً، موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلاً مني – أو كنفسي – فليضربن أعناق مقاتليهم وليسبيّن ذراريهم». ذكره ابن حجر في ص75 من الصواعق والهيثمي في المجمع ج9 ص134 وغيرهم.

واستخدم النبي(ص) نفس اللفظة بقوله في قضية بني المصطلق: «لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلكم ويسبي ذراريكم» ثم ضرب بيده على كتف علي(ع). ذكره الزمخشري في تفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آَمنوا إنْ جاءَكُم فاسِقُ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات:6).

واستخدمها النبي(ص) في بني وُليعة كما أخرجه النسائي في خصائصه ص19 والهيثمي في المجمع ج7 ص110 بسند عن جابر بن عبد الله الأنصاري، ورواية أُبيّ أن النبي(ص) قال: "«لينتهينّ بنو وُليعة أو لأبعثن عليهم رجلاً كنفسي ينفذ فيهم أمري فيقتل المقاتلة ويسبي الذرية» فما راعني إلا وكف عمر في حجزتي من خلفي، وقال: من

يعني؟ قلتُ: إياك يعني وصاحبك! قال: فمن يعني؟ قلتُ: خاصف النعل، قال: وعلي(ع) يخصف النعل..." (ويبدو أن أُبيّ بن كعب احتمل أن عمر ربما داعبه الأمل أن يكون هو أو أبا بكر من يعنيهم النبي(ص)، أو ربما يريد أن يصدق أو لا يصدق المراد الذي فهمه ولا شك، فقال له "إياك يعني وصاحبك" على نحو الاستهزاء، بحيث أن عمر عرف أنه يستهزئ فسأله ثانية عن مراد النبي(ص).)

ماذا نستفيد من آية المباهلة؟

وكعادته في الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، فإن السيد شرف الدين نبّه في كتابه (الكلمة الغراء) إلى بعض الأمور المهمة في آية المباهلة، وهي على سبيل الإختصار كالآتي:

أولاً: أن النبي(ص) "لم يدع للمباهلة لا أمهات المؤمنين ولا صفية بنت عبد المطلب وهي عمته ولا أم هاني بنت أبي طالب ولا غيرهن من الهاشميات ولا واحدة من نساء الخلفاء الثلاثة أو غيرهم من المهاجرين والأنصار. كما لم يدع أحداً من أبناء الهاشميين ولا واحداً من أبناء الصحابة، على كثرتهم ووفور فضلهم، مع سيدي شباب أهل الجنة. ومن الأنفس لم يدع مع علي(ع) لا عمه العباس ابن عبد المطلب ولا أحداً آخر من عشيرته الأقربين أو من السابقين الأولين رضوان الله تعالى عليهم".

ثانياً: أن "مباهلته(ص) بهؤلاء الأربعة علي وفاطمة والحسنين(ع) والتماسه التأمين على دعائه بمجرده فضل عظيم بانتخابهم لهذه المهمة العظيمة".

ثالثاً: نبه إلى نقطة "يعرفها علماء البلاغة والراسخون في العلم العارفون بأسرار القرآن وهي أن الآية الكريمة ظاهرة في عموم الأبناء والنساء والأنفس وإنما أطلقت هذه العموميات عليهم بالخصوص تبياناً لكونهم ممثلي الإسلام وإعلاناً لكونهم أكمل الأنام وبأنهم صفوة العالم وخيرة الخلق من بني آدم وتنبيهاً إلى أن روحانيتهم الإسلامية وإخلاصهم لله في العبودية ما ليس في أحد من الناس، فصارت دعوته المباهلة بهم مغنية عن سواهم".

رابعاً: نبّه إلى نقطة أخرى وهي أن "اختصاص الزهراء من النساء والمرتضى من الأنفس مع عدم الاكتفاء بأحد السبطين من الأبناء دليل على تفضيلهم عليهم السلام لأن علياً وفاطمة لما لم يكن لهما نظير في الأنفس والنساء كان وجودهما مغنياً عن وجود من سواهما، بخلاف كل من السبطين، فإن وجود أحدهما لا يغني عن وجود الآخر لتكافئهما. ولذا دعاهم النبي(ص) جميعاً ولو دعا أحدهما دون الآخر لكان ترجيحاً دون مرجح مما ينافي الحكمة والعدل".

خامساً: ما دلّت عليه الآية "من فضيلة لعلي(ع) تضمحل دونها الخصائص وتفنى الفضائل والمناقب ألا وهي كونه نفس النبي(ص) وهو الفضل الذي تعنو له الجبال خضوعاً وإجلالاً وتتصاغر دونه الهمم يأساً من بلوغ مداه ﴿ذلكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفَضلِ العَظيم﴾ (الحديد:21)".

آيات أخرى

هناك آيات من القرآن الكريم نزلت في أهل البيت(ع)، أو تجري عليهم كمصداق، يحتج بها الشيعة على إثبات مذهبهم، نذكر بعضها بشكل سريع جداً.

1 -قوله تعالى: ولكل قوم هاد، ﴿إنَّما أنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾ الرعد:7.

في مستدرك الحاكم ج3 ص129 قال علي(ع): ‹‹قال رسول اللّه(ص) هو المنذر وأنا الهادي››. وأخرجه في كنز العمال ج1 ص251، والهيثمي في المجمع ج7 ص41 وقال علي(ع) إن: ‹‹الهادي رجل من بني هاشم››؛ (علّق الفيروز آبادي (فضائل الخمسة في الصحاح الستة) بالقول: "قوله(ع) ‹‹والهادي رجل من بني هاشم››، يعني به نفسه، فكأنه كره التصريح بإسم نفسه" أي من باب التواضع).

والقول الثالث من الأقوال التي ذكرها الفخر الرازي في تفسير هذه الآية هو المنذر النبي(ص) والهادي علي(ع) قال: "قال إبن عباس: وضع رسول الله(ص) يده على صدره فقال: ‹‹أنا المنذر›› ثم أومأ إلى منكب علي(ع) وقال: ‹‹أنت الهادي، بك يهتدي المهتدون من بعدي››.

وذكر مثله السيوطي في الدرّ المنثور ولكن من رواية أبي برزة الأسلمي. وذكر مثله إبن جرير في التفسير ج13 ص72 وكنز العمال ج6 ص157.

وهي واضحة أن النبي(ص) يوكل مهمة الهداية بعد وفاته إلى علي(ع)، لكيلا يتوهم أن أداة الحصر "إنما" جعلت للنبوة مهمة النذارة فقط، بل للتأكيد على أن استخدام أداة الحصر مع استحالة كون مهمة النبي(ص) للنذارة فحسب هو للتأكيد على ما أراده القرآن من التنبيه إلى دور علي(ع)، دور الهداية بعد النبي(ص).

2 -قوله تعالى: ويتلوه شاهد منه، ﴿أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتلُوهُ شاهِدُ مِنْه﴾ هود:17.

ذكر السيوطي في الدر المنثور رواية عن علي(ع) حيث سأله رجل: "ما نزل فيك من القرآن؟" قال: «أما تقرأ سورة هود ﴿أَفَمنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتلُوهُ شاهِدُ مِنْه﴾؟ رسول اللّه(ص) على بيّنة من ربه وأنا شاهد منه».

وأيضاً في كنز العمال ج1 ص251.

وأيضاً الفخر الرازي في التفسير الكبير ذكر وجوهاً لها، الوجه الثالث منها أن المراد من الشاهد هو علي بن أبي طالب(ع)، والمعنى أنه يتلو تلك البينة، وقوله ﴿منه﴾ أي هذا الشاهد من محمد(ص) وبعض منه، والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد(ص).

أقول: قول الرازي يتوازى مع مسألة أن علياً هو نفس النبي(ص) أو كنفسه في آية المباهلة. ولكن، حتى إن كان المقصود من كلمة ﴿منه﴾ أنه من أهله وقرباه فإن الآية ذكرته(ع) ولم تذكره من سائر المسلمين – قربى أو غيرهم – على أنه يتبع النبي(ص)، وفي هذا دلالة على أن علياً(ع) يجسد الاتباع الحقيقي المثالي لرسول اللّه(ص)، فهو على منهاجه يتبع سننه بحذافيرها دون ميل أو انحراف أو ضعف، وبذا يكون الأولى بالاتباع من غيره.

3 -قوله تعالى: مع الصادقين، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة:119.

ذكر السيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية عن ابن عباس أنه قال: "مع علي بن أبي طالب(ع)". وذكرها ابن حجر في الصواعق المحرقة من ضمن آيات أهل البيت(ع)، وهو يتحدث عن الإمام الرابع علي بن الحسين زين العابدين(ع).

بلا شك أن جمهور المسلمين عندما يقرأ الآية يجد فيها نصيحة عامة أن يكون المؤمن مع الصادقين. ولكن من يدقق فيها يجد أمرين: الأول هو أن الأمر فيه بعض الصعوبة التي تناسبها النصيحة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهذا يدل على أن الأمر ليس بهذه السهولة أن يكون الإنسان مع الصادقين كما هو يتوقع كتصرف عاقل من أي مؤمن؛ الثاني هو أن الآية لا يمكن القطع بأنها تعني أي صادقين في جماعة المؤمنين، بل يمكن جداً أن تعني جماعة مشخصة منهم وصلوا إلى درجة من الصدق – في النية والعمل والتعامل – ما يجعلهم لائقين بوصف "الصادقين"، هكذا دون شروط لا في وجوب في وصفهم بالصادقين ولا في وجوب أن يكون المؤمنون مع الصادقين.

4 -قوله تعالى: بين يدي نجواكم صدقة، ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا ناجَيتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَينَ يَدَي نَجواكُم صَدَقَةً ذلِكَ خَيرُ لَكُم وَأَطهَرُ فإنْ لَمْ تَجِدوا فإنَّ اللَّهَ غَفُورُ رَحِيمُ . أَأَشفَقْتُم أَنْ تُقَدِّمُوا بَينَ يَدَي نَجْواكُم صَدَقاتٍ فَإذْ لَمْ

تَفعَلُوا وَتابَ اللّهُ عَلَيكُم فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُون﴾ المجادلة:12-13.

فقد وردت روايات عديدة أن علياً(ع) هو الوحيد من بين أصحاب النبي(ص) الذي عمل بهذه الآية حتى انتهى الأمر بها كتشريع. ففي سنن الترمذي ج2 ص227 في أبواب تفسير القرآن روى رواية عن علي(ع) أنه لما نزلت الآية سأله النبي(ص): ‹‹ترى ديناراً؟ قلت: لا يطيقونه! قال: فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شُعيرة، قال: إنك لزهيد! قال فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ قال علي: فَبي خفف اللّه عن هذه الأمة››.

ورواه أيضاً إبن جرير في تفسيرة ج28 ص15، والمتقي الهندي في كنز العمال ج1 ص268، والنسائي في خصائصه ص39.

وذكره الفخر الرازي في التفسير الكبير وفسّر معنى قول النبي(ص): ‹‹لعلي أنك لزهيد›› "أنك قليل المال فقدّرت على حسب حالك".

هذا من جانب أما من جانب آخر فإن ما بين نزول الآيتين كان علي هو الوحيد الذي عمل بالآية الأولى في التصدق عندما يريد أن يناجي أي يتكلم مع النبي(ص) لأمر ما، كما أورد ابن جرير ج28 ص14 من تفسيره رواية عن مجاهد قال: قال علي(ع): ‹‹إن في كتاب اللّه عز وجل لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي›› ثم تلا الآية قال: ‹‹فُرضت ثم نُسخت››.

وذكرها الزمخشري في تفسير الكشاف وقال في آخر حديث علي(ع): ‹‹كان لي دينار فصرفته فكنتُ إذا ناجيته تصدقتُ بدرهم››.

وذكره الواحدي في ص308 من أسباب النزول بأنه استمر على هذا الحال حتى نفذ الدينار فنُسخت الآية الأخرى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾.

وصاحب الكنز ج3 ص155 أخرج رواية عن عامر بن واثلة الذي سمع علياً يوم الشورى من خلف الباب عندما ارتفعت الأصوات بين المتشاورين أنه سمعه يقول: ‹‹ناشدتكم باللّه أيها النفر... أفيكم أحد ناجاه رسول الله(ص) إثنتي عشرة مرة غيري حين قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا...﴾ الآية؟››، قالوا: "اللهم لا".

وأكّد ابن عمر هذا في رواية ذكرها الزمخشري في الكشاف يذكر فيها ثلاثاً لعلي هي: تزويجه فاطمة(ع) وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى.

أقول: بغض النظر عما تملكني من العجب من حال المسلمين وامتناعهم القاطع عن التصدق ولو بشيء يسير من أجل سؤال النبي(ص) أو طلب مقابلته ولو للنظر إلى وجهه الكريم، فإن الواضح هو تميز علي(ع) بشكل صارخ يجلب النظر حقاً لكل من يريد معرفة الفارق الهائل بينه(ع) وغيره، بلا ذم لأحد ولكن هذا هو الحال، وهو حال قصه القرآن الكريم في آيات تتلى وستظل تتلى، حتى بعد نسخها، لتعلن الموقف المتفرد لهذا الإمام المتفرد في كل شيء، سلام اللّه عليه.

5 -قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب:56.

وهي آية عظيمة بين النبي(ص) كيفيتها عندما سئل عن كيفية الصلاة لأنهم قالوا أنهم يعرفون السلام (فهماً منهم أن المفعول المطلق "تسليماً" تعني المعنى اللفظي المباشر للسلام؛ وإن كان البعض أعطى التسليم بمعنى التسليم لأمره ونهيه)، فقال(ص): «قولوا: اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

نصّ على أن هذه الآية توضّح أن تمام الصلاة على النبي(ص) هي في الصلاة عليه وعلى آله: الإمام الشافعي في مسنده ج2 ص97، وإبن حجر في الصواعق ص144، والقرطبي في ج14 ص233 من تفسيره الجامع لأحكام القرآن، وإبن العربي المالكي في كتاب أحكام القرآن ج1 ص184، والبخاري في صحيحه ج6 ص12، والواحدي في أسباب النزول ص271، والحاكم في المستدرك ج3 ص148، والفخر الرازي في تفسيره ج25 ص226، وتفسير النيسابوري ج22 ص30، وتفسير روح المعاني للألوسي ج22 ص72، وإبن كثير في تفسيره ج3 ص506، وتفسير الطبري ج22 ص27، وغير هؤلاء ممن أثبت التصلية على أهل البيت كجزء لا يتجزأ من التصلية على النبي(ص).

وقال الرازي في تفسيره ج7 ص391 أن "الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جُعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة... وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، وكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب..." وقال: "أهل بيته(ص) ساووه في خمسة أشياء: في الصلاة عليه وعليهم في التشهد، وفي السلام، والطهارة، وفي تحريم الصدقة، وفي المحبة".

أقول: إن الصلاة على النبي(ص) التي أمر بها الناس لا تدل على وجود محبته فقط فإنه لا دليل على حصر المعنى بهذا. بل يمكن القول بأن الأمر بالصلاة على النبي(ص) إنما هو لجميع المعاني التي للنبي(ص)، كقائد ومبلغ وهاد

وإمام وغيرها، بحيث يطلب لها هذه العناية الإلهية، ولما قرن النبي(ص) آله(ع) معه فقد قرنهم في جميع ذلك مما يليق بهم بعده(ص). وهكذا تكون الآية كما علق عليها الشيخ الأنطاكي (لماذا اخترت مذهب أهل البيت): "وصفوة القول ثبتت خلافة علي(ع) بعد رسول الله(ص) من هذه الآية الكريمة إذ قرنه الله تعالى مع رسوله في ذكر الصلاة عليه كما تقدم. فعليه لا يجوز تقدم أحد عليه كما لا يجوز تقدم أحد على رسول الله(ص).."

الفصل السادس

الحديث الشريف

مقدمة

أحاديث أساسية

أولاً – حديث الثقلين

ثانياً – حديث الإثني عشر خليفة

ثالثاً - حديث المنزلة

رابعاً – حديثا علي(ع) والحق والقرآن

خامساً – حديث يوم الدار

أحاديث أخرى

حديث الحب والبغض . حديث المؤاخاة . حديث الولاية . حديث سدّ الأبواب . حديث النجوى . قاتل علي(ع) هو أشقى الناس . حديث السفينة . حديث الحسنان(ع) سيدا شباب أهل الجنة . حديث الحسنان(ع) سبطان من الأسباط . حديث في حب الحسن(ع) وفي أن النبي(ص) منه . حديث في حب الحسين(ع) وفي أن النبي(ص) منه . حديث المهدي من أهل البيت(ع) ومن ولد فاطمة(ع)

أحاديث متنوعة

‹‹إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما››

(رسول الله(ص))

يأتي الحديث الشريف بعد القرآن الكريم مصدراً ثانياً للنص الديني عند المسلمين، سواء فيما يتعلق بالأصول، أي العقائد، أو الفروع، أي التشريعات، أو النظام الأخلاقي. هناك من الأحاديث ما هو بيان للآيات القرآنية، كما في الآيات التي عرضنا بعضها أعلاه، ومن الأحاديث ما يأتي لتبيان حقائق دينية لم تنطق بها الآيات القرآنية صراحة (على أساس أن القرآن فيه كل شيء) أو لم تنطق بها مطلقاً وترك للنبي(ص) تبيانها إذ قال: ‹‹أوتيت القرآن ومثله معه››.

من الأحاديث ما يعرف بأحاديث الفضائل، وهي لفظة ربما فيها شيء من الخداع إذا أخذت بظاهر لفظها، لأن الكثير من الأحاديث في فضائل أهل البيت(ع) إنتهى من أوردها في كتبهم إلى أنها تظهر فضلهم وعظيم منزلتهم، أو وجوب حبهم، أو غير ذلك من تعبيرات تتوقف عن الدلالة في أن كل هذا – أي الفضل والمنزلة والحب الواجب –يدل على وجوب الاتباع، على الأساس الثابت أن اللّه تعالى لا يحابي أحداً، إذ ليس بينه وبين أحد قرابة، وعلى أساس أن القرآن الكريم كتاب هداية، وأن النبي(ص) هو الصادع بالكتاب والمبين له، وبالتالي ليس هناك مجال للكلام الأدبي أو المدائحي دون هدف هو في العمق من الدين. أعني أن ما يسمى بأحاديث الفضائل بخصوص أهل البيت(ع) هي في الحقيقة أحاديث أصول الدين وفروعه وأخلاقياته، لا تنفك عن ذلك مطلقاً.

ولكن إذا كان تعامل بعض المفسرين والعلماء مع آيات الكتاب العزيز على الشاكلة التي ذكرنا بعضها، من الفشل في تبيان الدلالة، فكيف بتعاملهم مع الحديث الشريف الذي هو أدنى رتبة من آيات الكتاب؟

أدناه سآتي على ذكر بعض الأحاديث الشريفة التي وردت عن المصطفى(ص) في حق أهل بيته(ع) مما له العلاقة المباشرة بموضوع دور أهل البيت(ع) في الإسلام، ذلك الدور الذي انفتحت عليه بهداية اللّه تعالى وتوفيقه. وسأبين بشكل سريع دلالات الأحاديث كما فهمها العلماء وكما فهمتها (وسأترك الكثير من ذلك إلى أجزاء أخرى من الكتاب).

(يرجى مراجعة الملحق للمزيد من مصادر الأحاديث وبعض المناقشات والملاحظات.)

وبما أن لكتابي البخاري ومسلم، صحيح البخاري وصحيح مسلم، أهمية مميزة عند المسلمين السنة فإن الأحاديث التي أخرجها محمد بن اسماعيل البخاري في صحيحه ومسلم النيسابوري في صحيحه تكتسب أهمية أكثر من غيرها مما يعد من الصحاح (صحيح الترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجة) حتى وإن كانت أحاديثها قد أخرجها أصحابها على شروط الحديث الصحيح، وبالتأكيد أكثر من غيرها من أحاديث أخرجت في كتب حديثية أخرى (مثل سنن البيهقي وسنن الدارمي ومستدرك الحاكم ومسند الإمام أحمد بن حنبل وغيرها). هذا مع ملاحظة توقفت لمعرفتها منذ السنين الأولى في رحلتي هذه وهي أن هذا التقسيم لكتب الحديث ليس تقسيماً عليه الإجماع منذ حين تأليفها ولحد الآن، وإنما جرى عليها ما جرى على غيرها من الأمور، مثلاً مذاهب أهل السنة وكيف صارت مقتصرة على أربعة في الوقت الذي كان هناك أئمة فقه في منزلة أئمة المذاهب الأربعة المعروفين الآن بل ربما كانوا أعلى منهم شأناً وفقاهة ولكن لم يحالفهم الحظ في دنيا المذاهب إما لتقصير من جانب طلابهم في نشر آرائهم وفتاواهم أو لعدم اختيار السلطان لمذاهبهم لسبب أو آخر أو ربما لعوامل أخرى. فقد اتهمت أحاديث البخاري ومسلم – والحق كل الحق للمتهمين لأن هناك أحاديث مخالفة بشكل واضح للقرآن الكريم وأخرى مخالفة لبديهيات العقل والعلم أو السنة القطعية، بإن البخاري نفسه اعترف بعدم تمامية أحاديثه، قال: "رُبَّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر، فقيل له: يا أبا عبدالله بكماله – أي كتبته تاماً كاملاً –؟ فسكت" (فتح الباري ج2 ص11) –، في نفس الوقت الذي وصفت بعض الكتب الأخرى بأوصاف الصحيحين في المرجعية الحديثية – كما وصف الإمام أحمد بن حنبل مسنده بقوله: "عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله رُجع إليه" (أضواء على السنة المحمدية ص324) – مع أنها تعد أقل رتبة بكثير من الصحيحين.

كما توصلت إلى ملاحظة أخرى مهمة لها علاقة مباشرة بموضوعنا، مفادها أن الأحاديث التي تخص أهل البيت(ع) – وكلها فضل وعلم ومواقف كبيرة – تتعرض لما لا يتعرض له غيرها من أحاديث، خصوصاً التي التي تتعلق بمعاصريهم من المنافسين والمناوئين والمخالفين والأعداء، في شكل كتمان وتعتيم، فأن ذكرت فإلى بتر وتقطيع (بعبارة أخرى، عملية مونتاج!)، فإن ذكرت كلها فإلى تحوير وتحريف، فإن ذكرت كلها دون تحريف فإلى اتهام بالوضع والاختلاق، فإن ذكرت دون ذلك كله فإلى صرف عن المعنى والدلالة، وبعد هذا كله تتعرض الأحاديث إلى تناس وتجاهل في الخطب والمقالات والمواعظ وجميع أشكال التواصل مع الأمة. وبهذا، فإن الحديث – أي حديث – يخرجه البخاري أو مسلم يصبح له الأهمية العظمى، فعندما يأتي الدور إلى حديث في علي(ع) أو أهل البيت(ع) في كتاب البخاري أو مسلم فإن الجهود تنصب على محاولة صرفه عن معناه والتقليل من شأنه. وأما الأحاديث الخاصة بعلي وآل علي(ع) في غير الصحيحين فإن التعامل معها يتم على أساس الاستماع السلبي ثم المطالبة بأحاديث بديلة من البخاري أو مسلم! فإن رجعت وأتيت بالأحاديث من البخاري ومسلم،

عاد اللف والدوران إلى أن تصل إلى نقطة تتم المطالبة فيها بآيات من القرآن الكريم، فإن جئت بالآيات بدأ اللف والدوران حول تفسيرها ودلالاتها، فإن حاولت الإتيان بالتفسير من كتب المفسرين وفيها الأحاديث النبوية التي تؤكد نزولها في أهل البيت(ع) ودلالاتها الهامة رجعنا إلى المطالبة بأحاديث البخاري ومسلم، وهكذا دورة جديدة – البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة؟!

صحيح أن المحدثين كانوا لا يتعاملون مع الأحاديث المتعلقة بالتشريعات كتعاملهم مع أحاديث الفضائل، قالوا: "إذا روينا في الحلال والحرام شدّدنا وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا" (أضواء على السنة المحمدية)، ولكن لماذا يتم الالتفات إلى هذه الحقيقة عندما ينظر في فضائل أهل البيت(ع) في حين يكون التساهل على أشده عندما ينظر في أحاديث فضائل غيرهم؟!

لا شك في أن الحديث الشريف قد تعرض إلى الكثير من الوضع والتحريف والكتمان، ولا شك في أن الفرق الإسلامية مارست الكذب والوضع وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً في الكذب لنصرة مذاهبهم، على أساس قول بعضهم "نحن نكذب له – أي للنبي(ص) – لا عليه" بمعنى لنصرة دينه(ص) وبالتالي لا مشكلة في هذا الكذب! ولا شك في أن بعض شروط كتب الحديث أشد من غيرها وبالتالي لم تذكر فيها أحاديث أقل درجة من شروطها. ولا شك أيضاً أن نفس تلك الكتب أخرجت أحاديث لا يمكن قبولها مع أن المفروض أنها بأعلى درجات الصحة. ولا شك في أن لأساليب الحكام في الترغيب والترهيب يداً طولى في هذه الحال، مما أدى إلى قلة أحاديث أهل البيت(ع) – سواء المروية عنهم أو المروية فيهم – في أحاديث الصحيحين البخاري ومسلم، ثم بدرجة أقل في غيرهما كالترمذي مثلاً، ثم بدرجة أقل في غيرها كمسند أحمد ومستدرك الحاكم.

أردت التنبيه على هذا الحال حتى لا يقع القارئ فريسة هذه الطريقة البعيدة عن التفكير العلمي، دع عنك النية الصادقة في معرفة الحقيقة.

أحاديث أساسية

أولاً - حديث الثِّقلَين، وهو قول النبي(ص): ‹‹أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به – فحث على كتاب الله ورغب فيه – ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي›› صحيح مسلم رواية 4425.

وورد الحديث بألفاظ مختلفة، منها قوله(ص): ‹‹يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي›› صحيح الترمذي رواية 3718، والنسائي ص96 رواية 79، ومسند أحمد رواية 10681 ورواية 10707 ورواية 10779 ورواية 11135 ورواية 20596، وذلك بألفاظ مختلفة قليلاً، وسنن الدارمي رواية 3182، وغيرهم.

ومنها قوله(ص): ‹‹إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما›› أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم رواية 3720، والمتقي الهندي في كنز العمال ج1 ص172 حديث 872 و 873.

ومنها قوله(ص): ‹‹إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض›› أخرجه الحاكم في المستدرك ج3 ص148 وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين أي البخاري ومسلم".

وقوله(ص): ‹‹إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما›› رواه الإمام أحمد في مسنده ج3 ص17-26، وابن أبي شيبة في المصنف ج7 ص418، وغيرهما.

وقد روى مسلم هذا الحديث الحاسم في روايات أربع، قال في إحداها أن النبي(ص) قال الحديث في "غدير خُم" (أنظر حديث الغدير في آخر الفصل)، وهذه هي الرواية التي ذكرناها أعلاه، نذكرها الآن بتمامها.

ففي باب فضائل الصحابة باب فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني زهير بن حرب وشجاع بن مخلد. جميعا عن ابن علية. قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم. حدثني أبو حيان. حدثني يزيد بن حيان. قال: "انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت، يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا، يا زيد! ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يا ابن أخي! والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا، فلا تكلفونيه. ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيباً، بماء يدعى خماً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: ‹‹أما بعد، ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين :أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به›› فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: ‹‹وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي،

أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي››. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟! أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: وهم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم."

وأخرج مسلم الحديث في رواية ثانية عن محمد بن بكار بن الريان، حدثنا حسان (يعني ابن إبراهيم) عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وساق الحديث بنحوه، بمعنى حديث زهير.

وأخرج الحديث في رواية ثالثة عن أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، كلاهما عن أبي حيان، بهذا الإسناد، نحو حديث إسماعيل، وزاد في حديث جرير ‹‹كتاب الله فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضل››.

وأخرج مسلم الحديث في رواية رابعة عن بن بكار بن الريان. حدثنا حسان (يعني ابن إبراهيم) عن سعيد)وهو ابن مسروق) ، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم. قال: "دخلنا عليه فقلنا له: قد رأيت خيراً، لقد صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصليت خلفه" وساق الحديث بنحو حديث أبي حيان، غير أنه قال: ‹‹ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة››. وفيه: "فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال :لا، وأيم الله! إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها – أهل بيته أصله، وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده".

ويبدو أن النبي(ص) ذكر الثقلين في خطبته في غدير خم (يوم 18 ذي الحجة بعد عودته من حجة الوداع سنة 10هـ) مع إعلانه ولاية علي(ع) في قوله المشهور ‹‹مَنْ كُنتُ مَولاهُ فَعَلِيٌّ مَولاه››. فقد روى الحاكم (المستدرك ج3 ص109 و ص133) أن النبي(ص) قاله عندما نزل غدير خم بعد رجوعه من حجة الوداع قال: ‹‹كأني دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض›› ثم قال: ‹‹إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن›› ثم أخذ بيد علي(ع) فقال: ‹‹من كنت مولاه فهذا وليّه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...››، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين". وأيضاً عن عبد الله عن حنطب قال: "خطبنا رسول الله بالجحفة فقال: ‹‹ألست أولى بكم من أنفسكم؟›› قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ‹‹فإني سائلكم عن إثنين: القرآن وعترتي››.

وأخرجه الطبراني (نقله الهيثمي في المجمع ج5 ص195) والسيوطي في إحياء الميت (أقول: وكثيرون غيرهما كابن الأثير في أسد الغابة ج3 ص147، والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص386).

(أنظر مصادر الحديث الأخرى في الملحق.)

إن حديث الثقلين، الذي روي عن ما يقرب من عشرين صحابياً (ذكرناهم في الملحق) أعده شخصياً أهم الأحاديث التي ترسم دور أهل البيت(ع) بشكل متكامل. فلو قرأنا الحديث مرة واحدة، ولو بشكل بسيط، فإننا نجد أن النبي(ص) أعلن للأمة حقيقة الأئمة من أهل بيته ودورهم ومسؤولية الأمة تجاههم والموقف الذي سيكون منه(ص) في هذا الشأن. لنقرأ رواية مسلم الأولى:

«أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به – فحث على كتاب الله ورغب فيه – ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»...

- أيها الناس: خطاب للناس جميعاً، ولاسيما الصحابة الذين كانوا يستمعون
- فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب: حالي حال البشر في الحياة والموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُم مَيِّتُون﴾ الزمر:30، وأن رحيلي عنكم قريب لأن الملك "يوشك" أن يأتي، وإني سأجيب وأرحل عنكم
- وأنا تارك فيكم ثقلين: أترك في الأمة مما يتركه المسافر، في سفري الذي لا عودة معه، الأمرين التاليين...
- كتاب الله الذي فيه الهدى إلى الحق والنور من الظلمات، آمركم أن تعملوا به ولا تحيدوا عن أوامره ونواهيه بما هو التمسك الحقيقي
- وأهل بيتي، من تعرفونهم بينكم علي وفاطمة والحسن والحسين
- أطلب منكم التعامل معهم أشد ما يكون الطلب بحيث تضعون الله نصب أعينكم في تعاملكم معهم

والآن كيف التعامل معهم؟ تجيب عليه الروايات الأخرى...

«ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»، «وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، «فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»...

ماذا يعني أنهما "لن يتفرقا" أو "لن يفترقا"، وماذا يعني استمرار ذلك حتى يوم القيامة "حتى يردا علي الحوض"؟ هل أنهما لا يتفرقا فيزيائياً، أي ماديّاً؟ لم يقل أحد بهذا لأنه لا معنى لأن يبقى أهل البيت(ع) مع القرآن في التصاق مادي حتى بعد وفاة كل منهم وإلى ما بعد البعث والنشور. إذاً، لن يتفرقا بمعنى أن أهل البيت(ع) لن يكونوا بعيدين عن القرآن مطلقاً، وهذا يعني أنهم لن يحيدوا عن القرآن قيد أنملة. أي أن عملهم بالقرآن الكريم سيكون تاماً كاملاً. فمن يقوى على ذلك غير المعصوم الذي لا يمكن أن يرتكب الخطأ ولا

الخطيئة، وذلك لعصمته من الذنب ﴿يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً﴾ ولعلمه بكل ما يحتاجه في وظيفة إمامته ﴿ولكل قوم هاد﴾.

ولكيلا يقول أحد من ضعاف الإيمان أن النبي(ص) كان يحابي عترته الأدنين – كما حصل من البعض في مناسبات عديدة – فإنه(ص) أكد أن هذه الحالة المعصومة «لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» إنما هي من إخبار «اللطيف الخبير» العليم بكتابه الكريم وبهؤلاء النفر الكريم الذين خلقهم لحمل المسؤولية الكبرى، مسؤولية الهداية إلى دين نبيه وصفيه محمد(ص).

إن أي إنسان له أدنى معرفة باللغة لا يفهم من هذا الحديث، بصيغه المختلفة، شيئاً آخر؟ هل هناك مجال لفهم آخر غير هذا؟ وإذا كان هذا الحديث قد أخرجه مسلم في صحيحه، وأخرجه أصحاب الصحاح والأسانيد من المحدثين، ورواه المفسرون، وذلك عما يقرب من عشرين صحابياً، ناهيك عن التابعين الذين رووه عنهم، فهل يبقى هناك عذر لأي أحد أن لا يضع هؤلاء الصفوة من آل محمد(ص) في موقعهم المتميز عن غيرهم من الناس، كما هو تميز كتاب الله تعالى الذي قرنوا به وأخبرنا أنهم والكتاب لن يتفرقا بل لن يفترقا مطلقاً؟

وإذا كان التمسك بكتاب الله من الأمور البديهية عند المسلمين فإن حديث الثقلين يجعل التمسك بأهل البيت(ع) بديهياً أيضاً. ولكن النبي(ص) لم يترك ذلك للف والدوران، لذا جاءت الأحاديث بألفاظ "التمسك" كأمر واضح من النبي(ص). ففي حديث المستدرك (ج3 ص109) يقول(ص): «أيها الناس اني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن اتبعتموهما وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي»، فالأمن من الضلال هو في "اتباعهما" وليس اتباع القرآن وحده.

أو ما رواه السيوطي الشافعي (الدر المنثور ج2 ص6) بسنده عن الصحابي أبي سعيد الخدري، رواية عن طبقات ابن سعد ومسند الإمام احمد بن حنبل ومعجم الحديث للطبراني، أن النبي(ص) قال: «أيها الناس إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي، أمرين احدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والارض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض».

والمسألة ليست متروكة للناس إن أعجبهم أن يأخذوا بالثقلين أو يتمسكوا بالثقلين أو يتبعوهما ويأمنوا من الضلال أم لا، وإنما هو أمر واضح، بلحاظ:

أولاً: الحث على التمسك بكتاب الله، وبالتالي التمسك بمن جعلهم عدلاً للكتاب

ثانياً: قوله «أنظروا كيف تخلفوني فيهم» أو «فإني سائلكم عن إثنين...» وما أشبه في روايات الحديث الكثيرة، فإنه يقول للأمة إنه سيطلع على كيفية تعاملهم مع الثقلين، الكتاب والعترة، وسيسأل الأمة عن ذلك يوم القيامة.

وهذه الألفاظ في التوضيح والتبيان قد بلغ النبي(ص) فيها الغاية في الموجز من البيان الذي يفهمه الجميع، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً – حديث الإثني عشر خليفة، وهو قول النبي(ص): ‹‹يكون بعدي إثنا عشر أميراً›› أو ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة››.

مما يلفت نظر كل باحث في موضوع الإمامة، ولاسيما فيما يعرضه شيعة أهل البيت(ع) من حجج يبنون عليها موقفهم العقدي من الإمامة، هو هذا العدد: 12. فإن حديث النبي(ص)، الذي رواه المحدثون في كتبهم بألفاظ مختلفة، ينص على:

إثني عشر شخصاً يكونون بعده، أمراء أو خلفاء أو قيّمين، وفي بعضها هناك توصيف لحال الدين في ظل هؤلاء الأمراء أو الخلفاء ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً›› أو ‹‹الإسلام لا يزال عزيزاً›› أو ‹‹لا يزال الإسلام عزيزاً منيعاً›› أو ‹‹لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة››؛

وفي بعضها الآخر توصيف لحال الأمة في ظل هؤلاء الإثني عشر ‹‹لا يزال أمر الناس ماضياً›› أو ‹‹لا يزال أمر أمتي صالحاً››؛

وفي هذه الأحاديث حصر لانتماء هؤلاء الإثني عشر إلى قريش، وبعضها حصرهم في بني هاشم؛

وفي بعض هذه الروايات الإشارة إلى خذلان الناس لهؤلاء الإثني عشر ‹‹لا يضرّهم من خذلهم››، وأنهم في الحصيلة النهائية منتصرون ‹‹ينصرون على من ناواهم››.

وقبل أن نمر على أجزاء الحديث هذه أذكر بعض الروايات (أترك الباقية في الملحق).

<u>عدد الإثني عشر</u>

1 - قال جابر بن سمرة: سمعت النبي(ص) يقول: ‹‹يكون اثنا عشر أميراً››، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح البخاري ج4 ص175).

2 - قال جابر بن سمرة: سمعت النبي(ص) يقول: ‹‹لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم إثنا عشر رجلاً››، ثم تكلم النبي(ص) بكلمة خفيت عليّ، فسألت أبي ماذا قال رسول الله(ص)؟ قال: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح مسلم ج2 ص191).

3 - قال جابر بن سمرة: سمعت رسول الله(ص) يقول: ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة››، فكبّر الناس وضجّوا، ثم قال كلمة خفيت، قلت لأبي: يا أبه ما قال؟ قال: ‹‹كلهم من قريش›› (سنن أبي داود ج2 ص107).

4 - قال جابر بن سمرة: قال رسول الله(ص): ‹‹يكون بعدي اثنا عشر أميراً››، ثم تكلم بشيء لم أفهمه، فسألت الذي يليني، فقال: ‹‹قال كلهم من قريش›› (صحيح الترمذي ج2 ص45).

5 - عن عون بن جحيفة عن أبيه قال: كنت مع عمي عند النبي(ص) قال: ‹‹لا يزال أمر أمتي صالحاً حتى يمضي اثنا عشر خليفة››، ثم قال كلمة وخفض بها صوته، فقلت لعمي وكان أمامي: ما قال يا عم؟ قال: قال النبي(ص): ‹‹كلهم من قريش›› (المستدرك على الصحيحين ج3 ص618).

6 - قال(ص): ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة، كلهم من قريش››، قيل: ثم يكون ماذا؟ فقال(ص): ‹‹ثم يكون الهرج›› (تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج2 ص34، أخرجه الأربعة إلا النسائي).

7 - قال جابر بن سمرة: كنت مع أبي عند النبي(ص) فسمعته يقول: ‹‹بعدي اثنا عشر خليفة››، ثم أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته؟ قال: ‹‹كلهم من بني هاشم›› (ينابيع المودة ص445).

8 - قال سماك بن حرب: سمعت جابر بن سمرة يقول: سمعت رسول الله(ص) يقول: ‹‹ألا إن الإسلام لا يزال عزيزاً إلى اثني عشر خليفة"، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح أبي داود ج2 ص180).

9 - قال جابر بن سمرة: سمعت رسول الله(ص) يقول: ‹‹لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش››.

وفي رواية: ‹‹لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً كلهم من قريش››.

(هذا، وهناك في التوراة النص على النبي محمد(ص) وعلى إثني عشر "عظيماً" من نسل إسماعيل، سنذكره في مورد آخر.)

أخيراً، فإن هذا العدد، 12، شكل مشكلة لكل من لا يتبع أهل البيت(ع) لأن البحث لا بد أن يقود إلى من هم هؤلاء الإثنا عشر؟

فمن هم هؤلاء الإثنا عشر؟

الروايات أعلاه حددت العدد بإثني عشر، ولكنها لم تشخص هؤلاء بالإسم. إلا أن هناك روايات تحدد هؤلاء بأنهم علي(ع) وأولاده. على أن هذه الروايات تعد ضعيفة عند أهل السنة فلا يعتد بها في البحث، ولكني أذكرها هنا لأن هؤلاء الإثني عشر الذين تحددهم يتوافقون بالضبط مع الإثني عشر الذين يستنتجون من روايات عدد الإثني عشر الواردة أعلاه.

نذكر هنا ما أورده الشيخ سليمان القندوزي، وهو شيخ حنفي ولكن البعض لا يعتبره حجة على أهل السنة لأنه متصوف (وأن التصوف فرع التشيع حسب ما يقولون!)، أو لأنه "رافضي" (وبالتالي محترف للكذب حسب افترائهم). وأنا شخصياً أظن أن الرجل كان شيعياً في داخله وإن لم يعلن عن ذلك لأن كلامه لا يستقيم مع عقيدة أهل السنة في الإمامة. ولكني أذكر الروايات من كتابه "ينابيع المودّة" وتعليقه عليها، لسببين: الأول هو أنها روايات مروية وبالتالي تليق بالبحث الروائي كأي روايات غيرها (فإن الروايات التي "فقأ" فيها موسى(ع) عين ملك الموت أو التي سرق فيها "حَجَر" ثيابه(ع) أو التي فيها ينام النبي(ص) في "حِجْر" زوجة عبادة بن الصامت (رض) وهي "تفلّي رأسه من القمل" ليست أولى بالبحث من غيرها لكونها في صحيح البخاري، لأن الكلام المرفوض بداهة لا يصبح مهماً فقط لأن البخاري رواه، كما أن الكلام المقبول – بلحاظ روايات أخرى – لا يرفض لمجرد عدم روايته من البخاري أو غيره من المعتد بهم عند البعض)، والسبب الثاني لأنها مروية في كتاب ألفه صاحبه (القندوزي) – فيما يبدو – كإعلان لتسليمه بآية المودة فسماه "ينابيع المودة"، وهي إشارة عسى أن تلفت نظر بعض القراء إلى أهمية المودة المطلوبة أجراً على الرسالة (راجع الفصل السابق).

(1) أخرج القندوزي الحنفي في ينابيع المودة (ج2 ص315 رواية 910) عن ابن عباس قال: "سمعت رسول الله(ص) يقول: ‹‹أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون››".

(2) حديث آخر (ج2 ص315 رواية 909) عن سلمان قال: "دخلت على النبي(ص) فإذا الحسين على فخذيه وهو يقبّل خديه ويلثم فاه ويقول: ‹‹أنت سيد إبن سيد أخو سيد، أنت إمام إبن إمام أخو إمام، أنت حجة إبن حجة أخو حجة أبو حجج تسعة تاسعهم قائمهم المهدي››.

(3) وحديث ثالث (باب 95 من المناقب) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي(ص) قال: ‹‹يا جابر إن أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدي أولهم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف بالباقر، ستدركه يا جابر فإذا لقيته فأقرءه مني السلام، ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم القائم، إسمه إسمي وكنيته كنيتي إبن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله تبارك وتعالى على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن أوليائه غيبة لا يثبت القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان...››

(4) وهناك في كتابه أحاديث أخرى منها تروي أن النبي(ص) نص على أسماء الأئمة(ع) من أهل بيته ردّاً على اسئلة بعض اليهود الذين أسلموا.

قال الشيخ سليمان القندوزي (ينابيع المودة ص446): "قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده(ص) اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان، وتعريف المكان، علم أن مراد رسول الله(ص) من حديثه هذا الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذا لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء من بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر، ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز، ولكونهم غير بني هاشم في رواية عبد الملك عن جابر، وإخفاء صوته(ص) في هذا القول يرجح هذه الرواية، لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم. ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور، ولقلة رعايتهم الآية ﴿قُلْ لا أسأَلُكُم عَلَيهِ أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾ وحديث الكساء. فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته(ص)، لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم، وأجلّهم، وأورعهم، وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله. وكان علمهم عن آبائهم متصلاً بجدهم(ص)، وبالوراثة، واللدنية، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق، وأهل الكشف والتوفيق. ويؤيد هذا المعنى، أي أن مراد النبي(ص) الأئمة الإثني عشر من أهل بيته، ويشهد له ويرجحه، حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها. وأما قوله(ص): «كلهم تجتمع عليه الأمة» في رواية عن جابر بن سمرة، فمراده(ص) أن الأمة تجتمع على الإقرار بإمامة كلهم وقت ظهور قائمهم المهدي رضي الله عنهم.

ومما يؤكد إمامتهم عليهم السلام تتبع الحكام لهم في العهد الأموي والعباسي، مع عدم تصديهم لطلب الحكم والرئاسة، كل ذلك لما عرفه المسلمون لهم من الإمامة، لنص الرسول الأعظم(ص) عليهم. ومما هو جدير بالذكر: أن الإمام الحسن العسكري(ع) استشهد وهو في الثامنة والعشرين من عمره الشريف، فكان الطلب الحثيث من الدولة في التفتيش عن ولده، حتى أنهم حبسوا بعض جواريه خوفاً من أن يكون لدى بعضهن حمل، كل ذلك لما علموه من أن الأئمة اثنا عشر وأن آخرهم قائمهم، وإلا ما معنى الطلب الشديد على طفل في الخامسة من عمره، وما مقدار أثره على الدولة".

أقول: إني وجدت هذا الحديث في غاية الأهمية في أي بحث في الإمامة، فإنه من المعروف الصراعات والنزاعات والكوارث التي حصلت في الأمة جراء أمر الإمامة والخلافة والمُلك، فعندما ينص النبي(ص) على إثني عشر خليفة أو أميراً أو قيّماً من بعده فإنه لا بد من النظر في شأن هؤلاء، أولاً لأن النبي(ص) لا يمكن أن يكون قال ذلك عبثاً فإنه ﴿وَما يَنطِقُ عَنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحى﴾ (النجم:3-4)، وإنما أراد التنبيه إلى هؤلاء، ولاسيما

وهو يحدد أوصافاً لحالهم مع الأمة وحال الأمة معهم، بل وحال الدين في ظلهم، وثانياً لأن إشارة النبي(ص) إلى أنهم منصورون ولا يضرهم من خذلهم يجعل المرء يفتش في المعنى وفي الواجب تجاه ذلك.

إن ما أشار إليه الشيخ سليمان القندوزي يقطع الشك في أن هؤلاء الإثني عشر لا يمكن أن يكونوا من الأمويين ولا من العباسيين (ونحن نضيف ولا ممن جاء بعدهم من العثمانيين الذين هم ليسوا من قريش أصلاً). كما أن عدم إيمان أي طائفة من طوائف المسلمين بإثني عشر إماماً عدا طائفة الشيعة الإثني عشرية (وإسمها من هذا العدد قيد البحث) لا يجعل هناك مجالاً للخلاف فيمن هم هؤلاء. لأنه إن كان الإثنا عشر الذين تؤمن بهم الشيعة الإثني عشرية ليسوا أولئك الإثني عشر في أحاديث النبي(ص) فأين صار أولئك الإثني عشر الذين أشار النبي(ص) إليهم، وفي إشارات تحدد معالم واضحة لهم؟

أي أنه بالإضافة إلى ما ذهب إليه القندوزي من إمامة الإثني عشر من أهل البيت(ع) بالاستناد إلى أنهم "أعلم أهل زمانهم، وأجلّهم، وأورعهم، وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله" ولأن "علمهم عن آبائهم متصلاً بجدهم(ص)" ما يجعلهم الوحيدين اللائقين للإمامة الحقة، فإن عدم الإيمان بإثني عشر إماماً من أي طائفة عدا الشيعة الإثني عشرية لا يجعل من المنطقي البحث في مكان آخر عن الإثني عشر الذين عناهم النبي(ص) لمجرد أن الشيعة يؤمنون بهؤلاء!

طبعاً، حاول البعض أن يؤلف قائمة بإثني عشر خليفة حسب هواه، فعد الراشدين الأربعة، ثم عد معاوية بن أبي سفيان وبعض خلفاء الأمويين، ومنهم عمر بن عبد العزيز، ثم قفز إلى محمد المهدي العباسي (إبن أبي جعفر المنصور) بناء على سيرته (الأفضل من سيرة والده وعمه من قبله)، فكانوا ثمانية. فأين الأربعة الآخرون؟ قالوا إنهم سيأتون في المستقبل!

وكما ترى، فإني لم أستطع أن أقتنع بمثل هكذا تناول عشوائي لحديث النبي(ص). وعلى كل حال، فإن علماء أهل السنة أنفسهم غير مقتنعين بمثل هكذا تناول، الأمر الذي يدل عليه محاولتهم تناسي هذا الحديث المهم وكتمانه عن أتباعهم من الناس، فلو كانوا يرون مثل هذه القائمة من الخلفاء (على ما فيها من مفارقات) سائغة لتفسير حديث النبي(ص) – المروي في أصح الكتب الحديثية – فإنهم كانوا سيناضلون بها لرد ما يقوله الشيعة الإثني عشرية.

ويلفت الشيخ القندوزي النظر إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي تتبّع ملوك بني أمية والعباس لهؤلاء الإثني عشر، أي محاصرتهم ومراقبتهم وسجنهم واضطهادهم، مع أنهم(ع) لم يطلبوا الملك. فهل يعقل أن ملوك الأمويين والعباسيين يفعلون كل تلك الأفاعيل المعرضة لعذاب الله تعالى لمجرد أوهام في أذهان الشيعة؟! لا بد أن أولئك الملوك كانوا يعلمون علم اليقين دور أولئك الأئمة من أهل البيت(ع) والخطر الدائم من التفاف الناس حولهم وهم

يرون الفارق الهائل، في علمهم وعملهم وهديهم وتقواهم، بينهم وبين الملوك الأمويين والعباسيين، فكانت الملاحقة والاضطهاد والتصفية الجسدية.

النقطة الهامة الأخرى في حديث النبي(ص) هي التي تعطي وصفاً لحال الدين وحال الأمة في ظل هؤلاء الإثني عشر. فإن الدين أو الإسلام يبقى "عزيزاً أو منيعاً أو قائماً"، وهذا غير مشاهد على المستوى الخارجي لأن الجمود والتخلف هو الصفة الغالبة منذ قرون. فلا بد أن يكون المعنى في عزة الإسلام ومنعته هو في حقيقة الإسلام والدين الذي يمثله هؤلاء الإثنا عشر، بمعنى أن عزة الدين ومنعته هي مما أعطته مدرسة هؤلاء الإثني عشر إماماً للناس بحيث لا يخشى على الدين والإسلام شيء على الرغم من كثرة الأعداء وضعف الأمة.

نفس الشيء في وصف حال الأمة "صالحاً أو ماضياً" في ظل هؤلاء الإثني عشر، فإن المشاهد هو أن أمر الأمة في انتكاس مستمر منذ قرون، وهي في التشتت والانخذال والذل إمام الأعداء بما لا يحتاج إلى بيان. إذاً، لا بد أن يكون المعنى هو: إن الأمة إذا ما اتبعت هؤلاء الإثني عشر فإن أمرها سيكون صالحاً أو ماضياً.

أما الواجب تجاه ذلك فلا بد من تحديده ههنا: هل هو التفرج على تعامل الأمة مع هؤلاء الخلفاء أو الأمراء على أساس أنه صراع على السلطة، أم أنه الاصطفاف معهم، أم الاصطفاف مع أعدائهم؟ إن أحاديث النبي(ص) تقول: «لا يضرهم من خذلهم» وأنهم «ينصرون على من ناواهم»، فهل أن المقصود هم الحكام المسيطرون على السلطة؟

قلنا أن تحديد عدد الخلفاء أو الأمراء بإثني عشر لا ينطبق إلا على أئمة أهل البيت(ع)، وأن أي مراجعة سريعة خاطفة للتاريخ تثبت بشكل قاطع أن هؤلاء الإثني عشر خليفة من أهل البيت(ع) خذلهم معظم الأمة، وأنهم ناواهم الحكام والولاة وبعض العلماء وكثير من الناس، ولكن – في نفس الوقت – كانوا يزدادون ارتفاعاً واشتهاراً، دون أن "يضرهم من خذلهم"، وكان الأمر ينتهي بهم إلى حسن الذكر والحب الخالد عند الناس مثلما ينتهي بمن ناواهم إلى سوء الذكر لمن ناواهم عند الناس، من باحثين ومؤرخين وشعراء وعلماء وعوام، وهذا هو النصر الحقيقي.

وبالتالي فإن الحديث هو هكذا: سيكون الدين عزيزاً منيعاً وأمر الأمة ماضياً بوجود الإثني عشر من أهل بيتي، حتى وإن ناوأهم حكام زمانهم ومن سار في ركابهم، وحتى وإن خذلهم أولئك والناس الذين ساروا في خطهم.

وبعد، فهل هناك شك في أن الكلمة التي قالها النبي(ص) بإخفات كانت «كلهم من بني هاشم» وليست «كلهم من قريش»؟ بالنسبة لي، لم يكن هناك أي جواب مقنع غير هذا.

ثالثاً - حديث المنزلة، وهو قول النبي(ص) لعلي: ‹‹ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟››، وفي بعض الروايات إضافة ‹‹... إلا أنه لا نبي بعدي›› كما في رواية البخاري في صحيحه.

وهو الحديث الذي قاله النبي(ص) عندما خرج(ص) إلى غزوة تبوك فاستخلف علياً(ع) في المدينة، فلعلها المرة الوحيدة لأنه(ع) قائد غزوات النبي(ص)، فاشتكى في ذلك للنبي(ص) فأجابه بهذا الجواب. كما وردت روايات تقول أن هذا الحديث الشريف كان في مناسبات أخرى أيضاً غير غزوة تبوك.

وفيها رواية أخرى أن البعض انتهزها فرصة للطعن في علي(ع) بأن قالوا: "إنما خلّفه لشيء كرهه منه"، فذهب علي(ع) وذكر ذلك للنبي(ص) فتضاحك وقال: ‹‹يا علي أما ترضى أن تكون مني كهارون من موسى إلا أنك لست بنبي؟›› قال: ‹‹بلى يا رسول الله››، قال: ‹‹فإنه كذلك››.(فتح الباري ج7 ص60، وطبقات ابن سعد ج3 ص24، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج42 ص186، وأنساب الأشراف للبلاذري ص96)

وذكر الأنطاكي ص163 قول الأميني في الغدير ج3 ص199: "قوله ‹‹أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى›› هو إثبات كل ما للنبي(ص) من رتبة وعمل ومقام ونهضة وحكم وإمارة وسيادة لأمير المؤمنين عدا ما أخرجه الاستثناء من النبوة، كما كان هارون(ع) من موسى(ع) كذلك، فهو خلافة عنه(ص) وإنزال لعلي(ع) منزلة نفسه لا محض استعمال كما يظن الظانون، فقد استعمل(ص) قبل هذا على البلاد أناساً وعلى المدينة آخرين وأمّر على السرايا رجالاً لم يقل في أحد منهم ما قاله في هذا الموقف، فهي منقبة تخص أمير المؤمنين فحسب." وقال الأنطاكي: "وأيضاً دالة على خلافة أمير المؤمنين(ع) بعد رسول الله(ص) على الفور بلا فصل، وعلى العصمة كما كانت العصمة لهارون(ع) سواء بسواء سوى النبوة".

أقول: كأنه يقول له: ماذا تريد أكثر من هذه المنزلة العظمى؟ وفيه إعطاء منازل هارون(ع) في أمة موسى(ع) وهي التي ذكرها القرآن الكريم في دعاء موسى(ع): ﴿واجعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أهلِي هارونَ أخِي أُشدُد بِهِ أَزرِي وأشرِكْهُ في أمْرِي﴾ (طه:29-32).

روايتان مختلفتان قليلاً

وفي بعض الروايات (مستدرك الحاكم ج2 ص337، وينابيع المودة ج1 ص348) أن النبي(ص) يقول له: ‹‹إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك››. وفي حديث آخر (مسند الإمام أحمد حديث 2903) فيه: ‹‹لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي››.

وهذه واضحة تمام الوضوح في دور علي(ع) كخليفة النبي(ص) بعده مباشرة بحيث لا يمكن للنبي(ص) أن يترك الأمة إلا وقد نصب فيها علياً(ع) خليفة له، وإلا فإن المدينة ‹‹لا تصلح››.

وفي بعض الروايات ما ذكره الأصحاب عن ذلك، منها ما ذكره عمر بن الخطاب وما ذكره عمار وغيرهما في التنبيه إلى هذه المنزلة العظمى لعلي(ع).

<u>وفي مناسبات أخرى غير غزوة تبوك</u>

عن المراجعات ص145 للسيد شرف الدين: "من موارده يوم حدّث(ص) أم سُليم (وهي بنت ملحان إبن خالد الأنصارية استشهد أبوها وأخوها بين يدي النبي(ص) وكانت على جانب من الفضل والعقل وروت عن النبي(ص) أحاديث، وكانت في الجاهلية زوجة مالك بن النضر فولدت له أنس بن مالك وعندما جاء الإسلام أسلمت في السابقين ولكن زوجها أبى فهجرته وخرج إلى الشام، ثم انكبت على تربية ولدها أنس، وأسلم على يدها أبو طلحة الأنصاري إذ لم ترض أن تتزوجه حتى يسلم، إلى غير ذلك مما روي عنها وعن فضلها وعن معرفتها بحق أهل البيت(ع)) قال: "وكان النبي يزورها ويحدثها في بيتها فقال لها في بعض الأيام: ‹‹يا أم سليم إن علياً لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو مني بمنزلة هارون من موسى›› وهو رواية 2554 من ج6 من كنز العمال وفي ج5 من مسند أحمد". وعلّق السيد شرف الدين بالقول: "وقد لا يخفى عليك أن هذا الحديث كان اقتضاباً من رسول الله(ص)، غير مسبب عن شيء إلا البلاغ والنصح لله تعالى في بيان منزلة وليّ عهده والقائم مقامه من بعده، فلا يمكن أن يكون مخصصاً بغزوة تبوك".

وحديث آخر أيضاً من أحاديث كنز العمال وغيره في يوم كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة عند النبي(ص) وهو متكئ على عليّ فضرب بيده على منكبه ثم قال: ‹‹يا علي أنت أول المؤمنين إيماناً وأولهم إسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى››.

كما ذكر الروايات التي نصّ فيها النبي على هذه المنزلة في مناسبة المؤاخاة بين المهاجرين وذلك في مكة قبل الهجرة وأيضاً في المؤاخاة الثانية بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة بخمسة أشهر، وفي كلتا المرتين يؤاخي بين نفسه الزكية وعلي(ع) ويقول فيها: ‹‹أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي››، على ما روي في مناقب الإمام علي في مسند أحمد الحديث 5972 وأيضاً إبن عساكر في تاريخه ج13 ص150 و ج18 ص138 وغيرهم (صحيح مسلم ج7 ص120، وسنن ابن ماجة ج1 ص45 رواية 121، وسنن الترمذي ج5 ص303 رواية 3813 و3814، وفضائل الصحابة للنسائي ص13 وغيرهم).

وإحدى الروايات رواية طويلة يشتكي فيها علي(ع) إلى النبي(ص) لأنه فعل بالأصحاب من المؤاخاة ما لم يفعله معه فقال له النبي(ص) : ‹‹والذي بعثني بالحق ما أخرجتك إلا لنفسي وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وأنت أخي ووارثي›› إلى آخر الحديث.

<u>إحتجاج علي(ع) بالحديث</u>

وفي رواية أخرجها صاحب كنز العمال ج3 ص154 عن أبي ذر أن علياً(ع) بعد بيعة عثمان خطب في المهاجرين والأنصار في المسجد وكان مما قال: ‹‹فهل تعلمون أن رسول الله(ص) قال لي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى؟...›› إلى أن قال: ‹‹فهل لخلق مثلي هذه المنزلة؟ نحن صابرون ليقضي الله أمراً كان مفعولاً››.

العجب من الفارق بين المنزلة وواقع الحال

أما مسلم فإن الحديث رواه في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص (ج7 ص120)، وفيه يقول سعيد بن المسيب الذي حدثه عامر بهذا الحديث: "فأحببت أن أشافه بها سعداً، فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني عامر، فقال: أنا سمعته، قلت: أنت سمعته؟! فوضع إصبعيه على أذنيه فقال: نعم وإلا استكتنا!" وهو واضح في أن سعيداً يعجب لمنزلة علي(ع) من النبي(ص) كما أخبر النبي(ص) عنها بالمقارنة مع ما جرى بعد ذلك.

رابعاً – حديثا علي(ع) والحق والقرآن، وهو قول النبي(ص): ‹‹اللهم أدر الحق معه حيث دار››؛ وقول النبي(ص): ‹‹علي مع الحق والحق مع علي››.

علي مع الحق والحق مع علي

من ذلك رواية صحيح الترمذي ص298 أن النبي(ص) قال: ‹‹رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار››. وهو ما استفاده الفخر الرازي صاحب التفسير في قضية الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة حيث ذكر بالتواتر ثبوت أن علياً(ع) كان يجهر بالتسمية وأنه من اقتدى في دينه به فقد اهتدى والدليل عليه قول النبي(ص) هذا.

أجمع المسلمون أن دعاء النبي(ص) مستجاب قطعاً، وبالتالي فإن دعاءه(ص) بأن يكون الحق مع علي(ع) دائماً يعني أن الحق سيكون مع علي(ع) في حركاته وسكناته ومواقفه وقراراته.

أما رواية الخطيب البغدادي فقد روى في ج14 ص321 من تاريخه عن أبي ثابت مولى أبي ذر دخوله على أم سلمة وأنه رآها تبكي وتذكر علياً(ع) وذكر حديث النبي(ص): ‹‹علي مع الحق والحق مع علي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة››، فإنها ليست بصيغة الدعاء وإنما بصيغة وصف علي(ع) وعلاقته مع الحق، ويستفاد منها أمور:

- أن علياً(ع) مع الحق في مواقفه فلا يتخذ موقفاً إلا صحيحاً إلى الدرجة الكاملة بحيث يوصف أنه حق.
- أن الحق مع علي(ع)، بحيث أن الحق نفسه يُعرَف من مواقف علي(ع). أي ليس فقط أن علياً(ع) لا يخطئ – وهو ما يستفاد من الجزء الأول – وإنما يعتبر علي(ع) المعيار لمعرفة الحق بحيث إذا أردنا معرفة الحق في أمر ما فعلينا أن نبحث في مواقف علي(ع) من ذلك الأمر.

- أن هذه العلاقة المتكاملة بين علي(ع) والحق لا نهاية لها مطلقاً لأنهما لن يفترقا حتى يردا على النبي(ص) الحوض وذلك في يوم القيامة.

فهل هناك كلام أكثر صراحة من هذا في عصمة علي(ع) أولاً، وفي جعله المنار الذي على المسلمين أن يهتدوا بهديه ثانياً.

إن هذا الأمر كان معروفاً بحيث أن أم المؤمنين أم سلمة تقسم باللّه عليه، كما في رواية ذكرها الحاكم (المستدرك ج 3 ص124) – وقد ذكر الرواية عن النبي(ص) أيضاً –، أنها، رضوان اللّه عليها، قالت لعلي(ع) عندما جاء يودعها خارجاً إلى البصرة: "سِر في حفظ الله وكنفه، فواللّه إنك مع الحق والحق معك، ولولا أني أكره أن أعصي اللّه ورسوله – فإنه أمرنا أن نقرّ في بيوتنا – لسرتُ معك، ولكن واللّه لأرسلنّ معك من هو أفضل عندي وأعز علي من نفسي: إبني".

وذكر الهيثمي في المجمع في ج7 ص235 وص243 وفي ج9 ص134، وأحاديث مشابهة لهذا.

علي مع القرآن والقرآن مع علي

أما حديث أن علياً مع القرآن والقرآن مع علي فقد روى الحاكم في المستدرك ج3 ص124 عن أبي ثابت مولى أبي ذر أنه كان مع علي(ع) يوم الجمل فلما رأى عائشة واقفة حصل له بعض الشك في الأمر فكشف اللّه عنه ذلك عند صلاة الظهر فقاتل مع علي(ع)، ثم بعد ذلك ذهب إلى المدينة فجاء إلى أم سلمة أم المؤمنين وقص عليها قصته فسألته: "أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟" فأجاب: "إلى حيث كشف اللّه عني ذلك عند زوال الشمس"، قالت: "أحسنت، سمعتُ رسول الله(ص) يقول: ‹‹علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض››".

وقد رواه صاحب كنز العمال ج6 ص153 وغيره. وروى مثله الهيثمي في ج9 ص134 من المجمع، وابن حجر في الصواعق المحرقة ص75.

وهذا الحديث يعضد الحديث الأول، لأن القرآن الكريم هو حق محض، فإذا كان علي(ع) مع القرآن فإن النتيجة أن علياً(ع) لا يتخذ موقفاً ولا يتحرك حركة إلا متوافقة مع القرآن الكريم، في أمره ونهيه وهديه ومناهجه. كما أن الجزء الآخر ‹‹والقرآن مع علي›› يستفاد منه ما استفدناه من قوله(ص) ‹‹والحق مع علي›› أننا إذا أردنا معرفة القرآن، تفسيراً وتأويلاً، في العقائد والأحكام والأخلاق، فما علينا سوى أن نبحث في سيرة علي(ع) وحديثه وفعله لأنها ستكون المعبر الصادق صدقاً كاملاً عن القرآن الكريم.

خامساً – حديث يوم الدار، يوم قال النبي(ص): ‹‹هذا عليّ أخي ووزيري ووصيي وخليفتي من بعدي››.

هذه الرواية في تاريخ الطبري ج2 ص216 تنتهي في سندها إلى عبد الله بن الحارث عن ابن عباس عن علي(ع) يحدث فيها أنه عندما نزلت الآية 214 من سورة الشعراء (﴿وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبين﴾) دعاه النبي(ص) وأخبره بذلك وأنه يتوقع أن يسمع منهم ما يكره وأمره بأن يحضر لهم طعاماً ويجمع له بني عبد المطلب حتى يبلغهم ما أمر به، ففعل علي ودعاهم وهم حوالي الأربعين رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، ثم أكلوا من الطعام من اللحم وشربوا من العسل وذلك بعد أن رأوا بركة النبي(ص) في الطعام والشراب بحيث أنهم أكلوا وشربوا وشبعوا وكأنه الطعام الذي يكفي أعداداً غفيرة، ولكن قبل أن يتكلم النبي(ص) بادر أبو لهب فقال: "لقد سحركم صاحبكم!" فتفرقوا ولم يتمكن النبي(ص) من التحدث معهم؛ ويقول علي(ع) بأنه(ص) أمره أن يصنع نفس الشيء في اليوم الثاني فعندما اجتمعوا وأكلوا وشربوا قال لهم النبي(ص): ‹‹يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به – إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟›› قال علي(ع): ‹‹فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلتُ – وإني لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً – أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم إسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيع››.

أما الشيخ الأنطاكي رحمه الله فقد ألفتَ (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) إلى أن رجال سند ذلك الحديث كلهم ثقات ما عدا أبو مريم عبد الغفار بن القاسم الذي ضعّفه بعض رجال الجرح والتعديل من علماء أهل السنة إلا أن إبن عقدة بالغ في مدحه كما في ج4 ص43 من لسان الميزان، وذكر أن الحفّاظ وأساتذة الحديث احتجّوا به ولم يضعفّوا حديثه في أحاديث أخرى.

غير الطبري روي هذا الحديث في مصادر عديدة مثل: تاريخ أبو الفدا ج1 ص116، وتفسير علاء البغدادي ص390، والسيوطي في جمع الجوامع ج6 ص392 نقلاً عن الطبري، وأيضاً ذكره السيوطي في ص397 عن أبي إسحق وإبن جرير وإبن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نُعيم والبيهقي، والإسكافي المعتزلي في كتابه نقض العثمانية كما ذكره شارح نهج البلاغة في ج3 ص263.

كما رواه الكاتب المصري محمد حسين هيكل في كتابه الشهير "حياة محمد" ص104 من الطبعة الأولى (وأشار الأنطاكي إلى حذف هيكل لهذا الحديث في الطبعتين الثانية والثالثة من الكتاب وذلك تفاعلاً مع الضجة التي قامت حوله في وقتها والتي تم تبادل الكلام على صفحات جريدته السياسة المصرية في ملحق العدد 2751، وفي أعداد أخرى أيضاً وذلك في سنة 1350هـ).

وذكر الأنطاكي رواية أخرى مشابهة بألفاظ مختلفة أخرجها أحمد في مسنده ج1 ص159 والطبري في ج1 ص217 من تاريخه، والنسائي في الخصائص ص18، وغير هؤلاء.

كما ذكر رواية ثالثة ذكرها الآخرون، كالحلبي في سيرته ج1 ص304، وفيها يقول النبي(ص): ‹‹وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني يكن أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي›› فلم يجبه أحد إلا علي(ع) الذي كان يقول ‹‹أنا يا رسول الله›› فيجلسه النبي(ص) حتى لم يقم أحد منهم إلا علي(ع) الذي عرض نفسه ثلاثاً فقال له النبي(ص): ‹‹أنت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي››.

وذكر أن هناك روايات بصور أخرى أخرجها المحدثون والمؤرخون.

موقف أبي طالب

أما ابن سعد فقد أخرج في الطبقات الكبرى ج1 القسم الأول ص124 في حديث الدار يوم دعا النبي(ص) عشيرته الأقربين من بني عبد المطلب وعرض عليهم أن يؤازروه على أمر الدين قائلاً: ‹‹من يؤازرني على ما أنا عليه ويجيبني يكون أخي وله الجنة؟›› فقال علي(ع): ‹‹أنا يا رسول الله، وإني لأحدثهم سنّاً وأحمشهم ساقاً›› وسكت القوم ثم قالوا: "يا أبا طالب ألا ترى إبنك؟" قال: "دعوه فلن يألو ابن عمه خيراً".

وهذا الحديث ذكره صاحب كنز العمال في ج6 في مواضع عدة، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿قالَ رَبِّي اشرَحْ لِي صَدرِي﴾، وفي غير هذه المصادر.

فائدة:

أقول: قول أبي طالب "لن يألو ابن عمه خيراً" تصريح بأن أبا طالب يؤمن بنبوة النبي(ص) وإلا ما كانت مؤازرة علي(ع) له ستكون خيراً. فإن قيل: هو يتكلم عن النصرة العشائرية كونه ابن عمه، أقول: ولكن النبي(ص) لم يعد بجزاء دنيوي وإنما قال: ‹‹وله الجنة›› وبالتالي فإن القضية خارجة عن العصبة والعشيرة والقربى. إن هذا الموقف من أبي طالب بن عبد المطلب كان من المواقف التي تثير الحيرة في النفس قبل الاطلاع على موقفه كاملاً من خلال شعره بالخصوص، لأنه يتعارض تماماً مع الاعتقاد بكفره ورفضه اتباع ابن أخيه(ص)، ولكن تبين الحق بعد ذلك والحمد للّه رب العالمين (راجع كتابنا القادم "من ثمرات العودة" بخصوص أبي طالب).

دلالات الحديث

أقول: هذا الحديث فيه دلالات مهمة جداً:

- أن علياً(ع) تم تعيينه خليفة للنبي(ص) منذ أول الدعوة، أول العهد المكي، وبالتالي فلم يكن تعيينه مكافأة له على مواقفه في معارك النبي(ص) في المدينة بعد ذلك.
- أن النبي(ص) ما أقام علياً(ع) إلا بعد أن أحجم القوم وكان علي(ع) يستجيب في كل مرة يعرض النبي(ص) عليهم ذلك المنصب الخطير – الوزارة والوصاية والخلافة والأخوة – وبالتالي فإنه أعطاهم الفرصة الكاملة للاستجابة.
- أن علياً(ع) تم تعيينه خليفة للنبي(ص) وهو لما يزل في العاشرة من عمره، وفي أهل النبي(ص) وأصحابه الشباب والرجال والكهول والشيوخ، فكيف كان ذلك من النبي(ص)؟ لو لم يكن هذا بأمر الله تعالى، من خلال هذا الموقف العلوي المتميز، لكان يعد استهزاءً بالحضور، وهو الأمر الذي حصل بالفعل من بعضهم عندما صاروا يضحكون من أبي طالب.
- أن أبا طالب لم يشعر بأنه استهزئ به ولم يتأثر بما قاله أولئك.
- أن أبا طالب يعلم بدور ولده علي(ع) سلفاً وإلا لما سكت مع الساكتين في عدم الاستجابة للنبي(ص) ثم بعد ذلك مباشرة يعلن موافقته على موقف ولده من ابن عمه(ص).
- أن هناك شيئاً اسمه الوصية، شخص وصي النبي(ص)، وهذا الشخص هو علي(ع)، وهو شيء لم أكن قد سمعت به أسوة بأهل السنة حيث أن هذه الكلمة غائبة تماماً من قاموسهم الإسلامي.

تُرى كيف يتم إخفاء هذا الحديث عن المسلمين السنة وهو يتعلق بآية قرآنية محكمة نزلت في أول الدعوة؟ وكيف يتم إخفاء شيء اسمه "الوصية" من القاموس؟ إن هذا من كتمان الحق بأجلى – أو قل بأبشع – صوره، إذ يتم محاصرة الحديث عبر القرون بحيث عندما يأتي كاتب ليكتب سيرة النبي(ص) في القرن العشرين ويذكر هذا الحديث تقوم الدنيا وتشتد الضجة ولا تنتهي إلا بحذف الحديث من الطبعات التالية للطبعة الأولى.

* **حديث يوم الغدير**، وبيعة الغدير، أؤخره إلى آخر الفصل لاعتبارات متعددة، منها أنه كان فصل الختام في سلسلة الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بإعلان دور علي(ع) وأولاده(ع) في الإسلام، إضافة إلى نقاشات مهمة تتعلق بآيات قرآنية وأحاديث شريفة وتاريخ النبي(ص).

أحاديث أخرى

(1) **حديث الحب والبغض**، وهو قول النبي(ص) لعلي: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» مسند أحمد ج2 ص102 وغيره.

وروي الحديث حكاية عن النبي(ص) وذلك برواية علي(ع) نفسه: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أنه لعهد النبي الأمي إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق» صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي(ع) من الإيمان (حديث 113).

وبرواية أم سلمة (رض) حديث الترمذي، عن المساور الحميري عن أمه قالت: "دخلت على أم سلمة فسمعتها تقول: كان رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول: «لا يحب علياً منافق ولا يبغضه مومن»"، وهو يختلف عن الأول قليلاً كونه يحكم باستحالة أن يحب المنافق علياً(ع) أو أن يبغضه(ع) مؤمن.

وقد ذكر أحاديث حب علي من الإيمان وبغضه من النفاق الترمذي في صحيحه ج2 ص301، والنسائي في صحيحه ج2 ص271 وفي الخصائص ص27، وابن ماجة في سننه ص12، وأحمد في مسنده ج1 ص84 وغيرها، والحاكم في المستدرك ج3 ص129.

في المصدر الأخير (مستدرك الحاكم) فيه قول أبي ذر رضوان الله عليه: "ما كنا نعرف المنافقين إلا بتكذيبهم لله ورسوله والتخلف عن الصلاة والبغض لعلي بن أبي طالب(ع)".

وقد ذُكر هذا المعنى في تفسير قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذينَ مَعَهُ أشِدّاءُ عَلى الكُفّار... يُعجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمِ الكُفّار﴾ (الفتح:29) عن ابن عباس: "أنا كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله(ص) ببغضهم علي بن طالب". ومثله في الدر المنثور للسيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ إرتَدُّوا عَلى أدبارِهِم﴾ (محمد25:). وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَتَعرِفَنَّهُم في لَحِنِ القَول﴾ (محمد:30).

أقول: صلوات اللّه وسلامه على نبيه وصفيه محمد(ص) الذي ما ترك الأمة إلا بعد أن استفرغ الوسع في تأمينها من الضلال وذلك باتخاذه وسائل عديدة، منها وضعه هذه المعايير الهامة في معرفة الحق، والتي منها هذا المعيار: لا يحب علياً(ع) إلا مؤمن ولا يبغضه(ع) إلا منافق. إذاً، فانظر في السيرة النبوية، ثم انظر في سيرة المسلمين بعدها، ثم انظر في مواقف العلماء والمحدثين والفقهاء وغيرهم، لتتبين من منهم وقف الموقف الذي لا يمكن أن يكون إلا حباً بعلي(ع) ومن منهم كان على موقف البغض لعلي(ع)، ومنها يحصل العلم بهؤلاء وهؤلاء، فتتواءم مع إيمان المحبين، وتتجنب نفاق المبغضين، حتى إذا قيل عنه هو العلم وهو السيرة وهو وهو.

ويبدو أن هذا الأمر كان معروفاً عند الأنصار كمعيار لمعرفة المنافقين، فإنه وردت الأحاديث في اتخاذ الانصار بغض علي(ع) كدليل على المنافقين. ففي رواية للترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: " إن كنا لنعرف المنافقين

نحن معاشر الانصار ببغضهم علي بن أبي طالب"، أي أنه معيار لمعرفة المنافقين من المسلمين عامة. وفي رواية عن جابر بن عبد الله، وأخرى عن أبي سعيد الخدري، رواهما أحمد في المسند، قوله: "ما كنا نعرف منافقينا معشر الانصار إلا ببغضهم علياً"، أي أنه معيار لمعرفة منافقي الأنصار.

إن هذه الحالة النفسية للمؤمن وتلك للمنافق من الشدة والتمكن من الذات بحيث أنها لن تتأثر حتى لو تعرضت من صاحب القضية نفسه، أي علي(ع)، لما يتوقع أن يغيرها. ففي "نهج البلاغة" قال علي(ع): ‹‹لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبنى ما أحبنى، وذلك انه قضى فانقضى عن لسان النبي الامي صلى الله عليه واله وسلم انه قال لي: لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق!›› ولا ينبغي أن يتعجب الإنسان لمثل هذه الحال، فإن علياً(ع) – بنفسه وخلقه وهديه ومواقفه – يمثل الإيمان الخالص، كما وصفه النبي(ص) عندما خرج لقتال عمرو بن عبد ود يوم الأحزاب بقوله: ‹‹خرج الإيمان كله إلى الشرك كله››، وبالتالي فإن المؤمن الحقيقي سيجد نفسه منقادة لحب علي(ع) بشكل لا يؤثر فيه أي شيء حتى إن تعرض لعقوبة من علي(ع)، بينما لن يستطيع المنافق إلا بغض علي(ع) لأنه يرى فيه التجسيد الكامل لنقيض ما يؤمن به، بل لما اضطر أن يعلنه في الظاهر ويخفي عكسه في الداخل، ما يجعل الصراع في داخله يتوجه ضد علي(ع) تلقائياً.

(2) **حديث المؤاخاة**، وهو قول النبي(ص): ‹‹أنتَ أخِي في الدنيا والآخرة››.

وهو حديث الترمذي ج2 ص299 الذي يقول أن النبي(ص) آخى بين أصحابه فجاء علي(ع) تدمع عيناه فقال للنبي(ص): ‹‹يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد››، فقال له رسول الله(ص): ‹‹أنت أخي في الدنيا والآخرة››.

ورواه الحاكم (ج3 ص14) ليس كلاماً موجهاً لعلي(ع) بل كإخبار للناس، قال(ص): ‹‹علي أخي في الدنيا والآخرة››.

وهناك أحاديث مختلفة يذكر فيها الأخوة مع أمور أخرى، كما في مسند أحمد ج1 ص159 في حديث الدار يوم الإنذار الذي يطلب فيه النبي(ص) من بني عبدالمطلب من يبايعه على أن يكون أخاه وصاحبه فيفعل علي(ع) ذلك (ذكرناه فراجع).

المؤاخاة المتفردة

تثبت الروايات أن النبي(ص) أجرى عملية المؤاخاة مرتين، مرة في مكة قبل الهجرة بين المهاجرين وبعضهم، ومرة في المدينة بين المهاجرين والأنصار، وذلك لتأكيد اللحمة الإسلامية كي تحل محل اللحمة العشائرية، وأنه(ص) في مكة آخى بين نفسه الزكية(ص) وعلي(ع)، وفعل نفس الشيء في المدينة مع أن المؤاخاة في المدينة كانت لتأكيد اللحمة وتقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار فآخى(ص) بين مهاجر وأنصاري، ولم يكن المستثنى من هذا إلا علياً(ع) حيث آخاه مع نفسه الزكية(ص). أخرج ذلك ابن سعد في ج3 القسم الأول ص13 من الطبقات، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ (الأنفال:72)، فآخى النبي(ص) بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين عمر بن الخطاب ومعاذ بن عفراء، وبين الزبير ابن العوام وعبد اللّه بن مسعود، وبين أبي بكر وطلحة بن عبيد اللّه، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وقال لسائر أصحابه: «تآخوا، وهذا أخي» مشيراً إلى علي(ع).

وهكذا يستمر التفرد العلوي حتى في هذه العملية التي لا يبدو منها تعيين في منصب أو إعلان لمؤهلات معينة، وإنما فقط لتقوية اللحمة، وبالتالي كان المتوقع أن يؤاخي بين علي(ع) وأحد الأنصار، فلماذا يستثني علياً(ع) من القاعدة؟ وهل هناك حاجة لتقوية اللحمة بين النبي(ص) وعلي(ع) مثلاً لهذا الاستثناء؟ إذاً، أن اللّه تعالى – من خلال فعل نبيه(ص) – يقول للمسلمين، يومها والآن وحتى قيام الساعة، أن علياً(ع) استثناء، فلا تضعوه في سلة واحدة مع غيره، دع عنك دفعه إلى الخلف رابعاً... أن علياً(ع) لا مكافئ له بين المسلمين وأن المكان الطبيعي له هو الذي رفعه اللّه تعالى إليه – بعد ذلك بسنوات – يوم نزلت آية المباهلة ﴿وأنفسنا وأنفسكم﴾.

إدعاء علي(ع) واحتجاجه بالمؤاخاة

وأما ابن ماجة فقد روى في سننه ص12 إن علياً(ع) قال: «أنا عبد اللّه وأخو رسوله، وأنا الصدّيق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب، صليت قبل الناس بسبع سنين». وهو حديث رواه الحاكم في المستدرك ج3 ص111، والنسائي في الخصائص ص3 و18 وغيرهما.

وهذا الحديث يؤكد الأخوة، ويزيد عليها تأكيده منزلة الصديقية الكبرى، أي أكبر من أي صدّيق آخر سواء أطلق عليه اللقب أو لا ممن ينطبق عليه كما جاء في آيات الكتاب العزيز ﴿أولئك مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ النساء:69. ولعله(ع) أراد أن يلفت إلى منزلته بالمقارنة مع غيره في هذه النقطة فأشار إلى أنه صلى قبل الناس بسبع سنين، ولعلها إشارة إلى السنوات السبع التي قضاها في بيت النبي(ص) منذ انتقاله من بيت أبي طالب، وكان عمره ثلاث سنوات، وحتى بدء البعثة النبوية الشريفة، وكان عمره عشر سنوات، وفي هذه الفترة كان يرى الإرهاصات التي تحيط بالنبي(ص) وهو يأخذ الطعام

الذي تعده خديجة(ع) إليه(ص) في غار حراء، إضافة إلى أحواله(ص) الأخرى. أو لعله يشير إلى صلاته مع النبي(ص) وخديجة(ع) بعد البعثة قبل فرض الصلاة على الناس، بنحو من التعبد الصلاتي.

ومن الروايات ما فيه احتجاج علي(ع) بأخوّته للنبي(ص) حيث فعل يوم الشورى برواية عامر بن واثلة حيث سمعهم خلف الباب وهو يقول: ‹‹بايع الناس لأبي بكر وأنا والله أولى بالأمر منه وأحق به منه، فسمعتُ وأطعتُ مخافة أن يرجعوا كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف؛ ثم بايع الناس عمر وأنا والله أولى بالأمر منه وأحق به منه، فسمعتُ وأطعتُ مخافة أن يرجعوا كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف؛ ثم أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان، إذاً أسمع وأطيع! إن عمر جعلني في خمسة نفر أنا سادسهم لا يُعرف لي فضلاً لي عليهم في الصلاح ولا يعرفونه لي، كلنا فيه شرع سواء، وأيم الله لو أشاء أتكلم ثم لا يستطيع عربيهم ولا عجميهم ولا المعاهد منهم ولا المشرك رد خصلة منها لفعلت!›› ثم قال: ‹‹نشدتكم بالله أيها النفر جميعاً أفيكم أحد أخو رسول الله(ص) غيري؟›› قالوا: "اللهم لا"، رواه صاحب كنز العمال ج3 ص155.

أقول: ساعد اللّه قلبك يا أبا الحسن! كنت على عهد النبي(ص) ‹‹كالنجم لا يطاول›› على حد تعبيرك، ثم ينزلوك إلى منازل بعيدة، حتى يجعلوك مع الآخرين لا يعرف لك فضلاً عليهم وكلكم شرع سواء على حد تعبيرك، فتسمع وتطيع احتياطاً على الإسلام والمسلمين، مرة إثر أخرى، ثم لا تحفظ لك الأمة هذا الأمر بعد انتهاء تلك الأحداث والظروف التي يمكن لمن يريد أن يلتمس الأعذار لمن يريد، فلماذا الإصرار على إبقائه في غير محله، أخو الرسول(ص) والصديق الأكبر والمسلم الأول في كل شيء؟

(3) **حديث الولاية**، وهو قول النبي(ص): ‹‹عليّ وليكم من بعدي››.

روي الحديث في مصادر مختلفة منها سنن الترمذي ج 2 ص297، ومسند أحمد ج 4 ص437 و ج 5 ص356، وخصائص النسائي ص24، ومجمع الهيثمي ج 9 ص128، ومسند أبي داوود ج11 ص360، وأسد الغابة لابن الأثير ج5 ص94 وغيرها، إضافة إلى أبي حاتم وابن أبي شيبة والطبراني وابن الجوزي من المحدثين والمؤرخين.

وقد روى الحديث مجموعة من كبار الصحابة كعلي(ع) وابن عباس وعمران بن حصين وبريدة الأسلمي.

وفي دلالة الحديث على خلافة علي للنبي(ص) مباشرة بلا فصل أنه – كما قال الفيروز آبادي في ج3 ص15 من فضائل الخمسة – من أظهر معاني لفظ الولي وأشهرها هو "مالك الأمر"، فكل من ملك أمر غيره بحيث كان له التصرف في أموره وشؤونه فهو وليّه، فالسلطان وليّ الرعية أي يملك أمرهم وله التصرف في أمورهم وشؤونهم، والأب أو الجد وليّ الصبي أو المجنون أي يملك أمره وله التصرف في أموره وشؤونه، وهكذا ولي المرأة في نكاحها أو ولي الدم أو الميت.

أقول: بأنه إذا كان علي(ع) هو ولي المسلمين بعد النبي(ص) إذاً فهو وليّهم جميعاً دون استثناء، فيكون ولياً لأبي بكر وعمر وعثمان الذين تقدموه، فيصبح من غير المقبول أن يكون الولي الأولى بالتصرف في شؤونهم خاضعاً لتصرفهم هم في خلافتهم.

وهذه الولاية ليست في الأحاديث فحسب وإنما نطق بها القرآن الكريم بأوضح ما يكون كما في قوله تعالى في آية الولاية ﴿إنَّما وَلِيُّكُم اللهُ ورَسولُهُ والَّذينَ آمَنوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ وهُم راكِعُون﴾ (المائدة:55) حيث ذكرنا أن المفسرين أجمعوا على أنها نزلت في علي(ع) وتصدقه بالخاتم أثناء الصلاة في حال الركوع (راجعه في الآيات في أول الفصل). فكلمة "وليّ" هنا في الآية الكريمة لجميع المسلمين مثل خطاب النبي(ص) «هو وليّكم بعدي»، أنها تعني الولاية العامة بعد النبي(ص) مباشرة لأنها ولاية على جميع المسلمين دون استثناء.

كنت أتساءل وأنا أقرأ مثل هذه الأحاديث: إذا كان الكتمان مبرراً في سالف الزمان، أيام خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ثم أيام خلافة الأمويين والعباسيين، فهل هناك مبرر لاستمرار هذا الكتمان، وكيف سيجيب العلماء رب العزة يوم يسألهم عن هذه الأحاديث النبوية المبينة للآيات القرآنية، النازلة من السماء ليس كأعمال أدبية وإنما لتأسيس قواعد الدين ومرجعيات الإسلام؟ كيف تهمل هذه الأحاديث في كتب الصحاح وغيرها من الكتب المعتبرة في الأمور الأساسية للدين بينما يتمسكون بحديث واحد حول بناء القبور أو حول ما هي خير القرون ويبنون عليها أحكاماً فقهية ثم يذهبون بها بعيداً لتكفير المسلمين والمخالفين لهم؟

(4) **حديث سدّ الأبواب**، وهو عندما أمر النبي(ص) بسدّ الأبواب المشرعة على المسجد النبوي إلا باب عليّ(ع).

قد روى ذلك الترمذي في صحيحه ج2 ص301، والسيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وما يَنطِقُ عَنِ الهَوى﴾ (النجم:3)، والتي فيها أن الأصحاب الذين أمر بسدّ أبوابهم شقّ عليهم ذلك ومنهم حمزة بن عبد المطلب، وأن رجلاً يقول: "ما يألو يرفع ابن عمه"، فسمع النبي(ص) بذلك فدعي "الصلاة جامعة" ثم صعد المنبر وخطب خطبة بليغة ثم قال: «يا أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته» ثم تلا الآية القرآنية ﴿والنَّجْمِ إذا هَوى . ما ضَلَّ صاحِبُكُم وما غَوى . وما يَنطِقُ عَنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحى﴾ (النجم:1-4).

وسد الأبواب هذا يؤدي إلى الأمر الثاني الذي هو في حديث النبي(ص) لعلي: «لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك» رواه الترمذي في صحيحه ج2 ص300 والبيهقي في ج7 ص65 في سننه بسنده برواية أم سلمة رضوان الله عليها حيث قال روت أن النبي(ص) قال: «ألا لا يحل هذا المسجد لجنب ولا لحائض إلا لرسول

الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ألا قد بيّنت لكم الأسماء أن لا تضلوا››. ورواه بلفظ مختلف قليلاً في رواية أخرى.

وفيه يستفاد أمور:

- المنزلة المتفردة لعلي(ع) من بين سائر الأصحاب
- المنزلة المتفردة لفاطمة والحسنين(ع) من بين سائر الناس
- أن هذه المنزلة مما يُجمع من منازله بلحاظ كونه نفس النبي(ص) كما في آية المباهلة بحيث يحلّ له من المسجد ما يحل للنبي(ص)
- أن بعض الأصحاب كانوا لا يتقبلون بشكل كامل وبطيبة نفس كاملة ما يأمر به النبي(ص)
- أنهم بهذا كانوا غافلين عن أن أمر النبي(ص) ونهيه إنما هو وحي يوحى، فذكّرهم بآية سورة النجم.

(أنظر باقي المصادر في الملحق.)

(5) **حديث النجوى**، وهو مناجاة النبي(ص) لعلي(ع) وقول: ‹‹ما انتجيته ولكن اللّه انتجاه››.

فقد روى الترمذي في صحيحه ج2 ص300 بسنده عن جابر قال دعا رسول الله(ص) علياً(ع) يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس لقد طال نجواه مع ابن عمه، فقال رسول الله(ص): ‹‹ما انتجيته ولكن الله إنتجاه!›› ورواه صاحب كنز العمال ج6 ص159، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج7 ص402، وابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص27.

وروى المتقي في كنز العمال ج 6 ص499 رواية عن جندب بن ناجية أن أبا بكر قال يوم غزوة الطائف: "يا رسول اللّه لقد طالت مناجاتك علياً منذ اليوم، فقال: ‹‹ما أنا انتجيته ولكن اللّه انتجاه››".

أقول: فهمت من هذه الرواية...

- أن النبي(ص) فعل مع علي(ع) ما لم يفعله مع غيره وذلك في مناجاته أي الخلوّ به والكلام معه طويلاً أو هكذا كان يبدو للأصحاب
- أن بعض الأصحاب استكثروا ذلك أو لم يرتاحوا لذلك فأعربوا عن هذا بقولهم أن النبي(ص) طال نجواه مع ابن عمه، وهذا لا شك أنه مؤشر على نوع من أنواع الغبطة أو الحسد واللّه أعلم بما في النفوس

- أن النبي(ص) يعلن أن الذي ناجى علياً(ع) هو اللّه تعالى، وهذا أمر عظيم لا نستطيع أن نفهمه إلا بأن النبي(ص) كان واسطة في تلك الساعة بين اللّه سبحانه وتعالى وعلي(ع) بحيث أن العلوم أو الكرامات أو الرحمات من اللّه سبحانه وتعالى حلّت في علي(ع) عبر رسول اللّه(ص)، وهو شيء أعلى من الإلهام لأن الذي كان الواسطة هو صاحب الوحي وهو النبي(ص)، وهذا له أهمية إضافية بلحاظ أن النبي(ص) كان آخر البشر المرسلين الذين سيوحى إليهم وبوفاته سوف ينقطع الوحي تماماً.

وعلى أية حال، استمرت منزلة أمير المؤمنين(ع) بالصعود في نظري وأنا أنفتح على هذه الأحاديث الشريفة في كتب أهل السنة... ولكن، كنت أعجب من هذا الكتمان لهذه الأحاديث والآيات وتفسيرها ودلالتها، الكتمان الذي أدى إلى تجهيل المسلمين، وكنت واحداً منهم.

(6) **قاتل علي(ع) هو أشقى الناس**، وهو قول النبي(ص): «وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا علي».

أخرج السيوطي في الدر المنثور حديثاً في تفسير سورة الشمس حديثاً عن عمار بن ياسر أن النبي(ص) عرض على علي(ع) أن يحدثه عن أشقى الناس فقال(ص): «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا – أي قرنه – حتى تبتلّ منه هذه – يعني لحيته –».

وأخرج مثله النسائي في الخصائص ص39 حديثاً عن عمار أيضاً ولكنه يذكر تفاصيل أنه كان في غزوة العشيرة من بطن ينبع، وهو حديث أخرجه أيضاً أحمد في المسند ج4 ص362 والحاكم في المستدرك ج3 ص104 وغيرهما.

وأخرج الحاكم في ج3 ص113 أن أبا سنان الدؤلي عاد علياً(ع) في مرض له وقال بأنه يتخوف عليه من ذلك أي الموت فأجابه(ع) : «لكني واللّه ما تخوفت على نفسي منه، لأني سمعت رسول الله(ص) الصادق المصدق يقول: إنك ستضرب ضربة ههنا وضربة ههنا – وأشار إلى صدغيه – فيسيل دمها حتى تُخضّب لحيتك ويكون صاحبها أشقاها كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود». ورواه البيهقي في ج8 ص58 من سننه، وابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص3.

وأخرج ابن سعد في طبقاته ج3 قسم1 ص22 قول علي(ع): «ما يحبس أشقاكم أن يجيء فيقتلني؟! اللهم قد سئمتهم وسئموني فأرحهم وأرحني منهم!» وأخرج في نفس الصفحة رواية أن النبي(ص) قال: «أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا علي» وأشار إلى حيث يُطعن.

وقد أخرج وصف النبي(ص) لقاتل علي(ع) بأنه أشقى الآخرين ابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص34 والخطيب البغدادي في تاريخه ج1 ص135، والزمخشري في تفسير الكشاف والفخر الرازي في التفسير الكبير كل منهما في تفسير قوله تعالى: ﴿هذهِ ناقَةُ اللهِ لَكُم آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ في أرضِ اللهِ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذابٌ أليم﴾ (الأعراف:73)، والثعلبي في قصص الأولياء ص100 وصاحب كنز العمال ج6 ص412 وآخرون.

أقول: يسمي النبي(ص) قاتل علي(ع) بأنه أشقى الآخرين أو أشقى الناس، ولم يسم قاتل غيره كذلك. فمثلاً لم يسم قاتل عمر بأنه أشقى الآخرين، ولم يسم قاتل عثمان بأنه أشقى الآخرين، مع أن أهل السنة رووا أحاديث إلى النبي(ص) يسمي فيها عمر وعثمان بأنهما شهيدان؛ ولم يسم قاتل عمار بأنه أشقى الآخرين أو أشقى الناس مع أنهم رووا أنه(ص) أخبر بمقتل عمار على يد الفئة الباغية؛ بل لم يسم قاتل سبطه الحسين(ع) بأنه أشقى الناس أو أشقى الآخرين على الرغم من أنه(ص) وصف أصحاب الحسين(ع) بأنهم خير الأصحاب... السؤال هو: ألا يعتبر هذا دليلاً آخر على أن عليّاً(ع) أفضل من عمر وعثمان، بل ومن الناس جميعاً، بحيث أن من يقتله يكون أشقى الآخرين، أي أن القاتل يصير أشقى الناس عندما يقتل خير الناس، أم أن هذه تحتاج إلى "لف ودوران" هي الأخرى؟!

(أنظر في الملحق أبيات شعرية تمدح القاتل هذا وأبيات أخرى في ذمه وذم المادح.)

(7) **حديث السفينة**، وهو قول النبي(ص): «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى».

رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين ج2 ص343 برواية أبي ذر الغفاري، والطبراني في المعجم الأوسط، الحديث 18 من الأربعين الخامسة والعشرين وذلك برواية أبي سعيد الخدري، وذكره ابن حجر في الصواعق ص151 من روايات وطرق عديدة.

وأخرج هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ج4 ص123، والسيوطي في الجامع الصغير ج3 ص334.

وفي هذا الشأن رويت أبيات للإمام محمد بن إدريس الشافعي يؤكد فيها أن أهل البيت(ع) هم سفينة النجاة:

ولما رأيتُ الناسَ قد ذهبتْ بهِمْ   مَذاهِبُهُمْ في أبحُرِ الغَيِّ والْجَهلِ

ركِبْتُ على اسمِ اللهِ في سُفُنِ النَّجا   وهُمْ أهلُ بيتِ الُمصطفى خاتَمِ الرُّسلِ

إلى آخر أبياته...

تحدث الشيخ الأنطاكي (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) عن وجه تمثيل النبي(ص) لأهل بيته بسفينة نوح أن ذلك صريح في وجوب اتباعهم والاقتداء بأقوالهم وأفعالهم وحرمة اتباع من خالفهم، لأنه كما كانت سفينة نوح هي المنجية الوحيدة في تلك الأمواج المتلاطمة بحيث أن ابن نوح عندما كان في معزل وامتنع أن يستجيب لنداء أبيه ﴿إركَبْ مَعَنا ولا تَكُنْ مَعَ الكافِرين﴾ وقال: ﴿سآوي إلى جبلٍ يعصِمُني من الماء﴾، أي يطلب النجاة بمكان آخر غير السفينة، فردّ عليه نوح(ع) بقوله ﴿لا عاصِمَ اليومَ منْ أمرِ اللهِ إلاّ مَنْ رَحِمَ، وحالَ بينَهُما المَوجُ فكانَ من المُغرَقِين﴾ لأنه بقي مصرّاً ومعانداً على رفض ركوب سفينة النجاة.

وذكر الأنطاكي أيضاً ما ألفت إليه السيد محسن الأمين العاملي (أعيان الشيعة ج3 ص265) بأن هذا الحديث فيه أيضاً دلالة على عصمة الأئمة(ع) وذلك لأنه "كل من اتبع أهل البيت أصاب الحق ونجا من سخط اللّه وفاز برضوانه ومن خالفهم هلك ووقع في سخط اللّه وعذابه وذلك دليل عصمتهم وإلا لما كان كل متبع لهم ناجياً وكل مخالف لهم هالكاً".

وروي حديث السفينة بألفاظ متعددة، كقول النبي(ص): «ألا أن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق» مستدرك الحاكم ج3 ص151؛ وكقوله(ص): «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق؛ وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل، من دخله غفر له» المعجم الأوسط للطبراني (ج4 ص10 و ج6 ص85)، والمعجم الصغير للطبراني ج1 ص140، وكنز العمال ج2 ص434، وشبيه به في فيض القدير للمناوي ج4 ص469، وغيرها، والذي فيه زيادة تمثيلهم بباب حطّة في بني إسرائيل، وهو الذي نزل به الكتاب العزيز ﴿وقولوا حِطَّةٌ نَغفِرْ لكُم خطاياكُم﴾ البقرة:58، أي أن غفران الذنوب يتحقق بدخول باب أهل البيت(ع)، أي اتباعهم، لأن الخروج من حالة الذنب إلى حالة الصلاح إنما يتحقق بالفعل الصحيح، وهذا يتحقق باتباع أهل البيت(ع) الذين عصموا من الذنوب وعلموا ما يحتاج إليه الناس فصار اتباعهم كمن يدخل في باب حطّة، الفاصل بين الضلال والهدى، وهو واضح.

(8) حديث الحسنان(ع) سيدا شباب أهل الجنة

أخرج أصحاب الكتب الحديثية حديث رسول الله(ص) الشهير: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» كما في صحيح الترمذي ج2 ص306 و307، وغيره.

وفي لفظ فيه زيادة «وأبوهما خير منهما» في سنن ابن ماجة باب فضائل أصحاب رسول الله(ص)، ومستدرك الحاكم ج3 ص139، وغيرهما.

أقول: رويت الزيادة أعلاه في حديث أخرجه الهيثمي في المجمع ج9 ص182 وفي ص181، والحاكم في المستدرك ج3 ص170 وآخرون، في عدة روايات أن أبا بكر رأى النبي(ص) وقد حمل الحسن(ع) على عاتقه الأيمن والحسين(ع) على عاتقه الأيسر فعرض أبو بكر أن يحمل أحدهما فقال النبي(ص): «نِعمَ المطيّ مطيهما ونعم الراكبان هما، وأبوهما خير منهما» ذخائر العقبى ص130.

ومنها بلفظ: «نِعمَ الجمل جملكما ونِعم الحملان أنتما» وفي لفظ: «نِعمَ الفارسان هما».

أقول: ما فتئ النبي ينبه إلى منزلة علي(ع)، فتراه هنا يضيف «وأبوهما خير منهما» بلا مبرر آخر غير تنبيه أبي بكر أن علياً(ع) أعلى منزلة من هذين اللذين يركبهما النبي(ص) على عاتقه الشريف؛ أو ربما كي لا يعترض الذهن أن الحسنين(ع) كونهما من نسل النبي(ص) فإنهما أفضل من علي(ع) الذي ليس من نسله(ص)، فأراد التنبيه والموعظة.

(9) حديث الحسنان(ع) سبطان من الأسباط

أخرج صاحب كنز العمال ج2 ص88 حديثاً يقول النبي(ص) فيه: «ولكل أمة سبط، وسبط هذه الأمة الحسن والحسين» وبلفظ: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط» في ج6 ص221.

أقول: نبه العلماء أن تسمية النبي(ص) للحسن(ع) والحسين(ع) بالأسباط لا يعني أنهما أولاد ابنته – حيث أن السبط يطلق على الحفيد، وإن كان على ولد البنت أكثر – وذلك لأن هذا من البديهيات التي يعرفها المسلمون جميعاً، وإنما هو يريد أن يربط بينهما وبين الأسباط الذين يعرفهم المسلمون من كتاب الله تعالى؛ وبما أن أولئك الأسباط من بني إسرائيل كانوا أنبياء معصومين في حين أن الحسنين(ع) ليسا من الأنبياء، فقد ثبتت باقي الصفات العامة للأسباط، وهي العصمة ووصاية النبيين الخ، وهذا يقود إلى إمامتهما بالولاية العامة على المسلمين الذين لم تكن لهم هذه المنازل السامية كما لا يخفى. أي، من الضروري أخذ كلام النبي(ص) على محمله الصحيح، وأنه كلام هادف وليس من باب الفخر والمجاملات وغير ذلك لأنه(ص) لا يخرج منه شيء إلا في سبيل النصح للأمة وتعريفها حقوقها ومسؤولياتها.

(10) حديث في حب الحسن(ع) وفي أن النبي(ص) منه

من ذلك قوله(ص): «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه» صحيح البخاري كتاب البيوع باب ما ذكر في الأِسواق، والبخاري في كتاب بدء الخلق باب مناقب الحسن والحسين، وابن ماجة في باب فضائل أصحاب رسول الله(ص) من سننه.

وفي حديث لافت أخرجه الإمام أحمد في المسند ج5 ص366 عن زهير بن الأقمر قال: "بينما الحسن بن علي(ع) يخطب بعدما قُتل علي(ع) إذ قام رجل من الأزد آدم طوال فقال: لقد رأيت رسول الله(ص) واضعه في حبوته يقول: ‹‹من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب›› ولولا عزمة رسول الله(ص) ما حدّثتكم". ورواه أيضاً ابن حجر في تهذيب التهذيب ج2 ص297.

أقول: وفيه أمران من غير قضية المحبة، الأول هو أن النبي(ص) أمر بتبليغ ذلك مما يدل على أهمية الأمر لأنه(ص) عرف أن في أمته من سيبغض سبطه الأكبر وإلا فإنه من البديهي أن يحب كل من ينتمي إلى أمته – إذا كان صادقاً في دعوى انتمائه – سبطه الأكبر وريحانته من الدنيا؛ والأمر الثاني أن هذا الرجل الأزدي لم يرد أن يحدث بهذا لولا أن النبي(ص) أمر بذلك ربما لأن البعض كان سيتهمه في كلامه بالتحيز.

إن هذه المنزلة من النبي(ص) يصرح بها قول النبي(ص): ‹‹هذا مني›› كما في مسند أحمد ج4 ص132، وفي رواية كنز العمال ج7 ص107: ‹‹هذا مني وأنا منه وهو يحرم عليه ما يحرم عليّ›› أنه قاله للحسن أو للحسين عليهما السلام.

وكلمة النبي(ص) ‹‹أنا منه›› مهمة جداً، لأن كلمة ‹‹هذا مني›› لا يمكن أن تقتصر على الامتداد النَسَبي، وإلا فهي تعني في الحقيقة أن ما يأتي به الحسن(ع) هو من النبي(ص)، وبالتالي حث غير مباشر على اتباعه لأن في ذلك اتباع السنّة. أما ‹‹أنا منه›› فلا يمكن تفسيرها بالنسب، إذاً هي تقول وإني أوافق على كل موقف وقول وفعل له، وفي هذا التصريح بصحة أقوال وأفعال ومواقف الحسن(ع) وبالتالي الأمر باتباعها جملة وتفصيلاً.

(11) حديث في حب الحسين(ع) وفي أن النبي(ص) منه

كما كان الحسنان(ع) لا يفترقان في شيء، فقد كان من حكمة النبي(ص) التنبيه إلى مكانتهما في دينه وأمته بشكل متشابه. فقد أخرج الترمذي في صحيحه ج2 ص307 مناقب الحسن والحسين(ع) عن يعلى بن مرّة أن النبي(ص) قال: ‹‹حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط››. وأخرجه أيضاً ابن ماجة في باب فضائل أصحاب رسول الله(ص) وفيه أن الحسين كان يلعب وأن النبي(ص) بسط يديه فجعل الغلام يفرّ من هنا وهنا والنبي(ص) يضاحكه حتى قبّله وقال ذلك القول.

ورواه البخاري في الأدب المفرد باب معانقة الصبي وفيه بلفظ: ‹‹الحسن والحسين سبطان من الأسباط››، ورواه أيضاً الحاكم في المستدرك ج3 ص177، وأحمد في المسند ج 4 ص172، وابن الأثير في أسد الغابة ج2 ص19 وج5 ص130، وصاحب كنز العمال في ج7 ص107، وغير هؤلاء.

ونبّه السيد الفيروز آبادي (فضائل الخمسة في الصحاح الستة) إلى أن لفظ: ‹‹حسين مني وأنا من حسين›› أو ‹‹حسين مني وأنا منه››، يقصد النبي(ص) إظهار كمال الحب وتمام الإلفة بالحسين(ع) لأن بلغاء العرب إذا أرادوا أن يظهروا الاتحاد والإلفة وشدة الاتصال والمحبة بأحد منهم فإنهم يقولون "فلاناً منا ونحن منه"، وإذا أرادوا إظهار النفرة والقطيعة فيقولون "إننا لسنا منه وليس هو منا"... كما في الحديث القدسي في الحاسد الحاقد: ‹‹إنه ليس مني ولست أنا منه››، وقريب من هذا الأسلوب ما في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنهُ فَلَيسَ مِنِّي﴾ (البقرة:249).

وقال بأنه الحديث قد يُستشعر منه الإشارة إلى ما قام به الحسين(ع) من التضحية في سبيل إثبات دين جده وإحياء شعار مجده بشهادته، فيفسّر قوله(ص): ‹‹حسين مني›› من الجهة المادية وقوله: ‹‹أنا من حسين›› بالجهة المعنوية. أي يذهب إلى ما أشرت إليه من أن كلمة ‹‹منه›› تعني موافقة النبي(ص) على جميع أقواله وأفعاله ومواقفه.

(12) حديث المهدي من أهل البيت(ع) ومن ولد فاطمة(ع)

أخرج ابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي أن النبي(ص) قال: ‹‹المهدي منا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة››. ورواه أحمد في المسند (ج1 ص84)، وغيره.

ومن ذلك أيضاً حديث رواه ابن ماجة في صحيحه أبواب الفتن باب خروج المهدي فيه إقبال فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي(ص) اغرورقت عيناه وتغيّر لونه، فسئل عن ذلك، فقال(ص): ‹‹إنا أهل بيت إختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يُعطونه، فيقاتلون فيُنصرون فيُعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملؤوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج››.

وروي هذا الحديث في مصادر أخرى منها الدر المنثور للسيوطي تفسير قوله تعالى: ﴿فَهَل يَنظُرونَ إلاّ السّاعَةَ أنْ تَأتِيَهُم بَغتَةً﴾ (محمد:18).

وهناك أحاديث مختلفة في خروجه(ع) وأنه يملؤها عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، كما في سنن أبي داوود ج27 كتاب المهدي)، والمستدرك للحاكم (ج4 ص557 وغيرها)، وأسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص259)، وغير ذلك.

وفي رواية أخرجها أبوداوود في سننه (ج27 ص134) عن أم سلمة أنها سمعت النبي(ص) يقول: ‹‹المهدي من عترتي من ولد فاطمة››. ورواه الحاكم في المستدرك (ج4 ص557)، وابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي، وغيرهم.

أحاديث متنوعة

الأحاديث في فضل أهل البيت(ع) لا تكاد تحصى، ولكني أذكر هنا مجموعة كلها تنص أو تدل على وجوب اتباع أهل البيت(ع)، أي هي أحاديث دور وموقف.

1 - قال النبي(ص): «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» مستدرك الحاكم ج3 ص14، (قال أنه حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم والبخاري). وعلّق السيد شرف الدين على هذا الحديث وهذا النص من النبي(ص) بهذا الشكل بالقول: "هذا غاية ما في الوسع من إلزام الأمة باتباعهم وردعها عن مخالفتهم، وما أظن في لغات البشر كلها أدلّ من هذا الحديث على ذلك".

2 -وقال النبي(ص): «من سرّه أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن قد غرسها ربي فليوالِ علياً من بعدي، وليوالِ وليّه، وليقتدِ بأهل بيتي من بعدي، فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي» كنز العمال ج12 ص103 رواية 34198، وتاريخ دمشق ج42 ص240، وحلية الأولياء ج1 ص86، وغيرها.

وورد الحديث بشكل آخر: «من يريد أن يحيى حياتي ويموت موتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتولّ علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة» مستدرك الحاكم ج3 ص128. ومثله حديث زيد بن أرقم الذي ينص على: «من أراد أن يحيا حياتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتولَّ علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة» مستدرك الحاكم ج3 ص128 (وهو صحيح على شرط الشيخين)، وأخرجه غيره كالطبراني في المعجم الكبير، وابن عساكر في تاريخ دمشق ج42 ص242.

وهذه الصيغة وردت بزيادة ذرية علي(ع) أيضاً، مثل قوله(ص): «من سرّه أن يحيا حياتي... فليتولَّ علياً وذريته من بعده فإنهم لن يخرجوكم من هدى ولن يدخلوكم في ضلالة» كنز العمال ج11 ص611 رواية 32960، ومسند أحمد ج5.

3 -عن عمار بن ياسر أن النبي(ص) قال: «أوصِ من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله، ومن أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد

أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل›› كنز العمال (ج11 ص609 رواية 32592)، والمعجم الكبير للطبراني (ج1 ص318)، ومجمع الزوائد (ج9 ص108)، وتاريخ دمشق (ج42 ص239 و ج52 ص7).

4 -وقال النبي(ص): ‹‹في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله فانظروا من توفدون›› الصواعق المحرقة ص90 تفسير قوله تعالى: ﴿وقِفُوهُم إنَّهُم مَسؤولُون﴾.

5 -وقال النبي(ص): ‹‹إلزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا›› المعجم الأوسط للطبراني (ج2 ص359)، والسيوطي في إحياء البيت، وفي مجمع الزوائد للهيثمي ج9 ص172. يعلق السيد شرف الدين على ذلك القول بسؤال: "فأنعم النظر في قوله ‹‹لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا›› ثم أخبرني ما هو حقهم الذي جعله الله شرطاً في صحة الأعمال؟ أليس هو السمع والطاعة لهم والوصول إلى الله عز وجل عن طريقهم القويم وصراطهم المستقيم؟ وأي حق غير النبوة والخلافة يكون له هذا الأثر العظيم؟"

6 -وقال النبي(ص):‹‹معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاء لآل محمد أمان من العذاب›› كتاب الشفاء للقاضي عياض القسم 2 ص40، وينابيع المودة ج1 ص78. علّق السيد شرف الدين على ذلك بالقول: "وأنت تعلم أن ليس المراد من معرفتهم هنا مجرد معرفة أسمائهم وأشخاصهم وكونهم أرحام رسول الله(ص)، فإن أبا جهل وأبا لهب ليعرفان ذلك كله، وإنما المراد معرفة أنهم أولو الأمر بعد رسول الله على حد قوله(ص): ‹‹من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية››، والمراد من حبهم وولايتهم المذكورين الحب والولاية اللازمان عند أهل الحق لأئمة الصدق، وهذا في غاية الوضوح".

7 -وقال النبي(ص): ‹‹لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه، وعن محبتنا أهل البيت›› أخرجه الطبراني (ج9 ص154)، والسيوطي في إحياء البيت، ومجمع الزوائد (ج10 ص346). وعلق السيد شرف الدين بالقول: "لولا أن لهم منصباً من قبل الله يستوجب السمع والطاعة ما كانت محبتهم بهذه المثابة".

أقول: إن هذه الحديث مروي صحيح عند أهل السنة ولكنه مبتور حيث يذكر ذلك الحديث أن العبد يسأل عن ثلاث ويتر منه الرابعة وهي محبة أهل البيت، أو أن الرابعة جعلوها "العلم أي "عن علمه ماذا عمل فيه"، كما في سنن الدارمي (ج1 ص135).

وأقول: بل إن صاحب ميزان الاعتدال أخرج حديثاً عن أبي ذر (ج1 ص443) أن النبي(ص) قال: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن حبنا أهل البيت» وأومأ إلى علي" ما يجعل هذه الرابعة مقدمة على غيرها، ربما.

8 -وقال النبي(ص): «ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزفّ إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمن، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة؛ ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله» التفسير الكبير للإمام الثعلبي في تفسير آية المودة، والزمخشري في تفسير الكشاف. وعلّق السيد شرف الدين بالقول: "وما كانت لتثبت لهم هذه المنازل لولا أنهم حجج الله البالغة ومناهل شريعته السائغة والقائمون مقام رسول الله في أمره ونهيه والممثلون له بأجلى مظاهر هديه، فالمحب لهم بسبب ذلك محب لله ورسوله، والمبغض لهم مبغض لهما، وقد قال(ص): «لا يحبنا إلا مؤمن تقي ولا يبغضنا إلا منافق شقي» كما في الصواعق باب 11 من مقاصد آية المودة". ويكمل شرف الدين: "لذا قال فيهم الفرزدق:

مِنْ مَعشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وبُغضُهُمُ   كُفرٌ وقُربُهُمُ مَنجى ومُعتَصَمُ"

الفصل السابع

الزهراء(ع) أحاديث وقضية

مقدمة

فاطمة(ع) سيدة النساء

فاطمة(ع) أصدق الناس

سد الأبواب المشرعة على المسجد إلا باب علي(ع)

في قول النبي(ص): فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وما أشبه

فاطمة وأبو بكر

((فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني))

(رسول الله(ص))

أفردت للصديقة فاطمة الزهراء(ع) فصلاً خاصاً بها – وهي التي تستحق فصولاً وكتباً – ولم أدرج الأحاديث المتعلقة بها في فصل الحديث الشريف لأسباب:

الأول، خصوصية الزهراء(ع) من جهة كونها ابنة سيد البشر(ص) وسيدة النساء خديجة(ع)، وهو ما لم يكن لأحد غيرها (فإن كانت باقي بنات النبي(ص) بناته على الحقيقة، ولسن بنات خديجة(ع) من زواج سابق كما يقول البعض، أو هن بنات أختها أو بنات زوج أختها من زواجه الأول حسبما يقول آخرون، فإن تفرد الزهراء(ع) بآية التطهير مثلاً يجعلها أعلى وأعلى لأنها تكون قد حازت ذلك الفضل لا من جهة بنوتها للنبي(ص) وخديجة(ع)، وهو أمر ينبغي لباحثي الشيعة أن يلحظوه بدلاً من أن يجهدوا أنفسهم في محاولة إثبات عدم وجود بنات للنبي(ص) غيرها(ع) لأن إثبات ذلك لا يضيف شيئاً، بل ربما يقلله)؛

الثاني، خصوصية الزهراء(ع) من جهة كونها بنت النبي(ص) التي جمعت مع الأئمة من أهل البيت(ع) دون غيرها من بناته(ص)، ما يجعل فضائلها تأتي لا من ناحية بنوتها للنبي(ص) فحسب وإنما من اصطفاء إلهي، فصارت من الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم من الدنس رغم أنها ليست من الأئمة(ع)؛

الثالث، خصوصية الزهراء(ع) من جهة كونها الرابط الفريد بين النبوة والإمامة، فهي بنت النبي(ص) وزوجة الإمام الأول(ع) وأم الإمامين الثاني والثالث(ع) – فلم تكن امرأة أخرى بعد ذلك أماً لإمامين اثنين – وجدة الأئمة التسعة الآخرين(ع)، وهذا لا يمكن أن يأتي من فراغ؛

الرابع، تعرض الزهراء(ع) لموقف من أقرب صحابة النبي(ص) كان مؤلماً لها(ع) أشد الألم، وكان مؤلماً لي عندما اطلعت عليه أشد الألم، بل صادماً، ثم تحول الألم والصدمة إلى تفكير في ما يمكن الاستفادة منه عند النظر في القضية؛ فالزهراء(ع)، بهذه المكانة السامية والخصوصيات المذكورة أعلاه، لا يتصور أن يجول بخاطرة أحد – مجرد خاطرة – بإيذائها بأي شكل من الأشكال، فكيف بكل ما تعرضت له؟؛

الخامس، قيام الزهراء(ع) بأفعال، حيال ما تعرضت له (مما قالته في خطبتها في مسجد أبيها(ص) وتحاججها مع الخليفة، ثم في كلامها مع الخليفة ووزيره عمر عندما زاراها في البيت، ثم في وصيتها أن تدفن ليلاً في مكان غير معلوم ودون أن يحضر دفنها من ظلمها)، واضح أنها أرادت من المسلمين التفكر بالأمر، فإن أهملتُ هذا فكأني أدير ظهري لها(ع)، وهذا دونه خرط القتاد.

وهنا تجدر ملاحظتان:

الأولى- تنبيه للقارئ أن الأمر ليس لنبش الماضي وإثارة الناس بعضهم على البعض، فهذا حرام دون ريب، وهو بعيد كل البعد عن نهج الأئمة(ع)، ولكن للقيام بواجب النصيحة من أجل أن ينظر المسلمون في هذا الأمر بهدف التوصل إلى تفهم موقف الشيعة في هذه القضية بالذات، وبالتالي تقريب الناس لا إثارتهم؛

الثانية- تنبيه بعض الشيعة، ولاسيما بعض العلماء والخطباء، إلى عدم جواز النزول بالزهراء(ع) إلى ساحات التنافس الدنيوي والمزايدات، حتى دفعوا بعض الشيعة المخلصين المحبين إلى القيام بأفعال يظنون أنها تعبر عن تعاطفهم مع أهل البيت(ع) والزهراء(ع) بالخصوص في الوقت الذي لا تجلب هذه الأفعال سوى النقد من الآخرين لهم وللتشيع بشكل عام، والفائدة الدنيوية لبعض الذين يدفعونهم لمثل ذلك (وإن كان الواجب القول أن بعض هؤلاء نياتهم صادقة ولكنهم من الذين يظنون أنهم يحسنون صنعاً).

(1) فاطمة(ع) سيدة النساء

أخرج البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب علامات النبوة في الإسلام بسنده عن عائشة الحديث الشهير بأن النبي(ص) سارّ فاطمة شيئاً فبكت ثم سارّها شيئاً فضحكت فسألتها عائشة عن هذا الفرح والحزن القريبين بهذا الشكل العجيب فرفضت أن تقول ما أسرّه لها النبي(ص)، فلما كان بعد وفاته أوضحت أنه أسرّ إليها: «جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت... فقال: أما ترضين أن تكون سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين؟ فضحكت لذلك».

وقد رواه أحمد في المسند ج6 ص282، وابن سعد في الطبقات ج2 ص40، وابن الأثير في أسد الغابة ج5 ص522، والنسائي في الخصائص ص34.

وقد أخرجه أيضاً البخاري في كتاب الاستئذان باب من ناجى بين يدي الناس وذلك بلفظ مختلف قليلاً.

وأما الترمذي فقد أخرج في صحيحه ج2 ص306 باب مناقب الحسن والحسين(ع) بسنده عن حذيفة في حديث يقول فيه أن النبي(ص) قال: «إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة، إستأذن ربه أن يسلّم عليّ ويبشّرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». رواه أيضاً الحاكم في المستدرك ج3 ص151، وأحمد في مسنده ج5 ص391، وغيرهما.

وهناك روايات عديدة في المصادر المعتبرة، بهذا المعنى، وأيضاً بتفصيل سيدات النساء بأنهن أربع: فاطمة(ع) وأمها خديجة ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم، كما في مستدرك الحاكم ج3 ص185 و ج2 ص497، وابن عبد

البر في الاستيعاب ج2 ص720، والإمام أحمد في المسند ج1 ص193 وغيرها، وابن الأثير في أسد الغابة ج5 ص437، وآخرين؛ ومنها في الترمذي ج5 ص366 رواية 3980 في فضل خديجة، وفي تفسير الطبري ج3 ص180 وتفسير الكشاف الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَريَمَ ابنَةَ عِمرانَ الَّتِي أحصَنَتْ فَرجَها﴾ (التحريم:12)، أو في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذْ قالَتِ المَلائِكَةُ يا مَريَمُ إنَّ اللهَ اصطَفاكِ وطَهَّرَكِ واصطَفاكِ على نِساءِ العالَمِين﴾ (آل عمران:42)؛ أيضاً في الدر المنثور للسيوطي.

(2) فاطمة(ع) أصدق الناس

أخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص160 عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت إذا ذكرت فاطمة(ع) قالت: "ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة منها إلا الذي كان قد ولدها" ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص751، وصاحب حلية الأولياء ج2 ص41 بلفظ مختلف قليلاً.

(2) سد الأبواب المشرعة على المسجد إلا باب علي(ع)

بالإضافة إلى الرواية التي رويناها آنفاً، هناك روايات تلفت إلى خصوصية فاطمة وولديها(ع) في حديث سد الأبواب، هذا الذي هو في حديث النبي(ص) لعلي: «لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك» رواه الترمذي في صحيحه ج2 ص300، والبيهقي في ج7 ص65 في سننه بسنده برواية أم سلمة رضوان الله عليها حيث روت أن النبي(ص) قال: «ألا لا يحل هذا المسجد لجنب ولا لحائض إلا لرسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ألا قد بيّنت لكم الأسماء أن لا تضلوا»؛ ورواه بلفظ مختلف قليلاً في رواية أخرى.

وروى هذا صاحب الكنز في ج3 ص154 و ج6 ص159، والهيثمي في المجمع ج9 ص115، وكذلك صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج8 ص16 برواية ذكرها إسماعيل القاضي في أحكام القرآن أن النبي(ص) لم يأذن لأحد أن يمر بالمسجد وهو جنب إلا لعلي بن أبي طالب.

(3) في قول النبي(ص): فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وما أشبه

أخرج البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب مناقب قرابة رسول الله(ص) ومنقبة فاطمة سلام الله عليها أن النبي(ص) قال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»؛ ورواه النسائي في خصائصه ص35، وغيره.

وأخرج البخاري أيضاً في صحيحه كتاب النكاح باب ذب الرجل عن ابنته حديثاً آخر يقول النبي(ص) فيه: ‹‹فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها››؛ ورواه أحمد في المسند ج4 ص328، وأبو داوود في سننه ج12 باب ما يُكره ما يجمع بينهن من النساء.

وأخرج مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة(ع) أن النبي(ص) قال: ‹‹إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها››؛ وهو ما أورده الفخر الرازي في تفسير آية المودة وأيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤوِيهِ﴾ (المعارج:13).

وأخرج الترمذي في صحيحه ج2 ص319 بلفظ ‹‹إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها››؛ وهو رواه أحمد في المسند ج4 ص5، والحاكم في المستدرك ج3 ص159.

وقد روى أيضاً في المستدرك ج3 ص158 بلفظ ‹‹فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها››؛ وذكره آخرون في روايات مختلفة.

وأخرجه ابن حجر في الصواعق ص107 بلفظ ‹‹إنما فاطمة بضعة مني يسرّني ما يسرّها››.

أما ابن قتيبة فقد أخرج الحديث في ص14 من الإمامة والسياسة والذي تناشد فيه فاطمة(ع) أبا بكر وعمر عندما زاراها بعدما حصل منهما ما حصل بأمر الخلافة وبأمر فدك "قالت(ع): ‹‹أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله(ص) تعرفانه وتفعلان به؟›› قالا: نعم، فقالت: ‹‹نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله(ص) يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟›› قالا: نعم سمعناه من رسول الله(ص)، قالت: ‹‹فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي(ص) لأشكونّكما إليه!››، فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب أبو بكر يبكي كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول: ‹‹والله لأدعونّ الله عليك في كل صلاة أصلّيها››، ثم خرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم: يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته ومسروراً بأهله وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي..."

وفي نفس السياق أخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص153 قول النبي(ص): ‹‹إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك››؛ وهو رواه ابن الأثير في أسد الغابة ج5 ص522، وآخرون.

وهناك روايات بألفاظ مختلفة قليلاً كقوله: ‹‹إن الرب ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك›› كما في ميزان الاعتدال للذهبي ج2 ص72.

فبمجموع هذه الأحاديث أن من يُغضِب فاطمة(ع) فإنه يكون قد أغضب الله ورسوله(ص)، وهذا ما يؤدي إلى نتائج خطيرة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَحلُلْ عَلَيهِ غَضِبي فَقَد هَوى﴾ (طه:81).

ويبدو أن هذه الأحاديث الشريفة لم تمنع من إغضاب الزهراء(ع) كما وجدنا في اتهامها للشيخين بذلك عندما زاراها في الحديث المتقدم آنفاً، والذي كان البعض منه بخصوص فدك وبخصوص ميراثها من النبي(ص)، حيث أن البخاري أخرج في صحيحه في موضوع الخمس (ج4 ص42) أن فاطمة بنت رسول الله(ص) "غضبت على أبي بكر فهجرته فلم تزل مهاجرته حتى توفيت". وروى في باب غزوة خيبر (ج5 ص82) القول "فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، قال: فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت"؛ ورواه مسلم ج5 ص154. وروى في كتاب الفرائض (ج8 ص3) أنها "هجرت أبا بكر فلم تكلمه حتى ماتت". وهي روايات أكّدها مسلم في صحيحه ج5 ص154، والبيهقي في سننه ج6 ص300، والإمام أحمد في مسنده ج1 ص9. وذكر الترمذي في صحيحه باب ما جاء في تركة رسول الله(ص) ذكر فاطمة(ع) لأبي بكر وعمر: ‹‹والله لا أكلمكما أبداً›› فماتت ولم تكلمهما وذلك بعد أن كان النبي(ص) قد أعطاها فدكاً؛ فقد روى السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذا القُربى حَقَّهُ﴾ (الإسراء:26) عن أبي سعيد الخدري أن هذه الآية لما نزلت دعا رسول الله(ص) فاطمة فأعطاها فدكاً؛ وفي رواية عن ابن عباس أخرجها ابن مردويه أنه(ص) أقطع فاطمة فدكاً؛ وهو ما أخرجه الهيثمي في المجمع ج7 ص49 عن أبي سعيد، والذهبي في ميزان الاعتدال ج2 ص228 قائلاً بصحته، وغيرهم.

عصمة الزهراء(ع)

قال السيد شرف الدين (النص والاجتهاد): "إن من أمعن في هذه الأحاديث فتدبرها ممن يقدر رسول الله(ص) حق قدره رآها ترمي إلى عصمتها لدلالتها بالالتزام على امتناع وقوع كل من أذيتها وريبتها وسخطها ورضاها وانقباضها وانبساطها في غير محله كما هو الشأن في النبي(ص)، وهذا هو كنه العصمة وحقيقتها".

وكان قد قال في مورد آخر بأن المسلمين كافة علموا أن الله اختارها من نساء الأمة واختار ولديها من الأبناء واختار بعلها من الأنفس يوم خرج النبي(ص) للمباهلة بهم بأمر الله تعالى: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ – أي في عيسى – مِنْ بَعدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالُوا نَدعُو أبناءَنا وأبناءَكُم ونِساءَنا ونِساءَكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم ثُمَّ نَبتَهِلْ فَنَجعَلْ لَعنَةَ اللهِ على الكاذِبِين﴾ (آل عمران:61)... وأجمع المسلمون كافة على أن الزهراء(ع) من الذين نزلت فيهم آية التطهير وآية المودة وأنها من الذين تعبّد الله الناس بالصلاة عليهم كما تعبّدهم بالشهادتين في كل فريضة، وأن الزهراء من الأبرار الذين نزلت فيهم سورة "هل أتى"...

أقول: فلو لم تكن الزهراء(ع) معصومة لكان من الصعب تفسير إدخالها في زمرة آية التطهير، ولكان من الصعب جعلها من الذين أمر المسلمون بالصلاة عليهم في صلاتهم الفريضة التي هي عمود الدين، ومن الصعب أن

تدخل في زمرة الذين طلب النبي(ص) مودتهم أجراً على تبليغ القرآن والدين، ومن الصعب تفسير جميع هذه المنازل التي لها والتي تترتب على هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، بل التي تترتب على آية واحدة من هذه وحديث واحد من هذه فكيف بهذه الآيات والأحاديث مجتمعة، اللهم إلا أن نعود إلى نفس المنهج من التصديق بالفضائل وكأنها مدائح ومجاملات ألهية للنبي(ص) أو فخر للنبي(ص) بأهله على الأمة، وكلها لا مجال لقبولها كما قلنا فيما سبق.

(4) فاطمة وأبو بكر

من الأمور التي اطلعت عليها – ويا ليتني، عاطفياً، لم أطلع عليها – هو ما جرى على فاطمة الزهراء(ع) بنت النبي(ص) على يد أقرب الأصحاب لأبيها(ص) وبعد وفاته مباشرة، مما كان لا يصدق في أول الأمر. إذ كيف يتم التعامل بهذا الشكل الجاف والقاسي مع بضعة النبي(ص) ومصيبة موته(ص) قد نزلت للتو، وهي مصيبة، وإن عمت، إلا أنها كانت أشد بالخصوص على ابنته(ع) التي كانت أقرب الناس إليه، بيتها ملاصق لبيته، لا يخرج في سفر إلا تكون آخر عهده بالمدينة ولا يعود من سفر إلا ويكون لقاؤها والاطمئنان عليها أول ما يفعله... لم يكن يبدو الأمر ممكناً، ولاسيما ولم يكن هناك أي معرفة به أو إشارة له إذ انه من الأمور التي كتمت عن أهل السنة بشكل تام كامل. ولكن – مع الأسف – تأكدت من الأمر من المصادر المختلفة، تفسير وحديث وتاريخ، فكان جرحاً غائراً لا يندمل. وهذه الأحاديث التي أوردناها للتو، قرأتها فعرفت أن إيذاء فاطمة(ع) إيذاء لأبيها(ص)، وأن إغضابها(ع) إغضاب لأبيها(ص)، فكأن كل ما جرى عليها(ع) من ظلم جرى على أبيها(ص) وذلك بنص حديثه هو(ص).

بل أن الظلم مضاعف حقاً، لأنه ظلم وقع بعد تنبيهه(ص) لمنزلتها(ع) ومكانتها منه، فكان الظلم ظلمان: الأول ما جرى من غصب – والمال مالها دون شك –، واعتداء – وحرمة دارها كحرمة دار أبيها –، ورد – بقوة الحكم مع أنها مغتصبة هي الأخرى من زوجها –، وافتراء – باختراع أحاديث لأبيها(ص) –، وتكذيب – وهي المعصومة التي لا تكذب –؛ والثاني فعل كل ذلك بالرغم من التنبيه النبوي على مكانتها(ع) وبالتالي ضرورة الاحتراس الكامل في التعامل معها.

لماذا في هذا المورد، مورد أحاديث الفضائل؟

لأن أحاديث الفضائل، وكما قلت سابقاً، ليست مدائح وحسب، وإنما هي إعلان لمنزلة ودور لهؤلاء الصفوة اكتشفتها بعد كتمان، وعرفتها بعد جهل، وأريد اطلاع الآخرين عليها – فهذا واحد من أهداف الكتاب كما أرجو من القارئ أن لا ينسى.

نقطة أخرى، وهي أن التعامل مع فاطمة(ع) بذلك الشكل غير المتوقع من الخليفة وأصحابه يكشف عن الأمر الهام وهو أن أقرب الناس إلى النبي(ص)، ومن كانت الآيات والأحكام تتنزل أمامهم، ومن كانوا يعايشون السيرة النبوية العطرة كل يوم، لا يؤمن منهم الخطأ، بل الخطأ الفادح، وبالتالي فهي إشارة واضحة لضرورة العصمة التي جعلت في أئمة أهل البيت(ع) لأنهم كانوا المعينين لخلافة النبي(ص). أي أن كبار الأمة سقطوا في أول اختبار بعد وفاة النبي(ص) مباشرة، ومع أقرب الناس إليه(ص)، فكيف سيحصل من غيرهم ممن سيأتي بعدهم ومع الأفراد العاديين من الأمة، وهو الذي حصل حتى استعبدت الأمة من قبل خلفاء بني أمية وبني العباس وغيرهم. فهذا الأمر، فاطمة(ع) وأبو بكر، يفتح الباب أمام النظر في مسألة الإمامة والخلافة والعصمة وسيرة الحكام وغيرها من أمور هي الأهم في حياة البشرية. وإلا فأين هي قضية فدك في واقعنا اليوم لكي نثير عليها ضجة ما؟ (راجع جواب علي(ع) في آخر الفصل لمن سأله عن فدك.)

وسأحاول أن ألخص مناقشات السيد شرف الدين في كتاب "النص والاجتهاد"، الموارد 6-9، وأيضاً من مناقشات السيد محمد باقر الصدر في كتابه "فدك في التاريخ"، وهي مناقشات تشمل سهم ذوي القربى وتوريث الأنبياء ونِحلة الزهراء(ع).

مناقشات السيد شرف الدين

قال: "قال تعالى: ﴿واعلَمُوا أنَّما غَنِمتُم مِنْ شَيءٍ فإنَّ للهِ خُمُسَهُ وللرَّسولِ ولِذِي القُربى واليَتامى والمَساكِينِ وابنِ السَّبيلِ إنْ كُنتُم آمَنتُم باللهِ وما أنزَلنا على عَبدِنا يَومَ الفُرقانِ يَومَ التَقى الْجَمعانِ واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ﴾ (الأنفال:41). وفيه أوضح بأن الغنم والغنيمة والمغنم هي عند العرب كل ما يستفيده الإنسان فلا وجه للتخصيص بغنائم دار الحرب، وألفت إلى أن الشرط ﴿إنْ كُنتُم آمَنتُم باللهِ﴾ أن الخمس حق شرعي لأربابه المذكورين في الآية يجب صرفه إليهم فاقطعوا عنه أطماعكم وأدّوه إليهم إن كنتم آمنتم بالله، وفيه من الحثّ على أداء الخمس والإنذار لتاركيه ما لا يخفى".

ونلخص ما قاله السيد شرف الدين بما يلي.

أن المسلمين أجمعوا على أن النبي(ص) كان يختص بسهم من الخمس ويخص أقاربه بسهم آخر منه، فلما ولي أبو بكر تأوّل الآية فأسقط سهم النبي(ص) وسهم ذي القربى بموته ومنع بني هاشم من الخمس، وأورد ما رواه صاحب تفسير الكشّاف عن ابن عباس في ذلك.

فكان أن أرسلت الزهراء(ع) إلى الخليفة تسأله ميراثها مما أفاء عليه من المدينة فأبى أن يدفع ذلك، فوجدت عليه فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وذلك على ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم كما في أواخر باب غزوة خيبر

ص36 من ج3 من صحيح البخاري (رواية 2862) وصحيح مسلم ج2 ص72 (رواية 3304)، وأخرجه الإمام أحمد أيضاً (رواية 25 ورواية 52).

وذكر رواية في صحيح مسلم أن ابن عباس قال بخصوص سهم ذوي القربى: "إنا كنا نرى أن قرابة رسول الله(ص) هم نحن، فأبى ذلك علينا قومنا" كتاب الجهاد والسير ج2 ص105. وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في ج1 من المسند ص294، وغيره من أصحاب المسانيد.

(أقول: ومن باب الهزل حقاً ما فسره راوي الحديث الذي أورده الترمذي في سننه في الرواية 1534 كما يلي: "حدثنا بذلك علي بن عيسى قال حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن فاطمة جاءت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما تسأل ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إني لا أورث، قالت: والله لا أكلمكما أبداً فماتت ولا تكلمهما.

قال علي بن عيسى: معنى لا أكلمكما تعني في هذا الميراث أبداً أنتما صادقان. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم."

كيف علم أن قصدها عليها السلام هو أنكما صادقان لا أكلمكما في الميراث؟! ولاسيما وأنهما ما جاءا بدليل على أن النبي(ص) لا يورث إلا ادعاءهما أنهما سمعاه يقول ذلك، في حين أن فاطمة(ع) لم تسمع ذلك منه وهي ابنته. بالطبع، بضميمة الأحاديث الأخرى التي أخرجها البخاري ومسلم وغيرهما نعرف أنها حلفت أن لا تكلمهما غضباً منها على غصبهما حقها الواضح في ميراث أبيها(ص).)

وذكر السيد شرف الدين أن من نتائج هذا الإبطال للتشريع هو أن أئمة المذاهب الأربعة اختلفوا فيه فجعله مالك مفوضاً إلى رأي الإمام يجعله حيث شاء لا فرق بين ذي قربى أو غيره، ومثل ذلك أبو حنيفة وأصحابه، أما الشافعي فجعله خمسة أسهم جعل منها لذوي القربى من بني هاشم وبني المطلب.

وذكر في المورد الذي يليه بأن الزهراء أرسلت تسأل الخليفة ميراثها من أبيها(ص) فقال أبو بكر: "إن رسول الله قال لا نورّث ما تركناه صدقة". قالت عائشة أم المؤمنين: "فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منه شيئاً"، وذكرت أن "فاطمة وجدت على أبي بكر فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً بوصية منها ولم يؤذن بها أبا بكر ..." وذلك كما رواه البخاري في ج3 من صحيحه أثناء الكلام عن غزوة خيبر ص37، ورواه مسلم في ج2 من صحيحه ص72، والإمام أحمد في ج1 من مسنده ص6.

هذا على الرغم من أن القرآن الكريم كان واضحاً في مسألة التوريث في آيات كريمات محكمات احتجت بها الزهراء(ع) فيما احتجت به عندما ألقت بخطبتها المروية وذلك في المدينة عند مسجد النبي(ص) حيث قالت من جملة ما قالته: «أعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيمانُ داوود﴾، وقال فيما اختص من خبر زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعقُوبَ واجعَلْهُ رَبِّي رَضِيّاً﴾، وقال: ﴿وأولُو الأرحامِ بَعضُهُم أَولى ببَعضٍ في كِتابِ اللهِ﴾، وقال: ﴿يُوصِيكُم اللهُ في أولادِكُم للذَّكَرِ مْثلُ حَظِّ الأُنثيين﴾، وقال: ﴿كُتِبَ عَليكُم إذا حَضَرَ أحدَكُم المَوتُ إنْ تَرَكَ خَيراً الوَصِيَّةُ للوالِدَينِ والأقرَبِينَ بالمَعرُوفِ حَقّاً على المُتَّقِين﴾؟» ثم قالت: «أَخَصَّكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟! أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان؟!..»

ومما علّق به السيد شرف الدين أنها احتجّت أولاً على توريث الأنبياء بآيتي داوود وزكريا الصريحتين بالتوريث، وهي أعلم بمفاد القرآن ممن جاؤوا متأخرين عن تنزيله فصرفوا الإرث هنا إلى وراثة الحكمة والنبوة دون الأموال، وهو تكلّف لو كان صحيحاً لعارضها به أبو بكر يومئذ أو غيره ممن كان من المهاجرين والأنصار. فإن ما قاله أبو بكر لم يكن نقاشاً في آيات القرآن التي احتجّت بها(ع) وإنما قال: "يا ابنة رسول الله والله ما خلق الله خلقاً أحب إليّ من رسول الله أبيك(ص)، ولَوَددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، ووالله إن تفتقر عائشة أحب إليّ من أن تفتقري، أترينني أعطي الأبيض والأحمر حقه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله؟ إن هذا المال لم يكن للنبي وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل به النبي الرجال وينفقه في سبيل الله، فلما توفي وليته كما كان يليه". قالت: «والله لا كلّمتك أبداً» قال: "والله لا هجرتك أبداً"، قالت: «والله لأدعونّ الله عليك»، فلما حضرتها الوفاة أوصت أن لا يصلي عليها، وهذا الحديث أخرجه الجوهري في كتاب السقيفة وفدك على ما في ص80 من المجلد 4 من شرح النهج. هنا لم يعارضها الخليفة فيما فهمته من التوريث في آيتي داوود وزكريا وإنما عارضها بدعوى ما كان يفعله النبي على ما ادّعاه هو.

ثم وجدنا أنها احتجّت على استحقاقها الإرث بعموم آيات المواريث وآيات الوصية وسألت مستنكرة إن كان الله قد خصّهم بآية وأخرج النبي(ص) منها بمعنى أن آية المواريث لا تنطبق على النبي(ص). ثم سألتهم مستنكرة إن كانوا أعلم بعموم القرآن وخصوصه من النبي(ص) وعلي(ع). فنفت بهذه الأسئلة الموبّخة وجود ما يخصص هذه الآيات القرآنية من روايات السنة النبوية، بل نفت وجوده مطلقاً، لأنه لو كان ثمة ما يخصص لبيّنه لها النبي(ص) وعلي(ع) إذ يستحيل عليهما الجهل به لو كان موجوداً ولا يجوز عليهما أن يهملا تبيانه لها لأن ذلك التفريط في الإبلاغ والكتمان للحق والإغراء بالجهل والتعريض لطلب الباطل والتغرير بكرامتها والتهاون في صونها عن المجادلة والمجابهة والبغضاء والعداوة بغير الحق، مما هو محال ممتنع عن الأنبياء والأوصياء.

فإذا كان من المعلوم من أمر النبي(ص) أنه كان يحيطها بما لا يحيط به أحد غيرها فلا يمكن أن يكتم عليها شيئاً بخصوص الأحكام الشرعية، وأنه من المستحيل أن يجهل علي(ع) وهو باب مدينة العلم وسفينة نجاة الأمة وأمانها من الاختلاف أن يجهل حديث لا نورّث الذي زعم الخليفة سماعه من النبي(ص). هذا ناهيك عن العباس بن عبد المطلب وبقية الهاشميين وأمهات المؤمنين اللواتي أرسلن إلى عثمان في وقته يسألن ميراثهن من النبي(ص)، مما هو كله ممتنع امتناعاً تاماً عن النبي(ص).

أما نحلة الزهراء(ع) أي ما أعطاه النبي(ص) إليها في حياته، وهي فَدَك التي كانت قرية جزء من المصالحة بين اليهود والنبي(ص) عندما فتح الله عليه خيبر فكان هذا النصف من هذه المصالحة مما حكم به القرآن لرسول الله خالصة له لأنها لم تكن مما أوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، بمعنى أن المسلمين لم يحصلوا عليها نتيجة للقتال والتضحيات وبالتالي فهي بنص القرآن خالصة للنبي(ص) وهو أعطاها إلى الزهراء في حياته الشريفة. وقد ثبّت أمير المؤمنين عندما سئل عن فدك عائديتها إلى الزهراء(ع) حيث كتب له عنها يسأل عنها عامله في البصرة الصحابي عثمان ابن حنيف فأجابه بالقول: «بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أضلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله..." كما في نهج البلاغة (ج3 رسالة 45). فكان أن طلبت فاطمة(ع) أن تُسلّم إليها بعد أن انتزعت منها كما قد روى ذلك شرّاح آية الفيء كالفخر الرازي في تفسيره (مفاتح الغيب ج8 سورة الحشر) قال: "فلما مات رسول الله(ص) ادّعت فاطمة(ع) أنه كان ينحلها فدكاً، فقال لها أبو بكر: أنتِ أعزّ الناس عليّ فقراً وأحبهم إليّ غنى ولكني لا أعرف صحة قولك فلا يجوز أن أحكم لكِ، فشهدت لها أم أيمن ومولى لرسول الله، فطلب منها أبو بكر الشاهد الذي يجوز قبول شهادته في الشرع فلم يكن".

وعلّق السيد شرف الدين على الرواية بالقول بأن "الشاهد الذي شهد لها مع أم أيمن كان علياً(ع) وهو مما لا خلاف فيه، فكأن الرازي استفظع رد شهادة علي(ع) فلم يصرّح باسمه احتراماً له ولأبي بكر معاً فكنّى عنه بمولى لرسول الله(ص)".

وروى صاحب الصواعق بأن فاطمة(ع) لم تأتِ إلا بعلي(ع) وأم أيمن فلم يكمل نصاب البيّنة (على اعتبار أنه كان عليها أن تأتي بشاهدين رجلين أو رجل وامرأتين).

وتكلّم السيد شرف الدين بما يشبه العتاب للخليفة وكيف يوقف الزهراء وهي ثكلى لأجل أن تطالب بإرثها ونحلتها ومع ذلك يجعلها ترجع راغمة خائبة، فتساءل عن حلمه وأناته، وليته اتّقى فشلها بما لديه من الحكمة وأن لا يخيّبها فيما طلبت، وذكر كلمة محمود أبو ريّة المؤلف المصري المعروف الذي قال (مجلة الرسالة المصرية في عدد 518 من السنة 11): "بقي أمر لا بد أن نقول فيه كلمة صريحة ذلك هو موقف أبي بكر من فاطمة رضي

الله عنها بنت رسول الله(ص) وما فعل معها في ميراث أبيها. لأنه إذا سلّمنا بأن خبر الآحاد الظني يخصص الكتاب القطعي وأنه قد ثبت أن النبي(ص) قد قال بأنه لا يورث، وأنه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإن أبا بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة رضي الله عنها بعض تركة أبيها(ص) كأن يخصّها بفدك، وهذا من حقه الذي لا يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للخليفة أن يخص من يشاء بما شاء... وقد خصّ هو نفسه الزبير بن العوّام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي، على أن فدكاً هذه التي منعها أبو بكر لم تلبث أن أقطعها الخليفة عثمان لمروان".

ونقل السيد شرف الدين ما نقله ابن أبي الحديد في المجلد 4 ص106 لشرح النهج القول: "وقد كان الأجلّ أن يمنعهما التكرّم (أي أبو بكر وعمر) عمّا ارتكباه من بنت رسول الله فضلاً عن الدين" وعلّق عليه ابن أبي الحديد بقوله: "هذا الكلام لا جواب عليه".

علّق السيد شرف الدين بعد ذلك على كل هذا بمحاكمة لاحتجاجات الخليفة وما ذكر في كل هذا بما يمكن أن نلخصه بأن الموازين الشرعية التي توجب الحكم للزهراء(ع) بنحلتها كانت تامة وواضحة، وأن المدّعية كانت بمثابة من القدس تعدل بها مريم بنت عمران بل وهي أفضل منها وأنها ومريم وخديجة وآسية أفضل نساء الجنة وأنهن خير نساء العالمين على ما روى المحدثون في ذلك مما أجمع عليه المسلمون (كما في حديث ابن عباس في ص293 ج1 من مسند أحمد الذي رواه أبو داوود).

وقال بأن المسلمين كافة علموا أن الله اختارها من نساء الأمة واختار ولديها من الأبناء واختار بعلها من الأنفس يوم خرج النبي(ص) للمباهلة بهم بأمر الله تعالى: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ – أي في عيسى – مِنْ بَعدِ ما َجاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالُوا نَدعُو أبناءَنا وأبناءَكُم ونِساءَنا ونساءَكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم ثُمَّ نَبتَهِلْ فَنَجعَلْ لَعنَةَ اللهِ على الكاذِبِين﴾ (آل عمران:61)... وأجمع المسلمون كافة على أن الزهراء(ع) من الذين نزلت فيهم آية التطهير وآية المودة وأنها من الذين تعبّد الله الناس بالصلاة عليهم كما تعبّدهم بالشهادتين في كل فريضة، وأن الزهراء من الأبرار الذين نزلت فيهم سورة "هل أتى"...

وبالتالي فإن للزهراء(ع) من المنازل ما يوجب الثقة التامة في صحة ما تدّعي فلا تحتاج في إثبات دعواها إلى شاهد. ولكن الأمر – والكلام لشرف الدين – كما حكاه علي بن الفارقي من أعلام بغداد في مدرستها الغربية عندما سأله تلميذه ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة فقال له: "أكانت فاطمة صادقة في دعواها النحلة؟ قال: نعم"، قال له ابن أبي الحديد: "فلِمَ لم يدفع لها أبو بكر فدكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسم وقال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة وزحزحته عن مقامه ولم يكن يمكنه حينئذ الاعتذار بشيء لأنه يكون قد سجل على نفسه بأنها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود".

وأيضاً اعترض السيد شرف الدين على قوله لفاطمة: "إني لست أعلم صحة قولك"، وأنه مع ذلك لو عاملها كما يجب أن يعامل سائر المؤمنات الصالحات تحتاج إلى بيّنة في إثبات ما تدّعي فقد شهد لها علي(ع) وهو بمنزلة هارون من موسى من النبي فلا تُردّ شهادته بعد أن رأينا أن النبي(ص) قبل بشهادة خزيمة بن ثابت وعدّها شهادة عدلين والمسلمون أجمع يعتبرون علياً(ع) خير من خزيمة بن ثابت مثلاً.

وأخيراً قال بأنه "لو تنازلنا وقلنا أن شهادة علي شهادة رجل واحد وأن شهادته مع شهادة أم أيمن لا تكفي فكان يمكن له أن يستحلف الزهراء(ع) بدلاً من الشاهد الثاني ولكن هذا كله لم يحصل".

أما إيذاء الزهراء(ع) فإن النبي(ص) كان يقول من حديث المسوّر، على ما أخرجه البخاري ومسلم، على المنبر: ‹‹فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها ويريبني ما رابها››، وقوله(ص) على ما رواه النبهاني عن البخاري في الجامع الصغير: ‹‹فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها››. وذكر مناشدتها لأبي بكر وعمر عندما زاراها بالقول: ‹‹ناشدتكما الله تعالى ألم تسمعا رسول الله(ص): رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب إبنتي فاطمة فقد أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟›› قالا: نعم سمعناه من رسول الله" على ما في رواية الإمامة والسياسة ج1 ص20.

قال السيد شرف الدين: "إن من أمعن في هذه الأحاديث فتدبرها ممن يقدر رسول الله(ص) حق قدره رآها ترمي إلى عصمتها لدلالتها بالالتزام على امتناع وقوع كل من أذيتها وريبتها وسخطها ورضاها وانقباضها وانبساطها في غير محله كما هو الشأن في النبي(ص)، وهذا هو كنه العصمة وحقيقتها".

وذكر قول النبي(ص) لعلي والحسن والحسين وفاطمة: ‹‹أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم›› من حديث أبي هريرة الذي رواه أحمد في مسنده ج2 ص442، وذكر مثله بألفاظ أخرى. وكان من تعليق السيد شرف الدين أنه "من حق هؤلاء الذين هم بهذه المكانة أن لا يفاجئهم أهل الحول والطول إبّان رزيّتهم الكارثة بما فوجئوا به من استئثار بمكانتهم في الأمة بعد رسول الله والاستغناء عنهم حتى في المشورة ومع شدّة الوطأة عليهم في أمر البيعة والتنمّر لهم في فيئهم وخمسهم وإرثهم ونحلتهم وسوقهم مع سائر الرعايا بعصا واحدة".

وقال أيضاً بأن الذي أعانهم على تنفيذ مبادئهم – أي الحاكمين بعدهم – عن الطمع والاستكثار من حطام الدنيا وتقشفهم في الحياة وبالتالي رضي العامة بهم واستتب الأمر وحينما كانت تلك المحاججات كانت الزهراء(ع) كغيرها فلم تنجح في مسعاها.

مناقشات السيد محمد باقر الصدر

كيف تناقلت الأيدي فدكاً

انتزعها الخليفة الأُول وأصبحت من مصادر المالية العامة وموارد ثورة الدولة يومذاك، حتى تولى عمر الخلافة فدفع فدكاً الى ورثة رسول الله(ص)، إلى أن تولى الخلافة عثمان بن عفان فاقطعها مروان بن الحكم على ما قيل، ثم انتزعها أمير المؤمنين(ع) من مروان.

أما معاوية فقد "أمعن في السخرية وأكثر من الاستخفاف بالحق المهضوم فاقطع مروان بن الحكم ثلث فدك وعمر بن عثمان ثلثها، ويزيد ابنه ثلثها الآخر"، فلم يزالوا يتداولونها حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام ملكه.

ثم صفت لعمر بن عبدالعزيز بن مروان فلما استخلف أمر واليه على المدينة أبا بكر بن عمرو بن حزم بأن يقسم فدكاً "في ولد فاطمة عليها السلام من علي عليه السلام". فعاتبه الأمويون، فكان مما رد به عليهم حديث النبي(ص) الوارد أعلاه ‹‹فاطمة بضعة مني يسخطها ما يسخطني ، ويرضيني ما أرضاها›› وأنها صارت له ولإخوته فباعوه حصصهم، فاقترحوا عليه أن لا يعطي العلويين الأصل وإنما فقط الغلّة ففعل.

ثم انتزعها يزيد بن عبدالملك من أولاد فاطمة فصارت في أيدي بني مروان حتى انقرضت دولتهم على أيدي العباسيين.

فكان مما فعله أول خليفة عباسي أبو العباس السفاح هو إعطاء فدك لعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولكن لما ثار أولاده عليهم أيام أبي جعفر المنصور قبضها المنصور منهم، ثم ردها المهدي بن المنصور على الفاطميين، ثم قبضها ابنه موسى الهادي من أيديهم.

بقيت في يد العباسيين حتى ردها المأمون على الفاطميين، في كتاب لعامله على المدينة يصرح فيه بأن "رسول الله(ص) أعطى فاطمة بنت رسول الله فدك وتصدق بها عليها وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله(ص)، ولم تدع منه ما هو أولى به من صدق عليه فرأى أمير المؤمنين ان يردها الى ورثتها ويسلمها اليهم تقرباً الى الله تعالى، باقامة حقه وعدله والى رسول الله(ص) بتنفيذ أمره وصدقته ..." وكتب برد فدك على ورثة فاطمة(ع) "بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة اليها وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك" وأن تسلم إلى محمّد ابن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمّد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب لتولي أمرها، وأمر بإعانة محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله في إدارة شؤونها. أما آخر انتزاع لفدك من الفاطميين فكان من جعفر المتوكل العباسي الذي أقطعها عبد الله ابن عمر البازيار (الذي أمر بشران الثقفي بقطع أحد عشر نخلة كان النبي(ص) قد غرسها بيده الشريفة، ففعل الثقفي وعاد مشلولا.)

لماذا لم يأخذها علي(ع) أيام خلافته؟

كان تفصيل السيد الصدر انتقال فدك بين العلويين وغيرهم الوارد أعلاه في معرض إجابته على ما يثار من شبهة أن علياً(ع) لو كان يعلم بصواب موقف الزهراء(ع) لكان استردها أيام خلافته. قال بأن التاريخ لم يصرح بأن علياً(ع) سار فيها بسيرة الصديق، ولاسيما وأنه كان يرى أن فدكاً تعود لأهل البيت كما قال في جوابه لعثمان بن حنيف (الواردة أعلاه)، ولكن لأنه قال في نفس ذلك الجواب "وسخت عنها نفوس آخرين" أنه سخت نفسه عنها وبالتالي استقرب احتمال أنه "كان ينفق غلاتها في مصالح المسلمين برضى منه ومن اولاده عليهم الصلاة والسلام (حيث هم ورثة الزهراء) بل لعلهم أوقفوها وجعلوها من الصدقات العامة".

نزاع فدك مفترق طرق

في معرض رده على مناقشات الأستاذ محمود عباس العقاد في كتابه "فاطمة والفاطميون" قال السيد الصدر بأن "تزكية موقف الخليفة والصديقة معاً أمر غير ممكن" وذلك لأن الأمر لم يكن مطالبة من صاحبة الحق مع فشلها في تقديم مستمسك قضائي مما حدا بالخليفة أن لا يسلمها موضوع الدعوى، وذلك لأن "الخصومة بينهما اخذت اشكالاً مختلفة حتى بلغت مبلغ الاتهام الصريح من الزهراء واقسمت على المقاطعة". إذاً، قضية فدك فيها احتمالان لا ثالث لهما: "ان نعترف بأن الزهراء قد ادعت باصرار ما ليس لها بحق في عرف القضاء الاسلامي والنظام الشرعي وان كان ملكها في واقع الامر" أو "ان نلقي التبعة على الخليفة ونقول انه قد منعها حقها الذي كان يجب عليه ان يعطيها اياه أو يحكم لها بذلك".

نزاع الزهراء(ع) كان لتعرية الخلافة

دعا السيد الصدر إلى دراسة المستندات التاريخية للمسألة للتوصل إلى أن النزاع لمن يكن مادياً وإنما "هي الثورة على اسس الحكم والصرخة التي ارادت فاطمة ان تقتلع بها الحجر الاساسي الذي بنى عليه التاريخ بعد يوم السقيفة". ويستند إلى خطبتها(ع) في المسجد التي "دارت اكثر ما دارت حول امتداح علي والثناء على مواقفه الخالدة في الاسلام وتسجيل حق أهل البيت الذين وصفتهم بأنّهم الوسيلة الى الله في خلقه وخاصته ومحل قدسه وحجته في غيبه وورثة انبيائه في الخلافة والحكم، والفات المسلمين الى حظهم العاثر واختيارهم المرتجل وانقلابهم على اعقابهم، وورودهم غير شربهم، واسنادهم الامر الى غير أهله، والفتنة التي سقطوا فيها، والدواعي التي دعتهم الى ترك الكتاب ومخالفته فيما يحكم به في موضوع الخلافة والامامة".

ليس هذا فحسب، وإنما أورد السيد كلام أبي بكر رداً على خطبة الزهراء(ع) لإثبات كلامه – "قال: أيها الناس ما هذه الدعة الى كل قالة؟ أين كانت هذه الأماني في عهد رسول الله(ص)؟ ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلم! انما هو ثعالة شهيده ذنبه، مرب لكل فتنة كأم طحال أحب اهلها اليها البغي! ألا أني لو اشاء أن أقول لقلت ولو قلت لبُحت، اني ساكت ما تركت" (أي يصف الزهراء(ع) أنها ذنب علي(ع)، ثم أقبح الكلام بعده؛ إضافة إلى التهديد بعد ذلك)، ثم التفت الى الانصار وقال: قد بلغني يا معشر الانصار مقالة سفهائكم واحق من لزم عهد رسول الله(ص) انتم فقد جاءكم فآويتم ونصرتم، ألا أني لست باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحق ذلك (حكم على من ناصر علي(ع) من الأنصار أنهم سفهاء، ثم هددهم).

ثم يقول السيد: "فانه فهم حق الفهم ان احتجاج الزهراء لم يكن حول الميراث أو النحلة، وانما كان حرباً سياسية كما نسميها اليوم وتظلماً لقرينها العظيم الذي شاء الخليفة وأصحابه أن يبعدوه عن المقام الطبيعي له في

دنيا الاسلام، فلم يتكلم الا عن علي فوصفه بانه ثعالة وانه مرب لكل فتنة وانه كام طحال وان فاطمة ذنبه التابع له ، ولم يذكر عن الميراث قليلاً أو كثيراً".

أخيراً، في هذا الجانب، أشار السيد الصدر إلى تسليم عمر أيام خلافته فدكاً لعلي(ع) والعباس بن عبد المطلب، معلقاً أنه يفهم منه "اذا كان صحيحاً ان حكم الخليفة (أي أبو بكر) كان سياسياً موقتاً وان موقفه كان ضرورة من ضرورات الحكم في تلك الساعة الحرجة، والا فلما أهمل عمر بن الخطاب رواية الخليفة وطرحها جانباً وسلم فدكاً الى العباس وعلي وموقفه منهما يدل على انه سلم فدكاً اليهما على اساس انها ميراث رسول الله لا على وجه التوكيل..." ثم قال: "في المسألة تقديران (أحدهما) ان عمر كان يتهم الخليفة بوضع الحديث في نفي الارث، (والآخر) انه تأوله وفهم منه معنى لا ينفي التوريث ولكن لم يذكر تأويله ولم يناقش به أبا بكر حينما حدث به؛ وسواء أصح هذا أو ذاك، فالجانب السياسي في المسألة ظاهر..."

هل أراد أبو بكر التراجع عن موقفه؟

ذكر السيد الصدر الرواية (السيرة الحلبية ج3 ص391) التي تقول بأن الخليفة تراجع عن موقفه الأول ولكن عمر تدخل فمنع ذلك إذ سـأله عما رآه بيده فقال أبو بكر: "كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها، فقال: مماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى؟" وأخذ الكتاب وشقه. تحفظ السيد الصدر على الرواية، ولكنه استقرب صحتها على أساس أن "كل شيء كان يشجع على عدم حكاية هذه القصة لو لم يكن لها نصيب من الواقع".

كما ذكر أن الخليفة تعرض للتأثر والقلق العظيم بسبب "الشعور بنقص مادي في حكمه على فاطمة وضعف في المدرك الذي استند اليه" فكان ضميره يثور عليه أحيانًا فلا يجد ما يهدئ نفسه المضطربة، حتى قال للناس "أقيلوني بيعتي"، وحتى أظهر "الندم ساعة وفاته مما جرى منه من الزهراء(ع) (كما روى الطبري)".

دفن الخليفة مناقض لحديث "لا نورث"

ذكّر السيد الصدر أن أبا بكر أوصى بدفنه إلى جوار النبي(ص)، وقال: "ولا يصح ذلك الا اذا كان قد عدل عن اعتبار روايته مدركاً قانونياً في الموضوع واستاذن ابنته في أن يدفن فيما ورثته من أرض الحجرة – اذا كان للزوجة نصيب في الارض وكان نصيب عائشة يسع ذلك – ولو كان يرى ان تركة النبي(ص) صدقة مشتركة بين المسلمين عامة للزمه الاستئذان منهم، وهب ان البالغين اجازوا ذلك فكيف بالاطفال والقاصرين ممن كانوا في ذلك الحين؟"

وتساءل أيضاً: "فما عساه ان يكون سبب التفريق الذي انتج انتزاع فدك من الزهراء وتخصيص حاصلاتها للمصالح العامة وابقاء بيوت نساء النبي(ص) لهن يتصرفن فيها كما يتصرف المالك في ماله، حتى تستأذن عائشة

في الدفن في حجرتها؟ أكان الحكم بعدم التوريث مختصاً ببضعة النبي(ص) أو أن بيوت الزوجات كانت نحلة لهن، فلنا ان نستفهم عما اثبت ذلك عند الخليفة ولم تقم بينة عليه ولا ادعته واحدة منهن وليست حيازتهن للبيوت في زمان رسول الله(ص) شاهداً على ملكيتهن لها لأنها ليس حيازة استقلالية بل من شؤون حيازة النبي(ص) ككل زوجة بالنسبة الى زوجها".

وراثة الأنبياء(ع)

ثم ناقش السيد الصدر نقطة مهمة جداً تتجاوز ما إذا كان حديث "لا نورث" من اختراع الخليفة، بمعنى حتى لو كان الحديث صحيحاً. قال عن عدم تشريع توريث الأنبياء يمكن أن يكون "كناية عن معنى لا يبعد ان يقع في نفس رسول الله(ص) بيانه وهو تعظيم مقام النبوة وتجليل الانبياء... فلماذا لا يجوز لنا افتراض ان النبي(ص) اراد ان يشير الى ان الانبياء أناس ملائكيون وبشر من الطراز الاسمى الذي لا تشوبه الانانيات الارضية والاهواء البشرية... فهم ابداً ودائماً منابع الخير والطالعون بالنور والموروثون للايمان والحكمة والمركزون للسلطان الالهي في الارض وليسوا مصادر للثروة بمعناها المصطلح عليه في عرف الناس ولا بالساعين وراء نفائسها، ولماذا لا يكون قوله: انا معاشر الانبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا ارضاً ولا عقاراً ولا داراً كناية عن هذا المعنى لأن توريثهم لهذه الاشياء انما يكون بحيازتهم لها وتركهم اياها بعد موتهم وهم منصرفون عنها لا يحسبون لها حساباً ولا يقيمون لها وزناً ليحصلوا على شيء منها، فما هو تحت اللفظ نفي التوريث لعدم وجود التركة، كما اذا قلنا: ان الفقراء لا يورثون لا انهم يختصون عن سائر الناس بحكم يقضي بعدم جريان احكام الارث على تركاتهم... وهذا الاسلوب من البيان مما يتفق مع الاساليب النبوية..."

خبر الواحد وتخصيص آيات القرآن

من أهم نقاط البحث في هذا الخلاف هو أنه بينما يحتج أبو بكر بحديث النبي(ص) "لا نورث" فإن الزهراء(ع) احتجت رداً عليه بآيات توريث الأنبياء(ع) من القرآن الكريم. بمعنى، أن الزهراء(ع) لم تلق بالاً لهذا الحديث، مع أن الحديث حتى لو كان مروياً من شخص واحد فإنه يمكن أن يخصص عموم آية أو آيات من القرآن، اللهم إلا إن توصل البحث إلى عدم صحة الحديث. إذاً، الزهراء(ع) لم تعتقد بأن حديث "لا نورث" صحيح وإلا لخصص آيات مواريث الأنبياء(ع) التي احتجت بها، ما يعني أن احتجاجها بالآيات العامة "لأنها لم تكن تعترف بوثاقة الصديق وعدالته" كما قال السيد الصدر.

عدم اختصاص أبي بكر بهذه المعلومة

إعتبر السيد الصدر من الإسراف الاحتمال أن النبي(ص) أسرّ إلى الخليفة بحكم عدم توريثه(ص) المال لأن النبي(ص) لم يكن من عادته الاختلاء بأبي بكر، ولا أن يكون النبي(ص) "أخبره بالخبر في خلوة متعمدة ليبقى الامر مجهولاً

لدى ورثته وبضعته ويضيف بذلك الى آلامها من ورائه محنة جديدة". كما ألفت إلى أن علياً(ع) "هو وصي رسول الله(ص) بلا ريب للحديث الدال على ذلك الذي ارتفع به رواته الى درجة التواتر واليقين حتى شاع في شعر أكابر الصحابة فضلا عن رواياتهم... واذاً فالوصاية من الاوسمة الاسلامية الرفيعة التي اختص بها الامام بلا ريب"، بمعنى أن مثل هكذا إخبار لشخص بعينه دون غيره يتوقع أن يكون للوصي وليس لأي شخص آخر.

ما معنى طلب زكريا(ع) ولداً يرثه؟

ثم ناقش السيد الصدر نقطة مفصلية في الموضوع، وهي معنى آيات توريث الأنبياء(ع) التي احتجت بها الزهراء(ع)، لأن إشباع البحث لا يكون برد حديث "لا نورث" الذي رواه الخليفة، أو بالنظر لفعل الخلفاء من بعده في ردهم فدكاً لورثة الزهراء(ع)، وإنما في مقدمة ذلك هو النظر في دلالة آيات توريث الأنبياء(ع) لمعرفة ما احتجت به الزهراء(ع).

أما آية توريث يحيى(ع) من زكريا(ع): ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً﴾ فقد قطع السيد الصدر أن "الارث في الآية بمعنى ارث المال لأنه هو الذي ينتقل حقيقة من الموروث الى الوارث وأما العلم والنبوة فلا ينتقلان انتقالاً حقيقياً"، وذلك على أساس أن العلم لا يمكن أن يورث (ذاكراً البرهان الفلسفي في ذلك)، ولأن النبوة "مما لا يجوز في عرف العقل انتقالها سواء ... انها مرتبة من مراتب الكمال النفسي ودرجة من درجات الوجود الانساني الفاضل الذي ترتفع اليه الماهية الانسانية ... أو أخذنا بالمعنى المفهوم للناس من الكلمة واعتبرنا النبوة منصباً إلهياً مجعولاً ... ويكون ذلك التكامل النفسي شرطاً له؛ فالمفهوم الاول يمتنع انتقاله بالضرورة لأنه نفس وجود النبي وكمالاته الذاتية، والنبوة بالمعنى الآخر يستحيل انتقالها أيضاً لأنها حينئذ أمر اعتباري متشخص الاطراف ولا يعقل تبدل طرف من اطرافه الا بتبدل نفسه وانقلابه إلى فرد آخر.." إذاً "فالنتيجة التي يقررها العقل في شوطه الفكري القصير الذي لا يعسر على الخليفة مسايرته فيه هي ان المال وحده الذي ينتقل دون العلم والنبوة".

ثم قال: "وعلى ذلك يتضح ان كلمة الارث في الآية الكريمة قد اعطيت حقها من الاستعمال واريد بها ارث المال لا ارث النبوة ... ووراثة النبوة ليست ملازمة لوجود الذرية اطلاقاً ... لأن النسبة بين الذرية الانسانية وبين الجديرين بتحمل اعباء الرسالة السماوية هي النسبة بين الآحاد والملايين، واما وراثة المال فيمكن ان تكون جواباً لدعاء زكريا عليه السلام لأن الولد يبقى بعد أبيه على الأكثر فوراثته للمال مما يترتب على وجوده غالباً.واضف إلى ذلك ان زكريا نفسه لم يكن يرى النبوة ملازمة لذريته بل ولا ما دونها من المراتب الروحية ولذا سأل ربه بعد ذلك بأن يجعل ولده رضياً".

بعدها ذكر قول البعض تفسيراً للآية أن الإرث هو إرث النبوة بدلالة "قول زكريا عاطفاً على كلمة ﴿يَرِثُنِي﴾ كلمة ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلَ يَعقُوبَ﴾ فان يحيى لا يرث أموال آل يعقوب، وانما يرث منهم النبوة والحكمة" وأيضاً بدلالة "ما قدمه النبي تمهيداً لدعائه من قوله: ﴿وَأَنِّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرائِي﴾ حيث ان خوفه انما كان بسبب الاشفاق على معالم الدين والرغبة في بقائها باستمرار النبوة لأن هذا هو اللائق بمقام الانبياء دون الحرص على الاموال والخوف من وصولها الى بعض الورثة".

ورد على ذلك بالقول: "واعترض أصحابنا على النقطة الاولى بان زكريا عليه السلام لم يسأل ربه ان يرث ولده أموال آل يعقوب جميعاً وانما اراد ان يرث منها فلا يكون دليلا على التفسير المزعوم. وأمّا النقطة الثانية فهي من القرائن على التفسير الذي اخترناه، لأن الخوف على الدين والعلم من ابناء العم لا معنى له لأن اللطف الالهي لا يترك الناس سدى بلا حجة بالغة فمعالم الدين وكلمة السماء محفوظة بالرعاية الالهية والنبوة مخصوصة أبداً بالأقلين من نوابغ البشر لا يخشى عليها من السطو والنهب، واذاً فماذا كان يحسب زكريا ربه صانعاً لو لم يمن عليه بيحيى؟ أكان يحتمل ان يكلف برسالته مواليه أعني بني عمومته مع عدم كفاءتهم للقيام بواجب الرسالة الالهية وعدم جدارتهم بهذا الشرف، او كان يرى ان الله تعالى يهمل أمر خلقه ليكون لهم الحجة عليه؟ ليس هذا ولا ذاك مما يجوزه نبي. وانما خاف زكريا من بني اعمامه على امواله فطلب من الله ولداً رضياً يرثها. ولا جناح عليه في ذلك اذ يحتمل ان تكون رغبته في صرف امواله عن بني عمومته بسبب أنها لو آلت اليهم لوضعوها في غير مواضعها وانفقوها في المعاصي والوان الفساد لما كان يلوح عليهم من علامات الشر وامارات السوء حتى قيل انهم شرار بني اسرائيل".

هل شك الخليفة بصدق الزهراء(ع)؟

أثار السيد الصدر سؤالاً رئيسياً: "ان الخليفة هل كان يعتقد بعصمة الزهراء ويؤمن بآية التطهير التي نفت الرجس عن جماعة منهم فاطمة أو لا؟"

بعد أن قطع بعلم الخليفة بذلك على أساس تحديث السيدة عائشة نفسها بنزول آية التطهير في فاطمة وزوجها وولديها، وعلى أساس فعل النبي(ص) ستة أشهر يخرج لصلاة الفجر ويمر ببيت فاطمة ويقول ‹‹الصلاة يا أهل البيت إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً››، قال: "ولكن في المسألة أمر غفل عنه الباحثون أيضاً، وهو أن ما يعلمه الخليفة من صدق الزهراء يستحيل ان لا يكون حقيقة، لأن سبب علمه بصدقها ليس من الاسباب التي قد تنتج توهماً خاطئاً وجهلاً مركباً وانما هو قرآن كريم دل على عصمة المدعية... أن البينة التي قد تخطأ اذا كانت دليلاً شرعياً مقتضياً للحكم على طبقه فالعلم الذي لا يخطيء وهو ما كان بسبب شهادة الله تعإلى بعصمة المدعي وصدقه أولى بأن يكتسب تلك الصفة في المجالات القضائية".

وأوضح: "ان القرآن الكريم لو كان قد نص على ملكية الزهراء لفدك وصدقها في دعوى النحلة لم يكن في المسألة متسع للتشكيك لمسلم او مساغ للتردد لمحكمة من محاكم القرآن ومن الواضح أن نصه على عصمة الزهراء في قوة النص على النحلة لأن المعصوم لا يكذب فاذا ادعى شيئاً فدعواه صائبة بلا شك ولا فرق بين النص على العصمة والنص على النحلة فيما يتصل بمسألتنا".

ثم أن الخليفة اكتفى بالدعوى المجردة دون بينة

أخيراً، ذكّر أن الخليفة "كان يكتفي كثيراً بالدعوى المجردة عن البينة فقد جاء عنه في صحيح البخاري (ج3 ص180) ان النبي(ص) لما مات جاء لأبي بكر مال من قبل العلاء بن الحضرمي فقال: من كان له علي دين أو كانت قبله عدة فليأتنا، قال جابر: وعدني رسول الله(ص) ان يعطيني هكذا وهكذا وهكذا فبسط يده ثلاث مرات فعد في يدي خمسمائة ثم خمسمائة ثم خمسمائة. وروي في الطبقات (ج4 ص134) عن أبي سعيد الخدري انه قال: سمعت منادي أبي بكر ينادي بالمدينة حين قدم عليه مال البحرين: من كانت له عدة عند رسول الله(ص) فليأت، فيأتيه رجال فيعطيهم، فجاء أبو بشير المازني فقال: ان رسول الله(ص) قال: يا أبا بشير اذا جاءنا شيء فأتنا، فاعطاه أبو بكر حفنتين أو ثلاثاً فوجدوها الفاً وأربعمائة درهم".

قال: "فاذا كان الصديق لا يطلب أحداً من الصحابة بالبينة على الدين أو العدة فكيف طلب من الزهراء بينة على النحلة؟ وهل كان النظام القضائي يخص الزهراء وحدها بذلك أو أن الظروف السياسية الخاصة هي التي جعلت لها هذا الاختصاص؟ ومن الغريب حقاً أن تقبل دعوى صحابي لوعد النبي(ص) بمبلغ من المال وترد دعوى بضعة رسول الله(ص) لانها لم تجد بينة على ما تدعيه. واذا كان العلم بصدق المدعي مجوزاً لاعطائه ما يدعيه فلا ريب أن الذي لا يتهم جابراً أو أبا بشير بالكذب يرتفع بالزهراء عن ذلك أيضاً. واذا لم يكن اعطاء الخليفة لمدعي العدة ما طلبه على أساس الأخذ بدعواه وانما دعاه احتمال صدقه إلى اعطائه ذلك، وللامام ان يعطي أي شخص المبلغ الذي يراه، فلماذا لم يحتط بمثل هذا الاحتياط في مسألة فدك؟"

ولماذا لم يشهد معها(ع)؟

وتساءل "عما منع الصديق من التقدم بالشهادة على النحلة اذا كان عالماً بصدق الحوراء سلام الله عليها اذ يضم بذلك شهادته إلى شهادة علي وتكتمل بهما البينة ويثبت الحق، واعتباره لنفسه حاكماً لا يوجب سقوط شهادته لأن شهادة الحاكم معتبرة وليست خارجة عن الدليل الشرعي الذي أقام البينة مرجعاً في موارد الخصومة".

ولم يكن هناك من ينازعها في الملكية

خلص إلى القول "افترضنا ان أبا بكر هو الخليفة الشرعي للمسلمين يومئذ واذاً فهو وليهم المكلف بحفظ حقوقهم وأموالهم، فاذا كانت الزهراء صادقة في رأيه ولم يكن في الناس من ينازعها فليس للخليفة ان ينتزع فدكاً منها..."

فدك رمز الخلافة المغتصبة

تأكيداً لهذا الذي قلناه أولاً، أن قرية "فدك" تمثل رمزاً للخلافة المغتصبة، أو قل لدور أئمة أهل البيت(ع) الذي منعوا من القيام به بمنعهم من تبوء كرسي الخلافة الذي كانوا سيقومون بأدوار الإمامة من خلاله، فإن الخلافة – كسلطة تنفيذية – ما كانت تساوي عند الأئمة(ع) فلساً لولا أنها التي تمكن من القيام بمسؤوليات إمامتهم. لذا، فإنه عندما جلس المهدي العباسي للاستماع إلى مظالم الناس طالبه الإمام موسى بن جعفر(ع)، الذي كان جالساً في مجلسه، برد ظلامتهم، فلما سأله المهدي عنها قال الإمام(ع) أنها "فدك"، فلما طلب المهدي من الإمام(ع) أن يحدّها له، أي يعين حدودها، كي يقوم بردها، كان جواب الإمام(ع) أن حدودها هي: عدن جنوباً، وسمرقند شرقاً، وسيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية شمالاً، وإفريقية غرباً! هنا، فهم المهدي أن الإمام(ع)، بتفصيله لحدود الدولة الإسلامية كلها، إنما يقول له أن القضية لم تكن فدكاً وإنما هي الخلافة. من هنا نعرف أن الزهراء(ع) لم يكن يعنيها ما لفدك من قيمة مادية، وإنما ما مثلت من اعتداء مثل الاعتداء على جميع ما لأهل البيت(ع) من حقوق ومسؤوليات.

موقف علي(ع) من فدك

أخيراً، نذكر كلام أمير المؤمنين(ع) بخصوص قضية فدك ليكون القول الفصل، ليس في أصل الخلاف لأن ذلك قامت به صاحبة الشأن(ع)، ولكن ليكون القول الفصل في كيفية التعامل مع القضية لأن كلامه(ع) هذا كان بعدما توفيت الزهراء(ع) وتوفي أبو بكر ومضى زمان على القضية، بل كان في أيام خلافته(ع) مع الفتن والحروب والمشاكل التي حفل به وبالتالي في أجواء مشابهة في طبيعتها للأجواء التي تمر بها الأمة في يومنا هذا.

فقد ورد إليه أن عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة دعي إلى وليمة يبدو أنها أقامها بعض وجهاء البصرة، فكتب إليه(ع) رسالة هي من أجمل ما كتبه(ع) بلاغة، وفيها مما اشتهر من قوله في الدنيا، علاوة على أوصاف عامة للوالي والحاكم. نلتقط من هذه الرسالة (نهج البلاغة ج3 كتاب 45) ما نريده ههنا:

يقول(ع): «فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً.»

ثم يستدرك(ع) ليستثني ما كانت تحت تصرفهم(ع)، فيقول: «بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ.»

ثم يقول(ع): «وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لاَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الاْكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ.»

فماذا نفهم من هذا؟

أولاً، تأكيد على ملكية فدك لأهل البيت(ع)، من خلال ملكية الزهراء(ع) لها، لأنه(ع) وأولاده من الزهراء(ع) ورثتها(ع)، فيصح نسبة الملكية إليهم جميعاً وإن كانت قد لم تقع في أيديهم أصلاً لأنه نزعت من صاحبتها قبل وفاتها(ع).

ثانياً، تأكيد أن موقف الخليفة لم يكن مستنداً إلى الشرع وإلا لما وصفه بالشح، بل كان سيقول "شبهة" مثلاً.

ثالثاً، أنهم – الزهراء(ع) أو ورثتها من بعدها – توقفوا عن النزاع حولها من باب الزهد في الدنيا عموماً، وهو ما أفهمه من قوله(ع) «وسخت عنها».

رابعاً، تحويل القضية إلى الحاكم العادل الذي لا تعزب عنه مثقال ذرة، وهو الحق تبارك وتعالى، ما يعني أن أهل البيت(ع) لم يتنازلوا عن فدك مطلقاً وإنما كفّوا عن النزاع، وهو تأكيد لفهمي كلمة «وسخت عنها» أنه الزهد في الدنيا وليس التنازل بالقبول بحكم الخليفة.

خامساً، قوله «ونعم الحكم الله» فيه إشارة إلى عدم التمادي في الخوض في الأمر لأنه إن كان بيد الله تعالى فما هي قيمة العباد، والذين سيقولون ويعاندون ويفترون ولا يقبلون بالدليل الواضح.

سادساً، ويؤكد ذلك قوله التالي «وما أصنع بفدك وغير فدك الخ»، متعالياً عن الدنيا وما فيها، وهو ما أكده في آرائه في الدنيا في ذات الرسالة، كقوله(ع): «إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بَمَدَاعِبِكِ؟! أَيْنَ الاُْمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بزَخَارِفِكِ؟! هَاهُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ.» ثم يقول: «وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لاَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالاَْمَانِي...!» ويقول: «هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِىءَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ...» وغيرها.

سابعاً، الكلام كله يؤكد ما فهمته – وما ذهب إليه بعض الأساتذة الباحثين – من أن الزهراء(ع) لم تكن منازعتها حول فدك، وبضمنها قيام علي(ع) وأم أيمن وغيرهما بالشهادة لها على ملكيتها، بقيمتها المادية، وإنما بقيمتها الرمزية التي تشير إلى الخلافة بما هي المركب الذي أراده الله تعالى لقيادة أئمة أهل البيت(ع) للأمة، وهي إشارة الإمام الكاظم(ع) للمهدي العباسي التي ذكرناها سابقاً.

الفصل الثامن

حديث الغدير وبيعة الغدير

مقدمات

حديث الغدير

مصادر الحديث

الرواة من الصحابة والتابعين

طول خطبة الغدير

بيعة وبالمصافحة ثلاثاً

في آية البلاغ

دلالة حديث الغدير

كيف نصدق إعراض الأمة بعد هذه البيعة العامة؟

لماذا لم يحتج علي(ع) في يوم السقيفة بنصوص الخلافة والوصية؟

ولماذا سكت علي(ع) عموماً؟

بل لماذا لم يقاتلهم علي(ع)؟

هل الولاية من أصول الدين؟

‹‹إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه››

(رسول الله(ص))

حديث الثقلين

ذكرنا في فصل سابق حديث الثقلين وكيف أن النبي(ص) أعلن للمسلمين أن تركته النبوية فيهم: القرآن وأهل البيت(ع)، وأنه حث على القرآن ورغب فيه وأنه حث على تحري المطلوب من التمسك بأهل البيت(ع) بقوله ‹‹أذكركم الله في أهل بيتي››، وبقوله بخصوص الثقلين: ‹‹فانظروا كيف تخلفوني فيهما››، بعد أن أخبرهم بأنهم إن تمسكوا بالثقلين، القرآن والعترة الهادية، فإنهم يأمنون من الضلال. وقد ذكرنا عدة روايات تقول أن النبي(ص) صدع بهذا الأمر، منها في مكان اسمه "غدير خم" كما أخبر الصحابي المعروف زيد بن أرقم على ما أخرجه مسلم في صحيحه وغيره.

قبل أن أطلع على هذا الحديث وأمثاله لم أكن قد سمعت بشيء اسمه "غدير خم"، أو "يوم الغدير"، دع عنك الاحتفال فيه كعيد. ولكن لما قرأت كتب الشيعة وجدت أنه في هذا المكان، الذي يقع بين مكة والمدينة، حصلت حادثة يعتبرها الشيعة من أهم الأحداث ويحتفلون بها كعيد من أعظم الأعياد، في حين لم يسمع السنة عنها مطلقاً! فهل كانت حادثة من نسج الخيال؟ وإن لم تكن كذلك، فهل كانت حادثة مشهودة أم محصورة في نطاق ضيق جعل أهل السنة يجهلونها تماماً؟ ويغض النظر عن هذا، لماذا يحتفل بها الشيعة ويعدونها من أعظم الأعياد؟ ثم أنها متى كانت، لأن هذا مهم جداً في معرفة موقعها في حياة النبي(ص)، فإن حادثة تجري في أول أيام الدعوة الإسلامية أو وسطها يمكن أن تنسخها حادثة أخرى تجري في آخرها، هذا إن كانت قد حصلت حقاً؟

موقع علي(ع) في الإسلام

قبل أن نذكر الحادثة، ورواياتها، ودلالاتها، والموقف الشيعي منها والموقف السني منها، والكلام حولها سلباً وإيجاباً، أحب أن أذكر ما عرفته من موقع علي(ع) في الإسلام بغض النظر عن حادثة الغدير. ذلك، لأني وجدت أن موقع علي(ع) من الأهمية بمكان بحيث أن اللّه ورسوله(ص) بيناه للأمة بطرق مختلفة، منها نزلت فيه آيات الكتاب العزيز، كآية التطهير وآية المباهلة وآية الولاية وآية النجوى وآية المودة، بالنحو الذي صدقته وعاضدته أحاديث النبي(ص) المبين للكتاب العزيز، ومنها ما نطق به النبي(ص)، بمعزل عن تفسير تلك الآيات ونظائرها، كما في حديث المنزلة وحديث السفينة وحديث علي والقرآن وحديث الأئمة الإثني عشر، ما ذكرناه وذكرنا غيره في الفصول السابقة.

ولأن حادثة الغدير تتعلق بشكل مباشر، بل ومطلق، بخلافة النبي(ص)، فإنه يناسب أن أذكر ما قرأته من حديث بخصوص خلافة علي(ع) للنبي(ص) لأن فيه دلالات هامة.

علي(ع) خليفة النبي(ص)

مما أثار العجب عندي هو حقيقة أن النبي(ص) أعلن علياً(ع) خليفة منذ بدء الدعوة، بل مذ أمر بدعوة عشيرته القريبة، أي قبل أن يأمر سائر الناس، وعلي(ع) لما يزل في العاشرة من عمره، صبياً، وهناك في العشيرة القريبة الرجال والكهول والشيوخ، ومنهم أعمامه، بل ومنهم أبوه أبو طالب شيخ بني هاشم. وأثار عجبي أكثر أن يكون هذا الأمر مما لا يعرفه أهل السنة مطلقاً، فإني لم أجده في منهج دراسي، ولا صحيفة يومية، ولا برنامج تلفزيوني أو إذاعي، لا في العراق ولا من الإذاعات المصرية وغيرها التي كنا نستمع إليها أحياناً، في الوقت الذي كنا نستمع إلى أمور لا تقاس أهميتها – إن كان لبعضها أهمية أصلاً – من إذاعات القاهرة وصوت العرب والشرق الأوسط المصرية ودمشق والكويت والسعودية، في هذه وغيرها لم نسمع أن النبي(ص) دعا عشيرته الأقربين وقال لهم إن علياً أخوه ووزيره ووصيه وخليفته من بعده – فلم يخبرنا أحد أن علياً(ع) أخو النبي(ص) بالمؤاخاة لأننا نعلم أنه ابن عمه، ولم يخبرونا أنه وزيره فنحن لا نعلم أن هناك شيئاً كهذا، ولم نسمع بالوصية أصلاً، وأما الخليفة فندري أنه الخليفة ولكن لا بتعيين النبي(ص) ولا باستحقاق إلا بعد ثلاثة قبله.

ثم إني وجدت أن النبي(ص) صرح بأن علياً(ع) خليفته بعد ذلك، حيث أن هذا اللفظ، أي لفظ "الخليفة" في حديث الدار إذ أنذر عشيرته الأقربين، قد ورد في أحاديث أخرى في مناسبات أخرى. من ذلك ما روى الهيثمي في المجمع ج 8 ص314 عن عبد اللّه بن مسعود قال بأنه كان مع النبي(ص) بعد ليلة الجن، أي بعد أن أنبأه القرآن بأقسام الجن وإيمان بعضهم به يوم نزلت سورة الجن، أن النبي(ص) قال: «إني وُعدتُ أن يؤمن بي الجن والإنس، فأما الإنس فقد آمنت بي، وأما الجن فقد رأيته... وما أظن أجلي إلا قد اقترب» قلت: "يا رسول الله ألا تستخلف أبا بكر؟ فأعرض عني فرأيتُ أنه لم يوافقه، فقلتُ: يا رسول الله ألا تستخلف عمر؟ فأعرض عني فرأيتُ أنه لم يوافقه، فقلت: يا رسول الله ألا تستخلف علياً؟ قال: «ذاك والذي لا إله إلا هو، إن بايعتموه وأطعتموه أدخلكم الجنة أكتعين»". قال الهيثمي رواه الطبراني.

وأخرج الحديث بشكل مختلف قليلاً. ففي المعجم الكبير ج10 حديث 9970 باب عبد الله بن مسعود الهذلي، روى عنه القول: "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن، فتنفس فقلت: مالك يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود» قلت: إستخلف، قال: «من؟» قلت: أبو بكر، قال: فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفس، فقلت: ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال : «نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود» قلت: فاستخلف، قال «من؟» قلت عمر، فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفس، فقلت: ما شأنك قال : «نعيت إلي نفسي يا

ابن مسعود›› قلت: فاستخلف، قال: ‹‹من؟›› قلت: علي بن أبي طالب، قال: ‹‹أما والذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين››. روي في مصنف عبد الرزاق ج11 باب كتاب العلم ذكر علي بن أبي طالب الحديث 20646. ورواه ابن كثير في تفسيره تفسير قوله تعالى ﴿وإِذْ صَرَفْنا إِلَيكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَستَمِعُونَ القُرآن﴾ الأحقاف:29.

ويمكن الاستفادة من هذا الحديث بعدة أمور: أولاً مكانة أبي بكر وعمر من النبي(ص) بحيث أن ابن مسعود يقترح استخلافهما؛ ثانياً عدم قبول النبي(ص) لاستخلافهما، أي أن المكانة الكبيرة التي لهما ليست بذات شأن لأن الأمر يتعلق بالله تعالى؛ ثالثاً أن النبي(ص) يعلن أن علياً هو الخليفة؛ رابعاً أن الأمة إن بايعت علياً(ع) وأطاعته فإنه يأخذ بها إلى الجنة بشكل جماعي، بمعنى أنه سيكون الأمان لهم والضمانة من الإنحراف، وهو ما نعرفه من حديث الثقلين؛ خامساً إن ابن مسعود لم يقترح عثمان ما يدل على أن الخليفة الثالث لم يكن في الحساب أصلاً.

حديث الغدير

أجمل الحادثة العلامة الأميني في كتابه الموسوعة "الغدير"، أورده بنصه مع تصرف بسيط في ذكر المصادر:

أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله الخروج إلى الحج في سنة عشر من مهاجره، وأذن في الناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به في حجته تلك التي يقال عليها حجة الوداع، وحجة الاسلام، وحجة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام ولم يحج غيرها منذ هاجر إلى أن توفاه الله، فخرج صلى الله عليه وآله من المدينة مغتسلاً متدهناً مترجلاً متجرداً في ثوبين صحاريين إزار ورداء، وذلك يوم السبت لخمس ليال أو ست بقين من ذي القعدة، وأخرج معه نساءه كلهن في الهوادج، وسار معه أهل بيته، وعامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأفناء الناس. (الطبقات لابن سعد ج3 ص225، إمتاع المقريزي ص510، إرشاد الساري ج6 ص429.)

وعند خروجه صلى الله عليه وآله أصاب الناس بالمدينة جُدَري أو حصبة منعت كثيراً من الناس من الحج معه صلى الله عليه وآله، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد يقال: خرج معه تسعون ألف، ويقال: مائة ألف و أربعة عشر ألفاً، وقيل: مائة ألف وعشرون ألفاً، وقيل: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ويقال أكثر من ذلك، وهذه عدة من خرج معه، وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذين أتوا من اليمن مع علي (أمير المؤمنين) وأبي موسى. (السيرة الحلبية ج3 ص283، سيرة أحمد زيني دحلان ج3 ص3، تاريخ الخلفاء لابن الجوزي في الجزء الرابع، تذكرة خواص الأمة ص18، دائرة المعارف لفريد وجدي ج3 ص542.)

أصبح صلى الله عليه وآله يوم الأحد بيلملم، ثم راح فتعشى بشرف السيالة، وصلى هناك المغرب والعشاء، ثم صلى الصبح بعرق الظبية، ثم نزل الروحاء، ثم سار من الروحاء فصلى العصر بالمنصرف، وصلى المغرب والعشاء بالمتعشى وتعشى به، وصلى الصبح بالأثابة، وأصبح يوم الثلاثاء بالعرج واحتجم بلحى جمل وهو عقبة الجحفة ونزل السقياء يوم الأربعاء، وأصبح بالأبواء، وصلى هناك ثم راح من الأبواء ونزل يوم الجمعة الجحفة، ومنها إلى قديد وسبت فيه، وكان يوم الأحد بعسفان، ثم سار فلما كان بالغميم اعترض المشاة فصفوا صفوفاً فشكوا إليه المشي، فقال: «استعينوا باليسلان – مشي سريع دون العدو» ففعلوا فوجدوا لذلك راحة، وكان يوم الاثنين بمر الظهران فلم يبرح حتى أمسى وغربت له الشمس بسرف فلم يصل المغرب حتى دخل مكة، ولما انتهى إلى الثنيتين بات بينهما فدخل مكة نهار الثلاثاء. (الإمتاع للمقريزي ص513-517.)

فلما قضى مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة ومعه من كان من الجموع المذكورات ووصل إلى غدير خم من الجحفة التي تتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، و ذلك يوم الخميس (في لفظ البراء بن عازب وبعض آخر من رواة حديث الغدير) الثامن عشر من ذي الحجة نزل إليه جبرئيل الأمين عن الله بقوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾. وأمره أن يقيم علياً علما للناس ويبلغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كل أحد، وكان أوائل القوم قريباً من الجحفة، فأمر رسول الله أن يرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سمرات خمس متقاربات دوحات عظام أن لا ينزل تحتهن أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم فقم ما تحتهن، حتى إذا أخذ القوم منازلهم فقم ما تحتهن حتى إذا نودي بالصلاة صلاة الظهر عمد إليهن فصلى بالناس تحتهن، وكان يوما هاجراً يضع الرجل بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، وظلل لرسول الله بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فلما انصرف صلى الله عليه وآله من صلاته قام خطيباً وسط القوم (في لفظ الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج 9 ص 156 وغيره) على أقتاب الإبل (ثمار القلوب ص511 وغيره) وأسمع الجميع، رافعاً عقيرته فقال:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن ضل، ولا مضل لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ـ أما بعد ـ: أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله، وإني أوشك أن أدعى فأجبت، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، و أن محمدا عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق وأن الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللهم اشهد»، ثم قال: «أيها الناس ألا تسمعون؟» قالوا: نعم، قال: «فإني فرط على الحوض، وأنتم واردون علي الحوض، وإن عرضه ما بين صنعاء وبصرى فيه أقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين» فنادى مناد: وما

الثقلان يا رسول الله؟ قال: ‹‹الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فسألت ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا››، ثم أخذ بيد علي فرفعها حتى رؤي بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال: ‹‹أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟›› قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ‹‹إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه›› يقولها ثلاث مرات، وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة أربع مرات، ثم قال: ‹‹اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب››، ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ‹‹الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الرب برسالتي، والولاية لعلي من بعدي››، ثم طفق القوم يهنئون أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وممن هنأه في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر كل يقول: بخ بخ لك يا بن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وقال ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم، فقال حسان: إئذن لي يا رسول الله أن أقول في علي أبياتا تسمعهن، فقال: ‹‹قل على بركة الله››، فقام حسان فقال: يا معشر مشيخة قريش أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية، ثم قال أبياته:

يُناديهمُ يومَ الغديرِ نبيُّهمْ ... بُخُمٍّ فأسمعْ بالرسولِ مُنادِيا

وقالَ فمَنْ مَولاكُمُ ووليُّكُمْ ... فقالوا ولم يُبدوا هُناكَ التَّعامِيا

إلهُكَ مولانا وأنتَ وليُّنا ... وما لَكَ مِنّا في الوِلايةِ عاصِيا

فقالَ لهُ قُمْ يا عليُّ فإنّني ... رَضِيتُكَ مِنْ بَعدي إماماً وهادِيا

فمَنْ كنتُ مَولاهُ فهذا وليُّهُ ... فكُونوا لَهُ أنصارَ صِدقٍ مَوالِيا

هُناكَ دَعا اللهُمَّ والِ وليَّهُ ... وكُنْ لِلَّذي عادَى عِليّاً مُعادِيا

(أقول: لم أستطع التأكد من نسبة هذه الأبيات في ديوان حسان بن ثابت المطبوع اليوم.)

(أقول: كلمة النبي(ص) ‹‹أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله›› غير مفهومة إذا أخذت بلفظها لأن ذلك سيجعل من عمر المسيح(ع) أكثر من مائة وعشرين سنة، وهو خلاف المعروف، كما سيوصل أعمار الأنبياء الماضين(ع) إلى أرقام فلكية، فلعل في الجملة بعض التغيير أو فيها معنى ما.)

وروى النسائي (تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ص 50 – 51) بسنده عن زيد بن أرقم قال: "لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع، ونزل غدير خم، أمر بدوحات فأقمن، ثم قال:

‹‹كأني دعيت فأجبت، وإني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض››، ثم قال: ‹‹إن الله مولاي، وأنا مولى كل مؤمن››، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه، فقال: ‹‹من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه››، فقلت لزيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه ما كان في الدرجات أحد، إلا رآه بعينه، وسمعه بأذنيه".

أقول: الظاهر أن هناك حذف في رواية النسائي حيث جعلت جواب زيد جزءاً من سؤال الراوي، أي أنه مثلما ورد في حديث زيد بن أرقم وسؤال الطفيل (والذي سيأتي لاحقاً) – قال أبو الطفيل: فخرجت وكأن في نفسي شيئاً فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا، قال زيد: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله(ص) يقول ذلك له".

مصادر الحديث

أما مصادر الحديث فكثيرة، رواها أصحاب كتب الحديث الشريف وتفسير القرآن والتاريخ، منهم:

من المحدثين الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج4 ص281، والبيهقي في سننه (يذكر في ج10 ص14 يذكر حديثاً لعلي(ع) يذكر فيه تعميم النبي(ص) له في يوم الغدير بعمامة، وهي إشارة إلى مناسبة حافلة وإلا ما معنى إلباسه عمامة؟)، والهيثمي في مجمع الزوائد ج1 ص9 وغيرها، والبخاري في تاريخه ج1 ص374 رواية 1191 و ج4 ص193 رواية 2458 و ج6 ص240 رواية 2277 (ولكنه لم يروه في الجامع الصحيح، وهذه واحدة من العديد من الأحاديث التي ذكرها البخاري في تاريخه ولكنه لم يروها في الجامع المسمى صحيح البخاري مما ندعو القارئ أن يلتفت إلى حقيقة أن ليس كل حديث لم يروه البخاري، أو مسلم، في الصحيحين ليس صحيحاً)، والذهبي في تذكرة الحفاظ من طرق عديدة منها ج1 ص10 و ج3 ص1043.

ومن المفسرين الطبري في تفسيره ج3 ص428، والثعلبي في تفسيره، والفخر الرازي في تفسيره ج3 ص636، ومن المتأخرين الآلوسي في تفسيره ج6 ص61.

ومن المؤرخين الشهرستاني في الملل والنحل، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق من عشرات الروايات في الأجزاء 13 و 18 و 25 و 42، وفي سير أعلام النبلاء من طرق عديدة منها ج8 ص334 و ج13 ص340 و ج19 ص328 والتي فيها يبخبخ عمر لعلي مهنئاً.

ومن المتأخرين السمهودي في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج2 ص173 وهو من أهم كتب المتأخرين في تاريخ المدينة المنورة، وكثير غيره.

(أنظر الملحق للمزيد من المصادر.)

الرواة من الصحابة والتابعين

هذه الروايات تنتهي إلى ابن عباس وأبي هريرة والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وعلي(ع) وأبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وعدي بن حاتم الطائي والمقداد بن الأسود وآخرين، عد الباحثون منهم **110** من صحابة النبي(ص) و 84 من التابعين. وهذه الأعداد الغفيرة من الرواة لا أظن أنها قيضت لحديث شريف، وما ذلك إلا لكثرة من حضر ذلك اليوم المشهود من المهاجرين والأنصار وغيرهم من الذين أسلموا بعد فتح مكة وجميع من وافى النبي(ص) في حجة الوداع.

طول خطبة الغدير

لفت السيد شرف الدين (المراجعات هامش المراجعة 8) النظر إلى أن الخطبة لم تكن مقصورة على هذه الكلمة القصيرة فإنه لا يقال أنه "خطبنا" كما ذكر راوي الحديث ولكن – والكلام لشرف الدين – "السياسة كم اعتقلت ألسن المحدثين وحبست أقلام الكاتبين".

إذاً، الغدير لم يكن كلمة ألقاها النبي(ص) ومضى، وإنما كان اجتماعاً حاشداً هو الأكبر، وبما لا يقاس، مع غيره، وذلك لأن الذين حضروا الغدير كانوا بعشرات الألوف من الذين جاءوا ليقوموا بالحج مع النبي(ص) بعد أن أرسل إليهم يعلمهم أنه سيقوم بالحج ذلك العام، وبالتالي لم يكن مناسباً أن يوقف النبي(ص) كل هذه الحشود، بعد أن أتموا الحج وخطب فيهم خطبة حجة الوداع وتحركوا باتجاه مواطنهم في شتى أنحاء الجزيرة العربية، ليقول كلمة واحدة يعلي فيها من شأن علي(ع) الذي يعرفه جلهم، أو على الأقل رؤساؤهم والكثير من عامتهم، ولاسيما وقد أمر بالتوقف وبأن يعود من تقدم وبأن ينتظروا من تأخر حتى يوافيه الجميع في ذلك الموضع، غدير خم. وبالفعل، خطب النبي(ص) خطبة، لكن مصادر أهل السنة لم تذكر منها غير هذه الكلمات القليلة، وإن كانت هي

الكلمات الأهم لأنها تجعل لعلي(ع) الولاية العامة التي جعلها اللّه تعالى بنص القرآن لنبيه(ص). أما مصادر الشيعة فقد ذكرت الخطبة مروية من عدة رواة يمكن أن تطلب من مصادرها.

بيعة وبالمصافحة ثلاثاً

بعد هذه الخطبة، لم يجعل النبي(ص) هذا التنصيب مقتصراً على الأمر الشفهي، وإنما جعله يتخذ الطابع المعتاد في مثل هذه الأمور، وهو البيعة لفظاً وفعلاً وذلك بمصافحة علي(ع). قام الحاضرون بذلك لثلاث – لا أدري إن كانت ثلاثة أيام أو ثلاث ليال – وكان بعضهم يزيد على البيعة التهنئة كما روي عن الشيخين أبي بكر وعمر.

روى الطبري في كتابه الولاية الحديث عن زيد بن أرقم أن أول من صافح النبي(ص) وعلياً(ع) هم أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وكبار باقي المهاجرين والأنصار، ثم باقي الناس، إلى أن صلى الظهرين ثم بعد ذلك إلى أن صلى العشاءين، وأنهم استمروا في البيعة والمصافقة ثلاثاً. وذكروا القول الذي اشتهر من تهنئة الشيخين لعلي(ع) كما ذكره ابن حجر عن الدارقطني في الفصل الخامس من الباب الأول من الصواعق أن الشيخين قالا لعلي(ع): "أمسيتَ يا ابن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة." ومثله قول عمر "طوبى لك يا أبا الحسن أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة".

بل ذكر البعض (كما في روضة الصفا ج1 ص173) أن النبي(ص) جلس في خيمة وأجلس علياً(ع) في خيمة أخرى وأمر الناس بأن يهنئوا علياً(ع) في خيمته، ولمّا انتهت تهنئة الرجال أمر النبي(ص) أمهات المؤمنين بأن يهنئنه بالبيعة.

في آية البلاغ

قال السيد شرف الدين (المراجعات المراجعة 56) في إثبات أن الآية الكريمة ﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك وإنْ لَم تَفعلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعصِمُكَ مِن النّاس﴾ (المائدة:67) أنها نزلت في غدير خم. قال: "لا كلام عندنا في نزولها بولاية علي يوم غدير خم وأخبارنا في ذلك متواترة عن أئمة العترة الطاهرة. وحسبك مما جاء في ذلك من طريق غيرهم ما أخرجه الإمام الواحدي في تفسير الآية من سورة المائدة ص150 من كتابه أسباب النزول من طريقين معتبرين عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية ﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب. قلتُ (أي شرف الدين): وهو الذي أخرجه الحافظ أبو نعيم في تفسيرها في كتابه نزول القرآن في سندين أحدهما عن أبي سعيد والآخر عن أبي رافع. ورواه الإمام

إبراهيم بن محمد الحمويني الشافعي في كتابه الفرائد بطرق متعددة عن أبي هريرة، وأخرجه الإمام أبو إسحق الثعلبي في معنى الآية من تفسيره الكبير بسندين معتبرين. ومما يشهد له أن الصلاة كانت قبل نزولها قائمة والزكاة مفروضة والصوم كان مشروعاً والبيت محجوجاً والحلال بيّناً والحرام بيّناً والشريعة متسقة وأحكامها مستتبة، فأي شيء غير ولاية العهد يستوجب من اللّه هذا التأكيد ويقتضي الحث على بلاغه بما يشبه الوعيد، وأي أمر غير الخلافة يخشى النبي الفتنة بتبليغه ويحتاج إلى العصمة من أذى الناس بأدائه؟"

دلالة حديث الغدير

مختصر مناقشة الأنطاكي رحمه الله

ناقش الأنطاكي (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) المراد بكلمة "المولى"، وهو أكثر ما جرى حوله النقاش بعد أن يئس الخصم من رد حديث الغدير وواقعة الغدير كحقيقة تاريخية ثابتة وحديث مسند متواتر لا شك فيه، فقالوا إن المراد من كلمة المولى كلمة الأولى بالتصرف وذلك كما في القرآن الكريم ﴿النَّارُ هِيَ مَولاكُم﴾ (الحديد:15) أي أولى بكم، وقول المولى العبد أي الأولى في تدبيره والتصرف فيه. ويجيب بأن النبي(ص) عيّن هذا المعنى من كلمة المولى عندما قال أولاً: «ألستُ أولى بكم من أنفسكم» فصرّح به بالأولوية ثم أعقبه من دون فصل بقوله: «من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه» أي من كنتُ أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه، فيكون علي(ع) أولى بالتصرف في أمورهم ولا يكون أولى إلا إذا كان خليفة وإماماً، وهذا نص صريح في إرادة رئاسته الدين والدنيا، إذ أن الأولى بنفس الأمة منهم هو النبي والإمام(ع)... فكما لا يجوز تقدم أحد على رسول الله(ص) فلا يجوز أيضاً تقدم أحد على علي(ع).

وأشار أيضاً إلى التهنئة من الصحابة لعلي(ع) لا معنى لها لو أنهم لم يفهموا منها هذا المعنى وهو الإمامة والإمارة، لا معنى الناصر والنصرة الذي هو أمر معروف لديهم لأنه من لوازم علي وأوصافه نصرة المسلمين.

وأيضاً استفاد من الرواية التي غضب فيها الخليفة الثاني عمر من الأعرابي الذي كأنه استصغر أن يقضي أمير المؤمنين(ع) بينه وبين أعرابي آخر بطلب من عمر، فقال ذلك الأعرابي: "هذا يقضي بيننا؟!" فغضب عمر وأخذ بثيابه حتى رفعه من الأرض وقال: "أتدري من صغّرت؟ مولاي ومولى كل مسلم!" ذكر هذا الخوارزمي في المناقب ص97، والمحب الطبري في الرياض النضرة ج2 ص170. وقال: "فلو لم يفهم عمر من لفظ مولى الإمارة لأجاب أن هذا ناصري وناصر كل مسلم."

وردّ أخيراً مسألة معنى الحب والنصرة بأنها من الأمور التي لا تحتاج إلى بيان لأن القرآن الكريم قال:﴿والمُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ بَعضُهُم أولياءُ بَعض﴾ (التوبة:71) ﴿أشِدّاءُ على الكُفّارِ رُحَماءُ بَينَهُم﴾ (الفتح:29) فلا يحتاج بيانها لأن ينزل الوحي بالطلب الشديد من النبي(ص) بأن يبلغ فيقوم بذلك وينزل في رمضاء ويحبس عشرات الألوف من الصحابة من أجل أن يبين أمراً واضحاً لا يحتاج إلى بيان.

مناقشات البشري وشرف الدين رحمهما الله

أما السيد شرف الدين فقد ناقش ما أورده الشيخ سليم البشري في المراجعة 57 (كتاب المراجعات) الذي قال: "حمل الصحابة على الصحة يستوجب تأويل حديث الغدير، متواتراً كان أم غير متواتر، ولذا قال أهل السنة لفظ المولى يستعمل في معاني متعددة ورد بها القرآن العظيم، فتارة يكون بمعنى "الأولى" كقوله تعالى مخاطباً الكفار: ﴿مَأواكُم النّارُ هِيَ مَولاكُم﴾ أي أولى بكم، وتارة بمعنى "الناصر" كقوله عز إسمه: ﴿ذلكَ أنَّ اللهَ مَولى الَّذينَ آمَنوا وأنَّ الكافِرينَ لا مَولى لَهُم﴾، وبمعنى "الوارث" كقوله سبحانه: ﴿ولِكُلٍّ جَعَلنا مَوالِيَ مِمّا تَرَكَ الوالِدانِ والأَقرَبُون﴾ أي ورثة، وبمعنى "العُصبة" نحو قوله عز وجل: ﴿وإنّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرائِي﴾، وبمعنى "الصديق": ﴿يَومَ لا يُغنِي مَولىً عَنْ مَولىً شيئاً﴾، وكذلك لفظ الولي يجيء بمعنى "الأولى بالتصرف" كقولنا فلان وليّ القاصر، وبمعنى "الناصر والمحبوب"، قالوا فلعلّ معنى الحديث "من كنت ناصره أو حبيبه فإن علياً كذلك"، وهذا المعنى يوافق كرامة السلف الصالح وإمامة الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم أجمعين".

أي أن الهدف من تأويل حديث الغدير هو حمل الصحابة على الصحة في تعاملهم مع الحديث النبوي، وبالتالي فإن القضية انعكست: بدلاً من أن تكون النظر في مدى موافقة فعل الصحابة لحديث النبي(ص) صارت النظر في مدى موافقة دلالة حديث النبي(ص) – أي الحديث ذاته في الواقع – لفعل الصحابة! أما لماذا؟ فلكي يوافق كرامة السلف الصالح وإمامة الخلفاء الثلاثة.

فكان مما أجاب به السيد شرف الدين تفنيداً لهذا القول ما استغرق المراجعة 58، ما يمكن تلخيصه بما يلي: أن النبي(ص) لا يمكن أن يكون...

(1) قد أوقف كل هذه العشرات من الألوف عن المسير في ذلك اليوم الحارّ،

(2) وانتظاراً لأن يصل المتأخرون منهم،

(3) ودعا لأن يعود المتقدمون منهم،

(4) ثم ينعى نفسه ويقول أنه «يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأني مسؤول وإنكم مسؤولون» أي أن هناك شيئاً يجب أن يبلغه النبي(ص) وأنهم مسؤولون عن ذلك أيضاً،

(5) ثم يشهدهم بأصول الإسلام من الشهادة لله تعالى بالوحدانية وللنبي بالرسالة وبالجنة والنار والموت والساعة،

(6) ثم بعد ذلك مباشرة يأخذ بيد علي ويقول أن «الله مولاي وأنا مولى المؤمنين ومن كنت مولاه فهذا علي مولاه»...

فيتساءل السيد شرف الدين عن السبب لهذا الاهتمام العظيم من النبي(ص) وعن المهمة التي احتاجت إلى كل هذه المقدمات وهذا التأكيد وأي أمر اقتضى الحض على التبليغ من هذا النوع من الخطاب الإلهي في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك وإنْ لَم تَفعلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعصِمُكَ مِن النّاس﴾ فأي أمر يحتاج النبي إلى تبليغه ويحتاج إلى عصمة الناس من المنافقين ببيانه؟ فيسأل الشيخ البشري أنه لو سئل عن ذلك هل يمكن أن يجيب أن النبي أراد أن يبيّن من ذلك نصرة علي للمسلمين وصداقته لهم؟ فكيف بسيد الحكماء وخاتم الأنبياء أن يفعل كل ذلك من أجل توضيح أمر واضح تماماً. ثم يقول بأن هذا الذي يناسب هذا المقام وهذه الأفعال يوم الغدير إنما هو تبليغ العهد وتعيين القائم مقامه من بعده، فالحديث مع ما به من نص جلي والقرائن عليه لا يقبل التأويل.

الحفاظ على كرامة السلف الصالح

في المراجعة 59 بعد أن سلّم الشيخ البشري بحديث الغدير وبثبوته فإنه طلب النظر في تفسير هذا الحديث على ما فسره بعض العلماء كابن حجر في الصواعق والحلبي في تفسيره حيث قالوا: "سلّمنا أنه – أي علي – أولى بالإمامة فالمراد المآل وإلا كان هو الإمام مع وجود النبي(ص)، ولا تعرّض فيه لوقت المآل، فكأن المراد حين يوجد عقد البيعة له، فلا ينافي حينئذ تقديم الثلاثة عليه، وبهذا تحفظ كرامة السلف الصالح رضي الله تعالى عنه أجمعين".

أي أن الشيخ البشري يقول بأن البعض من علماء السلف قال بأنه الإمام بعد أن يبايَع أما قبل البيعة فلا يثبت حديث الغدير «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» بأنه أولى من غيره، وإلا فمعنى ذلك أنه هو الإمام مع وجود النبي(ص) على أساس أن البيعة هي في زمان النبي(ص). بمعنى أن هناك إشكالية: إذا كان الإمام هو أولى من غيره مطلقاً فمعنى ذلك هو أنه الأولى حتى من النبي(ص)، وبما أن ذلك مرفوض بالإجماع فإذاً سيكون المعنى أنه أولى بعد أن يبايَع، وبما أن أبا بكر وعمر وعثمان كلاً منهم بويع قبل أن يبايع أمير المؤمنين فإنه ليس هناك مشكلة في

تقدمهم عليه وبهذا يمكن الوصول إلى النتيجة المهمة لدى علماء أهل السنة وهي، كما سماها، تحفظ كرامة السلف الصالح لأن المهم عندهم أن هؤلاء لا يُخَطَّؤُون.

أجاب عنها السيد شرف الدين في مراجعة 60 بلقطات...

أولاً: أن هذا الكلام لا ينسجم مع حكمة النبي(ص) ولا بلاغته ولا أفعاله وأقواله يوم الغدير ولا ما فهمه الحارث بن النعمان الفهري من الحديث، أي عندما استفهم النبي(ص) عن ذلك ولم يرض بأن يكون لعلي(ع) الولاية عليهم قال: "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأنزل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم" فكان ذلك أن أصيب بحجر وقتل وثبّتت ذلك سورة السائل ﴿سَأَلَ سائِلٌ بعَذابٍ واقع﴾ .

ثانياً: أن الأولوية المآلية لا تجتمع مع عموم الحديث لأنها تستوجب ألا يكون علي(ع) مولى الخلفاء الثلاثة، ولا مولى واحد ممن مات من المسلمين على عهدهم كما لا يخفى، وهذا خلاف ما حكم به الرسول حيث قال(ص): «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم» قالوا: بلى، فقال: «من كنت مولاه – يعني من المؤمنين فرداً فرداً – فعلي مولاه» من غير استثناء كما ترى.

ثالثاً: بأن أبا بكر وعمر فهما ذلك عندما قالا لعلي يوم الغدير: "أمسيتَ يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة"، فصرّحا بأنه مولى كل مؤمن ومؤمنة على سبيل الاستغراق لجميع المؤمنين والمؤمنات منذ أمسى مساء الغدير. وفي وقت عمر في أكثر من مناسبة كان يعلن أن علي هو مولى كل مؤمن.

رابعاً: أن النبي(ص) بكل هذه الأمور التي قام بها والأقوال التي قالها يوم الغدير كان سيكون مجرد مبين أن علياً(ع) بعد وجود عقد البيعة له بالخلافة يكون أولى بها، وبهذا لا يمتاز عن غيره بشيء لأن كل من وجد عقد البيعة له كان عندهم – أي علماء السنة –أولى بها، فما الفضيلة التي أراد النبي(ص) أن يختص بها علياً(ع) دون غيره من أهل السوابق؟

خامساً: أن كرامة السلف الصالح يمكن أن تحفظ بدون هذا التأويل الذي لا يقبله عاقل.

لكن الشيخ البشري لم يجد ذلك ممكناً، حيث قال في المراجعة 83: "إن أولي البصائر النافذة والرؤية الثاقبة ينزهون الصحابة عن مخالفة النبي(ص) في شيء من ظواهر أوامره ونواهيه ولا يجوزون عليهم غير التعبد بذلك، فلا يمكن أن يسمع النص على الإمام ثم يعدل عنه أولاً وثانياً وثالثاً، وكيف يمكن حملهم على الصحة في عدولهم عنه مع سماعهم النص عليه؟ ما أراك قادراً على أن تجمع بينهما".

فأوضح له السيد شرف الدين كيفية تعامل بعض الصحابة الكبار مع أوامر النبي(ص) ونواهيه بشكل يفرّق بين الأمور التي هي من قبيل العبادات الخاصة بالفرد وبين الأمور الخاصة بالأمة عموماً فقال ما يمكن تلخيصه بما يلي...

أولاً: أن سيرة الكثير من الصحابة أنهم كانوا يتعبدون بالنصوص، أي يتبعونها، إذا كانت متمحضة للدين مختصة بالشؤون الأخروية كما في خصوص استقبال القبلة في الصلاة والصيام والفرائض والطواف حول البيت وهكذا، أما ما كان له علاقة بالسياسة كالإمارة وتدبير الدولة وشؤون الحكم والجيش فإنهم لم يكونوا يرون الالتزام به في جميع الأحوال بل كانوا يعملون أفكارهم وآراءهم ويجتهدون في ذلك إذا كان فيه رفعاً لكيانهم أو نفعاً في سلطانهم. وأيضاً فإن قريشاً بالخصوص والعرب عموماً كانت تخشى من شدة وطأة علي(ع) على من يتعدى حدود الله أو يهتك حرماته وترهب عدله وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ومساواته بين الناس في كل قضية فلم يكن فيه لبعضهم مطمع في التفريق بين المسلمين حسب العشائر وغيرها.

ثانياً: أن قريشاً وسائر العرب كانوا يحسدون علياً(ع) على ما آتاه الله من فضله حيث بلغ في علمه وعمله رتبة عند الله ورسوله(ص) لا يصل إليها أحد.

ثالثاً: أن قريشاً وسائر العرب كانوا قد تشوقوا إلى تداول الخلافة في قبائلهم وطمعوا في ذلك، فعقدوا النية على نكث العقد ونقض العهد وفي هذه الحالة لا يمكن أن يذكروا النص على عليّ(ع) لأنه يهدم ما يدبرون، فجعلوا الأمر بالانتخاب والاختيار ليكون لكلّ حيّ من أحيائهم أمل في الوصول إليها حتى ولو بعد مدة، في حين لو أنهم قبلوا بتقديم أمير المؤمنين بعد النبي(ص) مباشرة لما خرجت الخلافة من العترة الطاهرة لأنه عند ذلك كانت ستكون النصوص ثابتة مطبقة وهذا شيء ما كانت القبائل لتصبر عليه.

رابعاً: أن من نظر في سيرة قريش والعرب في صدر الإسلام علم أنهم لم يخضعوا للنبوة الهاشمية إلا بعد أن تهشّموا فكيف بعد ذلك يرضون باجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم، الأمر الذي صرّح به الخليفة الثاني لابن عباس حيث قال: "إن قريشاً كرهت أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة فتجحفون على الناس" وهو ما نقله ابن أبي الحديد في ج3 ص107 من شرح النهج وأوردها ابن الأثير في الكامل في التاريخ في ج3 أحوال عمر.

الموقف الصحيح لعلي(ع)

ومضى شرف الدين يقول بأن السلف الصالح لم يتسن له أن يقهرهم يومئذ على التعبّد بالنص فرقاً من انقلابهم إذا قاومهم وخشية من سوء عواقب الاختلاف في تلك الحالة، وقد ظهر النفاق بموت رسول الله(ص) وقويت بفقده شوكة المنافقين وعتت نفوس الكافرين وتضعضعت أركان الدين وانخلعت قلوب المسلمين فدبّ الخلاف بينهم فاختار أن يقدم الصالح العام على حقه الشخصي.

ولكن شرف الدين أوضح أن أمير المؤمنين اتخذ خطأً هو الأفضل الذي يجمع بين حفظ الإسلام وحفظ حقه، حيث أنه قعد في بيته ولم يبايع حتى أخرجوه كرهاً ليحتفظ بحقه ويحتج على من عدل عنه، لأنه لو أسرع إلى البيعة لما كان هناك حجة له لأنه ما اعترض عليهم فجمع بين ما يحفظ الدين وما يحتفظ بحقه من أمرة المؤمنين.

تناسي النصوص والتحذير من ذكرها

وأخيراً قال بأن الخلفاء الثلاثة لعلهم لم يعتبروا هذه الأمور أمور السياسات والتأميرات كأمور دينية فهان عليهم مخالفته فيها، وحين تم لهم الأمر أخذوا بالحزم في تناسي تلك النصوص وأعلنوا الشدة على من يذكرها أو يشير إليها. ولمّا توفقوا في حفظ النظام ونشر دين الإسلام وفتح الممالك والاستيلاء على الثروة والقوة ولم يتدنسوا بشهوة علا أمرهم وعظم قدرهم وحسنت بهم الظنون وأحبتهم القلوب ونسج الناس في تناسي النص على منوالهم. وجاء بعدهم بنو أمية ولا همّ لهم إلا اجتياح أهل البيت واستئصال شأفتهم، ومع ذلك كله فقد وصل إلينا من النصوص الصريحة في السنن الصحيحة ما فيه الكفاية والحمد لله.

منهج تصحيح عمل الصحابة والحفاظ على كرامتهم

أقول: كلمة الشيخ البشري رحمه الله "حمل الصحابة على الصحة يستوجب تأويل حديث الغدير، متواتراً كان أم غير متواتر" تعطي صورة واضحة عن طريقة تناول النصوص المقدسة في أهل البيت(ع) حيث أن القوم لما فرغوا من تقرير أن الصحابة كلهم عدول وأن القلم رفع عنهم بحيث لا يجوز مطلقاً تناول أي منهم بنقد أو تخطئة وقعوا في فخ تأويل النصوص المقدسة الواضحة التي لا يمكن صرفها عن معانيها الواضحة بتأويل. بل إن الشيخ البشري يوجب تأويل الحديث حتى وإن كان متواتراً، وبالتالي لم يبق هناك مقياس علمي لوزن الأحاديث إذا ما كان الأمر يتعلق بالصحابة، وإنما موازين الجرح والتعديل والنقد والتخطئة تخص غيرهم من العالمين، حتى وإن كان البعض من غيرهم أشد إيماناً وأصدق عملاً كما يتضح لكل من قرأ بعض صفحات قليلة من أي من كتب التاريخ والسيرة التي كتبها علماء المذاهب السنية أنفسهم. فما لم ينته هذا القرار الخطأ بتصحيح عمل وقول كل صحابي وكأنه قول معصوم لن يتمكن أهل السنة من النظر نظرة موضوعية علمية للكثير من آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي الكريم(ص)، وبالتالي لن يتمكنوا من فهم موقف إخوانهم شيعة أهل البيت، لأنهم اضطروا هنا أيضاً أن يحملوا موقف الشيعة الناقد والمخطّئ لبعض الصحابة على محامل أخرى عملاً بنفس الإطار، إطار تصحيح عمل وقول الصحابة كائناً ما كان.

ومثل ذلك قوله "يوافق كرامة السلف الصالح" تعني أن كرامة الصحابة أهم من النصوص المقدسة. وهذا موقف عجيب لو عرض على أي من الناس، لأن هؤلاء السلف الصالح إنما جاءت مكانتهم من خلال الدين، والدين

هو النصوص المقدسة، فكيف يصبح الفرع أهم من الأصل بحيث يجب إخضاع الأصل – بأي شكل كان – من أجل المحافظة على الفرع الذي لولا الأصل لما كان ولا كانت له قيمة؟!

إشكال لم يورده البشري

من الإشكالات على حادثة الغدير في شقها المتعلق بالبيعة والتي وجدتها ترد هذه الأيام أنه كيف يأمر النبي(ص) بالبيعة لعلي(ع) والنبي(ص) لما يزل على قيد الحياة، أي كأن علياً(ع) إذا صار مبايعاً خليفة للنبي(ص) فإن النبي(ص) انسحب من الساحة، الدينية أو السياسية أو الاثنتين معاً. هذا الإشكال لم يورده الشيخ البشري (رحمه اللّه تعالى) لأنه لم يكن إشكالاً عنده فيما يبدو لوضوح بطلانه كما أرى. ذلك أن النبي(ص) إنما عقد البيعة لعلي(ع) ليكون خليفة بعد وفاته(ص)، أي كما هو معمول به في ولاية العهد للحكام عموماً من أجل عدم ترك الأمر عرضة للفوضى أو انتهاز الفرصة ممن ليس أهلاً للمنصب. والنبي(ص) لم يقل أن علياً(ع) صار هو الشخص الأول في الدولة منذ تلك الساعة، بل أعلن تبوء علي(ع) منزلة النبي(ص) في الأمة من حيث ولايته على الناس «أولى بكم من أنفسكم» وهو أمر لا يصبح نافذاً منذ تلك اللحظة بالضرورة لأن النبي(ص) صاحب الولاية الأصلية لا زال موجوداً، ولكن في لحظة توفي صاحب الولاية الأصلية(ص) فإن صاحب الولاية المتفرعة عنها سيكون الوحيد الذي له تلك الولاية وعليه لا يمكن تقدم أي شخص عليه. فالبيعة كانت بهذا المعنى سداً للطريق أمام من لم يكن لهم الولاية على المؤمنين.

أمر آخر مهم جداً، وهو أن القيمومة على الرسالة الخاتمة، تبليغاً وحراسةً، أهم بكثير من أي إشكال يمكن أن ينشأ من تعارض أو ما يمكن أن يشتبه في أنه تعارض بين مقام النبي(ص) ومقام علي(ع) في حياة النبي(ص)، وهذا مما أراده المولى عز وجل وصدع به النبي(ص) فلا مجال لاعتراض. وكيف يكون هناك تعارض إذا كان النبي(ص) نفسه هو المبلغ عن ربه أولاً، وأن شريعته الخاتمة هي التي يقوم – من خلال تبليغه – بحفظها ثانياً؟!

علماً أن المسلمين كانوا في وارد غياب النبي(ص) عنهم بعد أن أعلن لهم في خطبة الوداع قبل الغدير بتسعة أيام فقط «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»، وبالتالي فإن تنصيب علي(ع) ببيعة عامة إنما كانت لمنع حصول فراغ ولا للحظة وواحدة عندما يحين أجله(ص) أرواحنا فداه.

كيف نصدق إعراض الأمة بعد هذه البيعة العامة؟

من أقوى الشبهات على بيعة الغدير هو استبعاد، بل رفض إمكانية أن تدير الأمة ظهرها للحديث بعد بيعتهم ثلاثة أيام، في بيعة عامة قاموا بها بأمر رسول اللّه(ص) وتحت نظره، بيعة للرجال والنساء، وقد قفلوا من حجة

الوداع وهم عشرات الألوف ممن قدم مع النبي(ص) من المدينة والعدد الأكبر من سائر الجزيرة العربية. يقولون بأنه حتى إن استطاع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومن ناصرهم في سقيفة بني ساعدة أن يأخذوا الناس الموجودين بالبيعة فما بال الألوف من الصحابة من المهاجرين والأنصار في المدينة، وما بال عشرات الألوف من غيرهم، وكلهم شهد بيعة الغدير كما يزعم الشيعة؟ كيف يمكن حصول هذا الانقلاب والمدة الزمنية الفاصلة بين يوم الغدير ويوم وفاة النبي(ص) – أرواحنا فداه – أقل من ثلاثة أشهر؟

في عدد الحاضرين يوم الغدير

ذكر صاحب المراجعات (المراجعة 56) قول السيد أحمد زيني دحلان في باب حجة الوداع من كتابه السيرة النبوية: "وخرج معه(ص) من المدينة تسعون ألفاً، ويقال مائة ألف وأربع وعشرون ألفاً ويقال أكثر من ذلك". قال: "وهذه عدة من خرج معهم، وأما الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك إلى آخر الحديث..." ومنه يعلم أن الذين قفلوا معه كانوا أكثر من مائة ألف وكلهم شهدوا حديث الغدير.

على أي من الأقوال، فإن الذين حضروا يوم الغدير كانوا بعشرات الألوف؛ ولا حاجة لإثبات ذلك من المؤرخين لأنه من غير المعقول أن يحضر مائة ألف أو أكثر حجة الوداع ثم عندما يقفلون راجعين يجمعهم النبي(ص) – لأي أمر كان – لا يكون الحضور كثيراً، بل حاشداً، ولهذا كان رواة حديث الغدير بهذا العدد الهائل من الصحابة مما لم يعرف مع حديث آخر غيره، والحمد لله رب العالمين.

إحياء علي(ع) ليوم الغدير أيام خلافته

ثم قال شرف الدين: "وحسبك منها (أي من الروايات) ما قام به أمير المؤمنين أيام خلافته، إذ جمع الناس في الرحبة (أي في مسجد الكوفة) فقال: ‹‹أنشد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله(ص) يقول يوم غدير خم ما قال إلا قام فشهد بما سمع، ولا يقم إلا من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه››، فقام ثلاثون صحابياً فيهم اثنا عشر بدرياً فشهدوا أنه أخذه بيده فقال للناس: ‹‹أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟›› قالوا: نعم، فقال(ص): ‹‹من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه›› الحديث. وأنت تعلم أن تواطؤ الثلاثين صحابياً على الكذب مما يمنعه العقل، فحصول التواتر بمجرد شهادتهم إذاً قطعيّ لا ريب فيه، وقد حمل هذا الحديث عنهم كل من كان في الرحبة من تلك الجموع فبثّوه بعد تفرقهم في البلاد، فطار كل مطير".

ثم استمر في تعليقه بإلفات النظر إلى أمر مهم يخص عدد الناس في ذلك الوقت قال: "ولا يخفى أن يوم الرحبة إنما كان في خلافة أمير المؤمنين، وقد بويع سنة خمس وثلاثين، ويوم الغدير إنما كان في حجة الوداع سنة عشر، فبين اليومين في أقل الصور خمس وعشرون سنة، كان في خلالها طاعون عمواس وحروب الفتوحات والغزوات على عهد الخلفاء الثلاثة، وهذه المدة وهي ربع قرن بمجرد طولها وبحروبها وغاراتها، وبطاعون عمواسها الجارف،

قد أفنت جلّ من شهد يوم الغدير من شيوخ الصحابة وكهولهم، ومن فتيانهم المتسرعين في الجهاد إلى لقاء الله عز وجل ورسوله(ص)، حتى لم يبق منهم حيّاً بالنسبة إلى من مات إلا قليل، والأحياء منهم كانوا منتشرين في الأرض، إذ لم يشهد منهم الرحبة إلا من كان مع أمير المؤمنين في العراق من الرجال دون النساء، ومع هذا كلّه فقد قام ثلاثون صحابياً فيهم اثنا عشر بدرياً فشهدوا بحديث الغدير سماعاً من رسول الله(ص). ورب قوم أقعدهم البغض عن القيام بواجب الشهادة كأنس بن مالك وغيره فأصابتهم دعوة أمير المؤمنين. ولو تسنّى له أن يجمع كل من كان حياً يومئذ من الصحابة رجالاً ونساءً ثم يناشدهم مناشدة الرحبة لشهد له أضعاف أضعاف الثلاثين، فما ظنك لو تسنّت له المناشدة في الحجاز قبل أن يمضي على عهد الغدير ما مضى من الزمن، فتدبّر هذه الحقيقة الراهنة تجدها أقوى دليل على تواتر حديث الغدير. وحسبك مما جاء في يوم الرحبة من السنن ما أخرجه الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم في ص370 من الجزء الرابع من مسنده عن أبي الطفيل، قال: جمع علي الناس في الرحبة ثم قال لهم: ‹‹أنشد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله(ص) يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام››، فقام ثلاثون من الناس. قال أبو نعيم: فقام ناس كثير، فشهدوا حين أخذه بيده فقال للناس: ‹‹أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم...›› الحديث. قال أبو الطفيل: فخرجت وكأن في نفسي شيئاً فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا، قال زيد: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله(ص) يقول ذلك له".

<u>إذاً كيف يحصل هذا؟</u>

يبدو أن هذا التساؤل بدأ منذ أيام الصحابة أنفسهم، فقد أورد السيد شرف الدين (المراجعات ص187) أورد حديثاً للنسائي عن زيد ابن أرقم (الخصائص ص21) في وصف النزول في غدير خم وحديث النبي(ص)، روى أن أبا الطفيل قال: "فقلتُ لزيد سمعته من رسول الله(ص) ؟ فقال – أي زيد –: وأنه ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنيه". علق السيد شرف الدين على سؤال أبي الطفيل بالقول: "سؤال أبي الطفيل ظاهر في تعجبه من هذه الأمة إذ صرفت هذا الأمر عن علي مع ما ترويه عن نبيها في حقه يوم الغدير، وكأنه شك في صحة ما ترويه في ذلك، فقال لزيد حين سمع روايته منه: أسمعته من رسول الله؟! كالمستغرب المتعجب الحائر المرتاب، فأجابه زيد بأنه لم يكن في الدوحات أحد على كثرة من كان يومئذ من الخلائق هناك إلا من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه، فعلم أبوالطفيل حينئذ أن الأمر كما قال الكميت الأسدي في أبياته فيما بعد:

وَيَومَ الدَّوحِ دَوح غَدِيرِ خُمٍّ　　　أبانَ لَهُ الخلافَةَ لَو أُطِيعا

ولكنَّ الرجالَ تَبايَعُوها　　　فَلَمْ أرَ مِثلَها خَطَراً مُبِيعا

وَلَمْ أرَ مِثلَ ذاكَ اليومِ يوماً　　　ولَمْ أرَ مِثلَهُ حَقّاً أُضِيعا

إن أهم نقطة في هذا الأمر هو عدم الالتفات إلى أن الذين حضروا بيعة الغدير كان أكثرهم من القبائل خارج المدينة، فإنه إن كان النبي(ص) قد فتح مكة بعشرة آلاف صحابي قبل ذلك بسنتين فلا يمكن أن يكون عدد الصحابة المدينيين قد زاد إلى أكثر من ضعف هذا العدد بعد سنتين فقط. فالذين كانوا في المدينة هم النسبة الأقل ممن حضروا بيعة الغدير.

وحتى هذا الوصف ينبغي جعله أكثر دقة: هؤلاء هم الصحابة المدينيون، أي الذين اتخذوا المدينة وطناً، إما من سكنتها الأصليين من الأنصار وإما من الذين هاجروا إليها، أما الذين كانوا موجودين في المدينة بشكل فعلي فكانوا أقل من ذلك بكثير لأنهم كانوا في جيش أسامة بن زيد بن حارثة الذي كان النبي(ص) عبأه وعقد لواءه بيده الشريفة للخروج إلى شمال الجزيرة العربية في مؤتة الموقع الذي سقط فيه زيد بن حارثة، والد أسامة، شهيداً (مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة والذين استشهدوا معهم من المسلمين)؛ وكان النبي(ص) قد حث حثاً شديداً على الخروج حتى روي أنه لعن من يتخلف عن جيش أسامة، الأمر الذي جعل باحثي الشيعة يذهبون إلى القول أن النبي(ص) أراد إفراغ المدينة من منافسي علي(ع) ومناوئيه وأعدائه حتى يتم له الأمر بعد وفاة النبي(ص) دون مشاكل. المهم هو أن الغالبية الساحقة من الصحابة كانوا خارج المدينة.

ولكن هنا ربما يأتي سؤال: ما الذي منع هذا الجيش العرمرم من أن يدخل المدينة وينصر علياً(ع) وينقض بيعة أبي بكر؟

والجواب يحتاج إلى بحث طويل، قام به علماء الشيعة وباحثوهم، ولكن يكفي هنا القول أن بعض الجواب في داخل السؤال، وهو أنه إن كان الكثيرون من الصحابة من المناوئين والمنافسين والأعداء فإن لهؤلاء تأثيرهم على جماعاتهم وعشائرهم وأفخاذ عشائرهم مما يجعل الأكثرية ليسوا مع علي(ع) على أقل تقدير. هذا من غير أن تجاوز علي(ع) في أول تجربة بيعة بعد النبي(ص) هو الأصعب، وبعد ذلك يهون الأمر، وهو ما سيجعل الخلافة ممكنة للجميع – هذا الجميع الذي فيه الكثيرون من المنافسين والمناوئين والأعداء الذين لا يهمهم أمر علي(ع)، بل على العكس من ذلك.

وأما باقي المسلمين ممن حضر بيعة الغدير ممن هم سكنة الجزيرة العربية خارج المدينة المنورة، فهؤلاء كانوا بعيدين عن الأحداث، وأنى لهم معرفة ما جرى، وكيف يجتمعون للقيام بنصرة علي(ع)؟ وحتى إن أرادوا فعل شيء فإن الأمر لرؤساء عشائرهم، وهؤلاء ينظرون في مصالح العشيرة وبالتالي لا يمكن أن يضحوا بها دون التحقق من الأمر، فإذا وجدوا أن الأمر استتب لأبي بكر فلماذا القيام بمقاومة لم يقم بها أقرب الناس إلى علي(ع) من أهل المدينة، بل من أهل السابقة من المهاجرين والأنصار الذين خذلوه بشكل مريع.

أضف إلى ذلك ما أعرفه شخصياً – من خلال الوضع العشائري لعشيرتنا ألبو عباس (أكبر عشائر سامراء) وغيرها من عشائر سامراء والعراق عموماً – مما لا يستطيع من لا معرفة له أو مشاهدة لما يجري في العشائر والقبائل بالخصوص عندما يتوفى الشيخ وتتم البيعة لمن يخلفه أن هذا الأمر يصبح من الصعب جداً تغييره. أذكر أنه عندما توفي عمي ثابت ماهر، وهو أخ والدي الأكبر، وشيخ ألبو كنعان أحد أفخاذ عشيرة ألبو عباس، وذلك في نيسان عام 1974م، أننا، بعد الصلاة عليه في صحن الحضرة العسكرية المطهرة، ما أن عدنا من الدفن في مقبرة سامراء إلى بيته (الواقع في شارع البنك، في النهاية الأخرى من الشارع الذي تقع الحضرة العسكرية الشريفة في نهايته الثانية) إلا وكان رجال العشيرة وشبابها يطالبون بإعلان الشيخ الخلف له، على الرغم من أنهم يرون تأثر والدي وعمي الأصغر وولدي عمي المتوفى؛ وهكذا كان، وأعلن الشيخ الجديد دون تأخير. وهذا الحال لا يختلف في باقي العشائر، فيما أعلم، وبضمنها العشائر التي وصلت إلى حكم بلاد كاملة كما هو الحال مع ملوك وأمراء في الدول العربية. وبالتالي، فما أن بويع أبو بكر حتى صار الأمر شبه منته، وصار قريباً من المستحيل تغييره، الأمر الذي صرح به بعض الأنصار للزهراء(ع) عندما دارت مع علي(ع) والحسنين(ع) ليلاً تذكرهم ببيعتهم وعهدهم مع النبي(ص) (الإمامة والسياسة ج1 ص19)، فقالوا: "يا ابنة رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به!"، مما جعل علياً(ع) يقول: ‹‹أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟!››، فتعلق الزهراء(ع): ‹‹ما صنع أبوالحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم››.

هذا، وقد وجدت للسيد مرتضى الفيروزآبادي تفسيراً لطيفاً لما حدث، حيث قال (فضائل الخمسة ج1 ص452) ما نصه: "وعلى كل حال إذا جاز أن تجتمع أمة موسى(ع) على اتخاذ العجل والشرك بالله بعدما رأوا الآيات والبيّنات وعلى ترك هارون بعدما كادوا يقتلونه، جاز خطأ جلّ الصحابة في اتخاذهم أبا بكر وتركهم علياً(ع) بعد أن كادوا يقتلونه بطريق أولى. ووجه الأولوية أن من عدلوا عنه وهو علي(ع) بالنسبة إلى النبي(ص) كان دون هارون في القرب النسبي بالنسبة إلى موسى(ع)، كيف لا وهارون كان أخاً لموسى(ع) في نسبه وشريكاً في أمره ونبوته كما ذكرنا، وعلي(ع) كان ابن عم النبي(ص) في نسبه وكان خليفته في أمته لا شريكاً في نبوته، كما أن من عدلوا إليه وهو أبو بكر كان فوق العجل الذي اتخذه قوم موسى(ع)، كيف لا والعجل كان جسداً له خوار كما في القرآن الكريم وأبو بكر كان بشراً له روح يتكلم ويخطب. هذا مضافاً إلى أن أمة موسى(ع) قد اتخذوا العجل إلهاً يُعبد، وجلّ الصحابة قد اتخذوا أبا بكر خليفة يُطاع لا شريكاً مع الله عز وجل وإن لم يكن ذلك أقل من الشرك بكثير، فهذه وجوه متعددة لجواز خطأ جلّ الصحابة في اتخاذهم أبا بكر وتركهم علياً(ع) بطريق أولى".

لماذا لم يحتج علي(ع) في يوم السقيفة بنصوص الخلافة والوصية؟

وهذه شبهة أخرى مهمة وقوية، فإن يوم السقيفة كان يوم وفاة النبي(ص)، أي بعد شهرين ونصف من يوم الغدير، وموضوع السقيفة هو الخلافة، أي موضوع الغدير بالذات، والذين تنازعوا الخلافة في السقيفة من المهاجرين والأنصار، ولم يذكر أحد منهم علياً(ع) (اللهم إلا بعض الأنصار عندما أخذوا يهتفون "لا نبايع إلا علياً"، والتي كانت – كما قال الشيخ المظفر (السقيفة) – بعد أن يئس الأنصار منها أو "بعد خراب البصرة" كما عبّر عنها)، فكيف لا يحتج علي(ع) في ذلك اليوم على موقعه بنصوص الخلافة والوصية ولاسيما نصوص يوم الغدير؟

أجاب السيد شرف الدين عن هذا في المراجعة 102 (المراجعات) قال: "الناس كافة يعلمون وسائر أوليائه من بني هاشم وغيرهم لم يشهدوا البيعة ولا دخلوا السقيفة يومئذ، وكانوا في معزل عنها وعن كل ما كان فيها، منصرفين بكلهم إلى خطبهم الفادح بوفاة رسول الله، وقيامهم بالواجب من تجهيزه(ص)، لا يعنون بغير ذلك، وما واروه في ضريحه الأقدس حتى أكمل أهل السقيفة أمرهم، فأبرموا البيعة وأحكموا العقد وأجمعوا – أخذاً بالحزم – على منع كل قول أو فعل يوهن بيعتهم أو يخدش عقدهم أو يدخل التشويش والاضطراب على عامتهم، فأين كان الإمام عن السقيفة وعن بيعة الصديق ومبايعيه ليحتج عليهم؟ وأنّى يتسنّى الاحتجاج له أو لغيره بعد عقد البيعة وقد أخذ أولو الأمر والنهي بالحزم وأعلن أولو الحول والطول تلك الشدة، وهل يتسنى في عصرنا الحاضر لأحد أن يقابل أهل السلطة بما يرفع سلطتهم ويلغي دولتهم؟ وهل يتركونه وشأنه لو أراد ذلك؟ هيهات هيهات، فقس الماضي على الحاضر فالناس ناس والزمان زمان".

وقد وجدت في قراءتي لنهج البلاغة (مجموعة خطب ورسائل وكلمات علي(ع) التي جمعها الشريف الرضي) الكتاب أي الرسالة التي بعثها أمير المؤمنين إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاّه الإمارة ليوضح لهم ما جرى (نهج البلاغة ج3 رسالة 62)؛ قال(ع): ‹‹فلمّا مضى – أي النبي(ص) – تنازع المسلمون الأمر بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر في بالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده(ص) عن أهل بيته، ولا أنهم مُنحّوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد(ص) ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه››.

ماذا نفهم من قول علي(ع) هذا؟

أولاً: ما كان مطروحاً مطلقاً أن خلافة النبي(ص)، أو "الأمر" كما يسميها علي(ع) (وهي التسمية القرآنية كما في الآية ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وغيرها)، تتصدى لها مجموعة من خارج أهل

البيت(ع)، ولا شخص غير علي(ع)، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بوجود نص صريح من النبي(ص) أولاً، وبأن هذا النص معروف مشهور عند الأمة بحيث لا يمكن تخيل النكوص عنه ثانياً؛

ثانياً: هذا الامتناع متوقع من "العرب" وليس من "قريش"، بمعنى أن علياً(ع) ربما كان ينتظر نصرة "العرب" له ومبايعته، في حين أن الأمر ليس كذلك مع "قريش"، ولاسيما ونحن نقرأ أقواله (نهج البلاغة) وغيره وهو يتشكى من قريش «اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي...» (الخطبة 172)، بل ومعرفته بأن هناك غدراً ينتظره وذلك بإخبار النبي(ص) له، حتى أخرج ذلك الحاكم في مستدركه (ج3 حديث 4676) قوله(ع): «إن مما عهد إلي النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم - أن الأمة ستغدر بي بعده»، ولكن يبدو أنه كان ينتظر النصرة من بعض الأمة، أي من بعض "العرب" على "قريش ومن أعانهم"، وإلا فإن هناك تعارضاً بين النصين، أي نص «ما كان يلقى في روعي ...» و «الأمة ستغدر بي بعده»؛

ثالثاً: المفاجأة ببيعة أبي بكر؛

رابعاً: توقفه عن المنازعة أو المطالبة بخلافته؛

خامساً: حصول خطر داهم على الإسلام كان من شأنه إنهاء الدين، وكان لا بد له أن يدعم خلافة أبي بكر لتحصين الجبهة الداخلية ومقارعة الأخطار؛

سادساً: أن الخلافة لم تكن تشكل عنده شيئاً، مع الانتباه أنه يسميها "ولاية" ما يؤكد حديث الغدير من جانب وما يحدد معناها كمسؤولية "الولاية على شؤون الناس" من جانب آخر، في حين أن "خلافة" ربما لا تعني سوى السلطة والجلوس في المنصب، كما كان ولا يزال حال الكثيرين من الحكام؛

سابعاً: أن قيامه بنصرة الخلافة أدى إلى دفع الخطر عن الإسلام وهزيمة الباطل.

إذاً، لم يحتج أمير المؤمنين(ع) يوم السقيفة بنص يوم الغدير لأنه لم يكن حاضراً في اجتماع السقيفة من أوله إلى آخره، ولأنه وجد أن يمسك يده عن المنازعة هو الأحوط (ولاسيما وقد رأى كيف أن القوم كانوا لا يبالون بالقيام بأي عمل من شأنه تقوية سلطانهم، فهجموا على بيته(ع)، وانتزعوا ملك زوجته(ع) وهي بنت نبيهم(ص) وقد ردوها عن طلبها رغم إقامتها الحجة القاطعة، من كتاب الله، على صدقها – بغض النظر عن معرفتهم اليقينية بصدقها في كل ما تقول –)، وحافظ على نصوص القرآن والسنة في حقه وحق أهل البيت(ع)، وكان منتبهاً إلى ضرورة إحيائها كلما سنحت الفرصة لتذكير الأمة بها، كما في محاججاته مع أصحاب الشورى بعد وفاة عمر وكما في مناشدته في الرحبة المذكورة أعلاه.

ولماذا سكت علي(ع) عموماً؟

قال السيد شرف الدين في مراجعة 82 ص250 ما يلي: "ولذلك صبروا – أي الأئمة(ع) – بدءاً من علي(ع) وفي العين قذى وفي الحلق شجى، عملاً بهذه الأوامر المقدسة وغيرها (يشير إلى أحاديث تقدم ببيانها عن كيفية التعامل مع الأمراء الذين يمكن أن يحكموا بما يعرف الناس وينكرون أي بالحق والباطل وكيف التصرف معهم)، مما عهده النبي(ص) إليهم بالخصوص حيث أمرهم بالصبر على الأذى والغض على القذى احتياطاً على الأمة واحتفاظاً بالشوكة، فكانوا يتحرّون للقائمين بأمور المسلمين وجوه النص، وهم – من استئثارهم بحقهم – على أمرّ من العلقم، ويتوخّون لهم مناهج الرشد، وهم – من تبوئهم عرشهم – على آلم للقلب من حزّ الشفار، تنفيذاً للعهد ووفاءً بالوعد وقياماً بالواجب شرعاً وعقلاً من تقديم الأهم – في مقام التعارض – على المهم، ولذا محّض أمير المؤمنين كلاً من الخلفاء الثلاثة نصحه واجتهد لهم في المشورة. ومن تتبّع سيرته في أيامهم علم أنه بعد أن يئس من حقه في الخلافة عن رسول الله(ص) بلا فصل شقّ بنفسه طريق الموادعة وآثر مسالمة القائمين بالأمر، فكان يرى عرشه المعهود به إليه في قبضتهم فلم يحاربهم عليه ولم يدافعهم عنه احتفاظاً بالأمة واحتياطاً على الملّة وظنّاً بالدين وإيثاراً بالآجلة على العاجلة. وقد مُني بما لم يُمْنَ به غيره، حيث مثل على جناحيه خطبان فادحان: الخلافة بنصوصها وعهودها إلى جانب تستصرخه وتستفزه إليها بصوت يدمي الفؤاد وأنين يفتت الأكباد، والفتن الطاغية إلى جانب آخر تنذره بانتفاض الجزيرة وانقلاب العرب واجتياح الإسلام، وتهدده بالمنافقين من أهل المدينة وقد مردوا على النفاق وبمن حولهم من الأعراب، وهم منافقون بنص الكتاب بل هم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر بألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد قويت بفقده(ص) شوكتهم، إذ صار المسلمون بعده كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، بين ذئاب عادية ووحوش ضارية ومسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد الأفاك وسجاح بنت الحارث الدجالة وأصحابهم قائمون في محق الإسلام وسحق المسلمين على ساق، والرومان والأكاسرة وغيرهما، كانوا بالمرصاد، إلى كثير من هذه العناصر الجياشة بكل حنق من محمد وآله وأصحابه، وبكل حقد وحسيكة لكلمة الإسلام تريد أن تنقض أساسها وتستأصل شأفتها، وإنها لنشيطة في ذلك مسرعة متعجلة ترى أن الأمر قد استتب لها وأن الفرصة لذهاب النبي(ص) إلى الرفيق الأعلى قد حانت، فأرادت أن تسخّر الفرصة وتنتهز تلك الفوضى قبل أن يعود الإسلام إلى قوة وانتظام. فوقف أمير المؤمنين بين هذين الخطرين، وكان من الطبيعي له أن يقدم حقه قرباناً لحياة الإسلام وإيثاراً للصالح العام، فانقطاع ذلك النزاع وارتفاع الخلاف بينه وبين أبي بكر لم يكن إلا فرقاً على بيضة الدين وإشفاقاً على حوزة المسلمين، فصبر هو وأهل بيته كافة وسائر أوليائه من المهاجرين والأنصار وفي العين قذى وفي القلب شجى، وكلامه مدة حياته بعد رسول الله(ص) صريح بذلك والأخبار في ذلك متواترة عن أئمة العترة الطاهرة".

بل لماذا لم يقاتلهم علي(ع)؟

يقول البعض أنه لو كان الأمر كما تزعم الشيعة فإن علياً(ع) كان ينبغي أن يقاتل الذين سلبوه الخلافة لأنه(ع) كان أشجع الشجعان ولا يخشى في الله لومة لائم، وبالتالي فإن عدم قتاله القوم يدل على عدم صحة دلالات حديث الغدير أو النص بالخلافة أصلاً.

مثل هذه الشبهة – التي ما تزال تطرح – رددها شخص اسمه موسى جار اللّه في مسائل بعث بها إلى علماء الشيعة (ورد عليها السيد شرف الدين في كتاب "أجوبة مسائل جار الله") وفي كتاب سماه "الوشيعة في عقائد الشيعة" رد عليه السيد محسن الأمين في كتابه الجامع "نقض الوشيعة"، وقال في ص306 تعليقاً على قول موسى جار الله برد اعتقاد الشيعة أن علياً(ع) رفض بيعة من جاءوا قبله وأنه لو كان رافضاً لها لقاتلهم، حيث قال: "وشيعته عنده وسيفه بيده". علق السيد الأمين: "ولو كان عند علي من شيعته من يغني عنه لنفعه قبل هذا الموقف ولم يكن عنده حمزة ولا جعفر ولا عبيدة. وسيفه لم يكن في يده بل في غمده لا يؤذن له بالسَّلّ، ولو فرض أنه كان حاضراً وسكت فقد سكت فيما هو أعظم من تلك الساعة. ومن عند كلامه على التقية أنه لم يكن أعظم من موسى كليم الله حين قال: ﴿فَفَرَرتُ مِنكُم لَمّا خِفتُكُم﴾، ولا من هارون حين قال: ﴿إِنَّ القَومَ استَضعَفُونِي وكادُوا يَقتُلُونَنِي﴾، ولا من لوط إذ قال: ﴿لَو أَنَّ لِي بِكُم قُوَّة﴾، ولا من محمد(ص) وقد فرّ من قومه لمّا تعاقدوا على قتله إلى الغار فاختفى فيه ثلاثاً ثم إلى المدينة مستخفياً..."

أقول: عندما وجدت أن علياً(ع) لم يستطع، عندما صار خليفة، تصحيح بعض ما كان من اجتهادات لأبي بكر وعمر في أمور عبادية أو معاملاتية لا تضر بالخلافة والملك تيقنت أن الوقوف بوجه بيعة أبي بكر بعد أن أبرمت لم يكن ليأتي بنتيجة، وربما جاء بنتائج عكسية، ولعل هذا هو الذي سيحصل وإلا لما أمره النبي(ص) بأن يصبر ويهادن إذا لم يجتمعوا عليه.

هل الولاية من أصول الدين؟

من الأمور الخلافية بين الشيعة والسنة هو مسألة الإمامة والولاية هل هي من أصول الدين أو فروعه، فإن أهل السنة يعتبرونها من الفروع على أساس أن الأصول هي ثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، أما الشيعة فإنهم يعتبرونها من الأصول، وإن كانت أصلاً منبثقاً من أصل النبوة (كما هو الأصل الخامس عندهم وهو العدل الإلهي المنبثق من أصل التوحيد). هذه نقطة في غاية الأهمية، فإنه إن كان الإيمان بالأصول لازماً لاعتبار الإنسان

فرداً في الجماعة المؤمنة بعقيدة معينة فإن هذا يجعل من هذه المسألة مسألة حساسة وداعية للتكفير كما هو واضح. إلا أن الأمر لا يصل إلى هذا بلحاظ أمور:

الأول هي، كما قلنا أعلاه، أن الإمامة منبثقة أو ممتدة من النبوة كونها لها نفس الدور من تبيان الأحكام الشرعية والتوجيه باتجاه الهدى ومحاربة اتجاه الضلال؛

الثاني هي أن الله تعالى، علماً منه سبحانه بما سيجري من أحداث، فإنه أنزل الأحكام لنبيه(ص) ولخلفائه بالحق من أهل البيت(ع) بعدم اعتبار من لا يؤمن بولاية علي وأولاده الطاهرين(ع) خارجاً عن الملة (وهذا غير الجحود، أي غير رفض هذه الولاية بعد إقامة الدليل والاقتناع به، فهذا موقف آخر)، وكما ذكرنا من أسباب عدم ذكر علي(ع) وأولاده(ع) صراحة في كتاب الله تعالى؛

الثالث أن أهل السنة، قديماً وحديثاً، لم يروا عدم لياقة علي(ع) وأولاده(ع) لموقع القيادة العليا، أو الخلافة في الأمة، وبالتالي فإن الأمر ليس موقفاً معادياً للولاة الحقيقيين المنصوص عليهم وإنما هو موقف قَبِلَ بغيرهم ممن تصدى للخلافة.

في تعليقة للسيد شرف الدين (المراجعات المراجعة 56) حول سؤال النبي(ص) للجموع المجتمعة معه في غدير خم عن قوله: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللهم اشهد» ثم قال: «أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنتُ مولاه فهذا مولاه» يعني علياً إلى آخر الحديث. علّق السيد شرف الدين في الهامش بما يلي: "تدبّر هذه الخطبة، من تدبّرها وأعطى التأمّل فيها حقه علم أنها ترمي إلى أن ولاية علي من أصول الدين كما عليه الإمامية، حيث سألهم أولاً فقال: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؟» إلى أن قال: «وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور» ثم عقّب ذلك بذكر الولاية ليعلن أنها على حدّ تلك الأمور التي سألهم عنها فأقرّوا بها، وهذا ظاهر لكل من عرف أساليب الكلام ومغازيه من أولي الأفهام".

أقول للسيد شرف الدين: ولكن المسألة لا تتعلق بمعرفة أساليب الكلام ومغازيه من أولي الأفهام، بل تتعلق – كما وجدت لاحقاً – بالنفوس التي لا تريد البخوع لما تيقنت من صحته. وعلى أية حال، باب الإمامة ودورها في الإسلام باب بحوث واسعة استطاع علماء الشيعة أن يثبتوا من خلالها أن الإمامة مما لا مجال لتركها (مما يوافقهم عليه أهل السنة)، وأن الإمامة في أهل البيت(ع) من خلال القرآن والسنة (مما لا يوافقهم عليه أهل السنة).

(المزيد من المناقشات حول حديث الغدير، من كتاب "السقيفة" للشيخ محمد رضا المظفر، في الملحق فراجعه.)

علي(ع) زَيَّن الخلافة

وهناك آراء لعلماء الإسلام في الخلافة ما رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج1 ص135 برواية عبد الله بن أحمد بن حنبل ودخول مجموعة من أهل الكرخ على أبيه ثم حديثهم في خلافة الشيخين وعثمان وثم في خلافة علي بن أبي طالب(ع) فأطالوا في ذلك، فرفع الإمام أحمد رأسه إليهم فقال: "يا هؤلاء قد أكثرتم القول! إن الخلافة لم تزيّن علياً(ع) بل علي(ع) زيّن الخلافة!"

﴿أَنُلزِمكُمُوها وأنتُم لَها كارِهُون؟﴾

وبالتالي فإن الخلافة كانت مسؤولية حُمِّلْها علي(ع) ورفضها الآخرون، بينما راحوا يتنازعون عليها لأنفسهم (كما حدث مما سنأتي إلى ذكره فيما بعد)، فالنزاع والمناوءة كانت من جهة الآخرين لأنهم رأوا في الخلافة رفعاً لمنازلهم (كما قرأت في قول أبي بكر لأبيه أبي قحافة يوم اعترض على ابنه إذ تكلم بخشونة مع أبي سفيان فألفت أبو بكر إلى أن الإسلام رفع بيوتاً وخفض أخرى وكان بيت أبي قحافة – من خلال أبي بكر – من البيت التي رفعت)، وجاهاً عريضاً (وهو ما استمر في بيت أبي بكر وعمر حيث صار لأم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة ولعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر مكانة في المجتمع الإسلامي أكثر من غيرهم من معاصريهم)، وذكراً خالداً (وهو ما صار مسطوراً في كتب التاريخ، واليوم على جميع وسائل الإعلام والمعلومات)، وكلها أمور حصلت بالفعل لهم، في الوقت الذي ما كان بيت أبي طالب يحتاج إلى منزلة أرفع أو جاهاً أو ذكراً فإنهم كانوا ذوي المنزلة والجاه والذكر القديم، وإن كان الإسلام قد رفع شأنهم أكثر وأكثر بمحمد(ص).

وهكذا، فإن خلافة علي(ع)، التي لو قبلها المسلمون لحققوا بها ما وعد به الله ورسوله(ص)، في الدنيا كأمة قائدة منصورة، وفي الآخرة على الصعيد الشخصي «ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين». ولكنهم رفضوها، وكان من مشيئة المولى تبارك وتعالى أن يترك الأمر للناس في حرية كاملة للالتفاف حول علي(ع) وأولاده(ع) ولكنهم، أو أكثرهم، ما أرادوا ذلك، فحق عليهم قول الزهراء(ع) التي خاطبتهم بما خاطب به نوح(ع) قومه: ﴿وَآتانِي رَحمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيكُم، أَنُلزِمكُمُوها وأنتُم لَها كارِهُون؟﴾ هود:28.

الفصل التاسع

العلم

مقدمة

علي(ع) والصحابة

أولاً: أحاديث النبي(ص) في علم علي(ع)

حديث مدينة العلم . حديث تبيان العلم . أن علياً(ع) أعلم الناس

ثانياً: أحاديث النبي(ص) في قضاء علي(ع)

ثالثاً: ما قاله الصحابة في علم علي(ع)

رابعاً: ما قاله التابعون في علم علي(ع)

خامساً: ما قاله الخلفاء في علم علي(ع)

سادساً: في شهادة أئمة الفقه الأربعة في علم علي(ع)

سابعاً: ما ادعاه علي(ع) نفسه

شذرات من علم علي(ع)

أولاد علي(ع) ومعاصروهم

تميّز أحاديث أهل البيت(ع) . موقع أحاديث أهل البيت(ع)

"والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر!"

(عبد الله بن عباس)

مما يفهمه كل إنسان – مهما كانت قابلياته الذهنية محدودة أو تحصيله العلمي قليلاً – قيمة العالم مقارنة مع الجاهل، وقيمة الأعلم مقارنة مع الأقل علماً، بحيث أن الإنسان – أي إنسان – تراه يفزع إلى سؤال من يتوخى فيه العلم عندما يواجه مسألة ما أو مشكلة تحتاج إلى من يرشده بشأنها. ولا يخرج العلم الديني عن هذا، بل نجد أن المجتمعات جميعاً تضع "عالم الدين" في منزلة مميزة عن غيره من العلماء، منزلة بين احترام علمه المفترض واحترام ما يمثله ذلك العلم من علاقة بالسماء. ولعل هذا هو السبب الذي يجعل من خيبة الأمل كبيرة جداً عندما يتصرف "عالم الدين" بشكل لا يتناسب مع المتوقع، ولاسيما في الجانب الأخلاقي، في حين لا يجد الناس مشكلة كبيرة عند مثل هكذا تصرف من قبل علماء العلوم الأخرى على أساس أن الجانب الأخلاقي لا يمثل جزءاً أساسياً من علمهم أو دورهم العلمي. (هذا، مع وجود مناقشة في هذا الأمر حول تعريف الجانب الأخلاقي وحول ما إذا كان متعلقاً بحامل العلوم الدينية فحسب أم غيره أيضاً.)

الأمر الآخر الذي يميز "عالم الدين" هو أن علمه يتعلق بالآخرة، وبالتالي مع المدة الطويلة الخالدة في وجود الإنسان، بحيث تتصاغر معها أي مدة يمكن له أن يعيشها في الحياة الدنيا، مما يعني أن ما يمكن الحصول عليه من "عالم الدين" أهم بما لا يقاس مع أي شيء يمكن الحصول عليه من غيره من العلماء. (هنا أيضاً، هناك مناقشة في ماهية ما يحصل عليه المرء من هذا أو ذاك، إذ ربما يستفيد من كلمة واحدة من عالم متخصص في العلوم الطبيعية تغير مجرى حياته ومصيره الأخروي في الوقت الذي يأخذ من "عالم الدين" عشرات السنين فلا يتغير فيه شيء، وهو ما يتعلق بالأسلوب والتوفيق إضافة إلى العلم.)

وإذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك – مع علماء العصور المتأخرة فلا شك في أنه أكثر تركيزاً مع علماء العصور الإسلامية الأولى الذين كانوا أقرب إلى زمان التنزيل والتشريع وبالتالي أقرب إلى تحرّي الحقيقة في الاختلاف في النصوص المأثورة المتعلقة بتفسير القرآن وتأويله والحديث الشريف. على هذا، تجد أن المذاهب الإسلامية المختلفة تأسست في تلك العصور الأولى وصار من الصعب جداً تغيير معظم ما تم تأسيسه، حتى الذي صرنا متأكدين من خطئه نتيجة للبحث المتواصل الذي يستفيد ليس فقط من الاكتشافات العلمية الحديثة ولكن أيضاً من نتاج التفكر العلمي الهادف الصادق الذي من شأنه أن يتعرض للنفحات الإلهية التي توجهه إلى

استفادات جديدة لم يلتفت إليها الأقدمون، ولاسيما في القرآن الكريم الذي نزل لجميع العصور وبالتالي المتوقع أن ينجح أهل كل عصر في الاستفادة منه بأشكال جديدة.

ثم يصل الأمر إلى المرحلة الأهم وهي مرحلة التلقي من المعصوم الذي نزل عليه الوحي، أي النبي محمد(ص)، والتي كان ولا يزال منشأ الخلاف فيها حول الجهة أو الجهات التي ينبغي الاعتماد عليها لمعرفة ما جاء به النبي(ص) من تفسير للقرآن الكريم وتبيان لآياته وأحكامه ونظمه الأخلاقية. تلك المرحلة هي مرحلة الصحابة، وتتداخل معها بشكل ما مرحلة التابعين لأن الكثير من هؤلاء ولدوا ونشأوا بعد عصر البعثة مباشرة وبعضهم كان له دور أكبر بكثير من الكثير من الصحابة في نقل الحديث الذي نجده في بطون الكتب.

وبما أني كنت من أهل السنة فقد كان المترسخ عندي هو أن الصحابة كلهم علماء، كونهم رأوا النبي(ص) وسمعوا حديثه وعايشوه، فكان التلقي المباشر منهم، مع صدقهم وإخلاصهم الكامل، جميعهم دون استثناء، كفيلاً بإحراز الثقة التامة بما نقلوه لنا. نعم، كان هناك ما يعلم أنه غير معقول أو ضعيف الشكل مما كان يجري التندر حوله أحياناً، إلا أن الغالب هو الأول. وكحال أهل السنة، فإن الترتيب الاستخلافي بعد النبي(ص) جعل من الترتيب في كل فضيلة يجري مجرى ذلك الاستخلاف، بحيث أن أبا بكر أفضل من عمر في كل فضيلة، وعمر أفضل من عثمان في كل فضيلة، وعثمان أفضل من علي(ع) في كل فضيلة؛ هذا، مع استثناء ربما كان يجده البعض في الصدور عندما يسمع إلى المديح الذي حصل عليه عمر وعلي(ع) بالمقارنة مع الاثنين الآخرين ما يجعل لعمر وعلي(ع) لمعاناً ما لا يتناسب مع ترتيب كل منهما. أي أن لأبي بكر مكانة بنيت على هالة من الاحترام والتبجيل أكثر من الفضائل المروية فيه في حين أن مكانة عمر جاءت من فضائل مروية ولاسيما صفة العدل التي يؤمن أهل السنة أنه لم يصل أحد من الناس إلى قمتها كما وصل عمر. نفس الشيء مع علي(ع)، حيث يجد بعض أهل السنة أن فضائله، ولاسيما في ساحات الجهاد بين يدي النبي(ص)، ربما كان ينبغي أن تحله في مرتبة تالية لعمر، ولكن لأن الشورى جاءت بعثمان، والشورى يعدها أهل السنة الطريق الصحيح للاختيار – هذا نظرياً فقط –، ولأن عثمان يتمتع بفضائل وسنه الكبير الخ فإن الأمر يصبح مستساغاً.

إذاً، فإنه مما لا شك فيه، أو يجب أن لا يُشكّ فيه، أن أبا بكر هو أعلم الصحابة، وبالتالي أعلم الخلق بعد النبي(ص)، وبعده عمر بن الخطاب أعلم الصحابة بعد أبي بكر، ثم عثمان، ثم علي(ع) رابعاً في العلم. هذا، مع أننا سمعنا وعرفنا أن النبي(ص) قال في حق علي(ع) أنه باب مدينة علمه، ولكن حديث النبي(ص) شيء والمترسخ في الأذهان شيء آخر – هكذا كان.

ولا شك في أن العلم هو من أهم المؤهلات للحكم، فكيف بالحكم في إطار خلافة النبي(ص)، لذا فإن من أهم ما اطلعت عليه في مسيرة التعرف على مذهب أهل البيت(ع) هو المنزلة الفريدة لعلي(ع) في علمه الذي ورثه من

النبي(ص) مما كان تعليماً مباشراً منه(ص) ومما كان استخداماً لهذا العلم لتعليم الناس الحكم الشرعي. ومن عجيب ما وجدت أن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا علياً(ع)، ممن يعدهم أهل السنة أكثر علماً منه(ع)، صرحوا بأعلميته وبأنهم لم يكونوا ليستغنوا عن علمه وتبيانه لما كان يشكل عليهم كل حين مما صرحت به الكتب المختلفة ولاسيما على عهد عمر وعثمان بسبب طول مدة خلافتهما والتغيرات الكبيرة التي طرأت على الأمة الإسلامية في عهدهما نتيجة للفتوحات وأمور أخرى.

علي(ع) والصحابة

أولاً: أحاديث النبي(ص) في علم علي(ع)

(1) **حديث مدينة العلم**، وهو قول النبي(ص): «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها».

وهو مروي عن علي أمير المؤمنين وولده الحسن وعن ابن عباس وجابر بن عبد الله وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك وعمرو بن العاص وعن آخرين.

من مصادر الحديث مستدرك الحاكم ج3 ص126 عن ابن عباس أن النبي(ص) قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب» وهو حديث صحيح على شرط الشيخين البخاري ومسلم. وتاريخ بغداد ج2 ص377 رواية عن جابر بن عبد الله. وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص170، وأيضاً في جامعه الصغير ج1 ص364،

ورواه ابن حجر في ص37 من الصواعق، وابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص461، والذهبي في تلخيص المستدرك ج3 ص126، وابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص220، وكثير كثير غيرهم.

بعد أن ذكر الشيخ الأنطاكي الحديث (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) خلص إلى أن الحديث يجعل خلافة أمير المؤمنين(ع) بعد النبي(ص) مباشرة متعينة لأنه(ص) لم يوكل هذا الأمر، وهو نقل العلم عنه، إلى غير علي إلى أي أحد من الصحابة لعدم أهلية أيّ منهم لمثل هذا العبء الثقيل.. إلى آخر كلامه.

وهناك حديث مشابه لحديث مدينة العلم، وهو قول النبي(ص): «أنا دار الحكمة وعلي بابها» صحيح الترمذي ج2 ص299. وروى مثله في كنز العمال ج6 ص401 والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج11 ص204 بلفظ «أنا مدينة الحكمة وعلي بابها، فمن أراد الحكمة فليأت الباب».

(2) **حديث تبيان العلم**

وهناك حديث بصيغة أخرى أخرجه صاحب الكنز ج6 ص156 قول النبي(ص): ‹‹علي باب علمي، ومبيّن لأمتي ما أرسلت به من بعدي... ›› الحديث. وقد ذكره ابن حجر ص73 من الصواعق.

ومشابه له ما أخرجه الحاكم في ج3 ص122 من المستدرك قول النبي(ص) لعلي(ع): ‹‹أنت تبيّن لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي›› وقد رواه صاحب الكنز ج6 ص156 وأبو نعيم في حلية الأولياء ج1 ص63.

أقول: وهنا تفصيل في الفارق بين ما يبين ما أُرسل به النبي(ص) وما اختُلف فيه، فالأول يبين ما أُرسل به كتعليم الناس بوظيفته الشرعية كإمام في تعليمهم الأحكام الشرعية والأخلاقيات الدينية وغير ذلك، وأما الثانية فيفصل فيما يرد من اختلاف الناس في تلك الأحكام وغيرها مما يستجد من الأمور ولاسيما وأن الناس يبلغهم الاختلاف في النقل عن رسول الله(ص) من قبل أصحابه الذين لم يكونوا على درجة واحدة من القرب من النبي(ص) ولا من القابليات الذهنية في التلقي ولا في الأحوال النفسية مما له الأثر في إبلاغ ما سمعوه من السنّة.

(3) **أن علياً(ع) أعلم الناس**

وهو قول النبي(ص) في حديثه مع الزهراء(ع): ‹‹لقد زوّجتكه وإنه لأول أصحابي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً›› كنز العمال ج6 ص153 وأسد الغابة ج5 ص520 وغير ذلك بألفاظ متشابهة.

ثانياً: أحاديث النبي(ص) في قضاء علي(ع)

كقول النبي(ص): ‹‹وأقضاهم علي بن أبي طالب›› سنن ابن ماجة باب فضائل أصحاب رسول الله(ص) ص14.

وعن الحسن عن النبي(ص): ‹‹وأقضاها – أي الأمة – علي››، وحديث آخر ‹‹علي أقضى أمتي›› وآخر ‹‹أقضاها علي بن أبي طالب›› الاستيعاب لابن عبد البر ج1 ص8.

وكقوله(ص) لعلي(ع) الذي رواه أبو نعيم صاحب حلية الأولياء ج1 ص65: ‹‹تخصم الناس بسبع ولا يحاجك فيها أحد من قريش: أنت أولهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسويّة، وأعدلهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزيّة››، وشبيه له في ص66 أيضاً.

أقول: هذه السبعة التي عدها النبي(ص) يمكن تقسيمها على ما قلته من الجوانب الثلاثة في السيرة: العلم والإخلاص والظروف المحيطة. فإن الوفاء بعهد الله(ص) متعلق بالإخلاص، أما البصر بالقضية فمتعلق بالعلم،

وأما القيام بأمر الله والقسمة بالسوية والعدل في الرعية فمتعلقة بالعلم والإخلاص جميعهما؛ والسبق إلى الإيمان والمنزلة العظمى عند الله فحدّا هذه الأمور مبدءاً ومنتهى.

ثالثاً: ما قاله الصحابة في علم علي(ع)

روى ابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص462 عن ابن عباس القول: "والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر!"

وأخرج صاحب الرياض النضرة ج2 ص220 حديثاً عن ابن مسعود قال: "علماء الأرض ثلاثة: عالم بالشام وعالم بالحجاز وعالم بالعراق – فأما عالم الشام فهو أبو الدرداء، وأما عالم أهل الحجاز فهو علي بن أبي طالب(ع)، وأما عالم العراق فأخ لكم – يعني به نفسه –، وعالم أهل الشام وعالم العراق يحتاجان إلى عالم أهل الحجاز وعالم أهل الحجاز لا يحتاج إليهما". وهذا مشابه للقول المنسوب للفراهيدي الذي عندما سئل عن السبب وراء تفضيله علياً(ع) على سائر الصحابة، قال: "إستغناؤه عن الكل واحتياج الكل إليه دليل أنه إمام الكل".

وعدّ ابن عباس علم علي(ع) من مزاياه التي تميّز بها حيث قال: "ولقد فاز علي(ع) بصهر رسول الله(ص) وبسطة في العشيرة وبذلاً للمعونة وعلماً بالتنزيل وفقهاً للتأويل ونيلاً للأقران"، كنز العمال ج6 ص393. ومشابه له أخرجه ابن حجر في تهذيب التهذيب ج7 ص338. أي القرب الصهري، بعد القرب النسبي من النبي(ص)، والجماعة المساندة من عشيرته، والجود بالنفس والمال والجهد، والعلم، والشجاعة.

وأكّد هذا أيضاً سعد بن أبي وقاص عندما كان في المدينة فرأى قوماً مجتمعين على فارس وهو يشتم علي بن أبي طالب فأقبل سعد فوقف وقال له: "يا هذا علامَ تشتم علي بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلّى مع رسول الله(ص)؟ ألم يكن أعلم الناس؟..." إلى آخر الحديث. مستدرك الحاكم ج3 ص499.

وأخرج البيهقي في سننه ج5 ص59 أن عمر بن الخطاب رأى عبد الله بن جعفر في ثوبين وهو محرم فقال: "ما هذه الثياب؟" فقال علي(ع): «ما أخال أحداً يعلّمني السنة» فسكت عمر، وما كان ليسكت لو قالها غير علي(ع) علماً منه أن علياً(ع) صادق فيما قال، وربما أيضاً علماً منه أن أحداً لن يصدقه لو أنه خالف علياً(ع) في ذلك.

وأيضاً أكّد ذلك الإمام الحسن(ع) في خطبته بعد وفاة أبيه(ع) قال: «لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون» مسند أحمد ج1 ص199، وفي غيره أيضاً.

ومن ذلك قول أم المؤمنين عائشة: "أما إنه – أي علي(ع) – أعلم الناس بالسنة"، المحب الطبري في ذخائر العقبى ص78، والقندوزي في ينابيع المودة ج2 ص170 حديث 484..

ومنها قول إبن عباس وإبن مسعود أن القرآن "نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن عند علي علم القرآن ظاهره وباطنه"، كما في ينابيع المودة في الباب 65 والباب 56.

وقول إبن مسعود: "قسّمت الحكمة عشرة أجزاء فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزء واحد، وعلي أعلم بالواحد منها"، كنز العمال ج11 ص615 حديث 32982.

وأما بخصوص القضاء، فقد عرف الصحابة أن النبي(ص) قال أن أقضى أمته هو علي(ع)، فاعترفوا بها. من ذلك ما كان يقوله عمر بن الخطاب: "وأقضانا علي"، صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ما نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِها﴾ (البقرة:106)، والذي ذكره أيضاً الحاكم في المستدرك ج3 ص305 وأحمد في المسند ج5 ص113 وآخرون. ومن ذلك قول عمر أيضاً: "أقضانا علي بن أبي طالب"، في ذخائر العقبى ج2 ص98 ومشابه له في الصواعق المحرقة لإبن حجر ص78.

وروى الحاكم عن ابن مسعود: "كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب(ع)"، مستدرك الصحيحين ج3 ص135 ومصادر عديدة أخرى.

وحديث ابن مسعود في الإستيعاب (ج3 ص1104): "أعلم أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب". (أقول: وفي أنساب الأشراف للبلاذري ص104، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج42 ص405، وغيرهما.)

وشهادة أخرى من أحد أعدائه وهو عمرو بن العاص في رسالته الجوابية لمعاوية عندما كتب له يدعوه لينضم إليه لحرب علي(ع) فكان من ضمن جواب عمرو بن العاص تعداد فضائل علي ومنها أنه أخو رسول الله(ص) ووصيه ووارثه وقاضي دينه ومنجز وعده... وذكر حديث الغدير وحديث الطائر المشوي، (والذي فيه أن علياً أفضل الناس وأن فيه أن النبي(ص) يدعو الله أن يرسل إليه أحب الخلق إليه ليأكل معه)، وغير ذلك مما ذكره ابن العاص (الخوارزمي في المناقب ص40 و ص199، وذلك بروايتين مختلفتين).

رابعاً: ما قاله التابعون في علم علي(ع)

ومن الشهادات المهمة الصادقة في علي(ع) هي شهادة معاوية الثاني إبن يزيد ابن معاوية عدو أمير المؤمنين(ع) حيث روى القندوزي الحنفي في ينابيع المودة باب 60 وغيره أنه تولّى الأمر بعد هلاك والده يزيد فقال: "إن هذه الخلافة حبل الله تعالى، وإن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن أحق به منه علي بن أبي طالب.."

وقال، على ما في حياة الحيوان للدميَري: "ألا إن جدي معاوية قد نازع في هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، لقرابته من رسول الله(ص) وعظم فضله وسابقته، أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم

إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة، إبن عم رسول الله(ص) وصهره وأخوه زوّجه ابنته فاطمة وجعله لها بعلاً، إختاره لها وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدي شباب أهل الجنة وأفضلَي هذه الأمة..." رواه الخوارزمي أيضاً.

وفي شهادة أخرى بشكل مختلف لطيف هو ما جرى على عهد عمر بن عبدالعزيز أن رجلاً حلف على امرأته بالطلاق في أن علياً خير هذه الأمة وأفضلها بعد نبيها(ص)، فقال أبوها بأنها طُلّقت – أي لا يؤمن بتفضيل علي على الآخرين – فجمع عمر بن عبدالعزيز الهاشميين والأمويين وعرض عليهم الحكم فقام هاشمي عقيلي وقال بأنه لم تطلق معتمداً على فضائل علي(ع) فقال عمر: "صدقتَ وبررتَ يا عقيلي"، ثم قال: "والله يا بني عبد مناف ما نجهل ما يعلم غيرنا وما بنا إلا عمىً في ديننا"، رواها ابن أبي الحديد في شرح النهج (بلفظ مختلف قليلاً) (ج20 ص225).

خامساً: ما قاله الخلفاء في علم علي(ع)

العباسيون أعلم الناس بعلي(ع) وتقدمه علماً وعملاً على غيره، وقد كانت دعوتهم السرّية أيام الأمويين إلى "الرضا من آل محمد" دون تحديد في حين كانوا يعملون لأنفسهم، بحيث لم يعلم بذلك حتى أهم قادتهم في الدعوة كأبي سلمة الخلال الكوفي. فمن ذلك ما صرّح به أبو جعفر المنصور لوزيره حيث عرف فيه ولاءه لجعفر الصادق(ع): "إنك تقول بإمامته، والله إنه إمامك وإمامي وإمام الخلق أجمعين، والملك عقيم!"، نقله القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج3 ص161.

ومنها شهادة من حفيده هارون الرشيد بحق الكاظم(ع) أنه قال لابنيه الأمين والمأمون عن الإمام الكاظم(ع): "هذا إمام الناس وحجة الله على خلقه وخليفته على عباده... وإنه والله لأحق بمقام رسول الله(ص) مني ومن الخلق جميعاً"، ولكنه أوضح لهم الأمر بالقول: "فوالله لو نازعني في هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناه – أي رأسه – فإن الملك عقيم!" القندوزي الحنفي في الينابيع ج3 ص164.

وأما المأمون فمعروف رأيه في تفضيل علي(ع) على الآخرين.

سادساً: في شهادة أئمة الفقه الأربعة في علم علي(ع)

إنه لمن الجميل أن يعلن العالم الفقيه رأيه بفضل أحد من الناس، ولكن مما وجدته عجيباً أن يكون رأي أئمة المذاهب السنية الأربعة في علي(ع) وفي أولاده ولاسيما الإمام الذي عاصرهم وطبقت شهرته الدنيا في وقته، أعني جعفر بن محمد الصادق(ع)، على هذه الشاكلة ثم يعرض أتباعهم، من علماء وغيرهم، عن هؤلاء الأئمة الذين شهد لهم مؤسسو مذاهبهم من أئمتهم الأولين.

أولاً: قال أبو حنيفة النعمان بن ثابت عن الإمام الصادق(ع): "أليس أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس"، مشيراً إلى تفصيل الإمام الصادق لقول أصحاب أبي حنيفة وأهل المدينة وثم ما يقوله أهل البيت(ع) في محضر أبي جعفر المنصور. رواه ابن عدي في الكامل ج2 ص132، والذهبي في سير أعلام النبلاء ج6 ص258.

ثانياً: شهادة مالك بن أنس أنه قال: "ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً" مناقب آل أبي طالب ج3 ص372.

ثالثاً: شهادة محمد بن إدريس الشافعي في علي(ع)، قال: "ماذا أقول برجل أنكر أعداؤه فضله حسداً وطمعاً وكتم أحباؤه فضله خوفاً وفرقاً وفاض ما بين هذين ما طبّق الخافقين". واشتهرت له أبيات عديدة في مدح أهل البيت منها:

إنْ كانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلانِ أَنّي رافِضِيّ!

ومنها: إلامَ إلامَ وَحَتّى مَتى أُعاتَبُ في حُبِّ هذا الفَتى

وَهَلْ زُوِّجَتْ فاطِمُ غَيْرَهُ وفي غَيْرِهِ هَلْ أتى هَلْ أتى؟!

أي سورة الدهر أو الإنسان ﴿هَلْ أتى على الإنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ وفيها قصة إيثار علي وفاطمة والحسنين(ع) وخادمتهم فضّة (رض) لطعام الإفطار – على بساطته – ثلاث ليال متتالية حتى صارت فاطمة(ع) وقد التصق بطنها بظهرها من خواء المعدة وحتى صار الحسنان(ع) يرتجفان كالفراخ من الجوع. فنزل جبريل(ع) إلى النبي(ص) يبشره بهذه البيت الكريم وينزل إليه تلك السورة المباركة وهو يقول: «خذها يا محمد! هنّاك الله في أهل بيتك».

ومنها البيتان المشهوران في مسألة الصلاة على أهل البيت في التصلية:

كَفاكُمُ مِنْ عَظِيمِ القَدْرِ أَنَّكُمُ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيكُمْ لا صَلاةَ لَهُ

رابعاً: وأما الإمام أحمد بن حنبل فروي عن ابنه عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال: "كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم فجاءت طائفة من الكرخيين فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر ابن الخطّاب، وخلافة عثمان بن عفان فاكثروا، وذكروا خلافة علي بن أبي طالب وزادوا فأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم

فقال: يا هؤلاء قد اكثرتم في عليّ والخلافة، والخلافة وعليّ، إنّ الخلافة لم تزيّن علياً بل علي زيّنها" تاريخ دمشق ج3 ص114.

وهذا تفضيل واضح لعلي(ع) على غيره، ولاسيما من باب الأهلية للخلافة وهي موضع كلامي ههنا عن دور العلم في السيرة.

وروى عنه ولده عبد الله أيضاً، على ما في كتاب طبقات الحنابلة ج2 ص120، قوله له: "علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد". وهذا فيه تفضيل لعلي(ع) وأهل بيته(ع) على الناس جميعاً.

سابعاً: ما ادعاه علي(ع) نفسه

إشتهر قول علي(ع): ‹‹علّمني رسول الله(ص) ألف باب من العلم، واستنبطتُ من كل باب ألف باب›› على ما أخرجه الفخر الرازي في تفسيره الكبير في تفسير قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ اصطَفى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبراهِيمَ وآلَ عِمرانَ على العالَمِين﴾ (آل عمران:33). أي: منحه الله تعالى، بتعليم النبي(ص)، علوماً لا حصر لها، ومنحه القدرة على الاستنباط؛ أو أن من هذه العلوم التي تعلمها من النبي(ص) القدرة على الاستنباط. ولما كانت هذه الأبواب لا حصر لها – ألف باب كل باب يفتح ألف باب، وهو ليس رقماً محصوراً وإنما هو كناية عن الكثرة الكاثرة التي لا حد لها – فإنه(ع) يقول لنا أن عنده ما يحتاج إليه الناس في كل حين، وبالتالي لا بد من انتقال هذه العلوم عبر العصور حتى تتم الاستفادة منها، فلا بد إذاً من انتقالها إلى الأيدي الأمينة لأولاده وأحفاده(ع) من الذين هيئوا لهذه المهمة الخطيرة العظيمة. دون هذا التفسير لا يصبح هناك فائدة من هذا التعليم الكبير لما لا حصر له من العلم الذي يزيد عن حاجة زمانه(ع).

وقال سعيد بن المسيّب: "ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب". ورواه ابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص22 وابن حجر في ص76 من الصواعق وغيرهم. إن سعيداً أراد أن يلفت إلى أنه لم يكن أحد من أصحاب النبي(ص) يمتلك الثقة الكاملة بحيث يعرض نفسه لأسئلة الناس كائناً ما كانت، إلا علياً(ع)، وفي هذا بيان واضح في فضله العلمي، بل في تفرده في هذا الجانب.

وقد ذكرت أحاديث تعليم النبي(ص) لعلي وقول علي(ع): ‹‹سلوني›› في كنز العمال ج6 وفي غير ذلك من المصادر.

وأخرج ابن سعد في الطبقات ج2 القسم2 ص101 عن أبي الطفيل قال: قال علي(ع): ‹‹سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل›› رواه ابن حجر العسقلاني في الإصابة ج4 قسم 1 ص270 وابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص463.

وقال(ع): ‹‹لا تسألوني عن كتاب ناطق ولا سنّة ماضية إلا حدثتكم›› تفسير ابن جرير ج26 ص116.

وأخرج ابن سعد في الطبقات ج6 ص167 قول علي(ع): ‹‹يا أخا بني عامر سلني عمّا قال الله ورسوله، فإنا نحن أهل البيت أعلم بما قال الله ورسوله››. وهذا تعميم منه(ع) لدور أهل بيته(ع) الممتد من دوره(ع) هو. كما أن فيها إلفاتاً إلى أن أهل البيت(ع) لا يتحدثون من عند أنفسهم كما يفعل الآخرون، وإنما هو نقل عن الله والرسول(ص)، أي من المصدر الأصلي المعصوم لا غيره.

وبالإضافة إلى الأحكام الشرعية وما يخص أصول الدين ولاسيما في مسألة التوحيد والأسماء والصفات وغير ذلك مما ورد في خطبه العديدة في نهج البلاغة وغيره، وفي الأخلاقيات الإسلامية أيضاً، كان علمه(ع) يتضمن الإخبار بما يأتي سواءً بعد عهد ليس طويل بعده(ع) أو في المستقبل البعيد. من ذلك ما روي في مستدرك الحاكم ج2 ص53 أن علياً(ع) قال لحجر بن قيس المدري: ‹‹يا حجر إنك تقام بعدي فتؤمر بلعني، فالعنّي ولا تبرأ مني›› قال الراوي: "وقد أقامه أحمد بن إبراهيم أمير بني أمية في الجامع ووُكّل به ليلعن علياً(ع) أو يُقتل، فقال حجر: أما إن الأمير أحمد بن إبراهيم أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله، فقال الراوي طاووس: لقد أعمى الله قلوبهم حتى لم يقف أحد منهم على ما قال". بمعنى أنهم لم يفهموا ما أراده حجر من أنه يطلب لعن الأمير أحمد ابن إبراهيم.

وذكر ابن سعد في الطبقات ج5 ص30 ترجمة مروان أن علياً(ع) نظر إليه يوماً وقال: ‹‹ليحملنّ راية ضلالة بعدما يشيب صدغاه، وله إمرة كلحسة الكلب أنفه››، وفي نهج البلاغة (الخطبة 70) قوله(ع): ‹‹أما إنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه››. ونحن نعلم أن مروان بن الحكم استخلف بعد موت يزيد بن معاوية، وكان قد صار شيخاً، ونعلم أن خلافته لم تكن سوى سنة واحدة.

وبخصوص الخوارج أخرج الهيثمي في المجمع ج6 ص341 عن جندب حديثاً طويلاً فيه يُقال أن الخوارج قطعوا النهر فيقول علي(ع): ‹‹ما قطعوه... ولا يقطعوه، وليُقتلنّ دونه، عهد من الله ورسوله››؛ ثم يذكر قول علي(ع): ‹‹يا جندب أما إنه لا يُقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة›› فحصل مثل ما قال(ع).

وبخصوص ولده الحسين(ع) أخرج صاحب الرياض النضرة ج2 ص222 رواية الأصبغ ابن نباتة أنه وصل مع أمير المؤمنين(ع) والجيش بموضع قبر الحسين(ع) فقال علي: ‹‹ههنا مناخ ركابهم وههنا موضع رحالهم وههنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد(ص) يُقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض›› وذكره ابن حجر في الصواعق ص115.

وهذا كله لم يتسن لأحد من الصحابة، فكان علي(ع) يتحدث بطريقة يتفرد بها عن غيره، فكأنما يقول للناس: كما كان النبي(ص) يخبر عن السماء وهو دليل على نبوته فإني أحدثكم عن النبي(ص) مما لم يحدثه(ص) به غيري فهو

دليل على إمامتي وتقدمي على غيري. وإلا، ما فائدة معرفة علي(ع) بهذه الأمور المغيبة ونحن نعرف أنه لا علي(ع) ولا غيره يستطيع تغيير شيء بسيط مما شاء الباري تعالى حدوثه؟

شذرات من علم علي(ع)

بدأ الناس يسمعون عن علم علي(ع) بدءاً من حياة النبي(ص)، فقد روى الشيخ المفيد (كتاب الإرشاد) أنه "لما استقرت به الدار باليمن، ونظر فيما ندبه اليه رسول اللّه(ص) من القضاء والحكم بين المسلمين رفع إليه رجلان بينهما جارية يملكان رقّها على السواء، قد جهلا حظر وطئها، فوطئاها معاً في طهر واحد جهلاً بالتحريم، فحملت (الجارية) ووضعت غلاماً، فاختصما إليه (فيه)، فقرع على الغلام بإسميهما فخرجت القرعة لأحدهما، فألحق به الغلام، وألزمه نصف قيمته لأنه كان عبداً لشريكه، وقال: ‹‹لو علمت أنكما أقدمتما على ما فعلتماه بعد الحجة عليكما بحظره لبالغت في عقوبتكما››؛ وبلغ ذلك رسول اللّه(ص) فأمضاه وأقر الحكم به في الاسلام، وقال: ‹‹الحمد للّه الذي جعل فينا أهل البيت من يقضي على سنن داود(ع) وسبيله في القضاء، يعني به القضاء بالالهام››".

ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل (المسند ج5 ص58) "أن رجلاً أوطأ بعيره أدحي نعام فكسر بيضها، فانطلق إلى علي(ع)، فسأله عن ذلك، فقال له: ‹‹عليك بكل بيضة جنين ناقة أو ضراب ناقة››، فانطلق الى رسول اللّه(ص) فذكر ذلك له، فقال رسول اللّه(ص): ‹‹قد قال علي بما سمعت، ولكن هلم الى الرخصة: عليك بكل بيضة صوم يوم او طعام مسكين››" (رواه أيضاً الدارقطني في سننه ج2 ص248 وأبو شيبة في المصنف ج4 ص14 وغيرهما).

ثم بدأوا يتعرفون على ذلك العلم الجم الذي انطوى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) مباشرة بعد وفاة النبي(ص)، فلم يظهر علمه بعدما بويع بالخلافة بعد ربع قرن من ذلك، وهذا دليل – يضاف إلى الدليل من الحديث الشريف – على أن علياً(ع) كان أعلم الصحابة وبشكل جعلهم يحتاجون إليه بعد النبي(ص)، سواء في موقعه كخليفة أو قبل ذلك عندما منع من الاستخلاف وبسط اليد.

الصلاة على النبي(ص)

أول ما ظهر من علي(ع) هو التصرف حيال كيفية إقامة صلاة الميت على النبي(ص). فقد أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء ج4 ص73 أن علياً(ع) كان قد سأل النبي(ص) عمّن ينبغي أن يتولى غسله والصلاة عليه وإدخاله القبر فقال له: ‹‹يا علي أما الغسل فاغسلني أنت وابن عباس يصب عليّ الماء وجبريل ثالثكما، فإذا أنتم فرغتم من غسلي فكفّنوني في ثلاثة أثواب جدد، وجبريل(ع) يأتيني بحنوط من الجنة، فإذا أنتم وضعتموني على السرير

فضعوني في المسجد واخرجوا عني، فإن أول من يصلّي عليّ الرب عز وجل من فوق عرشه ثم جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم الملائكة زمراً زمراً، ثم ادخلوا فقوموا صفوفاً لا يتقدّم عليّ أحد››. فعندما كان ذلك فعلوا حتى وضعوه وأدخلوه المسجد وخرج الناس فقال علي(ع): ‹‹ولقد سمعنا في المسجد همهمة ولم نر لهم شخصاً، فسمعنا هاتفاً يهتف وهو يقول: أدخلوا رحمكم الله فصلّوا على نبيّكم، فدخلنا فقمنا صفوفاً كما أمرنا رسول الله(ص) فكبّرنا بتكبير جبريل وصلّينا على رسول الله(ص) بصلاة جبريل ما تقدّم منا أحد على رسول الله(ص)...›› ودخل القبر علي بن أبي طالب(ع).

وأخرج ابن سعد في الطبقات ج2 قسم 2 ص50 رواية إسناد علي(ع) النبي(ص) على صدره وقوله: ‹‹الصلاة الصلاة›› وأن الذي غسّله كان علياً، ومعه عمه العباس وولداه الفضل وقثم يقلبونه، وكان أسامة وشقران يأتيان بالماء.

وأخرج مثل هذه الأحاديث آخرون في مصادر أخرى.

وأخرج ابن سعد في ج2 قسم 2 ص70 من الطبقات أنه لما وُضع النبي(ص) على السرير قال علي(ع): ‹‹لا يقوم عليه أحد لعلّه يؤمّ، هو إمامكم حيّاً وميتاً›› وكان الناس (يأتون) رسلاً رسلاً فيصلون عليه صفاً صفاً ليس لهم إمام ويكبّرون وعلي(ع) قائم بحيال رسول الله(ص) يقول: ‹‹السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أن قد بلّغ ما أُنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى عزّ الله دينه، وتمّت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتبّع ما أنزل الله إليه، وثبّتنا بعده، واجمع بيننا وبينه››، فيقول الناس: "آمين آمين"، حتى صلّى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان.

على عهد الخلفاء الثلاثة

وعلى عهد الخلفاء كان علي(ع) حلاّل المعضلات ومن عنده الرأي السديد الذي أخذ به الخلفاء عندما كانوا لا يجدون ملجأ غيره أو عندما كانوا يرون الرأي الصحيح من علي(ع) لا من غيره.

من ذلك ما رواه صاحب الرياض النضرة (ج2 ص195) أن "اليهود جاءوا إلى أبي بكر فقالوا: صف لنا صاحبك، فقال: معشر اليهود لقد كنت معه في الغار كإصبعي هاتين، ولقد صعدت معه جبل حراء وإن خنصري لفي خنصره، ولكن الحديث عنه (عليه السلام) شديد، وهذا علي بن أبي طالب؛ فأتوا علياً (عليه السلام) فقالوا: يا أبا الحسن صف لنا ابن عمك، فقال: ‹‹لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالطويل الذاهب طولاً، ولا بالقصير المتردد، كان فوق الربعة، أبيض اللون مشرباً حمرة، جعد الشعر...››" واستمر في وصف بدنه حتى جاء إلى طريقته "‹‹وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر، وإذا التفت التفت بمجامع بدنه...››" حتى جاء إلى سيرته مع الناس "‹‹وكان أرحم الناس بالناس لليتيم كالأب الرحيم...››" ووصل إلى زهده

"«لباسه العباء ، وطعامه خبز الشعير...»" ثم بعض ما عنده "«كان له عمامتان إحداهما تدعى السحاب، والأخرى

العقاب، وكان سيفه ذا الفقار، ورايته الغراء...»" وأنهى بقيامه بحاجيات نفسه "«وكان يعقل البعير، ويعلف الناضح ويرقع الثوب، ويخصف النعل»".

وهذه الرواية فيها تمكن علي(ع) من هذا الوصف الجميل الوافي لقضية يتوقع أن يعرفها أبو بكر فهي ليست من الغيبيات، ولو ألحوا على أبي بكر لاستطاع أن يأتي بوصف ما للنبي(ص)، ولكن هو يعلم أن ذلك لن يكون بمثل ما يأتي به علي(ع).

ومن ذلك ما رواه المفيد (الإرشاد ج1 ص199) "أن رجلاً رفع الى أبي بكر وقد شرب الخمر فأراد أن يقيم عليه الحد، فقال: إني شربتها ولا علم لي بتحريمها، لأني نشأت بين قوم يستحلونها، ولم أعلم بتحريمها حتى الآن، فارتج على أبي بكر الامر بالحكم عليه، فأشير عليه بسؤال أمير المؤمنين(ع) عن ذلك، فأرسل إليه من سأله.، فقال(ع): «مُر رجلين ثقتين من المسلمين يطوفان به على مجالس المهاجرين والأنصار يناشدانهم (اللّه) هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم – أي قوله تعالى ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وماب طن والإثم والبغي بغير الحق﴾ الأعراف:33 – أو أخبره بذلك عن رسول اللّه(ص)؟ فإن شهد بذلك رجلان منهم فأقم عليه الحد، وإن لم يشهد أحد بذلك فاستتبه وخل سبيله»، ففعل ذلك أبو بكر، فلم يشهد (عليه) أحد فاستتابه وخلى سبيله».

وفي رواية أخرى تتعلق بنفس القضية أن سلمان الفارسي قال لعلي(ع): "أرشدتهم! فقال: «إنما أردت أن أجدد تأكيد هذه الآية فيّ وفيهم: ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدّي فما لكم كيف تحكمون﴾ (يونس:35)".

أقول: هذه الرواية الثانية، وإن كانت تنبه إلى الفارق بين الرجلين – من اختاره بعض المسلمين من قريش بالخصوص وهو محتاج إلى غيره ﴿من لا يهدي إلا أن يهدّي﴾ ومن لا يحتاج إلى أحد وهو علي(ع) ﴿من يهدي إلى الحق﴾ مطلقاً –، إلا أن اعتراض سلمان أو تعجبه من موقف علي(ع) في غير محله ولا أظنه يحصل لأنه يعلم أن من ضمن تكليف علي(ع) كإمام هدى أن يرشد إلى الحق والحكم الشرعي بغض النظر عن موقعه في الدولة، أيضاً لأنه رأى من علي(ع) هذا المنهج في التعامل مع القوم، فكيف يجده غريباً؟ (هذا، غير الصياغة "أردت أن أجدد تأكيد" ما لا يبدو من كلام أمير المؤمنين(ع) هذه رواية لا أظنها تصح.

ومن ذلك رجوع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إليه في حوادث عديدة، منها بخصوص حدّ شارب الخمر، حيث أخرج الإمام مالك في موطّأه في كتاب الأشربة ص186 أن عمر بن الخطاب استشار في الخمر فقال علي(ع): ‹‹نرى أن يُجلد ثمانين، فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى›› فجلد عمر في الخمر ثمانين.

أقول: والإستفادة هنا من حد المفتري ثمانين جلدة الذي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (النور:4)، فإن رمي المحصنات بالزنى دون إثبات عده القرآن افتراءً.

وقد روى مثله الحاكم في المستدرك ج4 ص375 والإمام الشافعي في مسنده كتاب الأشربة ص166 وغيرهما.

وفي رواية بخصوص الحجر الأسود أخرج الحاكم في المستدرك ج1 ص457 عن أبي سعيد الخدري أنهم حجّوا مع عمر فلما دخل الطواف واستقبل الحجر قال: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله(ص) قبّلك ما قبّلتك"، ثم قبّله، فقال له علي(ع): ‹‹بلى يا عمر إنه يضر وينفع!›› قال: "بمَ؟" قال: ‹‹بكتاب الله تبارك وتعالى... ›› إلى أن ذكر الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ (الأعراف:172) قال: ‹‹خلق الله آدم ومسح على ظهره فقررهم بأنه الرب وأنهم العبيد وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك في رقّ...›› إلى أن قال: ‹‹وإني أشهد لسمعت رسول الله(ص) يقول: يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود له لسان ذلق يشهد لمن استلمه بالتوحيد، فهو يا عمر يضر وينفع››، فقال عمر: "أعوذ بالله أن أعيش في قوم لستَ فيهم يا أبا الحسن".

أقول: موقف عمر الأول عرضة للاستخدام من قبل الذين ينهجون نهج الوهابية في الحكم بالشرك على من يفعل أموراً يعتقدون هم بأنه يشرك بالله في فعلها فيأتون بحديث عمر بخصوص الحجر الأسود بأنه لا يضر ولا ينفع، ولكنهم لا يأتون بهذا الحديث الذي يوضح فيه أمير المؤمنين(ع) خطأ عمر والذي يعترف فيه عمر بذلك. أي لا يقتنعون بكلام علي(ع) ولا تصديق عمر ثم يدّعون اتّباع السلف الصالح!

وذكرت قضية أن عهد وشهادة الذرية أدخلها الله تعالى عليهم وحفظها في الحجر الأسود وشهادة الحجر الأسود يوم القيامة في مصادر أخرى.

ومنها ما رواه البيهقي (سنن البيهقي ج7 ص343) أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب "فقال: أنه قال لامرأته: حبلك على غاربك، فقال له عمر: واف معنا الموسم، فأتاه الرجل في المسجد الحرام فقص عليه القصة، فقال: ترى ذلك الأصلع يطوف بالبيت، إذهب إليه فسله ثم ارجع فأخبرني بما رجع إليك، قال: فذهب إليه فإذا هو علي (عليه السلام) فقال: ‹‹من بعثك إلي؟›› فقال: أمير المؤمنين، قال إنه قال لامرأته: حبلك على غاربك، فقال: ‹‹إستقبل البيت واحلف باللّه ما أردت طلاقاً››، فقال الرجل: وأنا أحلف باللّه ما أردت إلا الطلاق، قال: ‹‹بانت منك امرأتك››".

ومن ذلك ما رواه مالك في الموطأ كتاب الحدود ص176 والبيهقي في سننه ج7 ص442 أن عثمان بن عفان أوتي بامرأة قد ولدت بولد في ستة أشهر فأمر بها أن تُرجم، فقال له علي بن أبي طالب(ع): ‹‹ليس ذلك عليها، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً﴾ وقال: ﴿والوالِداتُ يُرضِعنَ أولادَهُنَّ حَولَينِ كامِلَينِ لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ فالحمل يكون ستة أشهر فلا رجم عليها›› فبعث عثمان في أثرها فوجدها قد رُجمت.

والآخرون يرجعون إلى علمه أيضاً

من ذلك إرجاع عائشة أم المؤمنين السائلين إليه(ع)، كما في رواية مسلم في صحيحه كتاب الطهارة باب التوقيت في المسح على الخفين روى بسندين أن عائشة سئلت عن المسح على الخفّين قالت: "عليك بابن أبي طالب فاسأله".

ومن ذلك أن ابن عمر سئل عن رمي الجمار وشكّ في كم رمى فقيل له: "إئت ذلك الرجل، أي علي(ع)" فذهب فسأله (سنن البيهقي ج5 ص149).

بل أن أشد أعدائه رجعوا إليه في القضاء والفقه، كما في رجوع معاوية بن أبي سفيان في مسائل عديدة. منها ما رواه صاحب الكنز ج3 ص181 عن رجلين اختصما في ثوب فأقام أحدهما البيّنة عليه وزعم الثاني أنه اشتراه من رجل لا يعرفه فقال معاوية: "لو كان لها ابن أبي طالب"، فقال حجّار ابن أبجر – الراوي –: قد شهدته في مثلها، قال: كيف صنع؟، قال: قضى بالثوب للذي أقام البيّنة وقال للآخر أنت ضيّعت مالك".

بل إنه قال عندما بلغه مقتل علي(ع): "ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب! فقال له أخوه ابن عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعني عنك!" (الاستيعاب لابن عبد البر ج2 ص463).

من عجائب أحكامه(ع)

وهذا عنوان كتيب للسيد محسن الأمين العاملي رحمه اللّه تعالى "عجائب أحكام أمير المؤمنين" روى فيه أحكاماً لعلي(ع) منها ما يعد من الأعاجيب، ليس في العلم فحسب وإنما في سرعة الجواب وكأن المسألة والجواب مسجلان في ذاكرته.

من هذه القضايا ما رواه الخوارزمي (المناقب ج2 ص360) وغيره "أن عقبة بن أبي عقبة مات فحضر جنازته علي(ع) وجماعة من أصحابه وفيهم عمر، فقال علي(ع) لرجل كان حاضراً: ‹‹إن عقبة لما توفي حرمت امرأتك، فاحذر أن تقربها!›› فقال عمر: كل قضاياك يا أبا الحسن عجيبة، وهذه من أعجبها! يموت إنسان فتحرم على آخر امرأته! فقال: ‹‹نعم، إن هذا عبد كان لعقبة، تزوج امرأة حرة، وهي اليوم ترث بعض ميراث عقبة، فقد

صار بعض زوجها رقاً لها، وبضع المرأة حرام على عبدها حتى تعتقه ويتزوجها››، فقال عمر: لمثل هذا نسألك عما اختلفنا فيه".

ومنها ما رواه ابن الجوزي (كتاب الأذكياء ص25) وغيره "أن رجلين استودعا امرأة من قريش مائة دينار، وقالا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع، فلبثا حولاً، فجاء أحدهما فقال: إن صاحبي قد مات فادفعي إلي الدنانير، فأبت وقالت: إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه، فتوسل إليها بأهلها وجيرانها، فلم يزالوا بها حتى دفعتها؛ ثم لبثت حولاً، فجاء الآخر فقال: إدفعي إلي الدنانير، فقالت: إن صاحبك جاءني فزعم أنك مت فدفعتها إليه، فاختصما إلى عمر بن الخطاب فأراد أن يقضي عليها، فقالت: أنشدك اللّه أن ترفعنا إلى علي، ففعل، فعرف علي(ع) أنهما قد مكرا بها، فقال: ‹‹أليس قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟›› قال: بلى، قال: (فان) مالك عندنا فجيء بصاحبك حتى ندفعه إليكما!››".

ومنها ما رواه المفيد (الإرشاد ج1 ص221) وغيره "أن رجلاً حضرته الوفاة فأوصى بجزء من ماله ولم يعينه، فاختلف الوراث في ذلك بعده، وترافعوا إلى أمير المؤمنين(ع)، فقضى بينهم بإخراج السبع من ماله، وتلا قوله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ (الحجر:44)".

ومنها ما رواه المفيد (الإرشاد ج1 ص 221) وغيره أنه(ع) "قضى في رجل وصى عند الموت بسهم من ماله ولم يبينه، فلما مضى اختلف الورثة في معناه، فقضى عليهم بإخراج الثمن من ماله، وتلا قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ (التوبة:60) إلى آخر الاية، وهم ثمانية أصناف، لكل صنف منهم سهم من الصدقات".

ومنها ما رواه المفيد(الإرشاد ج1 ص221) وغيره أنه(ع) "قضى في رجل وصى فقال: أعتقوا عني كل عبد قديم في ملكي، فلما مات لم يعرف الوصي ما يصنع، فسأله عن ذلك، فقال: ‹‹يعتق كل عبد ملكه ستة أشهر، وتلا قوله جل إسمه: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ (يس:39) وقد ثبت أن العرجون إنما ينتهي إلى الشبه بالهلال في تقوسه وضؤولته بعد ستة أشهر من أخذ الثمرة منه".

ومنها رواية ملفتة فيها جوانب عديدة للبحث، تسلط ضوءاً على نفسه العالية، وعلمه، وسيرته، وحرصه على الناس جميعاً، نأخذ منها مورد الحاجة. فقد ذكر السيد محسن الأمين تحت عنوان "فيمن قالت: إني زنيت فطهرني" (الكافي ج7 ص201، وتهذيب الاحكام ج 10 ص53، ومناقب ابن شهراشوب ج2 ص148 وغيرهم) رواية عن أبي جعفر – أي الإمام الباقر –(ع)، "قال: ‹‹أتت امرأة أمير المؤمنين(ع) فقالت: يا أمير المؤمنين، إني زنيت فطهرني طهرك اللّه، فإن عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة الذي لا ينقطع. فقال(ع): مم أطهرك؟

فقالت: إني زنيت.

فقال(ع): فذات بعل كنت أم غير ذات بعل؟

قالت: ذات بعل.

قال(ع) لها: أحاضراً كان بعلك إذ فعلت ما فعلت أم غائباً؟

قالت: بل حاضر.

فقال(ع) لها: إنطلقي حتى تضعي ما في بطنك ثم أئتيني.

فلما ولت عنه المرأة وغابت حيث لا تسمع كلامه قال علي(ع): اللهم فشهادة.

فلم يلبث أن أتته، فقالت: إني قد وضعت فطهرني، فتجاهل علي(ع) عليها، وقال لها: أطهرك يا أمة اللّه مماذا؟
قالت: إني قد زنيت وقد وضعت، فطهرني.

قال: وذات بعل كنت إذ فعلت ما فعلت؟

قالت: نعم.

قال: كان زوجك غائباً أو حاضراً؟

قالت: حاضراً.

قال(ع): فانطلقي فأرضعيه حولين كاملين كما أمر اللّه تعالى.

فانصرفت المرأة، فلما كانت حيث لا تسمع كلامه قال: اللهم إنهما شهادتان.

فلما مضى حولان (كاملان) جاءت المرأة، فقالت: قد أرضعت حولين كاملين، فطهرني يا أمير المؤمنين طهرك اللّه، فتجاهل عليها فقال لها: أطهرك مماذا يا أمة اللّه؟

قالت: إني زنيت.

فقال: ذات بعل كنت إذ فعلت ما فعلت؟

قالت: نعم.

قال: وبعلك حاضر إذ فعلت ما فعلت أم غائب؟

قالت: بل حاضر.

قال: إنطلقي فاكفليه حتى يعقل أن يأكل ويشرب، ولا يتردى من سطح، ولا يتهور في بئر.

فانصرفت وهي تبكي، فلما ولت وكانت حيث لا تسمع كلامه قال: اللهم إنها ثلاث شهادات.

قال: واستقبلها عمرو بن حريث فقال لها: مايبكيك؟

قالت: أتيت أمير المؤمنين فسألته أن يطهرني، فقال: أكفلي ولدك حتى يأكل ويشرب، ولا يتردى من سطح، ولا يتهور في بئر، وقد خفت أن يدركني الموت ولم يطهرني.

فقال لها عمرو: إرجعي فإني أكفله.

فرجعت فأخبرت أميرالمؤمنين بقول عمرو، فقال لها أمير المؤمنين(ع) كالمتجاهل عليها: ولم يكفلك عمرو وولدك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إني زنيت فطهرني.

فقال(ع): وذات بعل كنت إذ فعلت ما فعلت؟

قالت: نعم.

قال(ع): وكان بعلك حاضراً؟

قالت: نعم.

فرفع أمير المؤمنين(ع) رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني قد أثبت عليها أربع شهادات، وإنك قلت لنبيك(ص): من عطل حداً منحدود الله فقد عاندني وضادني، اللهم وإني غير معطلحدودك، ولا طالب مضادتك، ولا معاندتك، ولا مضيع لأحكامك، بل مطيع لك، متبع سنة نبيك(ص).

فنظر إليه عمرو بن حريث وكأن الرمان يفقأ في وجهه، فلما رأى عمرو ذلك قال: يا أمير المؤمنين، إنما أردت أن أكفله لأنني ظننت أنك تحب ذلك، فأما إذ كرهت فلست أفعل.

فقال له أمير المؤمنين(ع): بعد أربع شهادات فتكفله وأنت صاغر...» إلى آخر الرواية.

في هذه الرواية جوانب:

1 - أن أمير المؤمنين(ع) يتثبت من جميع ظروف القضية

2 - أنه(ع) يحاول ما وسعه ذلك أن لا يجعل الحدود هي الهدف فحسب وإنما يراعي الأمور الأخرى (وضع الحمل، إرضاع الوليد، رعايته حتى يقوى)

3 - أنه(ع) يميل إلى الستر أكثر من إعلان المعاصي وإقامة الحدود، فكأن هدفه الأعلى هو عدم إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا كي لا تسقط الحواجز النفسية المانعة من الفواحش ما يؤدي إلى سقوط المزيد من الناس، هو أمر عايشه الناس ولا يزال في جميع المجتمعات التي صار إعلان الفاحشة عندهم شيئاً عادياً ثم صار شيئاً لا يخجل منه حتى خرج من كونه فاحشة أصلاً

4 - أنه(ع) عندما تكتمل جوانب القضية فإنه لا يتهاون مطلقاً في إقامة الحد، وهذا هو التوازن في شخصيته الفريدة بين الرحمة والعطف ومحاولة درء المفاسد عن المجتمع بالنظرة البعيدة إلى نتائج إذاعة أنباء الفاحشة أو الجرائم والحزم وعدم التهاون في حدود الله تعالى

5 - أنه(ع) بعد أن أقيمت الحجة عليه هو شخصياً، وعلى المجتمع من خلاله، بحيث لم يعد هناك مجال لعدم تطبيق الحد، فإنه لا يتراجع مطلقاً حتى وإن أراد آخرون التراجع.

إن منهج علي(ع) هذا أعلنه في حادثة فيها يأتي شاب وشابة يعترفان بالزنا ويطلبان التطهير بالحد، فيتشاغل عنهما، حتى يأتيانه من كل جانب فلا يبقى هناك مجال لستر القضية، فيقيم الحد عليهما بعد أن يوصي الناس أن من يأتي الفاحشة يستتر ويستغفر الله تعالى. والحادثة مروية على عهد النبي(ص) أيضاً، فقد روي أنه(ص) قال: «من أصاب من هذه القاذورة شيئاً فليستتر بستر الله» أو كما قال(ص)، فهذا منهج علي(ع) لا يغادر منهج النبي(ص) كما هو في جميع شؤونه(ع).

إخباره(ع) بالمغيبات

من ذلك ما حدث في معركة النهروان. في هذه المعركة حصل شيء عجيب على مستوى النتائج وهو أنه(ع) أخبر (1) أنهم لن يقطعوا النهر (2) ينجو من الخوارج أقل من عشرة (3) يقتل من جيشه أقل من عشرة (4) يقتل ذو الثدية أو ذو الخويصرة التميمي (لعله الذي قال للنبي(ص) "إعدل يا محمد" الواردة أعلاه). لم تكن هذه الإخبارات من قراءة عسكرية موضوعية، وإنما كانت إخباراً عن النبي(ص) الذي لا ينطق عن الهوى. لهذا، عندما جاء مخبر يخبره أن القوم قطعوا النهر فإنه(ع) كذب الخبر وأخبر أنهم لن يقطعوه. وعندما أمر بالبحث عن ذي الثدية وبعد البحث قالوا أنهم لا يجدون رجلاً في القتلى بهذه الصفة أصر(ع) وهو يقول قولته التي كان يرددها في مناسبات كهذه: «ما كَذَبْتُ وما كُذِبْتُ» أي أني لا أكذب وأن النبي(ص) ما كذب علي – حاشاهما من ذلك.

ثم وجدوا ذا الثدية في القتلى؛ وثم كان عدد من قتل من جيش علي(ع) تسعة، ولم ينج من جيش المارقين سوى تسعة. وهذا من أغرب ما يكون، إذ كيف تحصل نتيجة كهذه في معركة تدور بالسيوف والرماح، اللهم إلا أن الله تعالى نصر وليه المظلوم(ع) وأنزل الكبت والخسارة المروعة بأولئك المارقين بحيث لم يكن في ضربهم بالسيف أو

رميهم بالرمح أو بالسهم أي تسديد، على عكس جيش علي(ع) الكثيف بالمهاجرين والأنصار الأبرار والتابعين لهم بإحسان.

ومن ذلك الإخبار بملوك بني العباس، فقد أخرج ابن حجر في تهذيب التهذيب ج7 ص358 في ترجمة علي بن عبد الله ابن عباس أنه قال لمّا وُلد جاء به أبوه – أي ابن عباس – إلى علي(ع) فقال: ‹‹ما سمّيته؟›› فقال: "أَوَيجوز لي أن أسمّيه قبلك؟" فقال: ‹‹قد سمّيته بإسمي وكنّيته بكنيتي، وهو أبو الأملاك››، ويعني أبو الأملاك أبو الملوك. وهذا حصل لأن علي بن عبد الله ابن عباس هو الذي كان منه داوود أبو إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور الذي استمرت الخلافة العباسية في ذريته.

إخباره بمقتله(ع)

أخرج ابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص680 حديثاً عن ابن أبي فضالة يحكي خروجه مع أبيه أبي فضالة وكان بدرياً إلى أن ذكر قول علي(ع): ‹‹لست ميتاً من وجعي هذا، إن رسول الله(ص) عهد إليّ أن لا أموت حتى أؤَمَّر، ثم تخضب هذه من هذه – أي لحيته من هامته –". روى ذلك أيضاً الإمام أحمد في المسند ج1 ص102 وذكر أن أبا فضالة قتل مع علي(ع) في صفين.

وأخرج الهيثمي في المجمع ج9 ص137 وابن سعد في الطبقات ج3 قسم1 ص22 و23 وصاحب الكنز ج6 ص157 وص398 وغيرهم روايات مختلفة بإخبار علي(ع) بقتله بضربة تخضب لحيته.

وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص470 أن عبد الرحمن بن ملجم جاء إلى علي(ع) يستحمله فحمله فقال علي(ع) شعراً: ‹‹أُريدُ حَياتَهُ ويُريدُ قَتلي عَذيري مِنْ خَلِيلِي مِنْ مُرادِ›› (وتروى "عذيرُكَ مِنْ خَلِيلِكَ" أيضاً).

ثم قال: ‹‹أما أن هذا قاتلي!››، قيل فما يمنعك منه؟! قال: ‹‹إنه لم يقتلني بعد!››

وأخرج مثله ابن سعد في ج3 القسم1 ص22 وصاحب الرياض النضرة ج2 ص245 وغيرهم.

كما أخرج ابن حجر في الصواعق ص80 أنه في الليلة التي قُتل في صبيحتها أكثر الخروج والنظر إلى السماء وجعل يقول: ‹‹والله ما كَذَبت ولا كُذِبت وإنها الليلة التي وعدت›› فلما خرج وقت السحر ضربه ابن ملجم الضربة الموعود بها.

وبعض الروايات ذكرت تفسير علي(ع) لصياح الأوز في وجهه عندما خرج لصلاة الفجر بقوله(ع): ‹‹أنهن نوائح›› أي ينحن عليه، وعلّق ابن الأثير الذي أخرج الرواية في أسد الغابة ج4 ص35 أن هذا يدل على أنه(ع) علم

السنة والشهر والليلة التي يقتل فيها، أي أن الأوز يصيح بشكل معتاد ولكنه عندما قال «أنهن نوائح» في ذلك الفجر فإنه يعني النياح عليه، فهو إذاً إخبار غير مباشر عن مقتله(ع).

وأخرج مثله صاحب الرياض النضرة ج2 ص245.

مؤسس العلوم الإسلامية والعربية

وهذا كله ليس شيئاً إلى جانب تأسيس علي(ع) للعلوم الإسلامية، إما مباشرة، وإما من خلال أولاده(ع) من بعده. ولعل كلمات العلامة ابن أبي الحديد في مقدمة شرحه لكتاب الرضي "نهج البلاغة" ما يلخص ذلك...

قال: "وما أقول فى رجل تعزى إليه كل فضيلة، وتنتهى إليه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها، وسابق مضمارها، ومجلّي حلبتها، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى.

وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي لأن شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات. ومن كلامه (عليه السلام) اقتبس وعنه نقل وإليه انتهى ومنه ابتدأ.

فإن المعتزلة، الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن، تلامذته وأصحابه، لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام.

وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بآخرة إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر.

ومن العلوم علم الفقه، وهو عليه السلام أصله وأساسه، وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه.

أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة.

وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضا إلى أبي حنيفة.

وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه ايضا إلى أبي حنيفة.

وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام، وينتهى الأمر إلى علي عليه السلام.

وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ عبد الله بن عباس على علي بن أبي طالب. وإن شئت فرددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك.

فهؤلاء الفقهاء الأربعة.

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر.

وأيضا فإن فقهاء الصحابة كانوا: عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس، وكلاهما أخذ عن علي عليه السلام.

أما ابن عباس فظاهر.

وأما عمر فقد عرف كل أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة. وقوله غير مرة: "لولا علي لهلك عمر"، وقوله: "لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن"، وقوله: "لا يفتينّ أحد في المسجد وعلي حاضر".

فقد عرف بهذا الوجه أيضا انتهاء الفقه إليه.

وقد روت العامة والخاصة قوله عليه السلام – أي النبي(ص) –: ‹‹أقضاكم علي››. والقضاء هو الفقه، فهو إذا أفقههم.

وروى الكل أيضاً أنه عليه السلام – أي النبي(ص) – قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً: ‹‹اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه››، قال – أي علي(ع) –: ‹‹فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين››.

وهو عليه السلام الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر.

وهو الذي أفتى في الحامل الزانية.

وهو الذي قال في المنبرية: ‹‹صار ثمنها تسعاً››. وهذه المسألة لو فكر الفرضي فيها فكراً طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب، فما ظنك بمن قاله بديهة، واقتضبه ارتجالاً.

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أخذ ومنه فرع، وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك، لأن أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس، وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له، وانقطاعه إليه، وأنه تلميذه وخريجه.

وقيل له: "أين علمك من علم ابن عمك علي؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط".

ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون، وقد صرح بذلك الشبلي، والجنيد، وسري، وأبو يزيد البسطامي، وأبو محفوظ معروف الكرخي، وغيرهم.

ويكفيك دلالة على ذلك الخرقة التي شعارهم إلى اليوم، وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام.

ومن العلوم علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافة أنه هو الذى ابتدعه وأنشأه وأملى على أبي الاسود الدؤلي جوامعه وأصوله، من جملتها: «الكلام كله ثلاثة أشياء: إسم وفعل وحرف»، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم. وهذا يكاد يلحق بالمعجزات لأن قوة البشرية لا تفي بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط."

أقول: فالحمد للّه الذي هداني لمعرفة عبده ووليه ووصي نبيه(ص) الذي استقى علمه من المعين الصافي الذي لا ينطق عن الهوى، فصار كل متبع له يسير في طريق آمن.

(ملاحظة: بخصوص "المنبرية" التي ذكرها ابن أبي الحديد، فإن الحادثة هي: أنه(ع) سئل وهو على منبر الكوفة عن تقسيم تركة ميت ترك بنتين وأبوين وزوجة، فأجاب مباشرة: «صار ثُمنها تُسعاً». وذلك أن للزوجة ثمن التركة، وللبنتين الثلثين، وللأبوين الثلث، فيكون المجموع واحداً وثمناً، فالواحد هو التركة فأين الثمن؟ الحل هو: (1) الطريقة الأولى ما تسمى بـ "العول" أي أن السهام تعول أي تنقص وذلك بإنقاص جميع السهام بنفس النسبة وهي النقص في التركة (2) الطريقة الثاني لا تفعل ذلك وإنما تعطي سهم الزوجة كاملاً ثم سهم الأبوين كاملاً ثم تعطي البنتين الباقي، أي أن النقص يكون من سهم البنتين فحسب. جواب أمير المؤمنين(ع) جاء حسب الطريقة الأولى:

جمع 8/1 + 3/1 + 3/2 = 24/27 وهذه هي نسبة السهام في فرائض القرآن إلى نسبتها في الحساب

ضرب سهم المرأة في مقلوب هذه النسبة 8/1 X 27/24 = 9/1 فصار ما تأخذه هو التسع. وهذه الحسبة بهذه السرعة ملفتة وتعطي فكرة على جانب من القدرات الذهنية التي تمتع بها علي(ع).

المشكلة في الرواية أن جواب أمير المؤمنين(ع) يذهب إلى الطريقة الأولى أي العول، في حين أن مذهب أهل البيت(ع) هو الطريقة الثانية، أي أن تأخذ الزوجة 8/1 – أي 24/3 – ويأخذ الأبوان 3/1 – أي 24/8 – ويبقى للبنتين الباقي من 24 وهو 13 وليس 16. وبالتالي فقد فسرت أنها حكم منه(ع) بما كان عليه الناس هناك، فإنه(ع) عندما جاء الكوفة كان الناس قد أجروا أحكاماً بعضها يخالف مذهبه(ع)، ومن ذلك صلاة الضحى أو صلاة التراويح جماعة وغير ذلك مما هو معروف، فليس غريباً أن يكون مذهب المرأة ذلك. وأكيد أن هذا

كان قبل المذاهب المعروفة اليوم، ولكن البذور كانت موجودة دون شك مما كان عليه اختلاف الناس المقطوع به في الروايات. روى الحاكم (المستدرك ج4 كتاب الفرائض ص 340) عن ابن عباس أنه قال: "أول من أعال الفرائض عمر، وأيم الله لو قدم من قدم الله وأخر من أخر الله ما عالت فريضة، فقيل له: وأيها قدم الله، وأيها أخر؟ فقال: كل فريضة لم يهبطها الله عز وجل عن فريضة إلاّ إلى فريضة، فهذا ما قدم الله عز وجل كالزوج والزوجة والأم، وكل فريضة إذا زالت عن فرضها لم يكن لها إلاّ ما بقي فتلك التي أخر الله عز وجل كالأخوات والبنات، فإذا اجتمع من قدم الله عز وجل ومن أخر بدئ بمن قدم فأعطى حقه كاملاً، فإن بقي شئ كان لمن أخر..." أي أن الإمام علي(ع) حكم بما كان عليه الناس في الكوفة وفق ما أجري عليهم منذ أيام الخليفة الثاني الذي التبس عليه الأمر فحكم فيه بما استطاع مما يعلم حتى روي أنه حكم في ميراث الجد بسبعين حكماً – وأراها مبالغة بلحاظ صعوبة تحقق حالات كثيرة بهذه الاحتمالات –، وواضح أنه لم يكن يعلم أي الفرائض قدمت وأيها أخرت، وغير ذلك من تفاصيل جميعها عند أمير المؤمنين(ع)، والحمد لله رب العالمين.)

أولاد علي(ع) ومعاصروهم

ربما لا تجد من أهل السنة أحداً تذكر أمامه أحداً من أئمة أهل البيت(ع) – وهو لا يعرف أكثرهم بالطبع – وتنسبه له فينكر فضله، بل المتوقع أنهم يعظمونهم ويجلونهم، أولاً لأنهم من ذرية النبي(ص)، وثانياً لأنهم يتوقعون أن يكونوا من العلماء الكبار في زمانهم. أعني أنهم يضعونهم في منزلة عالية من الفضل العلمي كما يفعلون مع المبرزين في ذلك الزمان من أهل القرون الأولى، ولاسيما القرون الثلاثة الأولى التي يروون فيها حديثاً للنبي(ص) يصفها بأنها خير القرون. ولكنهم لا يخطر ببالهم مسألة هامة هي: إن كان هؤلاء النفر من ذرية النبي(ص) وصلوا أعلى المراتب في العلم والفقه وذلك باعتراف معاصريهم من مؤسسي المذاهب الأربعة فكيف يتركون اتّباعهم ويتبعون أصحاب المذاهب الأربعة وطلابهم والمتفقهين على مذاهبهم عبر العصور حتى عصرنا الحاضر؟ لا جواب، فلا سؤال يسأل.

وعندما اطلعت على أعيان هذه السلسلة الطاهرة، وعلى علمهم باعتراف معاصريهم – أقران ومنافسين ومناوئين وأعداء –، عجبت من حال الأمة تترك الأفضل والأعلى والأبرز وتتمسك بالمفضول والأدنى والأقل. لا شك في أن مؤسسي المذاهب الأربعة كانوا يتمتعون بقدرات علمية كبيرة، ولا شك في أن غيرهم من شيوخهم وطلابهم من كان كذلك، وربما أفضل منهم، ولكن أن يكون الفقيه ذا قدرات علمية كبيرة شيء وأن يكون المتفرد والأعلى من الجميع باتفاق الجميع شيء آخر. ويعود القول: ولكن الشيعة لا يتبعون أهل البيت(ع)، فيعود معه السؤال: إذاً ماذا حل بعلم أهل البيت(ع)؟

تميّز أحاديث أهل البيت(ع)

ذكرنا أعلاه قول علي(ع): ‹‹يا أخا بني عامر سلني عمّا قال الله ورسوله، فإنا نحن أهل البيت أعلم بما قال الله ورسوله››، وهو قول ما انفك الأئمة من ولده(ع) يعلنونه للناس وينبهونهم إليه حتى لا يذهبوا يميناً وشمالاً.

من ذلك قول الإمام الباقر(ع): ‹‹لو كنّا نحدث الناس برأينا وهوانا لهلكنا، ولكنا نحدثهم بأحاديث نكنزها عن رسول الله(ص) كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم›› بحار الأنوار ج2 ص122.

ومن ذلك قول ولده الصادق(ع): ‹‹عجباً للناس يقولون أخذوا علمهم كلّه عن رسول الله(ص) فعلموا به واهتدوا به ويرون أنّا أهل البيت لم نأخذ علمه ولم نهتد به، ونحن أهله وذريته، في منازلنا أُنزل الوحي ومن عندنا خرج العلم إلى الناس، أفتراهم علموا واهتدوا وجهلنا وضللنا!›› أمالي المفيد ص122. وهذا أعاد السؤال إلى ذهني مرة أخرى: إن كان الشيعة لا يتبعون أهل البيت(ع)، والسنة لا يدعون ذلك أصلاً، فأين علم أهل البيت(ع) الذي يتحدث عنه جعفر الصادق(ع)؟

وقوله(ع): ‹‹حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث جدي أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله وحديث رسول الله قول الله›› بحار الأنوار ج2 ص178. وهو السند الذي وصف بعد ذلك بأنه "سلسلة الذهب" في حديث معروف للإمام الرضا(ع): ‹‹لا إله إلا اللّه حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي››.

وقوله(ع): ‹‹من حدّث عنا بحديث فنحن مسائلوه عنه يوماً، فإن صدّق علينا فإنما يصدّق على الله وعلى رسوله، وإن كذّب عنّا فإنما يكذب على الله وعلى رسوله، لأنا إذا حدثنا لا نقول قال فلان وفلان، إنما نقول قال الله وقال رسوله›› بحار الأنوار ج7 ص159. وهذا الحديث فيه جانبان: الأول أن الأئمة(ع) يتحدثون عن الله ورسوله(ص) فلا يأخذون من غيرهم من العلماء والمحدثين الذين عاصروهم، بخلاف أولئك العلماء والمحدثين الذين كانوا يأخذون من غيرهم كما هو معروف، والثاني هو التحذير ممن ينقل كلاماً ينسبه إلى الأئمة(ع) ويتعمد الكذب (لنصرتهم(ع) أحياناً!) لأنه إن كان كاذباً فإنما ينسب أمراً كاذباً إلى النبي(ص) وإلى الله سبحانه، وهذا ما لا عذر فيه.

موقع أحاديث أهل البيت(ع)

عند النقاش حول إمامة أهل البيت(ع) وفضائلهم والأحداث المرافقة للفترة الأولى من الإسلام وجدت أهل السنة يضيّقون ذلك كلما جئتهم بحديث أو بتفسير حتى يصير الأمر إلى الطلب أن يكون الحديث من البخاري ومسلم فحسب، ثم أن يكون من البخاري وحده وأن يكون من تفسير فلان أو فلان، فإذا ما جئتهم بحديث من البخاري ومسلم أو جئتهم بالتفسير مما يريدون عند ذاك تبدأ التأويلات والتحريفات، كما أوردنا أمثلة عليه في حديث الغدير وغيره. وفي مراجعات الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر الشريف والسيد شرف الدين جاء الأخير بالنصوص الواضحة من أمير المؤمنين(ع) ومن بعض أولاده ولكن الشيخ البشري طلب أن تكون الحجج والروايات من القرآن وأحاديث النبي(ص)، وهنا أجاب شرف الدين عن هذه النقطة بالذات بالقول ص40: "نحن ما أهملنا البيّنة من كلام النبي(ص) بل أشرنا إليها في أول مراجعتنا صريحة بوجوب اتباع الأئمة من أهل البيت دون غيرهم، وذلك حيث قلنا إنه(ص) قرنهم بمحكم الكتاب وجعلهم قدوة لأولي الألباب وسفن النجاة وأمان الأمة وباب حطة إشارة إلى المأثور في هذه المضامين من السنن الصحيحة والنصوص الصريحة".

أقول: السيد يعني أن الأئمة(ع) بعد أن نصبهم رسول الله(ص) مرجعاً إلى الأمة فإن الأحاديث الصحيحة الواردة عنهم تصبح ملزمة كما تلزم الأحاديث الواردة عن النبي(ص). وهنا نشير إلى بعض ما ذكره شرف الدين من حديث أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام زين العابدين.

قال أمير المؤمنين: «فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون؟ والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم؟ بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم، وهم أزمّة الحقّ، وأعلام الدّين، وألسنة الصّدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش.

أيّها النّاس، خذوها عن خاتم النّبيّين صلّى اللّه عليه وآله سلّم: إنّه يموت من مات منّا وليس بميّت، ويبلى من بلى منّا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون. واعذروا من لا حجّة لكم عليه، وهو أنا – ألم أعمل فيكم بالثّقل الأكبر، وأترك فيكم الثّقل الأصغر، وركزت فيكم راية الإيمان، ووقفتكم على حدود الحلال والحرام، وألبستكم العافية من عدلي، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي، وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي؟ فلا تستعملوا الرّأي فيما لا يدرك قعره البصر، ولا تتغلغل إليه الفكر» نهج البلاغة خطبة 87.

وقال أيضاً: «اُنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا» نهج البلاغة خطبة 95.

وقوله: ‹‹عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشّجر، نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمرة لا تنال›› نهج البلاغة خطبة 94.

وقوله: ‹‹نحن الشّعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، لا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً›› نهج البلاغة خطبة 154.

وقوله: ‹‹نحن شجرة النّبوة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم، ناظرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة، وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة›› نهج البلاغة خطبة 109.

وقوله: ‹‹أين الذين زعموا أنهم الرّاسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى؛ إنّ الأئمة من قريش غُرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم›› نهج البلاغة خطبة 144.

قوله: ‹‹فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً ووقع أجره على الله واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية مقام إصلاته لسيفه›› نهج البلاغة خطبة 190.

وقوله: ‹‹نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء وحزبنا حزب اللّه عز وجل، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوّى بيننا وبين عدوّنا فليس منّا›› (كنز العمال ج11 ص356، والصواعق المحرقة ص142، وتاريخ مدينة دمشق ج42 ص458).

وأورد قول الإمام الحسن(ع): ‹‹إتقوا الله فينا فإنا أمراؤكم›› الصواعق المحرقة ص137.

وهكذا، فإن النصوص التي أوردناها، من الكتاب، ومن السنة النبوية في الكتب المعتبرة عند أهل السنة، ومن ثم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع)، تثبت أن لأئمة أهل البيت(ع) – بغض النظر عن الاعتقاد بإمامتهم، أو بما تعنيه هذه الإمامة – منزلة من الأمة لا تصل إليها منزلة أحد غيرهم، وبالتالي فإنه مما لا غنى عنه للمسلم، أي مسلم، – وبغض النظر عن الاعتقاد بإمامتهم أيضاً – الاطلاع على مستوى علمهم من جهة وطبيعة سيرتهم من جهة ثانية ليعلم أن ما توصلت إليه من الأخذ بمذهبهم قام على أساس متين من النظرية والتطبيق: ما أعلنه الكتاب وأعلنه النبي(ص) وما ادعوه هم لأنفسهم من جانب، وما أعلنته المناظرات العلمية أو الحلول العلمية للمشكلات التي سئلوا عنها عن علو كعبهم بتميز واضح عن غيرهم كائناً من كانوا وما أعلنته أفعالهم مع الأقربين والأبعدين وحتى مع المناوئين والأعداء عن علو نفوسهم ودرجة تقواهم وعدلهم، والتي عندما تقترن مع علمهم الجم ذاك، لا يمكن لأي عاقل أن يقبل – من باب المقارنة – بتقديم غيرهم عليهم.

وفيما يلي لقطات سريعة تعطي ضوءاً عن جوانب مختلفة من علوم الأحد عشر إماماً من ذرية محمد(ص)، والذين يتمون مع علي(ع) الإثني عشر إماماً الذين، كما قلنا من قبل، تنطبق عليهم، لا على غيرهم مطلقاً، الأحاديث الشريفة ولاسيما التي تحدد عدد خلفاء النبي(ص) بإثني عشر.

الإمام الحسن(ع)

سئل(ع): "كم بين الحق والباطل؟" فأجاب: ‹‹أربع أصابع، فما رأيته بعينك فهو الحق وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً››؛ فسئل: "كم بين الإيمان واليقين؟" قال: ‹‹أربع أصابع، الإيمان ما سمعناه واليقين ما رأيناه››؛ فسئل: "كم بين السماء والأرض؟" فقال: ‹‹دعوة المظلوم، ومدّ البصر››؛ ثم سئل: "كم بين المشرق والمغرب؟" فقال(ع): ‹‹مسيرة يوم للشمس›› (المناقب ج2 ص152).

الإمام الحسين(ع)

قال(ع) في دعاء عرفة المعروف باسمه الشريف: ‹‹كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك عليها رقيباً...››.

الإمام علي بن الحسين زين العابدين(ع)

عندما كتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان يقول: "أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة! لأغزوّنك بجنود مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف!" فاحتار عبد الملك ماذا يجيبه، فكتب إلى الإمام السجاد(ع) ليكتب له ما يراه مناسباً فقال الإمام السجاد(ع): ‹‹إن لله لوحاً محفوظاً يلحظه في كل يوم ثلاثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت، ويعزّ ويذل، ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفيك منها لحظة واحدة!›› فكتب عبد الملك ذلك إلى ملك الروم فلما وصله قال: "ما خرج هذا إلا من كلام النبوة" (بحار الأنوار ج11 ص38).

الإمام الباقر(ع)

1) سأله عمر بن عبيد، وهو فقيه البصرة، ليمتحنه كما يبدو، عن قوله تعالى: ﴿ومَنْ يَحلُلْ عَلَيهِ غَضَبِي فَقَد هَوى﴾ (طه:81) ما غضبُ الله عز وجل؟ فقال(ع): ‹‹غضب الله عقابه يا عمر، ومن ظن أن الله يغيره شيء فقد كفر!›› (نور الأبصار ص207).

2) وقال(ع) في معنى قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أنْ تَسجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيّ﴾ (ص:75): ‹‹اليد في كلام العرب القوة والنعمة، قال الله تعالى: ﴿واذكُرْ عَبدَنا داوودَ ذا الأَيد﴾ ﴿والسَّماءَ بَنَيناها بأَيد﴾ أي بقوة، وقال: ﴿وأيَّدَهُم بِرُوحِ القُدُس﴾ أي قوّاهم، ويُقال: لفلان عندي يد بيضاء أي نعمة›› (تفسير البرهان ج4 ص64).

الإمام الصادق(ع)

1) وقال(ع): ‹‹لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبغض الخلق منه في الله، ويبغض أقرب الخلق منه في الله›› (أعيان الشيعة ج4 قسم2 ص198).

2) سأله الزنديق المعروف أبو شاكر الديصاني: "يا جعفر بن محمد دلّني على معبودي"، فطلب الإمام بيضة فأمسكها بيده وقال(ع): ‹‹يا ديصاني هذا حصن مكنون له جلد غليظ وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن فسادها، ولا يُدرى أللذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن أمثال الطواويس، أترى لها مدبراً؟!›› (الكافي ج1 ص80).

الإمام الكاظم(ع)

1) وسأله أبو حنيفة عن المعصية ممن تكون – أي من العبد أم من الرب –، فقال(ع): ‹‹إن السيئات لا تخلو من احدى ثلاث: إما أن تكون من الله وليست منه، فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد عما لا يرتكب، وإما أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد وهي منه، فإن عفا فبكرمه وجوده وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته›› (توحيد الصدوق ص96) فقال أبو حنيفة فانصرفت ولم ألقَ أبا عبد الله واستغنيت بما سمعت (تحف العقول ص412) (حيث كان يريد مقابلة الإمام الصادق(ع) فاكتفى بجواب ولده الكاظم(ع)".

2) سأل المهدي العباسي الإمام الكاظم(ع) عن الخمرة: "هل هي محرمة في كتاب الله لأن الناس يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم؟" فقال الإمام(ع): ‹‹قول الله عز وجل: ﴿إنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وما

بَطَنَ والإثْمَ والبَغْيَ بغَيرِ الحَقّ﴾" ثم أوضح: ‹‹وأما الإثم فإنها الخمرة بعينها، فقد قال الله تعالى في موضع آخر ﴿يَسألُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيسرِ فَقُلْ فِيهِما إثْمٌ كَبيرٌ﴾ فأما الإثم في كتاب الله فهو الخمر والميسر›› (بحار الأنوار ج11 ص277).

الإمام الرضا(ع)

1) سئل عن الحجة على الناس بعد الأنبياء وانقطاع الوحي فأجاب(ع): ‹‹العقل، يُعرف به الصادق على الله فيصدقه، والكاذب على الله فيكذبه›› (الاحتجاج ج2 ص225).

2) سئل في مجلس المأمون من يحيى بن الضحاك السمرقندي كممثل عن الفقهاء والمتكلمين يناظروه في الإمامة، سأل: "نتكلم في الإمامة كيف ادُّعيت لمن لم يؤم – يعني علياً وأولاده – وتركت من أمّ – يعني الذين تقدموا على علي(ع) وغيرهم من خلفاء الأمويين والعباسيين – ووقع الرضا به؟ فأجاب الإمام أولاً بالقول: ‹‹يا يحيى أخبرني عمن صدق كاذباً على نفسه أو كذّب صادقاً على نفسه، أيكون محقاً مصيباً أو مبطلاً مخطئاً؟›› فسكت يحيى، فأمره المأمون بأن يجيب فطلب استعفاءه، فطلب المأمون من الإمام(ع) أن يوضح الغرض من سؤاله، فقال(ع): ‹‹لا بد ليحيى من أن يخبر عن أئمته أنهم كذبوا على أنفسهم أو صدقوا، فإن زعم أنهم كذبوا فلا إمامة لكذاب، وإن زعم أنهم صدقوا فقد قال أولهم: وليتكم ولست بخيركم، وقال تاليه: كانت بيعته فلتة، فمن عاد لمثلها فاقتلوه، فوالله ما رضي لمن فعل مثل فعلهم إلا بالقتل، فمن لم يكن خير الناس، والخيرية لا تقع إلا بنعوت منها العلم ومنها الجهاد ومنها سائر الفضائل، وليست فيه، ومن كانت بيعته فلتة يجب القتل على من فعل مثلها كيف يُقبل عهده إلى غيره، وهذه صورته، ثم يقول على المنبر إن لي شيطاناً يعتريني فإذا مال بي فقوّموني وإذا أخطأت فأرشدوني؟! فليسوا أئمة بقولهم إن صدقوا أو كذبوا، فما عند يحيى في هذا جواب؟››، فقال المأمون: "يا أبا الحسن ما في الأرض من يحسن هذا سواك" (عيون أخبار الرضا ج2 ص232).

الإمام الجواد(ع)

عندما جيء بسارق وأقرّ على نفسه إلى الخليفة المعتصم قال أحمد بن أبي داوود القاضي ومع من معه من الفقهاء بأن ما يقطع من ذلك الرجل في حد تلك السرقة هو الكرسوع، وهو طرف الزند الناتىء مما يلي الخنصر، على أساس أن آية التيمم تقول بمسح اليد وهي إلى طرف الساعد، في حين قال آخرون غير أحمد بن داوود أن القطع من المرفق على أساس قوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وأَيديَكُم إلى المَرافِقِ﴾؛ فسأل المعتصم الإمام

الجواد(ع) فقال بأنهم أخطأوا السنة لأن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف، فسأله المعتصم عن الحجة في ذلك، فقال(ع): ‹‹قول رسول الله(ص) السجود على سبعة أعضاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو من المرفق لم يبق لديه يد يسجد عليها، وقال الله تعالى: ﴿وأنَّ المَساجِدَ لله﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يُسجد عليها، وما كان لله لا يُقطع›› (بحار الأنوار ج50 ص5).

الإمام الهادي(ع)

1) قال(ع): ‹‹من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه›› (المجالس السنية ج5 ص448).

2) كتب إليه رجل أن يعلمه دعوة جامعة للدنيا والآخرة، فكتب(ع) إليه: ‹‹أكثر من الاستغفار والحمد فإنك تدرك بذلك الخير كلّه›› (مآثر الكبراء ج3 ص173).

الإمام العسكري(ع)

قال(ع): ‹‹قلب الأحمق في فمه، وفم الحكيم في قلبه›› (تحف العقول ص489).

الإمام المهدي(ع)

قال رسول الله(ص) عن المهدي: ‹‹يقفو أثري لا يخطيء›› (منتخب الأثر ص491).

قال(ع)): ‹‹فقال الله تعالى: ﴿إخلع نعليك﴾، أي إنزع حب أهلك عن قلبك إن كانت محبتك لي خالصة وقلبك من الميل من سواي مغسولا›› (الاحتجاج ج2 ص267).

الفصل العاشر

السيرة

مقدمة

أولاً: في الجهاد على عهد النبي(ص)

ثانياً: الدعوة إلى الإسلام على عهد النبي(ص)

ثالثاً: طاعة النبي(ص)

رابعاً: آخر العهد برسول الله(ص)

خامساً: رجوع الخلفاء الثلاثة إلى رأي علي(ع)

سادساً: في العدل

سابعاً: مع المخالفين والمناوئين

ثامناً: مزايا خاصة به

من سيرة أئمة الهدى أولاد علي بن أبي طالب(ع)

((لأعطين هذ الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله))

((أنت أول المؤمنين إيماناً وأعلمهم بأيام الله وأوفاهم بعهده وأقسمهم بالسوية وأرأفهم بالرعية ...))

(رسول الله(ص))

لقد وضعت فصل السيرة بعد فصل العلم لأن السيرة إنما تعتمد على أمور ثلاثة: العلم، والإخلاص، والظروف المحيطة. وقد بينت أن ما تأكد لي، من آيات الكتاب العزيز ومن أحاديث الرسول الكريم(ص)، أن علياً(ع) بلغ الغاية في الإخلاص وذلك كنتيجة طبيعية تلقائية لإذهاب الرجس عنه وتطهيره تطهيراً من اللّه تعالى حتى صار مع الحق والحق معه ومع القرآن والقرآن معه لا يفترقان. إذاً، لم يبق غير الظروف المحيطة بالإنسان – في أي موقع كان – التي تساعده أو تعيقه عن السير بالسيرة التي تمكنه منها درجة علمه ودرجة إخلاصه.

وسيكون تناول السيرة – بالاختصار – للمرحلتين: مرحلة العهد النبوي أيام كان علي(ع) والآخرون تابعين لحكومة النبي(ص)، ومرحلة الخلافة التي سميت الخلافة الراشدة التي سار كل من الخلفاء الأربعة بسيرة معينة يمكن تلمس جوانبها من الحوادث والأحكام والنهج الذي سار عليه كل منهم.

فأما في وقت النبي(ص) فقد كانت الظروف صعبة في عمومها، ولاسيما في الحروب والغزوات، وأكثر منه أيام العهد المكي، ولكن وجود النبي(ص) كان يمثل الضمانة لاستقرار المسيرة. أما بعد النبي(ص) فقد كان الحال مختلفاً، إذ علم الناس كلهم، دون استثناء من باحث سني أو شيعي، مسلم أو غير مسلم، قديم أو معاصر، أن الظروف التي أحاطت بخلافة علي بن أبي طالب(ع) كانت أصعب بما لا يقاس من الظروف التي أحاطت بخلافة من سبقه وكثير ممن لحقه – هذا إن كان هناك وجه للمقارنة أصلاً بلحاظ عدم وجود المعارضة المهددة للحكم عهد عمر وعثمان وحتى ما بعد المرحلة الأولى من عهد أبي بكر، القصير أصلاً، فلم تحصل ثورات أو معارضة مهددة إلا في آخر عهد عثمان، وكان جميع الصحابة منقادين للأوامر الصادرة من المدينة المنورة مركز الحكم، إلى الدرجة التي وافق من منعهم عمر من الخروج للجهاد في سبيل اللّه ولم يعترضوا.

إذاً، سيرة علي(ع) بالمقارنة مع سيرة غيره ممن تقدمه مادة مهمة للنظر في أصل القضية، وهي إمامته(ع) ومدى لياقة الآخرين لها – هذا على عهد النبي(ص)، وما كان من تفاعل بين سيرة علي(ع) والآيات النازلة والأحاديث الشريفة التي أبانت طبيعة تلك السيرة، وتفاعل بين سيرة الآخرين والآيات النازلة والأحاديث الشريفة التي أبانت طبيعة تلك السيرة أيضاً؛ وأيضاً في عهد خلافته(ع) وخلافة من سبقه وما فيها من أحداث.

أما أولاده(ع) فلم يكن لهم تاريخ من السيرة السلطانية لأنهم منعوا من ذلك كما منع أبوهم(ع) منعاً كاد أن يكون تاماً لولا ما حصل آخر عهد عثمان. حتى ولده الحسن(ع) فإنه استخلف لمدة سبعة أشهر فقط، وحتى هذه الفترة القصيرة وجد نفسه في نفس الوضع الذي كان فيه أبوه(ع) من تفرق القلوب وتمرد معاوية والإعراض الذي وجد أهل البيت(ع) أنفسهم يواجهونه ممن جعلهم اللّه تعالى – كما تيقنت – لهم مصابيح هدى وسفن نجاة.

على أنني أحسب أنه ما من مسلم يشك في أن أئمة أهل البيت(ع)، حتى وإن لم يعدهم أئمة مطهرين كما يعتقد الشيعة، كانوا سيسيرون بسيرة العدل والصلاح والتقدم للأمة أفضل من غيرهم ممن جاء بعدهم ممن لا يساويهم في شيء من الفضل. ولعل في بعض اللقطات التاريخية ما يدعم هذا لمن لا يقبل بالاستناد إلى النظرية فحسب، كما سنشير إليه في هذا الكتاب (راجع آخر هذا الفصل مثلاً) وفي غيره إن شاء اللّه.

إمتدت حياة علي(ع) بعد الإسلام مدة ثلاثة وخمسين عاماً منها ثلاثون عاماً بعد وفاة النبي(ص)، ومن هذه خمسة وعشرون مجموعة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فلم يبق إلا خمسة أعوام هي التي عاشها علي(ع) في آخر حياته خليفة للمسلمين، بدايتها في المدينة المنورة ثم في الكوفة. والباحث يجد الكثير الكثير مما كتب في فعل علي(ع) على عهد النبي(ص)، والكثير الكثير من فعله وقوله(ع) أيام خلافته، ولكن لا يجد إلا اليسير في الفترة التي قضاها على عهد الخلفاء الثلاثة وهي فترة ربع قرن. ولكن حتى في هذا اليسير يمكن للمرء أن يجد ما يبهر العقول من علمه(ع) أولاً ومن سيرته(ع) في التعامل مع من تقدمه ممن يؤمن هو – كما يعتقد الشيعة – أنهم كانوا ينبغي لهم أن يبايعوه بعد النبي(ص) مباشرة ويسيروا وراءه فيما يختطه لهم. هذا التعامل، الذي يعلن أن علياً(ع) ما كان يبخل بنصح ولا موقف كريم مهما كانت التضحيات ومهما كان الموقف الذي وقفه منه الطرف الآخر. هذا وغيره من شأنه أن يعطي فكرة جيدة واضحة عما كانت ستكون عليه الأحوال، على عهده(ع)، ومن بعده، وصولاً إلى عصرنا الحاضر، لو أن الآخرين بايعوه ورضوا به ومشوا خلفه، فإن هناك فرقاً شاسعاً بين أن يحكم علي(ع) خمس سنين تضج بالحروب الداخلية والتمردات والخيانات، وتأتي بعد أن تغيرت منزلة علي(ع) في الإسلام كما وصفها هو، وبين أن يحكم علي(ع) ثلاثين سنة مباشرة بعد النبي(ص)، والأمور متسقة، والصحابة يكاد يكونون حزباً واحداً، ومنزلته(ع) لا تزال كما كانت على عهد النبي(ص) الذي كان يشير إليه ويرفعه ويبين دوره في كل مناسبة.

وكون ما اطلعت عليه من سيرته(ع) أكثر بكثير من هدف هذا الفصل وهذا الكتاب، الذي إنما هو تبيان لبعض ما اطلعت عليه من أجل تبيان دواعي الاستجابة، فإن المقام لا يسع إلا لبعض الشذرات من تلك السيرة، ما يرسم صورة لعلي(ع)، في حياة النبي(ص) كجندي مطيع لقائده ومعلمه(ص)، وفي حياة الخلفاء الثلاثة كناصح ومعين ومشير

– عندما كانوا يرغبون في ذلك أو يتوقفون –، وفي حياته الشريفة خليفة كيف يتعامل مع الأعداء والمناوئين وكيف يتعامل مع أتباع الملل الأخرى.

أولاً: في الجهاد على عهد النبي(ص)

لا يسع أحد أن يكتب عن علي(ع) ولو كلمة قصيرة إلا ويذكر، ولو بالإشارة، إلى مواقفه الخالدة في الجهاد بين يدي النبي(ص)، مواقف ما سمع بمثلها من أحد غيره، فكانت علامة بارزة له في أي بحث جاء ذكره، في المجاهدين، في الخلفاء، في الصحابة، بل في الناس جميعاً. بل يمكن أن أقول أن تلك المواقف الفريدة ربما جارت على مواقفه وسيرته في النواحي الأخرى، نواحي العدل والزهد والعبقرية والبلاغة والروح الإنسانية القريبة من الآخرين وغيرها من جوانب في شخصيته الجميلة الملونة. ولكن يبدو أن الأمر متعلق بنقطتين: الأولى هي أن الجود بالنفس أقصى غاية الجود كما قال الشاعر، بل وكما رتب القرآن أعلى مراتب الجزاء على المجاهدين بأنفسهم، والثانية هي الأهمية القصوى للجهاد في حياة النبي(ص) على تأسيس نواة الدولة الإسلامية، ما جعل هذا الجانب من حياة علي(ع) هو الأكثر شهرة وذكراً.

(1) <u>مبيت علي(ع) في فراش النبي(ص) في ليلة الهجرة</u>

نزلت فيه الآية الكريمة ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَشري نَفسَهُ إبتِغاءَ مَرضاتِ اللهِ واللهُ رَؤُوفُ بالعِباد﴾ (البقرة:207) كما في تفسير الفخر الرازي وأسد الغابة ج4 ص25 وطبقات ابن سعد ج8 ص35 وص162.

وأوردها السيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية ﴿وإذْ يَمكرُ بكَ الَّذينَ كَفَروا لِيُثبتُوكَ أوْ يَقتلوكَ أوْ يُخرِجُوك﴾ (الأنفال:30)، والنسائي في الخصائص ص8، وغيرها من المصادر بروايات عديدة.

كمسلم سنّي، كنت أحمل هجرة أبي بكر مع النبي(ص) وقضية الغار، وكيف نجيا من المجموعة التي أرسلتها قريش بشكل معجز، كواحدة من أهم القصص الإسلامية، كيف لا وقد خلدها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إلاّ تَنصرُوهُ فَقَد نَصرَهُ اللّهُ إذْ أَخرجَهُ الّذينَ كَفرُوا ثانِيَ اثْنَينِ إذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحزَنْ إنَّ اللّـهَ مَعَنـا، فَـأنزَلَ اللّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَروها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الّذينَ كَفَرُوا السُّفلى، وكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ العُلْيا، وَاللّهُ عَزيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:40)، وأنها أعظم فضيلة لأبي بكر حيث يصفه القرآن الكريم بصفة الصاحب ويشركه مع النبي(ص) في تفاصيل هذه الآية. وخلاصة النظرة إلى هذه الآية أنه طالما أن أبا بكر كان ثاني اثنين مع النبي(ص) في الغار فإذاً هو ثاني هذه الأمة، أو الأول بعد نبيها(ص). (سأذكر أفكاري حول تفاصيل هذه الآية العظيمة في كتاب "ما بعد العودة".)

أكيد كنت أعرف أن علياً(ع) بات في فراش النبي(ص) في تلك الليلة ذاتها وذلك حتى يظن الكفار المحيطون ببيت النبي(ص) أنه النبي(ص) فعندما ينقضّون عليه لقتله، ظناً منهم أنه النبي(ص)، يكون علي(ع) هو الذي في الفراش، أي يفدي النبي(ص) بنفسه. ولكن الأكيد أيضاً أن هذا الموقف العلوي لم يكن يحمل عندي – أسوة بباقي أهل السنة – المكان نفسه الذي لأبي بكر في الغار وهو ثاني اثنين مع النبي(ص). ويبدو أن التنشئة لها دورها أبداً، مع الناس أجمعين، وإلا كيف يعقل أن الفداء بالنفس أقل شأناً من المرافقة المحروسة بالوحي والملائكة وجند الله الغالب؟

كيف يعقل أن الموقف من رجل ينام في فراش رجل آخر كي يحل محله كهدف في مؤامرة القتل تلك أقل من موقف رجل يرافق الرجل الآخر هذا وهو ينجو من نفس مؤامرة القتل تلك؟

بل كيف يعقل أن موقف الذي يدفع لوحده عن شخص آخر أقل شأناً من الذي يرافقه فحسب، فإن دفع عنه فإنما يكون ذلك بالتعاون بينهما؟

ولكن قضت الأمة، أو أكثرية الأمة، أو ملوك الأمة وعلماؤها، أن كل هذا يعقل! وبالتالي فلم يعد مما لا يعقل أن يكون الموقف العلوي أقل من الموقف البكري.

ولكن نظرة واحدة إلى الآيتين، وبحسب التفسير السنّي لهما (سأتناول ما أفهمه الآن في كتاب "ما بعد العودة" كما قلت)، تبين علو الموقف العلوي، وبما لا يقاس. آية البقرة تقول ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَشري نَفسَهُ إبتِغاءَ مَرضاتِ اللهِ واللهُ رَؤُوفٌ بالعِباد﴾ أي أن علياً يبيع (يشري = يبيع) نفسه في سبيل الله، في حين أن آية الغار لا تتحدث عن أي فعل من جانب أبي بكر غير الخروج مع النبي(ص)، فلا قوله ﴿لا تَحزَنْ إنَّ اللّهَ مَعَنا﴾ يدل على استعداد للفداء بالنفس، ولا قوله ﴿فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ﴾ يدل على اطمئنان نفسه بعد أن نزلت السكينة على النبي(ص) خاصة، ولا قوله ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوها﴾ له علاقة به إذ التأييد بالجنود كان للنبي(ص) خاصة. وهذا لا يعني عدم وجود الاستعداد للفداء أو اطمئنان النفس وإنما فقط أن الآية لا تقول بذلك. فأي مقارنة بسيطة بين الآيتين، اللتين تحكيان الموقفين لا بد تخرج بنتيجة أن الموقف العلوي أعلى، بل أعلى بكثير.

ولا يظنن القارئ أني أحاول رفع علي(ع) وخفض أبي بكر، ولكن المقام هو تبيان الحالة النفسية والعقلية عندما تعاملت مع هذه النصوص، وهي تضع على المحك الاعتقادات السابقة، لأن الكلام عن مبيت علي(ع) في فراش النبي(ص) لا بد وأن يأتي بصحبة أبي بكر للنبي(ص) في الغار، كيف لا وذلك في نفس الليلة وفي نفس القضية، وكيف لا وكلما تم بحث منزلة علي(ع) لا بد من السؤال عن مدى معرفة من تقدمه بالخلافة عن كل ذلك، ولاسيما وقد نزلت الآيات في حياتهم، وأحياناً كان الوحي يتنزل وهم جالسون مع النبي(ص).

إن موقف علي(ع) هذا من أروع المواقف التي ترسم صورة علي(ع) في حياة النبي(ص): الجندي المخلص الذي يفعل أقصى ما يمكن ويقدم أقصى ما يملك فداء لقضيته. ففي سيرة أي رجل آخر على عهد النبي(ص) مثل هذا الموقف؟

(2) يوم بدر الخالد

اليوم الفاصل في حياة الإسلام، بل في حياة البشرية، اليوم الذي كان من الحسم بمكان بحيث أن النبي(ص) كان يدعو قبيل المعركة «اللهم إنْ تَهلِكَ هذهِ العِصابةُ لا تُعبَدُ في الأرض!» اليوم الذي سماه الله تعالى بيوم الفرقان بين الحق والباطل: ﴿يومَ الفُرقانِ يومَ التقى الْجَمْعانِ﴾، ويصف المسلمين قبلها بالذلّة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يوم ظهور الحق على الباطل ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

في ذلك اليوم خرج المسلمون وقلوبهم ليست بنفس الدرجة من الإقبال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ - البعض لا يريد الخروج للقتال، فإن خرجوا فإنهم يودون أن يصيبوا قافلة التجارة التي عليها أبو سفيان. بل أن الوصف ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يعطي صورة معدومة الجمال لذلك الفريق من المؤمنين، فهم لم يخرجوا عن صفة المؤمنين، ولكن الإيمان درجات ويزيد وينقص.

فماذا فعل علي بن أبي طالب(ع) في ذلك اليوم الخالد؟ وماذا عرفت؟

لا أذكر أنه كان أول من قاتل، وقتل الوليد أخا هند بنت عتبة (أي خال معاوية)، واشترك مع حمزة في قتل عتبة بن ربيعة أبي هند (جد معاوية)، واشترك وحمزة في الاجهاز على شيبة بن ربيعة عم هند بعد أن تبارز مع عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب وجرح كل منهما الآخر.

ولكن أقول، وربما لولعي بالرياضيات وخلفيتي الدراسية في الهندسة ما يجعل من الأرقام عندي ذات أهمية ينبغي الالتفات إليها عسى أنه تعطي بعض الإشارات، أقول أنه في يوم بدر كانت أرقام المقاتلين والقتلى والقاتلين فريدة من نوعها. كان جيش المسلمين 313 مقاتلاً، وجيش قريش 950 مقاتلاً. قتل من المشركين 70 وأسر 70. أتعلم كم قتل علي(ع) من هؤلاء الـ 70 مشركاً؟

قتل علي(ع) وحده ما لا يقل عن 24 مشركاً، وهذا في أقل الروايات، لأن بعض الروايات تتحدث أن علياً(ع) قتل نصف المشركين. ولكن لننظر في الرواية الأولى.

علي(ع)، جندي واحد من 313 يقتل أكثر من ثلث قتلى المشركين. أي ثلث الواحد بالمائة من جيش يوقع أكثر من ثلث ضحايا الجيش المعادي! هل سمع أحد بمثل هذا في معركة أخرى؟

وهذا ليس في زمان الطائرات والدبابات التي يمكن معها حصول هذا، مثلاً في جبهة يشتعل جزء منها فتوقع نار الطائرات والدبابات والمدافع والصواريخ عدداً كبيراً من الطرف الآخر. لقد كان ذلك في زمان القتال بالسيف والرمح، فلم يكن علي(ع) يملك أكثر من غيره من الصحابة، يملك يدين يقاتل بهما ورجلين يثبت عليهما... ولكن كان لعلي(ع) قلب لا كباقي القلوب، ثبت وتقدم وأطاح بالرؤوس والأيدي في ملحمة عز نظيرها.

فهل أقارن بين موقفه وموقف من لم يستطع سوى قتل واحد أو اثنين، إن صحت الروايات؟ أو بين موقفه وموقف الجالس مع النبي(ص) في العريش لا يرفع سيفاً ولا يطعن برمح ولا يرمي بسهم؟ المقارنة ظالمة لأن أولئك لا يمكن مقارنتهم بأبطال الصحابة – غير علي(ع) – الذين أبلوا بلاء حسناً يوم بدر، كحمزة بن عبد المطلب والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ وأشباههم، فكيف مقارنتهم بعلي(ع) وقد فعل هذا الذي ذكرنا.

(3) في يوم أحد

إمتزج النصر بالهزيمة يوم أحد، فحققت قريش بعض ما أرادته من الثأر، وأوجعت قلب النبي(ص) بعمه حمزة بن عبد المطلب الذي لم تكتف هند بنت عتبة بقتله، حيث قام وحشي بما اتفق عليه معها، بل بادرت إلى التمثيل بجثته أبشع تمثيل – وهذا شأن تلك الشجرة الأموية وديدنها كما فعلت بعدها، ذرية بعضها من بعض.

كان لواء قريش عند بني عبد الدار، وقد قدموا يطلبون ثأر قتلاهم ببدر، فتقدم علي(ع) لأولهم فقتله، فأخذ الراية الثاني فقتله، وهكذا حتى أتى على تسعة منهم. ثم اشتبك المسلمون بالمشركين حتى أوقعوا بهم الهزيمة، فلحق المسلمون المشركين طمعاً بالمغنم ونزل معهم الرماة على الجبل، ولم يستطع عبد الله بن جبير رئيسهم أن يمنعهم وأن يجعلهم يمتثلون لأمر النبي(ص) بعدم النزول مهما كانت النتائج فقاتل حتى قتل مع ثمانية من الرماة الباقين معه رضوان الله عليهم، فتداخل الناس وحمل خالد بن الوليد في كتيبة المشركين المراقبة للأحداث حتى أحال هزيمة قريش إلى هجوم معاكس، وحتى انهزم المسلمون، ولم يثبت مع النبي(ص) سوى القلائل، ربما سبعة أو ثمانية حسب التاريخ المعترف به عند أهل السنة، ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشة، وقد أحله النبي(ص) من العهد لما وجده معه هو وعلياً(ع) فقط (حسب رواية الصدوق الشيعي)، لكنه أبى وبقي ثابتاً رضوان الله عليه.

أما بطولات علي(ع) في ذلك اليوم الخالد فلعل أعظمها كان الحفاظ على حياة النبي(ص)، فإنه(ص) لما أحاط به المشركون وصارت كتائبهم تهجم عليه من كل جانب، كان يقاتل عنه علي(ع) من جهة وأبو دجانة (رض) من جهة حتى جرح أبو دجانة وجاء علي(ع) به إلى النبي(ص).

وروي أن جبريل(ع) نزل وقال للنبي(ص): ‹‹يا رسول الله إن هذه لهي المواساة››، فقال له النبي(ص): ‹‹إنه مني وأنا منه››، فقال جبريل: ‹‹وأنا منكما يا رسول الله›› كما روى أبو رافع (الرياض النضرة ج2 ص172 والهيثمي في المجمع ج6 ص114 وفي غيرها).

بل روي أن الملائكة نادت في السماء: ‹‹لا فتى إلا علي، ولا سيف إلا ذو الفقار››.

(ملاحظة: الكثير من الروايات التي تخص علياً(ع) هناك من يضعفها ويجعلها من الموضوعات، فلما تأتي إلى التحليل تجده يرمي أحد رواتها بالكذب، أو بأنه متروك، أو بأنه لا يؤخذ عنه، وإن كان بعضهم أقل كذباً وتدليساً فيذكر التوثيق مع الترك والتكذيب فيقول قال فلان أنه متروك ولكن وثقه فلان؛ إلا أن النتيجة هو أنه يأخذ بقول الذين يضعّفون ويترك أقوال الآخرين، ولا حتى يوازن بينهما ليبقي الباب مفتوحاً أمام الرواية، التي إن صحت فإنما هو قول النبي(ص) الذي لا يمكن رده اتباعاً للهوى؛ هذا، أما أهم مبرر عند هؤلاء لرد الروايات المتعلقة بعلي(ع) فهي الرفض، أي رمي الراوي بأنه شيعي، أو رافضي، وذلك حسب مزاج المتكلم ومنهجه العلمي – إن كان ثمة منهج علمي –، مع أن رواة الشيعة كثيرون في أحاديث صحاح أهل السنة ومنها البخاري ومسلم. لذا وجب التنبيه.)

إرتفعت بعيني عظمة مواقف علي(ع) يوم أحد، ومواقف الثابتين ولاسيما من الأنصار كأبي دجانة وأنس بن النضر وسعد بن معاذ ونسيبة بنت كعب، عندما قرأت عن الذين أكدت الروايات فرار من فر منهم حتى لم يرجع إلا بعد ثلاث، وقعود من قعد منهم حتى وصل بهم الأمر أن ينتظروا من يأتيهم بالأمان من أبي سفيان! هذا في الوقت الذي كانوا عاهدوا اللّه ورسوله(ص) من قبل وكان عهد الله مسؤولاً (راجع الجزء الثاني المدرستان، وكتاب "من ثمرات العودة").

(4) في يوم الخندق

يوم حاصرت قريش وحلفاؤها المدينة المنورة شهراً وهم يحاولون الجواز إلى النبي(ص) وصحبه ولكن الخندق، الذي أمر النبي(ص) بحفره بناء على اقتراح سلمان (رض)، منعهم من الاشتباك مع المسلمين. كانت تلك أياماً عصيبة جداً وصل الأمر – كما حكى القرآن الكريم – ببعض المسلمين أن شكوا بوعد النبي(ص) لهم، وببعض المنافقين أن يتسللوا أو يأتوا النبي(ص) يقولون إن بيوتهم عورة طالبين الإذن للذهاب لحمايتها ولكنهم كانوا يريدون الفرار، ووصل الخوف أشده حتى وصفه الباري عز وجل بالقول: ﴿وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ، وَتَظنُّونَ باللّهِ الظُّنُونا! هُنالِكَ ابْتُلِيَ المُسلِمُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيدًا﴾. إذاً، فإن الموقف الشجاع في ذلك اليوم لم يكن كغيره في أيام أقل شدة. فماذا كان صنع علي(ع) يوم الخندق أو يوم الأحزاب؟

طلب النبي(ص) من الصحابة أن يذهبوا ليأتوا بخبر قريش والأحزاب فما رضي أحد أن يذهب، حتى أمر النبي(ص) حذيفة بن اليمان (رض)، فذهب ثم حكى بعد ذلك أنه لولا أمر النبي(ص) لما ذهب... كل ذلك من شدة الخوف.

وخرج عمرو بن عبد ود العامري يطلب المبارزة ويلح في الطلب ويرتجز، فيعرض النبي(ص) الخروج لـه مـع ضـمان الجنة وفي كل مرة لا يعرض الاستجابة إلا علي(ع)، والنبي(ص) لا يأذن له، حتى بلغ الأمر أن أخـذ يسـخر عمـرو بالمسلمين ويقول:

وَلقد بُححتُ مِنَ النِّداءِ   بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبارِزْ؟!

فأذن النبي(ص) لعلي(ع)، فخرج علي(ع) مجيباً رجزاً:

لا تَعجَلَنَّ فَقَد أتاكَ   مُجيبَ صَوتِكَ غَيرَ عاجزْ

إنِّي لأرجُو أنْ أُقِيمَ   عَلَيكَ نائِحَةَ الْجنائِزْ

مِنْ ضَرَبَةٍ نَجْلا ءَ   يَبقى ذِكرُها عِندَ الهَزاهِزْ!

وعندما خرج(ع) قال النبي(ص) كلمة خالدة تكشف عن واقع علي(ع): «خرج الإيمان كله إلى الشرك كله» (ينـابيع المودة ص94). فكان أن تكلم علي(ع) وعمرو وانتهى الأمر بأن ضربه(ع) ضـربة واحـدة قضـت عليـه، في تفاصـيل أخرى تكشف أكثر عن جمال شخصية أمير المؤمنين(ع).

بل روي أن النبي(ص) قال: «لمبارزة علي بن أبي طالب(ع) لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل مـن أعمـال أمتـي إلى يوم القيامة» مستدرك الحاكم ج2 ص32، ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج13 ص19.

وفي الدر المنثور للسيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَـروا بِغَيضِـهِم لَـمْ يَنـالُوا خَـيراً وكَفـى اللـهُ الُمؤمِنِينَ القِتال﴾ (الأحزاب:25) أن ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر أخرجوا عن ابن مسـعود أنـه كـان يقرأ كذا: "وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب"، أو "وكفى الله المؤمنين بعلي" حسب روايـة ميـزان الاعتدال للذهبي ج 2 ص17.

أقول: هذا يعني أن ابن مسعود كان يقرأها مع تفسيرها الذي يعتقده وربما كان يريد أن يعلم الناس به أن قتـل علي(ع) لعمرو كان بمثابة الضربة التي أطاحت بمعنويات الكافرين، فعندما هبت الريح التي أرسلها الله عليهم فلم يعد هناك مجال للمكابرة فانسحبوا.

<u>(5)يوم خيبر</u>

خيبر أقوى حصون اليهود في المدينة، صارت ملجأ اليهود بعد جلاء بني قريظة بعد معركة الخندق وانكشاف تآمر يهود قريظة مع قريش، وبعد صلح الحديبية بسنة حاصرها النبي(ص) سنة 7هـ بعد الخشية من تآمرهم مع يهود غطفان كما روى المؤرخون. ما رواه المؤرخون من تفاصيل مشاركة علي(ع) في تلك الموقعة الفاصلة يبهر العقول ومن جهات مختلفة: الطاعة المطلقة الكاملة للنبي(ص)، الإعلان عن حب علي(ع) لله ورسوله(ص)، الإعلان عن حب الله ورسوله(ص) له(ع)، عدم إرسال النبي(ص) علياً(ع) إلى الفتح إلا بعد أن أعطى الفرصة لغيره من كبار الصحابة – من الذين كنت أعتقد أنهم أفضل من علي(ع) – ففشلوا ولم يحصل الفتح على أيديهم، ثم العطاء الإلهي المتمثل بتلك القوة البدنية الهائلة التي أعطاها لعبده وأخي نبيه(ص) يوم قلع باب الحصن، ذلك الباب الذي عجز عنه الجمع من الرجال. (في كتاب "ما بعد العودة" أتناول هذه التفاصيل إن شاء الله.)

روى الإمام أحمد في المسند ج6 ص8 أن علياً(ع) تناول باباً عند الحصن فاستخدمه كترس يحمي نفسه به وهو يقاتل ثم رماه، فيقول أبو رافع مولى النبي(ص) بأنه جاء مع نفر سبعة وهو ثامنهم "نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه!". تصور القوة الهائلة: يحمله كترس – وفي رواية جلس تحته وجعله جسراً لعبور المسلمين المقاتلين إلى داخل الحصن – ثم لا يستطيع ثمانية رجال أن يقلبوه فحسب!

ورواه أيضاً إبن جرير الطبري في التاريخ ج2 ص300، ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه ج11 ص324 عن جابر بن عبد الله أنه لم يستطع حمل باب خيبر بعد ذلك إلا أربعون رجلاً.

وقد فسّر علي(ع) نفسه ذلك بالقول: «والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية» على ما رواه الفخر الرازي في تفسيره الكبير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحابَ الكَهفِ والرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً﴾ (الكهف:9) وهو يتحدث عن جواز وقوع الكرامات.

(6) يوم حُنين

روى الهيثمي في المجمع ج6 ص180 عن أنس قال: "لما كان يوم حنين إنهزم الناس عن رسول الله(ص) إلا العباس بن عبدالمطلب وأبو سفيان ابن الحارث – يعني إبن عم النبي(ص) –... وكان علي بن أبي طالب(ع) يومئذ أشد الناس قتالاً بين يديه".

نعم، إطلعت على هزيمة المسلمين مع أنهم كانوا كثيرين حتى قال أبو بكر: "لن نُهزَم اليوم من قلة"، على ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ (التوبة:25-26).

في رواية مسلم أن النبي(ص) إنحاز ذات اليمين، وهو يقول: «إلي يا عباد الله، أنـا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب!» ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار. وروى المحدثون والمؤرخون أنه لم يثبت مع النبي(ص) إلا بنو عبد المطلب: علي(ع) وأخوه عقيل وعتبة ومعتب ولدا أبي لهب وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وربعة أخوه، وأخوهما أبو سفيان وولده جعفر، وعمه العباس – الذي أمره النبي(ص) بالمناداة على الأنصار (أنظر تحت) وولداه الفضل وقثم، ومعهم بعض الأصحاب القريبين كأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن. كما رووا فرار من فر من الكبار وبضمنها رواية البخاري التي عندما يسأل أبو قتادة عمر بن الخطاب "ما شأن الناس" يجيبه الأخير: "أمر الله"!

وروى العباس بن عبد المطلب هذا الموقف فقال: "شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَلَ الكفار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أي عباس! نادِ أصحاب السَّمُرَة – أي أصحاب بيعة العقبة –» فقال العباس: أين أصحاب السمرة؟ قال: فو الله لكأَن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي، عَطْفَة البقر على أولادها (أي آبوا مسرعين) فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار".

أقول: يبدو أن النبي(ص)، مرة أخرى، عرف أن اعتماده يجب أن يكون على الأنصار وإلا لما طلب من العباس أن ينادي عليهم. ومرة أخرى يبين بنو عبد المطلب ومنهم آل أبي طالب أنهم الطليعة في الدفاع عن الإسلام ونبيه(ص).

(7) لواء النبي(ص) مع علي(ع) في كل معركة

روى الحاكم في المستدرك ج3 ص111 عن ابن عباس أنه قال: "لعلي(ع) أربع خصال ليست لأحد: هو أول عربي وأعجمي صلّى مع رسول الله(ص)، وهو الذي كان لواء النبي(ص) معه في كل زحف، والذي صبر معه يوم المهراس، وهو الذي غسّله وأدخله قبره" (ويوم المهراس هو يوم أحد).

وفصّل معبد الجهني ذلك في رواية ابن سعد في الطبقات ج3 ص15 قال: "كان يحملها – أي الراية – في المسيرة ابن ميسرة العبسي، فإذا كان القتال أخذها علي بن أبي طالب".

وتختلف معها رواية في أسد الغابة ج4 ص20 أن سعد بن عبادة هو الذي كان صاحب الراية فإذا كان وقت القتال أخذها علي بن أبي طالب(ع).

ورواية ابن سعد في ج3 القسم 1 ص14 من الطبقات عن قتادة أن علياً(ع) كان صاحب لواء النبي(ص) يوم بدر والمشاهد كلها.

وهناك ما يخص يوم خيبر كما حدّث أبو سعيد الخدري أن النبي(ص) "أخذ راية فهزّها وقال: ‹‹من يأخذها بحقها؟›› فجاء فلان فقال:أنا، قال: ‹‹أنط›› أي تنحَّ أو ابتعد، ثم جاء رجل فقال له: ‹‹أنط››، ثم قال(ص): ‹‹والذي كرّم وجه محمد(ص) لأعطينّها رجلاً لا يفرّ، هاك يا علي›› فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر وفدك (مسند أحمد ج3 ص16 والهيثمي في المجمع ج9 ص124).

ورواية أسد الغابة ج4 ص21 عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن أبا بكر أخذ اللواء ثم أخذه عمر في اليوم الثاني أو قيل أخذه محمد بن مسلمة، فقال النبي(ص): ‹‹لأدفعنّ لوائي إلى رجل لم يرجع حتى يفتح الله عليه››... ثم صلى النبي(ص) صلاة الغداة ودعا باللواء ودعا علياً(ع) وهو يشتكي عينيه فمسحهما ودفع إليه اللواء ففتح.

وهذه الرواية لا تفصّل خبر الحرب في أن قتال اليوم الأول لم يأت بشي ولا اليوم الثاني، ولعل هذا هو الذي جعل النبي(ص) يقول لفلان عندما أراد أن يأخذها أن يتنحى ويبتعد ويقول لرجل كذلك كما في رواية مسند أحمد التي لم يفسّر فيها من فلان ومن ذلك الرجل، على أني أستطيع تخمين هوية هذين الرجلين لأنه لا يوجد الكثيرون ممن يتحرج من ذكر أسمائهم في الأحوال المذمومة.

أقول: عندما يجعل النبي(ص) علياً(ع) صاحب اللواء في كل غزوة ومعركة دون استثناء لا بد أنه يعني: إما أن علياً(ع) هو الأفضل في الجهاد، سواء من ناحية الملكات العسكرية أو الإقدام والشجاعة، أو أن علياً(ع) هو الأفضل عموماً وبالتالي يقدمه النبي(ص) بالشكل الذي يعلن ذلك للمسلمين والكافرين حتى يعلم الكافرون، وبضمنه من سيسلم منهم بعد ذلك، أن علياً(ع) هو التالي للنبي(ص) دون فصل، أو الأمرين جميعاً، أي التفضيل من ناحية الجهاد والتقديم في القيادة العامة. إن هذا أمر لا بد يعلمه النبي(ص)، وبالتالي ما كان ليفعل ذلك إلا لأنه يريده، فإنه(ص) كان لا يفعل شيئاً يمكن أن يساء فهمه وذلك سداً لذرائع الاختلاف والنزاع فيما بعد. وما كان يريده النبي(ص) يريده الله، والله تعالى هو أعلم بعبده وأخي نبيه(ص) بملكاته العسكرية وبشجاعته وبيعه نفسه لله دون تردد. ولئن وجد في المسلمين من لديه الملكات العسكرية القتالية والإقدام التام لخلوص الإيمان، كحمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب، أو من لا نستطيع أن نتبين الجانب العسكري فيهم ولكن سيرتهم الجهادية تدل على خلوص نياتهم وإقدامهم للقتال في سبيل الله دون تردد كزيد بن حارثة ومصعب بن عمير وسعد بن الربيع وعمرو بن الجموح وحنظلة غسيل الملائكة والعدد الكبير من الشهداء في بدر وأحد وما بعدهما، فإن المؤرخين والمحدثين والمفسرين والباحثين اتفقوا أنه لم يبرز أحد من هؤلاء وغيرهم كما برز علي(ع) في هذه

الناحية، ناحية الجهاد والقتال، حتى أبهرت حملاته الملائكة قبل الناس. (أنظر تنبيه السيد شرف الدين لهذا فيما سيأتي.)

(8) الصحابة – علي(ع) وغيره – في الحروب

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ، وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال:16) وهو نص صريح في منع الفرار من العدو إلا كجزء من التكتيك والفن القتالي أو لترك المكان والانضمام إلى مجموعة أخرى تقاتل. إلا أنا وجدنا أن الكثير من المسلمين من أصحاب النبي(ص) قد فرّوا في أكثر من مناسبة، ذكر بعضها السيد شرف الدين في المورد 50 من النص والإجتهاد.

قال: "فمنها يوم أُحد إذ حمل ابن قمئة على مصعب بن عمير رضي الله عنه فقتله وهو يظنه رسول الله(ص) فرجع إلى قريش يبشرهم بقتل محمد فجعل المشركون يبشر بعضهم بعضاً يقولون قتل محمد قتل محمد قتله ابن قمئة. فانخلعت قلوب المسلمين وأوغلوا في الهرب مدلهين لا يلوون على أحد كما حكاه الله عنهم حيث قال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ﴾ (آل عمران:153)، والإصعاد – يوضح شرف الدين – هو الذهاب في الأرض والإبعاد فيها... وكان الرسول يدعوهم فيقول: «إليّ عباد الله، أنا رسول الله، فمن كرّ فله الجنة» كان يدعوهم بهذا ونحوه وهو في أُخراهم أي في ساقتهم في جماعتهم المتأخرة... قال ابن جرير (ج2 ص203) وابن الأثير (ج2 ص158) في تاريخيهما: وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين وفيهم عثمان بن عفان وغيره إلى الأعوص فأقاموا بها ثلاثاً، ثم أتوا النبي(ص) فقال لهم حين رآهم: «لقد ذهبتم فيها عريضة»".

على أن البعض وقف موقفاً غير متوقع حقاً وذلك على ما ذكره أيضاً ابن جرير الطبري في التاريخ (ج2 ص201) وابن الأثير في التاريخ (ج2 ص110؛ وفي أسد الغابة ج1 ص131) حيث ذكرا أن "أنس بن النضر – وهم عم أنس بن مالك – انتهى إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قُتل النبي، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه النبي، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل، فوجد به سبعون ضربة وطعنة وما عرفته إلا أخته..." وقالوا: "وسمع أنس بن النضر نفراً من المسلمين يقولون لمّا سمعوا أن النبي(ص) قُتل: ليت لنا من يأتي عبد الله بي أبي بن أبي سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا! فقال لهم أنس: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم قاتل حتى استشهد" رضوان الله عليه (أيضاً البداية والنهاية لابن كثير ج4 ص26، والسيرة النبوية له ج3 ص44).

ومنها في يوم حُنين كما وصف الله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:26) نصّ البخاري في صحيحه (ج3 ص46) بخصوص هذه الآية وذكره ابن كثير في كتابه البداية والنهاية نقلاً عن الشيخين البخاري ومسلم (ج4 ص329) رواية عن أبي قتادة الأنصاري إذ قال: "وانهزم المسلمون وانهزمت معهم فإذا عمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال" أمرُ الله".

وكان من فشلهم في المعارك ما روي عن سير أبو بكر بالناس يوماً من أيام حصار خيبر ولكنه قاتل ومن معه وانهزموا ورجعوا على ما أخرجه الحاكم في المستدرك (ج3 ص37) في غزوة خيبر وبعد ذلك أرسل النبي(ص) في يوم آخر عمر فروي – كما في المستدرك – أن النبي(ص) بعث عمر ومعه الناس إلى خيبر فلم يلبثوا أن هزموا وجاء عمر وأصحابه "يجبّنونه ويجبّنهم" (نفس المصدر).

والكل يعلم ما كان من علي(ص) بعد ذلك حيث روى جابر بن عبد الله (المستدرك ج3 من كتاب المغازي) أنه قال: "قال رسول الله(ص): ‹‹لأبعثن غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه، لا يولّي الدبر يفتح الله على يديه›› فتشرف لها الناس، وعليّ يومئذ أرمد، فقال له رسول الله(ص): ‹‹سِر››، فقال: ‹‹يا رسول الله ما أبصر موضعاً››، فتفل في عينيه ودفع إليه الراية، فقال علي: ‹‹يا رسول الله علام أقاتلهم؟ فقال(ص): على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل›› قال – أي جابر – فلقيهم ففتح الله عليه".

أقول: ونص الحديث في صحيح البخاري رواية 3887 عن سلمة رضي الله عنه قال: "كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر وكان رمداً فقال: ‹‹أنا أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم›› فلحق به فلما بتنا الليلة التي فتحت قال(ص): ‹‹لأعطين الراية غدا – أو – ليأخذن الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله يفتح عليه›› فنحن نرجوها، فقيل: هذا علي فأعطاه ففتح عليه". وفي رواية 3426 قال(ص): ‹‹لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله – أو قال – يحب الله ورسوله يفتح الله عليه››. وفي رواية 3888 عن سهل بن سعد قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: ‹‹لأعطين هذ الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله››.

ونص الحديث في صحيح مسلم، رواية 4420 من حديث سعد بن أبي وقاص مع معاوية قال: "وسمعته يقول يوم خيبر: ‹‹لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله››، ومثله رواية 4423. ورواية 3372 يقول(ص): ‹‹لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله – أو – يحبه الله ورسوله››، ومثله رواية 4424. وبنص ‹‹لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله›› في رواية 4422.

وحدث ذات الشيء في غزوة السلسلة بوادي الرمل حيث بعث النبي(ص) أبا بكر فرجع بالجيش منهزماً ثم بعث عمر فرجع بمن معه كذلك، ثم بعث بعدهما علياً(ع) ففتح الله عليه ورجع بالغنائم والأسرى (الإرشاد للمفيد ج1 ص113).

(9) تنبيه إلى مكانة علي(ع) في قيادة الجيوش والغزوات والسرايا

قال السيد شرف الدين ص 248 المورد 50 من النص والإجتهاد: "كان لرسول الله(ص) في التنويه بعلي(ع) وتفضيله على سواه من أهل السوابق لأساليب حكيمة عرفها متدبرو سيرته المقدسة، فمنها أنها لم يؤمّر عليه أبداً لا في حرب ولا في سلم، وقد أُمّرت الأمراء على من سواه (وذكر تأكيد ذلك من الحسن البصري على ما في المجلد الأول من شرح النهج ص369 نقلاً عن الواقدي)، فأمّر عمرو بن العاص على أبي بكر وعمر في غزوة ذات السلاسل (وهي في السنة 7هـ)، ولحق النبي(ص) بالرفيق الأعلى وأسامة بن زيد – على حداثته – أمير على مشيخة المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وأمثالهم، وهذا معلوم بحكم الضرورة من أخبار السلف.

وكان(ص) إذا أمّر علياً في غزوة أو سرية ضمّ إليه غيره من أهل السوابق، فإذا أمّر غيره استثناه مستأثراً به لنفسه (أضاف في الهامش: "كما فعل في غزوة خيبر إذ أمّر أبا بكر ثم أمّر عمر ولم يكن علي(ع) معهما، فلما أمّر علياً(ع) كانا معه حتى فتح الله عليه").

وإذا بعث سريّتين إحداهما معه والأخرى مع غيره عهد إليهما أنكما إذا اجتمعتما فالإمارة لعلي وحده على السريتين كلتيهما، وإذا افترقتما فكل منكما على سريته. (أضاف في الهامش: "كما رواه الإمام أحمد ص356 من الجزء الخامس من المسند في بعث اليمن إذ أرسل بعثين على أحدهما علي وعلى الآخر خالد بن الوليد فقال: ‹‹إذا إلتقيتم فعليّ على الناس، وإن افترقتما فكل واحد منكما على جنده››، والتي فيها ما روي من محاولة خالد بن الوليد الإيقاع بعلي(ع) عند رسول الله(ص) فكتب له في قضية المرأة التي أخذها علي(ع) من السبي وأرسل الرسالة مع بريدة فكان رد فعل النبي(ص) أنه قال: ‹‹لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه وهو وليّكم بعدي، وإنه مني وأنا منه وهو وليّكم بعدي›› كما بلفظ الإمام أحمد).

وألفتَ إلى أن النبي(ص) "ربما يبعث غير علي في غزوة فيرجع غير فاتح ولا مفلح وعندما يبعث علياً ويفتح الله عليه يظهر من فضله ما لم يكن ليظهر منه لو بعثه من أول الأمر".

أقول: وهذا المنهج، أي أن يبعث النبي(ص) غير علي(ع) ثم يبعث عليّاً(ع) بعده، مما حصل في مناسبات عدة، حربية وغير حربية. فمن الحربية ما ذكره السيد شرف الدين أعلاه، ومن غير الحربية ما حصل مع سورة براءة حيث بعث بها أبا بكر أولاً ثم نزل جبريل بأمر الله تعالى أن لا يبلغها إلا هو أو رجل منه فبعث عليّاً(ع). وهناك مناسبات فشل الآخرون في تنفيذ الأمر ثم بعث عليّاً(ع) لتنفيذه، كما في أمره(ص) أبي بكر وعمر قتل ذي الثدية وعودتهما

دون تنفيذ ثم بعث علياً(ع) فلم يجده (مسند أبي يعلى ج1 ص 90، ومجمع الزوائد للهيثمي ج6 ص227). ومناسبات أخرى انتظر فيها استجابة الآخرين فلما لم تحصل اعتمد على علي(ع)، كما في غزوة الأحزاب حيث لم يخرج أحد لقتال عمرو بن عبد ود، رغم إلحاحه في النداء للبراز، فكان أن أذن النبي(ص) لعلي(ع) (طبقات ابن سعد ج2 ص68، وتاريخ دمشق ج42 ص78، والبداية والنهاية لابن كثير ج4 ص121، وغيرهم).... وهكذا، ثم بعد هذا، وغيره الكثير، جعلوا من علي(ع) رابعاً بعد هؤلاء!

ثانياً: الدعوة إلى الإسلام على عهد النبي(ص)

كان النبي(ص) هو الذي يقوم بنفسه بالدعوة إلى الدين الجديد، فيتحدث إلى القبائل وإلى الذين يأتون البيت الحرام، ويذهب بنفسه أحياناً كما حاول مع أهل الطائف؛ في المدينة المنورة، بعد أن صار نبيها وحاكمها وقائدها، أمر بعض أصحابه ببعض المهمات الدعوية. من ذلك دعوة أهل اليمن الذين أرسل إليهم خالد بن الوليد أولاً ثم أرسل علياً(ع). يروي ابن الأثير (الكامل في التاريخ ج1 ص26) ذلك كما يلي:

"ذكر إرسال علي إلى اليمن وإسلام همدان

في هذه السنة بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليًا إلى اليمن، وقد كان أرسل قبله خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأرسل عليًا وأمره أن يعقل خالدًا ومن شاء من أصحابه ففعل، وقرأ علي كتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أهل اليمن فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: «السلام على همدان» يقوله ثلاثًا، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسجد شكرًا لله تعالى."

(أقول: للقارئ أن يفكر في أسباب فشل خالد ونجاح علي(ع)، كيف يحاول صحابي مع قوم مدة دون نجاح ثم يأتي صحابي آخر فينجح معهم في يوم واحد – أهو الفرق في درجات الإيمان، أم النية، أم الطريقة، أم أن الله تعالى – المهيمن على كل شيء – يريد أن يوجه نظر العباد إلى البركات التي تحصل من أوليائه العظام(ع)؟)

أما الواقدي فقد ذكر هذا البعث بشكل أكثر تفصيلاً:

"سرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن

قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام في رمضان سنة عشر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعسكر بقباء، فعسكر بها حتى تتام أصحابه، فعقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم

يومئذ لواء، أخذ عمامة فلفها مثنية مربعة فجعلها في رأس الرمح ثم دفعها إليه وقال: ‹‹هكذا اللواء›› وعممه عمامة ثلاثة أكوار وجعل ذراعاً بين يديه وشبراً من ورائه ثم قال: ‹‹هكذا العمة››.

قال: فحدثني أسامة بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار، عن أبي رافع قال: لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ‹‹إمض ولا تلتفت›› فقال علي عليه السلام: ‹‹يا رسول الله كيف أصنع؟›› قال: ‹‹إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم تلومهم ترهم أناة ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله؟ فإن قال: نعم فقل: هل لكم أن تصلوا؟ فإن قالوا: نعم فقل: هل لكم أن تخرجوا من أموالكم صدقة تردونها على فقرائكم؟ فإن قالوا: نعم فلا تبغ منهم غير ذلك. والله لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت››.

قال: فخرج في ثلاثمائة فارس، فكانت خيلهم أول خيل دخلت تلك البلاد، فلما انتهى إلى أدنى الناحية التي يريد – وهي أرض مذحج – فرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم وسبي ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك. فجعل علي على الغنائم بريدة بن الحصيب، فجمع إليه ما أصابوا قبل أن يلقاهم جمع، ثم لقي جمعاً فدعاهم إلى الإسلام وحرض بهم فأبوا ورموا في أصحابه. ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان السلمي، فتقدم به، فبرز رجل من مذحج يدعو إلى البراز فبرز إليه الأسود بن الخزاعي السلمي فتجاولا ساعة وهما فارسان فقتله الأسود وأخذ سلبه. ثم حمل عليهم علي بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً، فتفرقوا وانهزموا وتركوا لواءهم قائماً، فكف عن طلبهم ودعاهم إلى الإسلام فسارعوا وأجابوا، وتقدم نفر من رؤسائهم فبايعوه على الإسلام وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله."

(مغازي الواقدي ج3، عن موقع "الإسلام" المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على شبكة الانترنت)

فقارن بينه وبين فعل خالد بن الوليد، وذلك في مسيره إلى بني جذيمة بعد فتح مكة، نورده من نفس المصدر أعلاه، أي موقع "الإسلام" المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على شبكة الانترنت، ولكن من سيرة ابن هشام).

"مسير خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة من كنانة ومسير علي لتلافي خطأ خالد

قال ابن إسحاق: وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل ولم يأمرهم بقتال، وكان ممن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، فوطئ بني جذيمة، فأصاب منهم."

ثم ذكر ابن هشام بيتين لعباس بن مرداس السلمي. ثم قال:

"قال ابن إسحاق: فحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب: سليم بن منصور ومدلج بن مرة، فوطئوا بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه القوم أخذوا السلاح فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا.

قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أصحابنا من أهل العلم من بني جذيمة قال: لما أمرنا خالد أن نضع السلاح قال رجل منا يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق والله لا أضع سلاحي أبداً. قال: فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب وأمن الناس. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم السلاح لقول خالد.

قال ابن إسحاق: فحدثني حكيم بن حكيم عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد».

[غضب الرسول مما فعل خالد وإرساله علياً]

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أنه حدث عن إبراهيم بن جعفر المحمودي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت كأني لقمت لقمة من حيس فالتذذت طعمها، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها، فأدخل علي يده فنزعه؟» فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه سرية من سراياك تبعثها، فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض فتبعث علياً فيسهله.

قال ابن هشام: وحدثني أنه انفلت رجل من القوم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل أنكر عليه أحد؟» فقال: نعم، قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهمه خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما، فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فابني عبد الله وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن إسحاق: فحدثني حكيم بن حكيم عن أبي جعفر محمد بن علي قال: ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: «يا علي، أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك». فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم علي رضوان الله عليه حين فرغ منهم: «هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم

يود لكم؟» قالوا: لا. قال: «فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما يعلم ولا تعلمون ففعل». ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فقال: «أصبت وأحسنت» قال: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى مما تحت منكبيه يقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرات.

[معذرة خالد في قتال القوم]

قال ابن إسحاق: وقد قال بعض من يعذر خالداً إنه قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام.

قال ابن هشام: قال أبو عمرو المدني: ما أتاهم خالد قالوا: صبأنا صبأنا.

[ما كان بين خالد وبين عبد الرحمن وزجر الرسول لخالد]

قال ابن إسحاق: وقد كان جحدم قال لهم حين وضعوا السلاح ورأى ما يصنع خالد ببني جذيمة: يا بني جذيمة ضاع الضرب، قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه. قد كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف، فيما بلغني، كلام في ذلك فقال له عبد الرحمن بن عوف: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، فقال: إنما ثأرت بأبيك، فقال عبد الرحمن: كذبت، قد قتلت قاتل أبي، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة، حتى كان بينهما شر. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»."

(أقول: وكان خبر ما كان في الجاهلية، على ما رواه ابن هشام في نفس المصدر مباشرة بعد ما أوردته أعلاه:

[ما كان بين قريش وبني جذيمة من استعداد للحرب ثم صلح]

"وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وعوف بن عبد مناف بن عبد الحارث بن زهرة وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس قد خرجوا تجاراً إلى اليمن، ومع عفان ابنه عثمان ومع عوف ابنه عبد الرحمن، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جذيمة بن عامر، كان هلك باليمن، إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبوا عليه فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه وقاتلوه، فقتل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة، ونجا عفان بن أبي العاص وابنه عثمان وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة ومال عوف بن عبد عوف، فانطلقوا به وقتل عبد الرحمن بن عوف خالد بن هشام قاتل أبيه فهمت قريش بغزو بني جذيمة فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم عن ملإ منا، إنما عدا

عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب.)

أقول: في هذه القصة مواضع كثيرة للنظر والاعتبار ليس ههنا مكانها، ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى ما يلي:

- خالف خالد بن الوليد أمر النبي(ص) بالدعوة لا القتال مخالفة صريحة

- المخالفة لم تكن في أمر جزئي وإنما وصلت إلى إزهاق أرواح المسلمين، الله يعلم كم عددهم

- النبي(ص) كذب موقف خالد بن الوليد بأنهم لم يسلموا وإلا لما دفع دية القتلى المظلومين (نفس الفعل الذي سيفعله الخليفة الأول أبو بكر لمظلومين آخرين، هم مالك بن نويرة وقومه، قتلوا بنفس السيف – سيف الله المسلول)

- إصلاح الحال تم على يد علي(ع)، حتى أعلمه الله تعالى بذلك في الرؤيا، وفسرها أبو بكر تفسيراً صحيحاً

- لما بقيت عند علي(ع) زيادة في مال الدية إحتاط للنبي(ص) فدفع لهم الباقي حرصاً منه على سلامة جانب النبي(ص) من أن يناله سوء في تهمة لا تليق بقداسته ومنزلته(ص)

- ما فعله خالد كان ثأراً لعمه الذي قتل في الجاهلية، وهذا مخالفة صريحة للإسلام، بل هو قتل مسلمين بكافرين، بل قتل مسلمين كثيرين بكافر واحد

- عبد الرحمن بن عوف أكد هذا ورمى خالداً بالكذب (ترى ماذا سيحصل لأي مسلم اليوم إذا رمى خالداً بالكذب؟)

- خالد بن الوليد ليس من أصحاب النبي(ص) وإلا لما قال له النبي(ص): ‹‹مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي››، ويؤكده تتمة قوله(ص)، وهذا مدعاة للتفكير في تعريف الصحابي والذي جعلته مدرسة أهل السنة كل من رأى النبي(ص) وسمع حديثه، وكان تلك اللحظة أو الساعة كافية لتغيير ذلك الرجل إلى ما يشبه الملائكة!

ثالثاً: طاعة النبي(ص)

أما طاعة الأوامر، فقد رأينا كيف فعل علي(ع) عندما أرسله النبي(ص) إلى اليمن، وقارنا بينه وبين فعل خالد بن الوليد الذي خالف مخالفات صريحة، في بعثتين للدعوة إلى الإسلام. هنا أقارن بين موقف علي(ع) وموقف عثمان

بن عفان، وهو ليس بمستوى خالد بن الوليد، بل أعلى منه بكثير، بل أعلى من علي(ع) عند أهل السنة. المكان هو مكة المكرمة، والزمان هو يوم الفتح.

(1) بين الطاعة المطلقة للأوامر وإهمالها تماماً

"قالوا وكانت أم هانئ بنت أبي طالب تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فلما كان يوم الفتح دخل عليها حموان لها – عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والحارث بن هشام – فاستجارا بها وقالا: نحن في جوارك فقالت: نعم أنتما في جواري قالت أم هانئ: فهما عندي إذ دخل علي فارساً مدججاً في الحديد ولا أعرفه، فقلت له: أنا بنت عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فكف عني وأسفر عن وجهه فإذا علي عليه السلام، فقلت: أخي، فاعتنقته وسلمت عليه، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما، قلت : أخي من بين الناس يصنع بي هذا، قالت: وألقيت عليهما ثوباً، وقال: تجيرين المشركين؟ وحلت دونهما فقلت: والله لتبدأن بي قبلهما، قالت: فخرج ولم يكد فأغلقت عليهما بيتاً، وقلت: لا تخافا. قال: فحدثني ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي مرة مولى عقيل عن أم هانئ قالت: فذهبت إلى خباء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء فلم أجده ووجدت فيه فاطمة فقلت: ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ أجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما، قالت: فكانت أشد علي من زوجها وقالت: تجيرين المشركين؟ قالت: إلى أن طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رهجة الغبار فقال: مرحباً بفاختة أم هانئ، وعليه ثوب واحد، فقلت: ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ ما كدت أنفلت منه، أجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان ذاك، قد أمنا من أمنت، وأجرنا من أجرت" (مغازي الواقدي ج2 عن عن موقع "الإسلام" وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية على شبكة الانترنت).

(وفي رواية أخرى أن علياً(ع) لم يعرف أم هانئ بنفسه بل أغلقت الباب وخرجت فإذا بالنبي(ص) جاء إليها فشكت إليه ذلك الرجل المقنع بالحديد فطلب النبي(ص) منها أن تدله عليه فأشارت إلى أحد الواقفين فأخبرها أنه أخوها علي(ع)، ثم أعلن(ص) إجارته لمن أجارت.)

فقارن الآن بينه وبين موقف عثمان بن عفان، في نفس المكان ونفس اليوم...

يوم فتح مكة كان النبي(ص) قد أهدر دم جماعة من المشركين بحيث لا تنفع معهم شفاعة شيء ولا حتى الكعبة المشرفة لأنه(ص) أمر بقتلهم «حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة»، منهم عبد الله بن ابي سرح، أخو عثمان بن عفان من الرضاعة وأحد ولاته فيما بعد. أنقل ما جاء في مقالة بعنوان "ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين" من موقع الشبكة الإسلامية على شبكة الانترنت توضح الأمر.

قال كاتب المقالة: "عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: "لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان ، فجاء به حتى أوقفه على النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: ‹‹أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟›› فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟، قال: ‹‹إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين››" رواه أبو داود والبيهقي.

وبعد أن أورد معاني بعض المفردات، ومنها المقصود بكلمة "خائنة الأعين" أنها أن يومئ بعينه ما يدل على أنه يضمر بقلبه غير ما يظهره للناس، وذكر ما كان من انتصار النبي(ص) يوم الفتح وإعلانه العفو العام: ‹‹إذهبوا فأنتم الطلقاء››، قال بأن كان هناك "رجال أربعة وامرأتان لم يشملهم العفو، جمعوا إلى كفرهم وضلالهم، وغيهم وفسادهم، جرائم خاصة في حق النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي حق الدعوة، وحقوق الأبرياء الذين قتلوا على أيديهم وبأسبابهم، وكانت أسماؤهم كالتالي : "ابن خطل، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح"، وجاريتين كانتا تحت رجل من قريش تغنيان بهجاء النبي (صلى الله عليه وسلم)".

ثم قال: "وما إن لامس الخبر آذان أولئك حتى بادروا بالفرار شرقاً وغرباً، رغبة في الخلاص من شبح الموت الذي يلاحقهم، فمنهم من استجار بالكعبة – وهو ابن خطل – وتعلق بأستارها ظناً منه أن ذلك ينجيه من قرار القتل ، لكن أوامر النبي(ص) كانت واضحة منذ اللحظة الأولى: ‹‹أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة›› فسارع إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر رضي الله عنهما فسبق سعيد إليه فقتله".

ثم قال: "وبالمثل فقد كان لكل واحد من هؤلاء الذين وردت أسماؤهم قصة، تحمل في طياتها جذور ماض مظلم وتاريخاً غير مشرف، ويبرز من بينهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ذلك الرجل الذي أسلم قديماً وهاجر فيمن هاجر، وترقى في منازل الشرف حتى صار من كتاب الوحي، ليهوي من القمة إلى القاع، ويعلن ردته ثم يلحق بقريش، بل ويدعي بأقبح الافتراء وأشنعه أنه كان يملي الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهذا النوع من الكذب الرخيص يطعن في أصل نبوته عليه الصلاة والسلام ويقدح في صدقه، فلا عتب إذاً حين لم يشمله العفو العام".

إذاً، فقد كان ما فعله ابن أبي سرح لا يغتفر من أي مسلم، قديماً وحديثاً، لأنه – إضافة إلى ارتداده وعودته إلى أحضان قريش عدوة النبي(ص) – فإنه افترى أنه كان يملي من هواه ويزعم أنه الوحي وهو ما يثير الشك في الكتاب العزيز أولاً وفي سيطرة النبي(ص) على أهم شيء عنده وهو الوحي ثانياً.

ثم ذكر كاتب المقالة ما كان من شفاعة عثمان لهذا المرتد الكذاب: "وكان لعبد الله بن أبي السرح قرابة مع عثمان بن عفان رضي الله عنه، والصلة بينهما جاءت بسبب الرضاعة، فكان من الطبيعي أن يسارع إلى بيت أخيه رضاعة، وقد أعلن أمامه ندمه على ما كان منه من كذب وافتراء، وعداوة واجتراء، وذكر له رغبته في العودة إلى ظلال الإسلام، ورجاه أن يشفع له عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)".

المتوقع من عثمان أن يرفض القيام بالشفاعة لهذا المجرم، ويقوم بتنفيذ أوامر النبي(ص) دون إبطاء بقتله، أو على الأقل الإتيان بمن يقتله، أو على أقل الأمور أن يأتي به إلى النبي(ص) ويتركه يفعل معه ما شاء عسى أن يعفو عنه من نفسه. ولكن عثمان لم يفعل ذلك، بل – كما شرح كاتب المقالة – "أخذ عثمان رضي الله عنه بيد أخيه، وجاء به إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل أن ينفذ إليه أحد من المسلمين، وكلمه في شأنه ثم قال له: "يا رسول الله، بايع عبد الله".

أكمل: "نظر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ابن أبي السرح طويلاً دون أن ينطق بشيء، ووقف الصحابة من حوله يرقبون الموقف، وطال الصمت، فعاود عثمان رضي الله عنه قوله دون أن يحظى بجواب النبي عليه الصلاة والسلام، فكرر طلبه للمرة الثالثة، وهنا مد النبي عليه الصلاة والسلام يده موافقا على المبايعة.

وانصرف عبد الله مسروراً بقبول توبته والموافقة على بيعته، وما إن توارى عن الأنظار حتى التفت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى أصحابه معاتباً، وقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» .

نظر القوم إلى بعضهم والحيرة تملأ وجوههم، إذ لم يدر بخلد أحدهم أن إحجام النبي (صلى الله عليه وسلم) كان مقصوداً، وأنه عليه الصلاة والسلام كان راغباً في قتله، فقالوا تأكيداً لحيرتهم: "ما ندري يا رسول الله ما في نفسك" وسألوه: "ألا أومأت إلينا بعينك؟"

أوضح لهم النبي(ص) سبب سكوته: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين».

وهكذا، فلولا هذه الصفة النبوية، أو قل امتناع وجود هذه الصفة – الأمر بالإيماء – عند النبي(ص)، لما نفعت شفاعة عثمان. بعبارة أخرى، أن ابن أبي سرح لم يكن يستحق العفو مطلقاً ولكن عدم تمكن النبي(ص) من إنفاذ أمره بسبب إحجام الصحابة الموجودين عن تنفيذه جهلاً منهم بحقيقة موقفه(ص) هو الذي أنقذه – أي أن المسألة فيها جانب فني أو إجرائي أدى إلى نجاة هذا الكذاب من القصاص العادل، ما أدى بعدها إلى توليه الولايات في عهد الخلافة الراشدة حتى كان أحد أبطال الأحداث التي نقمت على الخليفة الثالث وأدت إلى الثورة عليه.

(على أن كاتب المقالة أعلاه ذهب إلى العكس من رأيي، فإنه جعل عدم إيماء النبي(ص) لتنفيذ الأمر بقتل ابن أبي سرح سبباً في العودة إلى إسلامه، وكالعادة نفس الكلمات: الصحابي الكريم، حسن إسلامه بعد ذلك،

شارك رضي الله عنه في ثلاث معارك كبرى... وأبلى فيهن بلاء حسناً... مات وهو ساجد في صلاة الصبح أو بعد انقضاء صلاتها، رضي الله عنه وأرضاه...)

(أقول: وفعل عثمان بن عفان مثل ذلك حتى بعد وفاة النبي(ص) مع عمه الحكم بن العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وآله "إذ طرده الرسول وحرم عليه دخول المدينة، وبوفاة الرسول راجع عثمان أبا بكر ليدخله لكن أبا بكر رفض، ولما مات أبو بكر راجع عثمان عمر ليدخل ولكن عمر رفض أيضاً أن يدخله المدينة في عهده، ولما تولى عثمان الخلافة أدخله معززاً مكرماً واعطاه مائة ألف درهم لأنه صحابي (المعارف لابن قتيبة ص141). وهذه أسوأ من الأولى لأنه لو كان على عهد النبي(ص) وطلب منه ورضي فمقبول، أما بعد وفاة النبي(ص) فكيف يعرف أن النبي(ص) سيرضى بهذا؟)

(2) إنتظار الأوامر

هذا الالتزام الكامل عند علي(ع) لأوامر النبي(ص) الصادرة إليه جعلته لا يتصرف في شيء لم يتضح فيه الأمر النبوي حتى يأتي النبي(ص) ويعرف منه، مع أن "الشاهد يرى ما لا يرى الغائب" ومع أن العذر فيمن تصرف إزاء أمر لم يصدر فيه أمر سابق عليه مقبول. وقد رأينا كيف تصرف بعض الذين أرسلهم النبي(ص) بأوامر واضحة محددة ومع ذلك خالفوها وضربوا بها عرض الحائط، فكيف بما لم يصدر فيه أمر محدد؟ وفي الرواية التالية الخاصة بالصدقات تبين الفارق بين علي(ع) وغيره في عدم إحداث شيء قبل سؤال النبي(ص).

"ذكر بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمراءه على الصدقات

وفيها بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمراءه وعماله على الصدقات فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت على صدقاتهم، وبعث عدي بن حاتم الطائي على صدقات طيء وأسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وجعل الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم على صدقات سعد بن زيد مناة بن تميم، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويعود، ففعل وعاد ولقي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة في حجة الوداع واستخلف على الجيش الذي معه رجلاً من أصحابه وسبقهم إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فلقيه بمكة، فعمد الرجل إلى الجيش فكساهم كل رجل حلة من البز الذي مع علي، فلما دنا الجيش خرج علي ليتلقاهم فرأى عليهم الحلل فنزعها عنهم، فشكاه الجيش إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقام النبي (صلى الله عليه وسلم) خطيبًا فقال: «أيها الناس لا تشكو علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله وفي سبيل الله»."(المصدر مغازي الواقدي ج3، عن موقع "الإسلام" المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على شبكة الانترنت).

[شكا علياً جنده إلى الرسول لانتزاعه عنهم حللاً من بز اليمن]

"قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة قال: لما أقبل علي رضي الله عنه من اليمن ليلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة تعجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذي كان مع علي رضي الله عنه. فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل، قال: ‹‹ويلك ما هذا؟›› قال: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس، قال: ‹‹ويلك انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم››. قال: فانتزع الحلل من الناس فردها في البز، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم عن سليمان بن محمد بن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب، وكانت عند أبي سعيد الخدري، عن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى الناس علياً رضوان الله عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً، فسمعته يقول: ‹‹أيها الناس لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله – أو في سبيل الله – من أن يشكى››.

قال: فحدثني عمر بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه قال: وجمع علي عليه السلام ما أصاب من تلك الغنائم فجزأها خمسة أجزاء فأقرع عليها، فكتب في سهم منها "لله"، فخرج أول السهام سهم الخمس ولم ينفل أحداً من الناس شيئاً. فكان من قبله يعطون أصحابهم – الحاضر دون غيرهم – من الخمس، ثم يخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يرده عليهم، فطلبوا ذلك من علي عليه السلام فأبى وقال: ‹‹الخمس أحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرى فيه رأيه، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوافي الموسم ونلقاه ويصنع فيها ما أراه الله››. فانصرف راجعاً، وحمل الخمس وساق معه ما كان ساق، فلما كان بالفتق تعجل. وخلف على أصحابه والخمس أبا رافع، فكان في الخمس ثياب من ثياب اليمن، أحمال معكومة ونعم تساق مما غنموا، ونعم من صدقة أموالهم.

قال أبو سعيد الخدري – وكان معه في تلك الغزوة – قال: وكان علي عليه السلام ينهانا أن نركب على إبل الصدقة، فسأل أصحاب علي عليه السلام أبا رافع أن يكسوهم ثيابا فكساهم ثوبين ثوبين. فلما كانوا بالسدرة داخلين مكة خرج علي عليه السلام يتلقاهم ليقدم بهم فينزلهم فرأى على أصحابنا ثوبين ثوبين على كل رجل فعرف الثياب فقال لأبي رافع: ‹‹ما هذا؟›› قال: كلموني ففرقت من شكايتهم وظننت أن هذا يسهل عليك، وقد كان من كان قبلك يفعل هذا بهم، فقال: ‹‹رأيت إبائي عليهم ذلك وقد أعطيتهم، وقد أمرتك أن تحتفظ بما خلفت فتعطيهم›› قال: فأبى علي عليه السلام أن يفعل ذلك حتى جرد بعضهم من ثوبيه، فلما قدم على رسول

الله صلى الله عليه وسلم شكوا، فدعا علياً فقال: ‹‹ما لأصحابك يشكونك؟ فقال: ما أشكيتهم؟ قسمت عليهم ما غنموا، وحبست الخمس حتى يقدم عليك وترى رأيك فيه، وقد كانت الأمراء يفعلون أموراً، ينفلون من أرادوا من الخمس فرأيت أن أحمله إليك لترى فيه رأيك›› فسكت النبي صلى الله عليه وسلم. قال: فحدثني سالم مولى ثابت عن سالم مولى أبي جعفر قال: لما ظهر علي عليه السلام على عدوه ودخلوا في الإسلام جمع ما غنم واستعمل عليه بريدة بن الحصيب وأقام بين أظهرهم، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً مع عبد الله بن عمرو بن عوف المزني يخبره أنه لقي جمعاً من زبيد وغيرهم وأنه دعاهم إلى الإسلام وأعلمهم أنهم إن أسلموا كف عنهم فأبوا ذلك وقاتلهم. قال علي عليه السلام: ‹‹فرزقني الله الظفر عليهم حتى قتل منهم من قتل›› ثم أجابوا إلى ما كان عرض عليهم فدخلوا في الإسلام وأطاعوا بالصدقة وأتى بشر منهم للدين وعلمهم قراءة القرآن. فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوافيه في الموسم، فانصرف عبد الله بن عمرو بن عوف إلى علي عليه السلام بذلك." (المصدر سيرة ابن هشام ج2، عن موقع "الإسلام" المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على شبكة الانترنت).

في هذه القصة هناك منهجان: منهج الأمراء الذين كان النبي(ص) يبعثهم قبل علي(ع) فيعطون الجيش من الخمس ما شاءوا، ومنهج علي(ع) الذي حبس الخمس حتى يأتي النبي(ص) ليرى ما يفعله فيه بما أمره الله تعالى. ولو فعل علي(ع) ما كان يفعله من قبله من أمراء الغزوات والصدقات لما كان النبي(ص) سيعاتبه لأنه يكون قد فعل ما فعلوه ولم يرفضه النبي(ص) أو يعاتبهم عليه، ولكن علياً(ع) شيء آخر – فهو ينتظر الأمر النبوي له شخصياً ومباشرة دون أن يتابع من كان قبله، ولعل هذه إشارة إلى إمامته(ع) لأنه – كإمام في طور الإعداد – لا يمكن أن يتبع إلا من هو أعلى منه وفي هذه الحالة هو النبي(ص) لا غير، فلا يجوز له أن يجعل من فعل الآخرين سنة يتبعها.

أيضاً، هناك نقطة أخرى، وهي شكاية القوم علياً(ع)، وهو أمر طبيعي، أولاً لأنهم يعتقدون أنهم يستحقون من الخمس على أساس أنهم قاموا بالجهد، وثانياً لأن غيرهم حصلوا على ذلك وفعل معهم أمراؤهم ذلك، ولكن النقطة هنا هي ما قاله النبي(ص) وهو:

- النهي عن الشكوى من علي(ع)، وهذا نهي سيكون غير مقبول لو كان علي(ع) شخصاً عادياً لأن القوم الذين شكوه لهم مبرراتهم التي ذكرناها أعلاه، وعليه فإن النهي عن الشكوى من علي(ع) هو نهي عام في كل شيء، وهو نظير أقوال أخرى للنبي(ص) في مقامات غير هذه (مثل نهيه بريدة الأسلمي عن الشكوى من علي(ع) بتحريض البعض كخالد بن الوليد من أجل أن "يسقطه عنده" أي عند النبي(ص)، وهناك نهاهم النبي(ص) عن الشكوى من علي(ع) وقال: ‹‹إنه مني وأنا منه›› ما يشير إلى الامتداد بعده(ص) وإلى العصمة التي تجعل من فعل علي(ع) وكأنه فعل النبي(ص) المعصوم)

- التوضيح للمسلمين أن علياً(ع) أخشن في ذات الله أو في سبيل الله من أن يفعل شيئاً حتى وإن لم يحبوه، ما يعني أن فعل علي(ع) هو نتيجة تقواه التي تمنعه من أن يفعل شيئاً لا يعرف ما يريد النبي(ص) أن يفعله به، بل وأنه «أخشن في ذات الله من أن يشكى»، فكأنه يقول لهم: امتنعوا عن شكوى علي(ع) على كل حال لأن ما يقوم به سيكون حقاً دون شك، أو على الأقل ما يقوم به نابع من شدة تقواه وتعبده بالأمر والنهي.

فهذا الفرق الواضح بين فعل علي(ع) وفعل الآخرين من الأمراء الذين كان يبعثهم النبي(ص) – وهو فرق واضح بين الذي لا يتحرك حركة إلا بأمر الله ورسوله(ص) وبين من يجد في الأمر سعة فيتصرف حسبما يرى؛ هذا وأن النبي(ص) لم يوبخ الآخرين وإنما كان يرضى بما يقومون به في هذه الجزئية، فليست المسألة دائرة بين الحلال والحرام وإنما بين التوقف التام على النصوص الشرعية والاجتهاد حسب الرأي.

رابعاً: آخر العهد برسول الله(ص)

(1) في ما كان من علي(ع) في آخر لحظات حياة النبي(ص)

عن أم المؤمنين عائشة ذكرت أن النبي حينما حضرته الوفاة قال: «أدعوا لي حبيبي» فدعوا له أبا بكر فنظر إليه ثم وضع رأسه، ثم قال مثل ذلك، فدعوا له عمر فلما نظر إليه وضع رأسه، ثم قال مثل ذلك فدعوا له علياً(ع) فلما رآه أدخله معه في الثوب الذي كان عليه، فلم يزل يحتضنه حتى قُبض ويده عليه (الرياض النضرة ج2 ص180).

وأخرج الهيثمي في المجمع (ج1 ص293) عن أبي رافع قال: "توفي النبي(ص) ورأسه في حجر علي بن طالب(ع) وهو يقول لعلي(ع): «الله الله وما ملكت أيمانكم، الله الله والصلاة» وكان ذلك آخر ما تكلم به رسول الله(ص)".

وذكر مثل ذلك بخصوص وفاة النبي(ص) في حجر علي(ع) إبن سعد في الطبقات ج2 قسم2 ص51، وفي كنز العمال ج4 ص55، والبخاري في الأدب المفرد باب حُسن المَلكة.

وأيضاً الهيثمي في المجمع (ج9 ص36) عن ابن عباس أن أُمَّي المؤمنين عائشة وحفصة كانتا عند النبي(ص) فدخل علي فأدناه منه فقال النبي(ص): «أدنُ مني أدنُ مني» فأسنده إليه فلم يزل عنده حتى توفي.

أقول: لعل هذا هو السبب في أنه عندما قال في حديث آخر «أدعوا لي حبيبي» أنهم دعوا له أبا بكر أولاً ثم عمر ثانياً، فأغلب الظن أن أم المؤمنين عائشة دعت أباها فلما لم ينفع دعت أم المؤمنين حفصة أباها، فلما لم

ينفع دعوا له علياً(ع). وهذا مفهوم أن كل واحدة منهما تريد الخير لأبيها ولاسيما وأن يكون آخر عهد النبي(ص) مع أي منهما هو الخير كله.

وأخرج أيضاً في ص112 عن جميع بن عُمير أن أمه وخالته دخلتا على عائشة.. فسألتاها عن علي(ع) قالت: "عن أي شيء تسألن؟ عن رجل وضع من رسول الله(ص) موضعاً فسالت نفسه في يده فمسح بها وجهه، واختلفوا في دفنه فقال: ‹‹إن أحب البقاع إلى الله مكان قبض فيه نبيه››"، قالتا: "فلمَ خرجتِ عليه؟ قالت: أمرٌ قُضي ووددتُ أن أفديه ما على الأرض من شيء".

وأخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص138 عن أم سلمة أنها قالت: "والذي أحلف به إن كان علي(ع) لأقرب الناس عهداً برسول الله(ص)، عُدنا رسول الله(ص) غداةً وهو يقول: ‹‹جاء علي جاء علي›› مراراً فقالت فاطمة(ع): ‹‹كأنك بعثته في حاجة››، قالت أم سلمة فظننت أن له به حاجة، فخرجنا من البيت وقعدنا عند الباب وكنتُ من أدناهم إلى الباب فأكبّ عليه رسول الله(ص) وجعل يسارّه ويناجيه، ثم قُبض رسول الله(ص) من يومه ذلك، فكان علي(ع) أقرب الناس عهداً" (وأخرجه النسائي في الخصائص ص40 وأحمد في المسند ج 6 ص300 وغيرهما).

وأما صاحب الكنز فقد أخرج في ج3 ص155 محاججة علي(ع) لأصحاب الشورى، فكان مما قاله: ‹‹أفيكم أحد تولّى غمض رسول الله(ص) غيري؟... أفيكم أحد آخر عهده برسول الله(ص) حين وضعه في حفرته؟›› ويجيبونه في كل ذلك: "اللهم لا".

وأخرج الإمام أحمد في المسند ج1 ص260 ما كان من أمر غسل النبي(ص) وكفنه ودفنه بما محصّله أن الذين كانوا في البيت العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب(ع) والفضل بن عباس وقثم بن عباس وأسامة بن زيد بن حارثة وصالح مولاه فلما اجتمعوا لغسله طلب أوس بن خُوَلّى الأنصاري الخزرجي، وكان بدرياً، أن يدخل ويحضر معهم فأذن له علي(ع)، قال وأن علياً(ع) أسند النبي(ص) إلى صدره وعليه قميصه وكان العباس والفضل وقثم يقلّبونه معه وكان أسامة بن زيد وصالح يصبان الماء وعلي(ع) يغسله، لم يُرَ من رسول الله(ص) مما يرُى من الميت فكان علي(ع) يقول: ‹‹بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً››. ثم بعد أن فرغوا من غسله كفّنوه بالأثواب وأرسلوا في طلب أبي عبيدة بن الجرّاح وأبي طلحة بن سهل الأنصاري فلم يجدوا أبا عبيدة (على الأكثر كان في السقيفة مع المجتمعين الذين انتهوا إلى بيعة أبي بكر) ولكنهم وجدوا أبا طلحة فجاء فحفر لحد النبي(ص).

ثم أمر علي(ع) الناس أن يصلوا عليه(ص) صفوفاً دون إمام، بل كان التكبير والصلاة بإمامة جبريل(ع)، ثم كان علي(ع) يدعو للنبي(ص) والناس يؤمنون على دعائه. (راجع تمام الروايات في الفصل السابق "العلم".)

وأخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص57 عن جابر بن عبد الله أنه لما توفي النبي(ص) عزّت الملائكة بصوت مسموع ولكن دون رؤية شخص فقالت: ‹‹السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة

وخلفاً من كل فائت، فبالله فثقوا وإيّاه فارجوا، فإنما المحروم من حُرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته›› وأخرجه ابن حجر في الإصابة ج2 ص129.

وكما أخرج السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ وإنَّما تُوَفَّونَ أُجُورَكُم يَومَ القِيامَةِ﴾ (آل عمران:185) أنه لما توفي النبي(ص) جاء آتٍ يسمعون حسّه ولا يرون شخصه يسلّم على أهل البيت ويقرأ هذه الآية ويقول مثلما قالته الملائكة في الحديث السابق، وإن علياً(ع) قال: ‹‹هذا الخضر››.

وأخرج مثله ابن سعد في الطبقات ج2 القسم2 ص48.

(2) علي(ع) يتولّى المستحقات بعد النبي(ص)

من ذلك روايات تشخّص علياً(ع) أنه هو قاضي دين النبي(ص) ومنجز مواعيده، كما في بعض روايات يوم الإنذار أي عندما نزلت: ﴿وأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِينِ﴾ وذلك في أول الدعوة فكان أن عرض النبي(ص) الأمر عليهم فأجابه إليه علي(ص) (مسند أحمد ج1 ص111 وغيره من المصادر).

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد في الطبقات ج2 قسم 1 ص89 أنه لما توفي النبي(ص) أمر علي(ع) من يدعو الناس إلى أن يأتوا بأي عِدَة أو دين كانت لهم على النبي(ص) فكان يبعث كل عام عند العقبة يوم النحر من يصيح بذلك حتى توفي علي(ع)، ثم كان الحسن(ع) إبنه يفعل ذلك حتى توفي، ثم كان الحسين(ع) يفعل ذلك حتى توفي... قال الراوي: "فلا يأتي أحد من خلق الله إلى علي(ع) بحق أو باطل إلا أعطاه".

وفي رواية ملفتة أخرجها الهيثمي في المجمع ج9 ص113 عن جابر بن عبد الله أن النبي(ص) طلب من عمه العباس أن يضمن عنه دينه ومواعيده فرفض العباس وقال: "لا أطيق ذلك، فقال له ابنه عبد الله بن عباس: فعل الله بك من شيخ! يدعوك رسول الله(ص) لتقضي عنه دينه ومواعيده! فقال: دعني عنك فإن ابن أخي يباري الريح – أي في الجود والوعد –" فدعا علي بن أبي طالب فطلب منه فأجابه إلى ذلك.

وفي رواية أخرى تذكر هذا الأمر مع وصايته عن النبي(ص) ما أخرجه الهيثمي في نفس المصدر أعلاه عن سلمان أنه سأل النبي(ص): "يا رسول الله إن لكل نبي وصياً فمن وصيّك؟" فلم يجبه فبعد مرة رآه فدعاه إليه فقال: ‹‹تعلم من وصي موسى؟›› قال: "نعم، يوشع بن نون"، قال: ‹‹لِمَ؟›› قال: "لأنه كان أعلمهم يومئذ"، قال: ‹‹فإن وصيّي وموضع سرّي وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني علي بن أبي طالب››؛ بمعنى: أن علياً(ع) أعلم الصحابة بحيث أن هذه الأعلمية هي الأساس للوصاية عن الأنبياء(ع).

وهناك روايات بنفس المعنى في المجمع أيضاً وفي خصائص النسائي وغيرها.

خامساً: رجوع الخلفاء الثلاثة إلى رأي علي(ع)

في الفصل السابق " العلم" ذكرنا بعض الشذرات من علم علي(ع) الذي أظهره بعد وفاة النبي(ص) على عهد الخلفاء الثلاثة، وهنا نذكر شذرات أخرى. فقد ذكر المؤرخون والمحدثون قضايا عديدة، في مسائل القضاء وغيره، رجع فيها الخلفاء الثلاثة الذين تقدموا علياً(ع) وغيرهم من الصحابة ومن جاء بعدهم إلى رأي علي(ع)، منها...

<u>على عهد أبي بكر</u>

عندما شاور أبو بكر الصحابة في قتال أهل الردّة قال علي(ع): ‹‹أقول لك إن تركت شيئاً مما أخذ رسول الله(ص) منهم فأنت على خلاف سنة رسول الله(ص)››، قال – أي أبو بكر –: "أما إن قلتَ ذلك لأقاتلنّهم وإن منعوني عقالاً" الرياض النضرة ج2 ص224. وروى صاحب الكنز في ج3 ص301 حديثاً شبيهاً في نفس الموضوع.

أقول: وهذه الفضيلة لأبي بكر كثيراً ما تذكر، وينبغي أن تذكر، ولكن لا يذكر معها مطلقاً أنها من فتوى أمير المؤمنين.

<u>وعلى عهد عمر</u>

ومن ذلك ما رواه أبو داوود في سننه ج28 باب المجنون يصيب حداً، بخصوص مجنونة جيء بها إلى عمر بتهمة الزنى، فأشار فيها البعض بأن تُرجم فمرّ بها علي(ع) فسأل عنها فقيل له فأمر أن يرجعوا بها ثم جاء إلى عمر فقال: ‹‹يا عمر أما علمتَ أن القلم قد رُفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يعقل؟›› قال: "بلى"، قال: ‹‹فما بال هذه ترجم؟›› قال: "لا شيء"، قال: "فأرسلها" قال: "فجعل يكبّر".

وروى شبيهاً به البخاري في كتاب المحاربين باب لا يرجم المجنون والمجنونة، وأحمد في المسند ج1 ص140، وغيرهما.

وبخصوص بدء التاريخ الهجري أخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص14 عن سعيد بن المسيّب قال: جمع عمر الناس فسألهم من أي يوم يُكتب التاريخ، فقال علي بن أبي طالب(ع): ‹‹من يوم هاجر رسول الله(ص) وترك أرض الشرك›› ففعله عمر. وقد رواه غير الحاكم.

أقول: هنا أيضاً، هذه الفضيلة العمرية لا يذكر معها مطلقاً أنها من فتوى أمير المؤمنين(ع).

ومن ذلك ما رواه إبن سعد في الطبقات ج2 القسم2 ص102 أن عمر بن الخطاب استفتى الأصحاب يوماً بما فعله من وقوعه على جارية له وهو صائم، فعظّم عليه القوم ذلك الفعل، ولكن علياً(ع) قال بعد أن سأله: ‹‹جئت حلالاً، ويوماً مكان يوم››.

وعلى عهد عثمان

ومن ذلك ما رواه الإمام مالك بن أنس في طلاق المريض ص36 أن امرأتين واحدة هاشمية والأخرى أنصارية كانتا زوجتين لحبّان جد راوي الرواية محمد بن يحيى بن حبّان فطلّق جده الأنصارية وهي ترضع، فمرّت بها سنة ثم هلك عنها ولم تحض فقالت أنا أرثه ولم أحض، فاختصمتا إلى عثمان بن عفان فقضى لها بالميراث، فلامت الهاشمية عثمان فقال: "هذا عمل ابن عمك هو أشار علينا بهذا – يعني علياً(ع) –". ورواه البيهقي في سننه ج7 ص419 وغيره.

وروى السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَصَّينا الإنسانَ بِوالِدَيهِ حُسْناً﴾ (الأحقاف:14) رواية بخصوص امرأة حكم عثمان بن عفان عليها بالرجم لأنه ولدت لستة أشهر، فبين له علي(ع) أن الحمل أقله ستة أشهر وذلك من خلال الجمع بين الآيتين: ﴿وحَملُهُ وفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً﴾ و ﴿والوالِداتُ يُرضِعنَ أولادَهُنَّ حَولَينِ كامِلَينِ لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ فعند طرح الأربعة وعشرين شهراً (الحولين الكاملين) من الثلاثين شهراً يبقى ستة أشهر مدة ممكنة للحمل؛ في آخر الرواية أن المرأة بعد أن رُجمت قالت لأختها بأنها لم تفعل الفاحشة وعندما شبّ الغلام اعترف الرجل به وكان أشبه الناس به.

سادساً: في العدل

يبدو أن تحقيق العدل من الأمور العسيرة جداً عند الإنسان، ولاسيما عندما يدور الأمر بين نفسه والآخرين، ولذلك جاءت الأحاديث تحث على إنصاف الإنسان الناس من نفسه وأمثاله، بل وقد جعلت الإيمان الحقيقي هي أن يحب الإنسان للآخرين ما يحب لنفسه. أما من الحكام، فإن من أهم الصفات هي العدل، لأن العدل من أعظم أهداف البعثات النبوية، قال تعالى: ﴿إنّا أَرسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وَآتَيناهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ﴾ الحديد:25. والناس لا تسأل على إيمان الحاكم بقدر ما تسأل عن عدله، لأن إيمانه بينه وبين ربه (على فرض عدم تأثيره على العدل، وهو غير ممكن بالنظرة المتكاملة، ولكنا نتحدث عن تفاصيل الحياة وإدارة المجتمع عموماً) في حين أن عدله يمس حياتهم.

في هذا يقول علي(ع): ‹‹وإنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويتمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر››. فهو يجعل المعيار الأساس في الحاكم هو العدل وحسن السياسة، بغض النظر عن كونه براً أو فاجراً، ويكون مما يؤمّنه ليس فقط ما للمؤمنين من حقوق بل حقوق الكافرين أيضاً.

والمطالع لسيرة علي(ع) يجد العجب من التزامه بالعدل المطلق في حياته، محكوماً وحاكماً. وقد امتدت عدالته لتشمل الجميع، مسلمين وغير مسلمين، وعرف ذلك منه غير المسلمين فكتبوا في ذلك حتى جعل بعضهم عنوان العدالة هو عنوان علي(ع) (خماسية جورج جرداق عنوانها "علي صوت العدالة الإنسانية").

(1) في إعلان النبي(ص) أن علياً(ع) أعدل الناس

وفي كنز العمال ج6 ص393 بسنده عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يذكر ما سمعه من قول النبي(ص) في علي: ‹‹أنتَ أول المؤمنين إيماناً وأعلمهم بأيام الله وأوفاهم بعهده وأقسمهم بالسوية وأرأفهم بالرعية وأعظمهم رزية››.

(2)في عدله(ع) مع الرعية

من ذلك أخرج ابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص24 بسنده أن رجلاً من ثقيف قال أن أمير المؤمنين(ع) استعمله على مدرج سابور فقال: ‹‹لا تضربن رجلاً سوطاً في جباية درهم، ولا تتبعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها، ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم›› قلت: "يا أمير المؤمنين إذاً أرجع إليك كما ذهبتُ من عندك!" قال: ‹‹وإن رجعت، ويحك، إنما أُمرنا أن نأخذ منهم العفو››.

وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء ج1 ص81 و82 روايات عن عدل علي(ع) وورعه في الرعية منها أن رجلاً دخل على علي(ع) بالخورنق وهو يرعد تحت سمل قطيفة فقلت: "يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك بهذا المال وأنت تصنع بنفسك ما تصنع، فقال: ‹‹والله ما أرزأكم من مالكم شيئاً، وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي›› أو قال ‹‹من المدينة››".

بل قبل ذلك، كان هو الذي يعلمهم ما يحق للخليفة. فقد أخرج السيوطي في تاريخ الخلفاء عن أبي أمامة بن سهيل بن حنيف قال: "مكث عمر زماناً لا يأكل من مال بيت المال شيئاً حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة، فأرسل الى أصحاب رسول الله(ص) فاستشارهم فقال: قد شغلت نفسي بهذا الأمر فما يصلح لي فيه؟ فقال علي كرّم الله وجهه: ‹‹غداء وعشاء يا أمير المؤمنين››، فأخذ بذلك عمر".

إن من نافل القول لو أراد علي(ع) أن يأكل من بيت المال أكثر من غيره كان يمكنه أن يقول أنه لا أحد في المسلمين بسابقته وأن الإسلام قام بسيفه وأنه وأنه، وكان ذلك مقبولاً ولاسيما بعد أن فرق عمر في العطاء على أساس السبق إلى الإسلام وغيره من معايير، حتى صار ذلك أمراً واقعاً، بل حقاً لا يتنازلون عنه بحيث جر المشاكل على أمير المؤمنين(ع) عندما استخلف. ولكن علياً(ع) إمام هدى لا بد له أن يسير بسيرة النبي(ص)، فأعلن لهم علمه بالطريق الآخر ولكنه يختار الطريق الصعب طريق العدل المطلق؛ قال(ع): «ولو شئت لاهتديت الطريق، إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الاطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة، من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبُكَ داءً أن تَبيتَ بِبِطنَةً وَحَولكَ أكبادٌ تَحِنُّ إلى القدِّ».

(3) في مساواته(ع) بين الرعية وأقربائه

وأخرج ابن حجر في الصواعق ص79 رواية سؤال عقيل بن أبي طالب علياً(ع) أن يعينه بحاجته فأجابه علي(ع) بأن يصبر حتى يخرج عطاؤه فألحّ عليه عقيل، فقال علي(ع) لرجل: «خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق فقل له دق هذه الأقفال وخذ ما في هذه الحوانيت!» قال عقيل: "تريد أن تتخذني سارقاً؟!" قال: «وأنت تريد أن تتخذني سارقاً أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم!» فقال عقيل: "لآتينّ معاوية"، فقال علي: «أنت وذاك». ثم لمّا ذهب إلى معاوية أعطاه مائة ألف ثم طلب منه أن يصعد على المنبر ويذكر ما فعله أخوه مقارنة مع ما فعله معاوية، فصعد عقيل وقال فيما قال: "أيها الناس إني أخبركم أني أردتُ علياً(ع) على دينه فاختار دينه، وإني أردت معاوية على دينه فاختارني على دينه!"

وللسائل أن يسأل ابن حجر الذي أخرج هذه الرواية وغيرها عن طلبه من المسلمين أن لا تمر بخواطرهم ولا بألسنتهم شيء من مثالب سيده معاوية (في كتابه "تنزيه الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان"!)

ويروي هو(ع) بنفسه ما فعله مع أخيه عقيل بالقول: «والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الألوان، من فقرهم، كأنما سودت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكداً، وكرر علي القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي، فظن أني أبيعه ديني، وأتبع قياده، مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من المها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه؟! أتئن من الأذى ولا أئن من لظى؟!»

إن هذا المنهج في مساواة الرعية مع أقرباء الحاكم هو من أكثر الأمور تأثيراً في الرعية، لذا تجد أن الناس وصفت عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب(ع) بالعدل في حين لم تصف عثمان بن عفان بالعدل لأنها وجدته يعطي أقرباءه ما لا يعطيه للرعية، حتى وصل إلى الحد الذي كان من الأسباب المباشرة للثورة عليه ومقتله. ولذا تجد المنزلة الفريدة لعمر بن عبد العزيز على غيره من ملوك بني أمية، فإنها جاءت نتيجة لعدله بين الناس وعدم إيثاره أقرباءه. (هذا، بقدر ما استطاع بطبيعة الحال لأن بني أمية كانوا مستحوذين على كل شيء وبالتالي فإن نزع كل شيء منهم ومساواتهم بالعطاء مع الناس كان سيكون عسيراً للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، هذا إن أراد عمر بن عبد العزيز ذلك. كما أنه ينبغي الإشارة إلى أن لعمر بن عبد العزيز عملين هما أهم من عدله الذي كان شيئاً مؤقتاً بوجوده الذي لم يدم أكثر من سنتين، وهما: أمره بكتابة الحديث بعد منع دام زهاء تسعين سنة منذ خلافة أبي بكر، والثاني هو إيقافه سب علي(ع) على منابر المسلمين الذي كان سنّه معاوية بن أبي سفيان، والذي ليس مهماً في ذاته بقدر ما هو مهم في إثبات وقوع الأمر بالسب طيلة السنين المتطاولة، لأن هناك ممن تسموا بالعلماء من يشكك في كل شيء.)

(4) في مساواته وعدله(ع) بغض النظر عن دين المواطنين

روى ابن الأثير في تاريخه (ج3 ص20) ومن ذلك أن علياً(ع) وهو خليفة فقد درعاً له ثم وجدها عند يهودي، ولكن اليهودي ادعى أن الدرع له، فتقاضيا، ووقف علي(ع) أمام اليهودي كأي خصم آخر، فلما لم يأت الإمام(ع) ببينة على ادعائه الملكية وكان الدرع مع اليهودي وبالتالي اليد أو الحيازة من إمارات الملكية فإن القاضي حكم لليهودي ورد دعوى أمير المؤمنين(ع).

وهو يوجه عماله توجيهاً عاماً في هذا المجال. ففي كتاب له إلى عماله على الخراج: «ولا تجشموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته... ولا تمسُّنَّ مال أحد من الناس مصلٍّ ولا معاهد...» (نهج البلاغة ج3 ص80). فبغض النظر عن كون المواطن مصلياً (أي مسلماً) أو معاهداً (أي غير مسلم) فإن أملاكه محترمة.

(5) توجيهاته(ع) لعماله المتعلقة بالعدل

عُرف عن علي(ع) شدته في الحساب مع عماله على الأقاليم والولايات، وأيضاً توجيهاته الرائدة الشاملة المتكاملة التي تنفع في جميع العصور، الأمر الذي حدا بهيئة الأمم المتحدة عام 2002 اعتماد عهده التوجيهي المفصل إلى مالك الأشتر النخعي، الذي أرسله ليكون عاملاً على مصر ولكنه (رض) ما أن وصل حتى تمكن السمّ الأموي منه فلم يتمكن من تطبيق توجيهات علي(ع). (وعسى أن نشير إلى عهده وما فيه في كتاب "ما بعد العودة" إن شاء الله.)

في كتاب له(ع) يوجه أوامره إلى ابن عمه قُثَم بن العباس بن عبد المطلب عامله على مكة: «وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاحزمه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضع الفاقة والخلاّت، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا...» (نهج البلاغة ج3 ص128).

ويهدد آخر: «وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدّنّ عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر، والسلام...» (نهج البلاغة ج3 ص19).

ويوبخ عاملاً آخر: «... وتطمع – وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة – أن يوجب لك ثواب المتصدقين...» (نهج البلاغة ج3 ص20)

ويهدد أحد عماله بالقول: «... والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحق منهما وأزيح الباطل من مظلمتهما...» (نهج البلاغة ج3 ص67). ونحن نعرف منزلة الحسنين(ع) عند علي(ع) حتى أنه كان لا يأمرهما بالقتال في حروبه بل كانت رايته مع أخيهما محمد بن الحنفية، مع هذا يقسم(ع) أنه ما كان ليتهاون مع الحسنين(ع) لو أنهما فعلا أمراً مخالفاً – على استحالة ذلك منهما.

وأخيراً، تلك الوصية الرائدة في مجال حقوق الإنسان، والتي لا يزال العالم بأسره يستصعب تطبيقها، بل الإحساس بها. قال في عهده للأشتر النخعي: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارباً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق» (نهج البلاغة ج3 ص84). يدعوه – ويدعونا من خلاله – أن ننظر إلى الإنسان كإنسان بغض النظر عن الدين، فإن لم يكن أخاً مسلماً فهو إنسان يتحرك ويشعر ويتألم ويأمل ويطمح ويطمع ويقوى ويضعف كأي منّا، كل هذا لكي ننصف الناس من نفوسنا. وهذا العدل مع المواطنين من أصحاب الديانات المختلفة – وإن كان موجوداً في مناطق من العالم – لا يزال في حاجة إلى الكثير من النفس العلوي كي يصبح واقعاً ملموساً في أنحاء العالم.

سابعاً: مع المخالفين والمناوئين

عند الحديث عن علمه وقضائه أشرت في بضعة أمثلة إلى أن الإمام علي(ع) لم يمنعه مخالفة المخالفين من الوقوف معهم. كما أشرت إلى نهجه في التعامل مع الجميع، مسلمين وغير مسلمين، سواء في توجيهاته وأوامره إلى عماله على الولايات أو في فعله هو(ع) نفسه. هنا أذكر ما اطلعت عليه من الإخبار النبوي لعلي(ع) بخصوص ما يحدث معه من الأمة، وفعل علي(ع) حيال بعض ذلك عندما وقع، في إشارات سريعة تبين علو نفسه من جانب، وشدة

حياطته على الدين من جانب آخر، فلم يقابل الغدر والتآمر والتظاهر وحتى الحروب إلا بذات النفس العالية التي بقيت معلقة بما عند اللّه تعالى وبالتمسك بأوامر رسوله(ص)، فتحمل ما لم يتحمل غيره من أجل إبقاء النهج الصحيح ناصعاً واضحاً يبقى هدفاً للمتطلعين إلى العدل والصلاح، وإلا لما بقيت القدوة الحسنة التي يدعو إليها الناس.

الناس تثني على الذي يقابل الإساءة بالإحسان والسيئة بالحسنة، وإذا وصل الأمر إلى النجاح في التصرف حسب توجيهات القرآن الكريم: ﴿إِدفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحسَنُ السَّيِّئَةَ، فَإِذا الَّذِي بَينَكَ وَبَينَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فإن هذا يكون للنوادر من الناس بحيث أن القرآن الكريم يصفهم في نفس الآية بالقول: ﴿وَلا يُلَقّاها إلِاّ الَّذِينَ صَبَرُوا، وَلا يُلَقّاها إلِاّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. فبماذا نصف من قابل التظاهر والمؤامرات والغدر والإعراض، في مسلسل مستمر لم يتغير على الرغم من أنه كان يقابل كل ذلك بالصبر والتعاون وإبداء النصيحة والتوجيه، ثم لما بويع خليفة بعد ربع قرن من هذا المسلسل المعادي، وبرغبة من جماهير المسلمين، إذا بالعداوة والمخالفة والمناوءة تأخذ شكلاً أعلى هو الخروج العسكري عليه، ماذا نصف من قابل كل هذا بالثبات على الموقف الحق وبعدم التشفي أو المقابلة بالمثل، بل قابله بالعكس من ذلك تماماً؟ هكذا فعل علي(ع).

ولكن لنسمع النبي(ص) أولاً يخبر الأمة عن مكانة علي(ع) عنده(ص) وعن كيفية التعامل مع علي(ع).

- <u>علي(ع) أحب الخلق إلى الله ورسوله(ص)</u>

فمن ذلك ما جاء عن إبن بريدة عن أبيه أنه قال: "كان أحب النساء إلى رسول الله(ص) فاطمة(ع) ومن الرجال علي(ع)". صحيح الترمذي ج2 ص319، ومستدرك الحاكم ج3 ص155، وخصائص النسائي ص29، والإستيعاب لابن عبدالبر ج2 ص751.

وروايات عديدة عن عائشة أم المؤمنين تقول فيها بأن علياً(ع) أحب الناس إلى رسول الله(ص) وفي بعضها أيضاً أن فاطمة(ع) أحب النساء إليه. صحيح الترمذي ج2 ص310، ومستدرك الحاكم ج3 ص154، وخصائص النسائي ص29، وغيرها.

ومنها حديث أبي ذر سئل عن أحب الناس إليه فقال: "هو أحبهم إلى رسول الله(ص) وهو ذاك الشيخ" وأشار إلى علي(ع) كما في الرياض النضرة ج2 ص162.

ومن ذلك ما هو معروف بحديث الطائر المشوي أن النبي(ص) كان عنده طير مشوي فقال: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير» فجاء علي(ع) فأكل معه، كذا رواية صحيح الترمذي ج2 ص299 عن أنس.

وفيه روايات أخرى أن أنساً لم يأذن لعلي(ع) ثلاثاً ثم في الرابعة أذن له لأنه كان يتمنى أن يأتي رجل من الأنصار.

وقد روى حديث الطائر هذا الحاكم في المستدرك ج3 ص130 وص131 وابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص30 وغير هؤلاء.

ومن ذلك قول النبي(ص) لعلي جواباً على سؤاله: ‹‹يا رسول الله أنا أحب إليك أم هي – أي فاطمة –؟ فقال: هي أحب إلي منك وأنت أعز عليّ منها›› رواه النسائي في خصائصه ص37، وابن الأثير في أسد الغابة ج5 ص522 وكنز العمال في روايات عديدة.

- **معرفة حقه(ع)**

وفي بعض الروايات أن النبي(ص) يقول إلى أم المؤمنين عائشة: ‹‹يا عائشة إن هذا أحب الرجال إلي وأكرمهم علي فأعرفي له حقه وأكرمي مثواه›› أسد الغابة لابن الأثير ج5 ص547.

- **التحذير من بغضه(ع)**

ومن أحاديث المحبة هذه قول النبي(ص): ‹‹من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني›› كما في رواية سلمان في مستدرك الحاكم ج3 ص130.

وفي روايات أخرى فيها زيادة ‹‹ومن أبغضك أبغضني›› كما في رواية ابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص383 وأبي نعيم في حلية الأولياء ج1 ص66 وصاحب كنز العمال والهيثمي في مجمعه وغيرهما في روايات متعددة.

ومن هذه الروايات رواية مجمع الهيثمي ج9 ص133: ‹‹لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق، من أحبك فقد أحبني ومن أبغضك فقد أبغضني، وحبيبي حبيب الله وبغيضي بغيض الله، ويل لمن أبغضك بعدي››.

وقد روى مثلها صاحب الرياض النضرة ج2 ص166 وص213 وغيرها ورواية أخرى ص209 فيها يقول النبي(ص) بعد أن اشتكى علي(ع) إلى النبي(ص) بالقول: ‹‹آذاني بنو عمك، فقال(ص): يا علي أما ترضى أنك معي في الجنة، والحسن والحسين، وذرياتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذرياتنا، وأشياعنا عن أيماننا وشمائلنا››.

- **علي(ع) نفسه ينبه إلى عظيم منزلته ومنزلة أولاده(ع)**

لم يدع علي(ع) الناس ليتذكروا أحاديث نبيهم(ص) في منزلة أهل بيته(ع) فحسب، وإنما كان يذكرهم بعظيم تلك المنزلة وبضرورة مراقبة الإنسان نفسه في ما يقول ويفعل، بل وفيما يعتمل في داخل نفسه، تجاههم(ع) لئلا يقع في المحذور.

وقوله: ‹‹عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشّجر، نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمرة لا تنال›› نهج البلاغة خطبة 94.

وقوله: ‹‹نحن شجرة النّبوة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم، ناظرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة، وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة›› نهج البلاغة خطبة 109.

قوله: ‹‹فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً ووقع أجره على الله واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية مقام إصلاته لسيفه›› نهج البلاغة خطبة 190.

وقوله: ‹‹نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء وحزبنا حزب اللّه عز وجل، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوّى بيننا وبين عدوّنا فليس منّا›› (كنز العمال ج11 ص356، والصواعق المحرقة ص142، وتاريخ مدينة دمشق ج42 ص458).

ترى، ماذا كان فعل الأمة تجاه علي(ع) بعد أن سمعت النبي(ص) مراراً وتكراراً، وبأشكال متعددة وبصيغ متنوعة وفي مناسبات مختلفة، يشيد بعلي(ع) ويعلن أنه أحب الخلق إليه(ص) ويحذر من التعامل معه بسوء، بل ويحذر من بغضه مع أنها مسألة قلبية (ولعل هذا هو السبب الذي جعل النبي(ص) يصف مبغضي علي(ع) بأنهما منافقون).

(1) فيما يحصل من أفعال من الأمة تجاه علي(ع)

أولاً: غدر الأمة به

حديث النبي(ص) لعلي: ‹‹إن الأمة ستغدر بك بعدي›› أخرجه الحاكم في ج3 ص147 من المستدرك وصححه واعترف الذهبي بصحته أيضاً.

وهو ما أخبر به علي(ع) نفسه بقوله، على ما أخرجه الحاكم في المستدرك ج3 ص140: ‹‹إن مما عهد إلي النبي(ص) أن الأمة ستغدر بي بعده››.

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج11 ص216، ومثله في المستدرك أيضاً ج3 ص142، ومجمع الهيثمي ج9 ص137.

ثانياً: ما يلاقيه(ع) من الجهد والبلاء بعده(ص)

عن ابن عباس قال: "قال النبي(ص) لعلي: ‹‹أما أنك ستلقى بعدي جهداً، قال: في سلامة من ديني؟ قال: في سلامة من دينك›› المستدرك ج3 ص140. وأورده الذهبي في التلخيص وصرّح بصحته على شرط البخاري ومسلم.

وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء ج1 ص66 حديثاً عن النبي(ص) من وحي الله سبحانه وتعالى لنبيه ‹‹أن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، من أحبه أحبني ومن أبغضه أبغضني، فبشّره بذلك›› فبشره النبي(ص) بذلك؛ ثم أن النبي(ص) يقول: ‹‹إنه رفع إليّ أنه سيخصه من البلاء بشيء لم يخص به أحداً من أصحابي... فقلت: يا رب أخي وصاحبي، فقال: إن هذا شيء قد سبق إنه مبتلى ومبتلى به››. (أقول: أخرجه أيضاً القندوزي في ينابيع المودة ج1 ص398.)

ثالثاً: ضغائن البعض له(ع)

حديث يتحدث فيه ابن عباس عن بكاء النبي(ص) وسؤال ابن عباس عن ذلك

فقال النبي(ص) لعلي: ‹‹ضغائن في صدور قوم لا يبدونها لك حتى يفقدوني››.

وأخرج مثله الخطيب البغدادي في تاريخه ج12 ص398 وصاحب الكنز ص408 والحاكم في المستدرك ج3 ص139.

هذه الضغائن التي نتج عنها الغدر الذي أخبر النبي(ص) به والذي ذكرناه أعلاه. ويبدو أن البعض ظهرت منه علامات على ما في صدره تجاه علي(ع) في عهد النبي(ص). من ذلك ما روي أن بريدة لما قدم من اليمن ودخل المسجد وجد جماعة على باب حجرة النبي(ص) فقاموا إليه يسلمون عليه ويسألونه فقالوا: "ما وراءك؟ قال: خيرٌ فتح الله على المسلمين، قالوا: ما أقدمك؟ قال: جارية أخذها علي مني فجئت أخبر النبي بذلك، قالوا: أخبره أخبره يسقط علياً من عينه، ورسول الله(ص) يسمع كلامهم من وراء الباب، فخرج مغضباً فقال: ‹‹ما بال أقوام ينتقصون علياً؟ من أبغض علياً فقد أبغضني ومن فارق علياً فقد فارقني، إن علياً مني وأنا منه، خُلق من طينتي وأنا خُلقت من طينة إبراهيم، وأنا أفضل من إبراهيم، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم؛ يا بريدة أما علمتَ أن لعليّ أكثر من الجارية التي أخذ وأنه وليّكم بعدي›› فيما نقله المتقي الهندي ص398 من ج6 من كنز العمال، ونقل ابن حجر هذا الحديث عن الطبراني في ص103 من الصواعق.

ومما قاله السيد شرف الدين (المراجعات المراجعة 38) وهو يحتج بأن معنى "المولى" في حديث الغدير وغيره هو الإمامة العامة: "وحسبك من القرائن على تعيين المعنى الذي قلناه ما أخرجه الإمام أحمد ص347 من ج5 من مسنده في الطريق الصحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن بريدة قال: غزوتُ مع علي اليمن فرأيت منه جفوة، فلمّا قدمتُ على رسول الله(ص) ذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله يتغير، فقال: ‹‹يا بريدة ألست

أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟›› قلت: بلى يا رسول الله، قال: ‹‹من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه››، وأخرجه الحاكم في ص110 من ج3 من المستدرك وصححه على شرط مسلم.

أقول: إن قولهم "أخبره أخبره يسقط علياً من عينه" يشير إلى ما كان في نفوس بعض الصحابة من البغض لعلي(ع)، البغض الناشئ من مكانته عند النبي(ص)، فكأنهم لم يصدقوا أن تأتي فرصة لمحاولة إنزال علي(ع) من منزلته الفريدة عند النبي(ص)، تلك المنزلة التي ما نالها لمجرد قرباه من النبي(ص)، ولكن من سابقته وجهاده وصدق إيمانه، هذا إذا وضعنا جانباً قضية اختيار الله وجعله إماماً من قبل ذلك كله. ولعل محاولة بريدة "تنقيص" علي(ع) عند النبي(ص) في الرواية الأخرى شبيه بذلك.

(2) موقف علي(ع) من بيعة السقيفة

(سأوجز أحداث السقيفة وغيرها بعد قليل.)

في كتابه "السقيفة" ص146، لفت الشيخ المظفر النظر إلى ما كان من أبي بكر وحزبه وذهابهم إلى السقيفة متكتمين والاجتماع بالأنصار والتحاجج معهم وحتى تم الأمر لأبي بكر وخرجوا إلى المسجد وبدأت البيعة للناس الذين في المسجد وذلك بحسب الطريقة التي وصفت (وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب وبيده عسيب نخل وهو محتجز يحث الناس على البيعة)؛ فكان الناس يكبرون، فعند ذاك بلغ الإمام(ع) التكبير فبلغه أن شيئاً ما حدث. وبذا، فإن القوم لم يشاوروا أمير المؤمنين(ع) بأمر البيعة ولا بأي من تفاصيلها، وحتى بعد أن تم الأمر لهم كان يمكن لهم أن يرسلوا في طلبه أو يخبروه بالأمر ولكنهم لم يفعلوا كل ذلك بل انتهزوا فرصة انشغاله وانشغال أصحابه وبني هاشم بجهاز النبي(ص).

ثم ذكر قول الطبري في تاريخه "وجاءت أسلم فبايعت فقوي بهم جانب أبو بكر فبايعه الناس" وهو يدل على أن هناك جانبين متخاصمين قوي أحدهما ببيعة قبيلة أسلم (النص في الكامل لابن الأثير ج2 ص330، وشرح النهج ج2 ص40، أما نص الطبري فهو قول عمر: "ما هو إلا أن رأيت أسلم حتى أيقنت النصر"). أقول: بالطبع كان هناك جانبان، ولكن صار البعض يجادل حتى في بديهيات ما حصل، لذا نبه المؤلف إلى ذلك مستفيداً من هذا القول، وإن قول عمر "أيقنت بالنصر" يثبت أن هناك صراعاً واضحاً.

أما موقف الإمام(ع) من ذلك فإنه أشار إشارة لطيفة بقوله: "على أن من الظلم أن نقول أن الإمام تخلف عن البيعة، وهو صاحب الأمر الذي يجب أن يؤتى إليه، وإنما الحق أن نقول أن الناس هم الذين تخلفوا عنه".

أما أول إعلان لرأيه(ع) في البيعة فهو أنه في اليوم الثاني من السقيفة قال لأبي بكر: ‹‹أفسدتَ علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترعَ لنا حقاً›› (مروج الذهب ج1 ص414 نقلاً عن السقيفة ص148؛ أيضاً الإمامة والسياسة ج1

ص21 بلفظ: ‹‹كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددت علينا››) وذكر رواية أن أبا بكر قال جواباً: "بلى ولكن خشيت الفتنة".

أقول: تمام كلام الإمام(ع) لأبي بكر هو: ‹‹أنا أحق بهذا الأمر، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله فأعطوكم المقادة، وسلموا لكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم مؤمنين، واعرفوا لنا من الأمر مثلما عرفت الأنصار لكم، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعرفون!›› ولكن اسمع الجواب العجيب لأبي عبيدة الجراح، قال: "يا أبا الحسن إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك!" فكأن الأمر هو بالسن. وتابع: "ولا أرى أبا بكر إلا أقوى منك على هذا الأمر" وهو رأيه الذي لم أدر من أين اختمر لديه، أمن سابقة علي(ع) أم من جهاده العظيم وقعود أبي بكر في مواقف وفراره في أخرى، أم من مواقفه الفريدة المختلفة وفي كل منها يسمو على الآخرين أبي بكر وغيره؟

ولكن علياً(ع) تابع مؤكداً موقفه الواضح: ‹‹يا معشر المهاجرين، الله الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم أما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه لدين الله، العالم بالسنة، المضطلع بأمر الرعية، فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً›› (الإمامة والسياسة ج1 ص11، وتاريخ الطبري حوادث سنة 11هـ.)

وفي هذا القول رد على ما يثيره البعض من الشبهات من أن الشيعة يريدون الحكم وراثياً، لأن الإمام(ع) يجعل الحق في خلافة النبي(ص) في أهل البيت(ع) طالما وجد منهم العالم الفقيه القائم بأمر الناس، وهو الأمر الذي لا أخال أحداً ينازع فيه من أن هذا الشخص كان علياً(ع) طيلة أيام الخلفاء قبله بعد أن أوردنا أقوال النبي(ص) والصحابة وأئمة المذاهب على أعلميته على الجميع.

وذكر الشيخ المظفر قولاً مروياً لأمير المؤمنين لم يوضح فيه تفاصيل المحاججة بينهما لأن القول هو: ‹‹فلما قرعتُه بالحجة في الملأ الحاضرين هبّ لا يدري ما يجيبني به›› (نهج البلاغة ج2 خطبة 172).

وأن سكوته عن البيعة كان كما وصف في خطبته الشهيرة: ‹‹فصبرتُ وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً›› (نهج البلاغة، الخطبة 3 الشقشقية).

وأيضاً ذكر قوله في النهج أيضاً: ‹‹فواللّه ما زلتُ مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه(ص) حتى يوم الناس هذا›› (نهج البلاغة خطبة 6).

وذكر ما جاء في بعض المصادر كما في صحيحي البخاري ومسلم من أن وجوه الناس انصرفت عنه يوم وفاة الزهراء(ع) فبايع أبا بكر بعد وفاتها. بل وذكر ما أكّده الإمام(ع) عندما أجاب معاوية على تهمته إياه لبغيه أو

لطعن الخلفاء وكراهية أمرهم بقوله(ع): ‹‹فأما البغي فمعاذ الله أن يكون، وأما الإبطاء والكراهية لأمرهم فلست أعتذر إلى الناس في ذلك›› (شرح نهج البلاغة ج3 ص409).

ويذكر أن الإمام(ع) بقي على هذا الموقف لعدم وجود الناصرين حيث صرّح بعد أن بويع بالخلافة بقوله في خطبته الشقشقية: ‹‹أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها›› وهذا يؤكد أنه كان سيتصرف في آخر الأمر كما تصرف في أوله أو كما تصرف في أثناء المدة بينهما لو لم يكن للفرق الذي حصل، وهو أنه في آخر الأمر عندما بويع وقام بالأمر كان هناك أنصار يمكن له أن يعتمد عليهم. وأيضاً ذكر المؤلف قوله الصريح: ‹‹لو وجدت أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم›› (شرح نهج البلاغة ج2 ص22) ؛ وذكر تعبير معاوية له بقول له في ذلك.

كما أورد قول الإمام(ع) بأنه ما رضي وما قعد إلا لأنه لم يجد الأنصار بكلمات أخرى كما في قوله في الشقشقية: ‹‹وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء أو أن أصبر على طخية عمياء›› أي بين أن يقوم بمناهضة القوم بيد مقطوعة ضعيفة ليس فيها أنصار أو أصبر. وهو مشابه لقوله الذي يبين فيه أن أنصاره لم يكونوا إلا أهل بيته كما في قوله: ‹‹نظرت فما وجدت لي معين إلا أهل بيتي فظننت بهم عن الموت أو على المنية›› (نهج البلاغة ج1 ص67).

أوضح المؤلف أن موقف الإمام(ع) كان احتياطاً على الإسلام لأن الأمر عندما دار بين حقه وبين حفظ الإسلام كان طبعاً حفظ الإسلام هو المقدم لأنه كان يعلم بأنه لو نهض في وجه القوم مع قلة الناصر وحسد العرب له وأحقاد قريش كان سيغلب على أمره وكان سيكون نسياً منسياً، ولربما كان التاريخ سيجعله باغياً بغى على الدين كأصحاب الردّة وقتل بسيف الإسلام ويضيع مع ذلك النص على خلافته وينتهي الأمر. وأسند ذلك بقول له(ع): ‹‹أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح... ومجتني الثمر لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه›› (نهج البلاغة ج1 خطبة 5).

ثم ذكر المؤلف وصف أمير المؤمنين لحالته كما حصل لموسى(ع) حيث قال: ‹‹ما شككت في الحق مذ رأيته؛ لم يوجس موسى خيفة على نفسه، أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال، اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل؛ من وثق بماء لم يظمأ›› فهو بذلك يتأسّى بموسى(ع) إذ رموه بالخيفة لكن هناك فرق بين الخوف على الحياة والخوف من غلبة الباطل.

وذكر في هذا الباب الموقف المبدئي لأمير المؤمنين(ع) من دعوة أبي سفيان "فوالله لئن شئت لأملأنها خيلاً ورجلاً" يعني على أبي بكر، فربما كان غير أمير المؤمنين سيقبل هذا العرض لقتال القوم ولكنه رد أبا سفيان، بل

وردّه ردّاً ربما لا يستخدمه أحد بهذا الشكل من الصرامة والصراحة حيث قال: ‹‹والله إنك ما أردتَ بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً›› (الكامل لابن الأثير ج2 ص325).

إن أمير المؤمنين(ع) لم يسمح لأن يصبح أمره بالإمامة والخلافة أمراً منسياً فقام، بالإضافة إلى المناقشة مع أبي بكر وغيره في ذلك الأمر، بتثبيت نص النبي(ص) عليه وذلك بطرق مختلفة، منها أنه جلس في بيته لا يشترك مع أبي بكر والناس في جمعة ولا جماعة ولا في أمر ولا نهي ولا في حروب الردّة مع أنه بطل المسلمين دون منازع. بل وأنه قام بحمل فاطمة(ع) والحسنين(ع) يطرق بيوت أبواب الأنصار وأهل السابقة ليلاً ليذكرهم بعهد رسول الله(ص)، مشيراً – أي المؤلف – إلى أن هذا لم يكن منه طمعاً في تبديل البيعة لأن الأمر قد تمّ ولكنه كان يريد أن يثبت النصوص النبوية في هذا الشأن، وأيضاً لكي يقوم بما يجب عليه من محاولة أن يقوم بواجبه الشرعي في أمر الدين حيث قال: ‹‹اللهم أنت تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم في دينك ونظهر الإصلاح في بلادك›› (نهج البلاغة ج2 خطبة 131). ويقول: ‹‹فأمسكتُ يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد(ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة فيه عليّ أعظم من فوت ولايتكم›› (نهج البلاغة ج3 رسالة/كتاب 62).

وبالتالي فإنه أراد بأفعاله المختلفة لما جرى في السقيفة وما بعدها أن يثبت حقه من جانب وفي نفس الوقت يعلن بشكل غير مباشر عن رفضه لهذا الحكم وذلك بعدم اشتراكه حتى في الجمعة والجماعة طيلة حياة الزهراء(ع) وثم بعد ذلك عدم اشتراكه في الحروب.

أقول: من واجب الإمام تنفيذ أمر النبي(ص) كائناً ما كان، حيث قال(ع): ‹‹قال لي رسول الله(ص) إن اجتمعوا عليك فاصنع ما أمرتك، وإلا فالصق كلكلك بالأرض، فلما تفرقوا عني جررت على المكروه ذيلي وأغضيت على القذي جفني وألصقت بالأرض كلكلي›› (نهج البلاغة ج4 الكلمة 736). فقد كان هناك احتمالان: أن يجتمع الناس عليه(ع) ويبايعوه كخليفة بعد ما بايعوه في بيعة الغدير قبل ذلك بأقل من ثلاثة أشهر، أو أن يعرضوا عنه ويذهبوا إلى غيره – وقد حدد النبي(ص) لعلي(ع) ما يفعل عند حصول أي من الاحتمالين، فكان الفعل الأول هو القيام بأمر الدين كإمام مبسوط اليد يقفو أثر الرسول(ص) خطوة خطوة فلا يحيد عنه مطلقاً لحياطة العصمة المانعة من ذلك، وأما الفعل الآخر هو المحافظة على حوزة الدين ما أمكن وذلك بعدم شق الصفوف بل بالصبر والقعود ثم محاولة القيام بما يستطيع كلما كان ذلك ضرورياً أو ممكناً.

وهذا ما فعله أمير المؤمنين(ع)، كما هو المنتظر منه من البخوع إلى أوامر النبي(ص) بالحرف الواحد، وهذا قول الزهراء(ع) عندما دار علي(ع) بها والحسنين(ع) على بيوت الأنصار يذكرهم بيعة النبي(ص) فاعتذروا بأن بيعتهم لأبي

بكر قد مضت وأن علياً(ع) لو جاءهم قبل أبي بكر لبايعوه (وكأن الأمر مقعد سينما فارغ يفوز به من يأتي أولاً!)، فرد عليهم(ع) أنه ما كان يمكنه أن يترك النبي(ص) دون تغسيل وتكفين وتجهيز للدفن ويخرج ينازع الناس خلافته(ص)، هنا علقت الزهراء(ع): ‹‹ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم›› (الإمامة والسياسة ج1 ص15).

وعلى الرغم من هذا الذي صنعوه مع علي(ع) في أمر الخلافة، فإنه وقف مع الخلفاء الثلاثة كناصح ومعين ومشير، وذلك عندما كانوا يرغبون في ذلك أو يتوقفون في أمر من الأمور.

(3) الاصطفاف ضده(ع) في موضوع الخلافة

وجدت أن الذين يكتبون في موضوع الاختلاف بين الطائفتين، وربما جميع الذين حصل لهم ما حصل معي، يجعلون من قضية الخلافة بعد النبي(ص) محور ما يكتبون، بل يجعلونها الفصل الأساسي، وربما الأول، في كتبهم، وما ذلك إلا للأهمية القصوى للموضوع دون شك. ولكن الذي يقرأ كتابي هذا يجد أني لم أفعل ذلك، وإنما جعلت مسألة الخلافة تأتي في محلها في جميع الفصول، وذلك لأسباب:

- أن إمامة أهل البيت(ع) أكبر بكثير من الحكم، فهي تتعلق بمواصفات عندهم تستطيع التأثير حتى وهم بعيدون عن الحكم، وهو الذي حصل ولا يزال يحصل
- أن الخلافة إنما هي الطريق لإقامة العدل في المجتمعات، فهي ليست غاية وإنما وسيلة
- أن الاهتمام المبالغ فيه بموضوع الخلافة يضعف من الالتفات إلى الجوانب الأخرى في أئمة الهدى(ع)، والتي لا يقتصر أثرها على الحكم ولا هي محدودة بزمان دون زمان، هذا الضعف الذي وجدته ظاهراً في أتباع مدرسة أهل البيت(ع) دع عنك أتباع المدرسة الأخرى
- أن الموضوع – وكما قلت أعلاه – كتب فيه الكثير، وتفاصيله يعجز عن حملها كتاب مخصص للتجربة ككل، ومصادره متاحة للجميع على أية حال.

قال علي(ع): ‹‹أين الذين زعموا أنهم الرّاسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى؛ إنّ الأئمة من قريش غُرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم›› نهج البلاغة خطبة 144.

في هذه الفقرة يعرّض أمير المؤمنين(ع) بالذين تقدموه بالخلافة، وبمن أعانهم، من الذين ادعوا أن عندهم العلم الذي يجعلهم من الراسخين من العلم الذين ذكرهم القرآن الكريم: ﴿وَما يَعلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ اللّهُ وَالرّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾ آل عمران:7، مع خلاف في موقع الفاصلة: هل هي بين كلمتي "اللّه" و

"الراسخون" بحيث أن التأويل لا يعلمه إلا الله تعالى أم أنها بين كلمتي "العلم" و "يقولون" بحيث يصبح علم التأويل عند الراسخين في العلم أيضاً، وهو الرأي الذي يحتج ناصروه بأن التأويل إن كان لله فقط فما فائدته لبني البشر. هنا أمير المؤمنين(ع) يؤكد الرأي الثاني بأن أهل البيت(ع) هم الراسخون في العلم، بل ويخبر أن هناك من غير أهل البيت(ع) من زعم أنه من الراسخين في العلم. يصف هؤلاء بالكذب والبغي على موقع أهل البيت(ع)، ويقول أن سبب زعمهم الكاذب هو عدم قبولهم بما أراده الله تعالى من رفع أهل البيت(ع) وإعطائهم وإدخالهم – في زمرة الذين اصطفاهم الله تعالى بمعرفة تأويل الكتاب –.

ثم يقول بأن الهدى يطلب منهم(ع) والعمى، أي الضلال، يكشف بهم.

أما الجملة الأخيرة فهي تقول بأن إمامة أهل البيت(ع) غرست غرساً في البطن العلوي من الهاشميين من قريش، فلا تكون مناسبة لغيرهم ولا تكون صالحة هادية من غيرهم. أي، يؤكد ما جاء بالحديث النبوي في البخاري وغيره بأن الخلفاء أو الأمراء الإثني عشر ‹‹كلهم من قريش››، ثم يخصص بني هاشم من قريش، ثم يخصص البطن العلوي من بين بني هاشم.

ولكن الأحداث اتخذت مساراً بعيداً عن هذا التخصيص، بحيث بدأت أول ما بدأت بعيداً عن علي(ع) نفسه هو سيد هذا البطن من هاشم، بل بدأت بعيداً عن هاشم كلها، حيث بدأت بتَيِّم (أبي بكر)، ثم بعَدِيّ (عمر)، ثم بأميَّة (عثمان)، وبعد خمس سنوات من خلافة علي(ع) والحسن(ع) عادت إلى أمية، ثم عادت إلى الهاشميين ولكن ليس إلى البطن العلوي بل إلى العباسيين، ليكون نتيجة هذا التخبط أن صارت إلى غير القرشيين، بل غير العرب من سلاطين آل عثمان الأتراك أو المغول أو غيرهم. وهنا أود التنبيه مرة أخرى أن الأمر ليس وراثياً مطلقاً لأن النبوة والإمامة والعلم لا تتوارث وإنما هو اختيار من الله تعالى العليم بخلقه المصطفين والعليم بما يصلح خلقه جميعاً، هذا أولاً. ثانياً، إن كلام أمير المؤمنين(ع) هنا لا يقول بالوراثة وإنما يقول ‹‹الأئمة غُرِسوا›› فقط لا لأنهم من نسل معين، ولكن هكذا أراد الله تعالى.

كما ينبغي ملاحظة أن أخذي بكلام علي(ع) بخصوص إمامة أهل البيت(ع) هنا إنما جاء من الاقتناع بأن الله ورسوله(ص) أعلنا إمامة أهل البيت(ع) بما تعرفت عليه وذكرته فيما تقدم من الكتاب، وأيضاً لأن جميع المسلمين دون استثناء يصدقون علياً(ع) فيما يقول ويدعي، وهو السبب الذي جعل مخالفيه ومخالفي مذهب أهل البيت(ع) ينكرون خطبه ورسائله وكلماته في "نهج البلاغة"، أو قل ينكرون ما يتعارض مع عقيدتهم في الإمامة الإسلامية، لأنهم إن قبلوا ما جاء عنه في هذا الكتاب – وفي غيره – فإنهم يهدمون أركان ما أقامه أسلافهم بخصوص الإمامة الدينية والسياسية في الأمة.

إذاً، ماذا كان رد قريش على هذا الاصطفاء الإلهي الذي أعلنه الوحي وأعلنه النبي(ص) في مناسبات عدة، الاصطفاء الذي يؤكده علي(ع) هنا؟ كما ذكرنا، ذهبت الخلافة يميناً وشمالاً في اصطفاف مستمر ضد علي(ع) وأهل البيت(ع)، أو على الأقل ضد أن يتبوأ علي(ع) وأولاده الطاهرون(ع) مكانهم الطبيعي الذي أعدته السماء لهم فلا يصلح لغيرهم، هذا النهج الذي جعل أبا ذر (رض) يقول: "أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها، أما لو قدمتم من قدم الله، وأخرتم من أخر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم، لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال ولي لله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم علم ذلك عنده من كتاب الله وسنة نبيه، فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " (تاريخ اليعقوبي ج2 ص171). وهو الذي جعل عمار بن ياسر (رض) يقول بعد بيعة عثمان: "يا معشر قريش، أما إذا أحرفتم هذا الأمر عن بيت نبيكم هاهنا مرة وهاهنا مرة، فما أنا بآمن عليكم من أن ينزعه الله فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله" (مروج الذهب ج2 ص342)

إن هذا الاصطفاف ضد علي(ع) استمر في مختلف المراحل، نذكر أحداثها بالإجمال لأنه كتب فيها المجلدات الضخام وجرت ولا تزال تجري وستظل تجري المناقشات حولها، ما يمكن أن يجده المهتمون في المكتبات الورقية والالكترونية.

أولاً: دفعه(ع) عن الخلافة بعد وفاة النبي(ص)

تعتبر وفاة النبي(ص) – أرواحنا فداه – الحدث الفاصل بين عهدين: عهد الوحي والاتصال بالسماء وبسط اليد من قبل ممثل الدين الشرعي وهو النبي(ص)، وعهد انقطاع الوحي ومنع ممثلي الدين الشرعيين من ممارسة دورهم – وهو الذي تبين لي بعد البحث. هذا الحدث الفاصل والفارق بين العهدين تؤكده الرواية التي ذكرها السنة والشيعة على حد سواء، وهي رواية خروج النبي(ص) إلى مقبرة البقيع ليلاً وما قاله هناك.

رواية أسد الغابة كتاب الكنى في ذكر أبي مويهبة راوي الحديث، الذي عرفه صاحب الكتاب بأنه "مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان من مولدي مزينة، اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه. يقال: إنه شهد المريسيع (أي غزوة بني المصطلق سنة 5هـ). ولا يوقف له على اسم. روى عنه عبد الله بن عمرو بن العاص."

أما الرواية فتقول: "أخبرنا أبو جعفر بإسناده عن يونس، عن ابن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن عمر بن ربيعة، عن عبيد مولى الحكم بن أبي العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أبي مويهبة – مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال: أهبني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع». فخرجت معه حتى أتينا البقيع، فرفع يديه فاستغفر لهم طويلاً، ثم قال: «ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها،

الآخرة شر من الأولى! يا أبا مويهبة، إني قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة››، فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فقال: ‹‹والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة››. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح ابتدىء بوجعه الذي قبضه الله فيه." أخرجه الثلاثة.

الذي ينبغي الالتفات إليه هو أن النبي(ص) قال ‹‹لِيَهْنِ – أي هنيئاً – لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه›› ما يعني أن الناس – أو بعض الناس – أصبحوا في وضع غير صحيح بحيث أنه(ص) يهنئ موتى البقيع على حالهم بالمقارنة مع أولئك. إذاً، أُخبِرَ النبي(ص) فأَخبَرَ بأن خيوط الفتن بدأت تحاك في نهاية عمره الشريف، وليس كما يزعم البعض أن الفتن لم تبدأ إلا بالثورة على عثمان بن عفان، ولا حتى من يعترف بما جرى من الأحداث قبل ذلك. أي، أن هناك من سيتحرك بشكل يثير الفتنة، وأنه يتهيأ لذلك – هكذا أفهم، وإلا ما معنى قول النبي(ص) هذا؟

ولمن لا يقبل تفسيرنا – مع أن الكلام واضح تماماً – نرجعه إلى ما ذكره النبي(ص) وأكده علي(ع) من وجود الضغائن في صدور البعض وأنها ستظهر بعد وفاته(ص).

قبل الوفاة بثلاثة أيام

حادثة سميت "رَزِيَّة يوم الخميس"، لأن ابن عباس سماها "رَزِيَّة"، حدثت يوم الخميس الذي سبق يوم الاثنين، يوم وفاة النبي(ص) – أرواحنا فداه –، وفيها ردّوا على النبي(ص) بشكل جعلني أهتز غضباً كلما ذكرتها، وذلك مذ قرأت عنها وحتى الآن. أنقل نص الحادثة من صحيح البخاري ج4 كتاب المرضى باب قول المريض "قوموا عني"، ورواه في ج1 كتاب العلم:

عن عبيد الله عن ابن عباس قال: "لما حضر رسول الله(ص): وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي(ص): ‹‹هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده›› فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي(ص) قال رسول الله(ص): ‹‹ قوموا››"؛ قال عبيد الله: "فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم".

ولم ينفرد البخاري بروايته، وإنما رواه مسلم في صحيحه ج2 ص14، وأحمد بن حنبل في مسنده ج1 ص32.

وقد رويت الحادثة بروايات أخرى تعطي النص الحقيقي لما قاله عمر، أي النص الحقيقي لكلمته "النبي قد غلب عليه الوجع"، كما أثبت ذلك شارح نهج البلاغة ج2 عند تناوله لهذه الكلمة منقولة من كتاب "السقيفة" للجوهري، حيث أورد الحديث عن ابن عباس أنه قال: "لما حضرت رسول الله الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال رسول الله(ص): "ائتوني بدواة وصحيفة أكتب كتاباً لا تضلوا بعده»، قال: فقال عمر كلمة معناها إن الوجع قد غلب على رسول الله(ص)، ثم قال: عندنا القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف من في البيت واختصموا فمن قائل قربوا يكتب لكم النبي ومن قائل ما قال عمر، فلما اكثروا اللغط واللغو والاختلاف غضب(ص) فقال: «قوموا».

أي أن عمر لم يقل "غلب عليه الوجع" وإنما قال كلمة "معناها" هكذا. ولكن ما هي الكلمة؟ وإذا بها مروية في صحيح البخاري نفسه، ج2 كتاب الجهاد والسير باب جوائز الوفد، برواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: "يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: إشتد برسول الله(ص) وجعه يوم الخميس فقال: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هجر رسول الله(ص)! قال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه»؛ قال: وأوصى عند موته بثلاث: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم...» قال: ونسيت الثالثة!"

هذه الرواية هي أيضاً أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الوصية بألفاظ مختلفة قليلاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: "يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم جعل تسيل دموعه حتى رؤيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ، قال: قال رسول الله(ص): «ائتوني بالكتف والدواة- أو – اللوح والدواة، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فقالوا: إن رسول الله(ص) يهجر!"

وقد وجدت أن المحدثين والعلماء من أهل السنة يعملون على حماية ما سموه كرامة الصحابة وذلك بالتعتيم على كلمات البعض ومواقفهم، من قبيل ما أشرنا إليه في الغزوات حيث لا يسمى اسم الصحابي الكبير وإنما يقال "فلان"، أو لا يذكر ما قاله ولكن يوصف بوصف لا يناسب القول، أو مثلما كان هنا، قام البخاري بأقصى ما يستطيع من ضمن هذا النهج المدافع عن كرامة الصحابة الكبار حتى وإن كان على حساب النبي(ص)، فأورد الحديث مرة بألفاظه الحقيقية "هجر رسول الله" ولكن القائل هو "فقالوا"، ومرة ثانية في مكان آخر بتسمية القائل "عمر" ولكن بتبديل اللفظ إلى "غلب عليه الوجع"، الأمر الذي جمعه أبو بكر الجوهري في كتاب السقيفة بقوله "فقال عمر كلمة معناها إن الوجع قد غلب على رسول الله".

تعقيبات:

- النبي(ص) يمنع من تنفيذ أمر، أي أمر؛ أكثر من ذلك، لعل الأمر آخر أمر له وهو(ص) يحتضر

- أمر النبي(ص) ليس أمراً عادياً، بل هو من أعظم ما يمكن أن يتحقق لأمة: الأمن الأبدي من الضلال، فهو(ص) يصف الكتاب الذي يريد كتابته «لن تضلوا بعده أبداً»

- صحابي كبير يتهم النبي(ص) أنه غلب عليه الوجع، أو هو يهجر، أي يهذي، وهي تهمة لا مبرر لها لأن النبي(ص) لم يطلب طلباً غريباً أو مستهجناً، بل طلب ورقة وقلماً ليكتب ضمانة من الضلال

- لا يقوم الحاضرون بتعنيف هذا الصحابي على قوله العظيم، دع عنك أن يقوموا بإخراجه فوراً مخافة أن يسيء إلى النبي(ص) أكثر وهو – أرواحنا فداه – في أيامه الأخيرة، بل يقوم بعضهم بتأييده والبعض الآخر بمخالفته بحيث ينشأ نزاع، وكل ذلك دونما اعتبار لمن هم في حضرته الكريمة

- يستمر المحدثون والمؤرخون بنفس الدور فيمالؤوا هذا الصحابي الكبير، ومن وقف معه، فيغيرون ويكتمون من أجل التغطية على الموقف، مع أن الواجب عليهم أن يقوموا بالدفاع عن نبيهم(ص)، لأنه – في نهاية الأمر – هو الذي هداهم الله تعالى به، ولأنه هو الشفيع لهم في الآخرة لا عمر أو غيره

- النبي(ص) يستعيض عن الأمر التحريري بالأمر الشفهي، فيوصي بثلاثة أمور، ولكن الراوي نسي الثالثة، أو قل أن المحدثين والمؤرخين تناسوها

- المهم هو السؤال: لماذا قال عمر هذا القول وهو أعرف الناس أنه لا يجوز على النبي(ص)؟ وما معنى قوله "عندنا القرآن حسبنا كتاب الله"؟

الجواب على هذه الأخيرة لا يمكن أن يكون إلا أن عمر بن الخطاب أراد منع النبي(ص) من كتابة الكتاب الذي سيضيف مرجعية أخرى إلى القرآن، فقال بأنه يكتفي بالقرآن. ولما وصلنا، على الرغم من منع كتابة الحديث ما يقرب من قرن كامل بعد وفاة النبي(ص)، وعلى الرغم من محاولات الكتمان والتحريف والبتر مما وجدته من عمل العلماء، وهذه التي بين أيدينا واحدة منها، وصلنا حديث النبي(ص) الذي يقرن العترة الهادية من أهل بيته(ع) بالقرآن في ما سمي بحديث الثقلين (راجع ما أوردناه في فصل سابق) فقال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، فلا بد أن عمر يعرف بهذا الحديث أكثر منا جميعاً لأنه شهد المناسبات التي نطق النبي(ص) فيها بهذا الحديث، وآخرها يوم الغدير قبل شهرين ونصف من يوم الخميس المشؤوم ذاك، فإن عمر أراد منع النبي(ص) من كتابة خلافة علي(ع) فيقرن الأمر الشفهي بالأمر التحريري كوصية له في آخر عمره الشريف.

وقد وجدت روايات يعترف فيها عمر بأنه منع النبي(ص) من كتابة اسم علي(ع)، كما روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (ج2 ص20) أن عمر قال لابن عباس – وكان يرتاح لصحبته أيام خلافته – ما يؤكد ذلك، قال:

"كان من رسول الله في أمره ذروٌ من قول لا يثبت حجة ويقطع عذراً ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقا وحيطة على الإسلام!"

ولا شك أن عمر يعلم علم اليقين أنه ليس أكثر شفقة وحيطة على الإسلام من نبي الإسلام نفسه(ص)، فكان منه هذا التبرير الذي لا يقنع أحداً، بل الذي يجعله مصراً غير نادم على قولته العظيمة التي جبه بها نبيه(ص) الذي أخرجه الله تعالى به من الضلال وعبادة الحجارة إلى النور وعبادة الواحد الأحد.

لو أن رجلاً عادياً يجود بنفسه فيطلب طلباً، أي طلب، فيقول أحد الحاضرين حوله بأنه يهذي، ألا يعد ذلك سوء أدب وقلة إحساس بالحال؟ فكيف والرجل المحتضر هو سيد البشر(ص)، وطلباته أمر لا بد من تنفيذه، والطلب ليس أي طلب وإنما هو قرة عين كل مسلم: الأمن من الضلال، وإلى الأبد... لكن ماذا أقول: وا مصيبتاه!

بيعة السقيفة - دفعه(ع) عن الخلافة بعد وفاة النبي(ص)

بينما كان علي(ع) والهاشميون منشغلين بجنازة النبي(ص)، وكان الصحابة في الخارج بانتظار التجهيز والصلاة والدفن، إجتمع بعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة خارج المدينة، وعلى رأسهم كبار الأوس والخزرج خصوصاً سعد بن عبادة الخزرجي الذي كانوا يدعون إلى أن يبايع خليفة للنبي(ص). جاء إثنان من الأنصار إلى عمر وهو على باب النبي(ص) وأخبراه بالخبر، فدعا أبا بكر أن يترك تجهيز النبي(ص) لأن الأمر لا يحتمل التأجيل، فذهبا. (هذا، بعد أن كان عمر يهدد ويتوعد من يقول بموت النبي(ص)! ثم لما حضر أبو بكر من بيته في السُّنَح خارج المدينة وأعلن الوفاة هناك خرّ عمر وأقرّ بها – في خطوة يعدها أي باحث ذي عقل أنها عملية تمثيلية ذكية استهدفت تجميد الأوضاع حتى عودة أبي بكر، وذلك معرفة من عمر بالفارق بين درجة قبول الناس لأبي بكر وقبولهم به.) في السقيفة كان الصاحبان، ومعهما صحابي ثالث أبو عبيدة عامر بن الجرّاح، يجادلون الأنصار في ما يريدون، وصارت الغلبة لهؤلاء الثلاثة على أساس احتجاج أبي بكر بأن العرب لن ترضى بتولية الأنصار والنبي(ص) من غيرهم وأن قريشاً هي شجرة النبي(ص)، وخدرهم بوعود ليس لها واقعية من قبيل قوله "نحن الأمراء وأنتم الوزراء" أو "لا نقطع أمراً دونكم". وكان لخلافات الأنصار فيما بينهم مدخلية مهمة في فشلهم. النتيجة هي أن أبا بكر لم يبادر لترشيح نفسه أولاً بل رشح لهم أحد الصاحبين المهاجرين، فكان أن رفضا وضربا على يديه وبايعاه. ثم بايعه أحد الأنصار، ثم الثاني، ثم معظم الآخرين في السقيفة، إلا سعد بن عبادة الذي رفض رفضاً قاطعاً ما حدا بعمر أن يحرض على قتله في السقيفة! ثم تم لعمر ما أراد أيام خلافته وذلك بتدبير غير بشري، حيث رمته الجن – نعم الجن – بسهمين وذلك لأنه بال واقفاً – وعلى عقول البعض العفا!

حدث هذا وعلي(ع) والهاشميون والغالبية الساحقة من أهل المدينة لا يعلمون به، ولكنهم لما سمعوا بالتكبير ثم بجلبة مجيء أبي بكر "يزف كالعروس إلى المسجد" حسب تعبير بعض الرواة، علموا أن أمراً حدث. وبدأ الناس يبايعون أبا بكر.

الهدنة مع علي(ع) وأهل البيت(ع) لم تدم سوى للصلاة على النبي(ص) ودفنه، فإنه بعد ذلك كان علي(ع) والهاشميون وأصحابهم القريبون في بيت فاطمة(ع) لا يخرجون للبيعة. فحرض عمر الخليفة على إجبارهم عليها، فذهبت مجموعة بقيادة عمر فيها خالد بن الوليد وأسيد بن حضير والمغيرة بن شعبة وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة ووقفوا بباب فاطمة(ع) يأمرون الموجودين بالخروج للبيعة وإلا تعرضوا للعقاب – قال عمر: "لتخرجن ولتبايعن أو لأحرقن الدار بمن فيها!" قيل له: "يا أبا حفص إن فيها فاطمة!" قال: "وإنْ!" وفي رواية الطبري أن عمر بن الخطاب جاء البيت وفيه علي(ع) والزبير وطلحة وآخرون فقال : "لأحرقن عَلَيْكُمُ أو لتخرجن إلى البيعة"، فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه .

أما رواية العقد الفريد فهي "الذين تخلّفوا عن بيعة أبي بكر علي والعباس والزبير وسعد بن عبادة، فأمّا علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث اليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إن أبوا فقاتلهم! فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: «يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا؟» قال: نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الامة!"

وذكروا أن المجموعة أخذت علياً(ع) والزبير تسوقهم سوقاً عنيفاً، وفي بعضها أنهما أخذا والحبال في عنقيهما، فصاحت فاطمة(ع): «يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله، والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله سبحانه!»

ورووا أن علياً(ع) جيء به إلى أبي بكر وعرضت عليه البيعة فرفض قائلاً أن الأولى هو أن يبايعوه هو لا العكس، وانتهوا إلى تهديده بالقتل إن لم يبايع، ولكن أبا بكر أمر بتركه طالما أنه لا ينازعهم الأمر.

ثم أن علياً(ع) أجاز لأصحابه بيعة الخليفة، فبايع البعض، والبعض بايع بعد مدة. أما هو فلم يبايع إلى أن ما بعد وفاة الزهراء(ع)، وهي غاضبة على أبي بكر كما ذكرنا في الفصل الخاص بها(ع).

أما بيعة أبي بكر ذاتها فقد حكم عليها أحد رجالها وهو عمر بن الخطاب، الذي سمع أن البعض يقولون "لئن مات عمر نبايع علياً" فدعا الناس إلى المسجد وحذر من مثل ذلك القول، وقال: "إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها" وأردف: "فمن عاد لمثلها فاقتلوه"!

بقيت رواية تقول أن علياً(ع)، لما جاءوا به والزبير لإجباره على البيعة، قال(ع) لعمر: «أحلب حلباً لك شطره واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً!»

(الإمامة والسياسة ج1، بداية الكتاب فيه هذه التفاصيل، كما ذكر بعضها وغيرها المؤرخون كالطبري في حوادث سنة 11هـ وغيره، فلتراجع.)

تعليقات:

- لا تعليق على بيعة تتم بهذا الشكل الإجباري، وما قبل الإجبار بيعة خاطفة وصفها صاحبها بالفلتة
- العجب من إهمال بيعة الغدير (التي أكدنا وقوعها وتواتر نقلها بما لا نظير له) ولم يمض عليها ثلاثة أشهر
- العجب من إهمال علي(ع) – بغض النظر عن الغدير – وهو الذي جعله النبي(ص) مع القرآن لا يفترقان
- العجب ثم العجب من هذه الجرأة على نفوس المسلمين عامة، وأهل البيت(ع) خاصة
- العجب ثم العجب من هذه الاستهانة بحرمة بيت فاطمة(ع) بعدما أبان الله ورسوله(ص) فضلها وحرمتها
- العجب من هذه المكانة الكبيرة للبعض ممن ساهم في هذه الأفعال المرفوضة
- ما يلفت هو الاستمرار في خطة قريش الإعراض عن علي(ع) بحيث أن عمر بن الخطاب – وهو في الحكم والأمور له متسقة – يعتريه القلق ويغضب من مجرد ترشيح لعلي(ع) بحيث يبادر إلى المنبر ويأمر بقتل من يقوم ببيعة كبيعته هو لأبي بكر لأنها هذه المرة تكون لعلي(ع)
- ما يلفت أيضاً هو تعبير "الأمة" في قول عمر لفاطمة(ع) عندما تسأله مستهجنة إن كان قد جاء ليحرق دارها فيقول "أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة"، لأن الأمة غالبيتها العظمى بعد أن بايع علياً(ع) في الغدير عاد إلى مضاربه ومرابعه في الجزيرة العربية، ولأن أهل الحل العقد – كما صاروا يسمونهم – في المدينة ما بين مهاجرين وأنصار ومسلمة الفتح، وهؤلاء لم يكونوا بايعوا كلهم، بل في كل مجموعة منهم معترضون، حتى أن أبا سفيان عاد بعد ذلك وعرض على علي(ع) والعباس أن يحارب القوم، ناهيك عن سعد بن عبادة سيد الخزرج ومن معه، وكبار الأصحاب كعمار وسلمان وبريدة والمقداد وأبي ذر من المهاجرين وأبي أيوب وخزيمة وحذيفة من الأنصار، وجميع الهاشميين؛ مثل هذا الاستلاب لحقوق الأمة هو الذي صار نهجاً إلى يومنا هذا بحيث كلٌّ يقول أنه هو الأمة والآخرون خارجون عنها
- أن استخلاف أبي بكر لم يكن نتيجة شورى – وهي التي يتغنى بها المسلمون كثيراً إلى اليوم –، بل كان أمراً متعجلاً مأخوذاً بالقوة والتظاهر بين أفراد قليلين، وباستغلال انشغال أهل البيت(ع) وأصحابهم بتجهيز النبي(ص) وذهول المسلمين جراء صدمة المصيبة العظمى

دفعه(ع) عن الخلافة في وصية أبي بكر

ويستمر المسلسل، مسلسل الإعراض عن علي(ع) واصطفاف قريش ومن أعانهم ضده في موضوع الخلافة. فأنه بعد أن دنت وفاة أبي بكر، دعا عثمان بن عفان وأخذ يملي عليه وصيته، فقال الخليفة: "أكتب "إني قد وليت عليكم..." ولم يكمل لأنه أغمي عليه وهو في الاحتضار الشديد، فأكمل عثمان من عنده: "إني قد وليت عليكم عمر"! فلما انتعش أبو بكر من غيبوبته قرأ عليه عثمان ما كتب، فأيد ذلك (تاريخ الطبري ج2 ص429 وسيرة ابن الجوزي وغيرهما)، وفي رواية أخرى أنه سأله: "أنى لك هذا؟ قال: ما كنت لتعدوه، فقال: أصبت".

ويبدو أن عمر جاء إلى أبي بكر وتسلم كتاب التعيين ثم خرج إلى الناس به، فسأله أحد الصحابة – وقيل أنه عمار بن ياسر – عما في الكتاب فأجاب عمر: "لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع" فقال ذلك الصحابي: "لكني والله أدري ما فيه – أمّرته عام أول وأمّرك العام!" (الإمامة والسياسة ج1).

تعليقات:

- أولاً حصل بالضبط ما عرفه علي(ع) وواجههم به عندما أرادوا إجباره على بيعة أبي بكر، يوم قال لعمر: «أحلب حلباً لك شطره واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً»

- أن العلاقة بين أبي بكر وعمر في أمر الخلافة كانت من الوضوح بحيث أن عثمان كتب اسم عمر تلقائياً

- إحترم الناس احتضار الخليفة، وساعدوه على كتابة وصيته الأخيرة، والتي فيها تعيين حاكم عليهم، الأمر الذي لا يملكه أساساً، في الوقت الذي منعوا النبي(ص) من كتابة وصيته في احتضاره في يوم الخميس المشؤوم؛ والمفارقة أن الذي قاد عملية المنع يومها هو عمر الذي يعين اليوم خليفة دون اعتراض

- أبو بكر يغشى عليه قبل أن يتم قوله بتعيين عمر فلا يقول عثمان "إنه ليهجر" أو "غلب عليه الوجع"، كما فعلوا مع النبي(ص) يوم الخميس، مع أن احتضار أبي بكر يمكن أن يصاحبه هذيان لعدم عصمته، بل يقوم بإتمام ما ظن من إرادته تعيين عمر

- عمر وغيره ينفذون ما أراده أبو بكر، في حين حتى الوصية الشفهية للنبي(ص) تعرضت للبتر حيث نقلوا أنه أوصى بثلاث ونسي الراوي الثالثة!

- لم نسمع أن الخليفة الجديد جمع قوة من الرجال وهاجم بيت أحد من المعترضين، كطلحة أو غيره، كما فعلوا مع بيت سيدة نسائهم ونساء العالمين وبضعة نبيهم ونبي العالمين فاطمة(ع)

- مرة أخرى، يستخلف الخليفة دون أي شورى، إضافة إلى أن كبار الصحابة كانوا غير راضين عن النص عن ذلك التعيين، فكان التعيين بنص واضح من خليفة لمن يخلفه

- وهذا النص والتعيين لم يجد العلماء عبر العصور فيه ما يخدش من خلافة عمر، في الوقت الذي يحتجون على عدم صحة استناد الشيعة على خلافة علي(ع) بالنص عليه من النبي(ص) أنه مخالف للشورى!
- تجدر ملاحظة أنه لم يعترض معترض على استخلاف عمر بدعوى حصوله تعييناً وليس شورى، وهذا يعني أن مسألة الشورى لم تكن مطروحة أصلاً.

إن هذا الاستخلاف من أبي بكر لعمر، بخط عثمان، هو الاستمرار في قرار قريش صرف الأمر عن أهل البيت(ع) بغض النظر عما يريده الله ورسوله(ص). في محاورة بين ابن عباس وعمر قال عمر: "يا ابن عباس أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال ابن عباس: فكرهت أن أجيبه، فقلت: ان لم أكن أدري فان أمير المؤمنين يدري، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لانفسها فأصابت ووفقت! قال: فقلت يا امير المؤمنين ان تأذن لي في الكلام وتحط عني الغضب تكلمت، قال: تكلم، قال ابن عباس فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين "اختارت لأنفسها فأصابت ووفقت" فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها من حيث اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأما قولك "انهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة" فان الله عز وجل وصف قوماً بالكراهية فقال: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾! فقال عمر: هيهات يا ابن العباس قد كانت تبلغني عنك أشياء أكره أن أقرك عليها فتزيل منزلتك مني، فقلت: يا أميرالمؤمنين فان كان حقاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وان كان باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، فقال عمر: بلغني أنك تقول: صرفوها عنا حسداً وبغياً وظلماً، قال ابن عباس: فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين ظلماً فقد تبين للجاهل والحليم، وأما قولك حسداً فان آدم حسد ونحن ولده المحسودون..." (تاريخ ابن الاثير ج3 ص24، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج3 ص107 وغيرهما).

<u>التظاهر عليه(ع) يوم الشورى</u>

إذاً، لندع استخلاف أبي بكر واستخلاف عمر ونأتي إلى استخلاف عثمان بن عفان الذي كان نتيجة عملية شوروية كما هو معلوم، وهي العملية التي كنا نبني – نحن أهل السنة – عليها اعتقادنا بمركزية الشورى في تعيين خليفة النبي(ص) في ذلك الوقت. فكيف كانت الشورى وما هي حقيقتها؟

<u>باختصار، أنه لما طعن أبو لؤلؤة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وأيقن الموت أعلن ما يلي:</u>

- أنه "لو كان أبو عبيدة حيا لوليته"، لماذا؟ لأنه "أمين هذه الأمة"؛ وأنه "لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لوليته"، لماذا؟ لأنه "شديد الحب لله"؛ وأنه "لو كان معاذ بن جبل حيا لوليته"، لماذا؟ لأنه "إمام العلماء يوم

القيامة"؛ مستنداً في بعض هذه المعايير إلى أحاديث مروية للنبي(ص) قال بأنه سمعها (مسند أحمد ج1 ص18، وطبقات ابن سعد ج3 ص343 وغيرهما)

- أنه مخير بين أن "يترك" أي لا يعين كما فعل "من هو خير مني" أي النبي(ص)، أو "أستخلف" لأنه استخلف "من هو خير مني" أي أبو بكر
- أنه يرفض استخلاف ولده عبد الله ابن عمر عندما اقترح عليه استخلافه لأنه يكفي آل الخطاب تحملهم لها
- قرر أنه لا يريد أن يتحملها حياً وميتاً وبالتالي لن يختار شخصاً بعينه
- أنه اختار ستة لأن رسول الله(ص) "مات وهو عنهم راض"
- أن هؤلاء الستة يجتمعون ثلاثة أيام للاختيار، في أثنائها تكون إمامة الصلاة لصهيب
- أن الستة إن اتفقوا فبها، وإلا: إن اتفق 5 وأبى 1 يضرب عنقه، وإن اتفق 4 وأبى 2 يضرب عنقاهما!
- ولكن إن صاروا 3 و 3 فالخليفة في الثلاثة التي فيها عبد الرحمن بن عوف!
- فإن أبى الـ 3 الآخرون تضرب أعناقهم!
- إن فشل الستة في اختيار خليفة بعد الثلاثة أيام تضرب أعناقهم جميعاً ويختار المسلمون من يريدون!
- أن أبا طلحة الأنصاري مكلف بالقيام، مع خمسين رجلاً، على باب الشورى، وبضرب الأعناق للرافضين

تعليقات:

- أن عمر لم يكن مؤمناً بالشورى لأنه قال صراحة أنه كان سيعين أبا عبيدة عامر بن الجراح (ثالث السقيفة الذي توفي في الشام على عهد عمر) أو سالم (وهو مولى يفترض أنه لا تجوز له الخلافة لأنها في قريش حسبما استند عمر وأبو بكر عندما حاججا الأنصار في السقيفة) أو معاذ بن جبل (وهو من الأنصار الذين لا تجوز لهم الخلافة لنفس الحجة أن الخلافة في قريش)
- أن عمر لم يكن يتوصل إلى قناعاته دائماً بناء على النصوص، وذلك لأنه إذا كان النبي(ص) قال أن أبا عبيدة أمين الأمة فإنه(ص) استأمن حذيفة بن اليمان أكثر على أسماء المنافقين، وإذا كان سالماً شديد الحب لله كما وصف عمر ترى هل قيل فيه «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» كما قيل، نصاً نبوياً، في علي(ع)، وإذا كان معاذ بن جبل إمام العلماء فهل قيل فيه أنه أقضى الأمة وباب مدينة علمها والذي هو مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان؟

- أراد عمر تأكيد مقولة، فرية في الحقيقة، أن النبي(ص) مضى ولم يستخلف، وذلك لاستمرار في الحملة لطمر بيعة الغدير وغيرها من النصوص التي تعين علياً(ع) في النسيان حتى تغدو من الأساطير

- تجرأ البعض على ترشيح عبد الله بن عمر للخلافة مع وجود الصحابة الكبار، وما ذلك إلا لأمرين: الأول أن قريشاً يهمها أكثر ما يهمها هو صرف الأمر عن بني هاشم، والثاني هو أن المسألة بدأت تأخذ أبعاداً أكبر في خط الانحراف عما أراده الله ورسوله(ص) بحيث لم يعد هناك مانع من ترشيح أي كان

- إدعى عمر أنه لا يريد تحملها ميتاً وبالتالي لن يختار شخصاً معيناً مع أن طريقة حسم الخلاف في الشورى التي وضعها هو تؤكد أنه عين عثمان بن عفان؛ إضافة إلى قوله لعثمان فيما سيأتي

- لم أعرف وجهاً لاختيار هؤلاء الستة، لأنه إن كان المعيار هو أن النبي(ص) مات وهو عنهم راض فإن المسلمين جميعاً في ذلك العهد وإلى يومنا هذا يعلمون أن النبي(ص) مات وهو راض عن غيرهم، كعمار وأبي ذر والعباس بن عبد المطلب مثلاً؛ كما لم أعرف وجهاً لاختيار العدد ستة، فإن هذا لا يكون إلا إذا كان عمر يرى أنه لم يكن النبي(ص) راضياً حين موته إلا على هؤلاء الستة فيمن بقي عندما طعن عمر، وهذا ما لم يقل به أحد

- العجب كل العجب من هذا الحكم بضرب عنق المخالف أو المخالفين أو الثلاثة أو الستة جميعاً! من أين جاء أبو حفص بهذا؟ أين هي حرية الرأي، وكلمته المأثورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"، وهل هناك أكثر استعباداً من هذا أن ترضى بما لا تريد اتقاء من سيف أبي طلحة المسلط على رقبتك؟ ما هذه الاستهانة بدماء هؤلاء الأصحاب؟ نندد بالشيعة عندما ينتقدون – مجرد نقد – لصحابة ثانويين أمثال معاوية وأشباهه من الطلقاء أو أبي هريرة من الذين أسلموا آخر العهد النبوي، ولا يعترض معترض على هذه الاستهانة بدماء أكابر الصحابة، الذين يصفهم هو نفسه بأن النبي(ص) توفي وهو عنهم راض! وأين هو من قوله(ص) لعلي وأصحاب الكساء(ع): ‹‹أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم››؟ وأين هو من قوله(ص) أن قاتل علي(ع) هو أشقى الآخرين؟ أفكان يريد أن يكون أشقى الآخرين؟!

<u>وأعطى رأيه في الذين اختارهم عندما قابلهم</u>

وتستمر أعاجيب الشورى العمرية، فإن الخليفة بعد أن أعلن للناس أنه اختار هؤلاء الستة، وبالتالي هم صفوة الأصحاب، دخلوا عليه فأخبرهم برأيه فيهم واحداً واحداً، وكالآتي:

الزبير بن العوام: "أما أنت يا زبَير فَوَعق (أي لئيم أو طماع) لقس (أي حريص أو شره أو خبيث)، مؤمن الرضا، كافر الغضب، يوماً إنسان ويوماً شيطان! وَلَعلّها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مَدٍّ

من شعير! فرأيت إن أَفضت إليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب؟! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وأنت على هذه الصفة!"

- o طلحة بن عبيد الله: "أما إني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد وائياً (في رواية يصفه "ذو البَأْو" أي الفخر) بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتَهَا يوم أُنزِلت آية الحجاب!" (يعني علق طلحة أنه حجاب أمهات المؤمنين ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب﴾ الأحزاب:53 لن ينفعهن حيث سيتزوجهن البعض بعد وفاة النبي(ص) فنزلت ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ الأحزاب:53).

- o عبد الرحمن بن عوف: "أما أنت يا عبد الرحمن، فلو وُزِنَ نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك عليهم، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر؟!"

- o سعد بن أبي وقاص: "إنَّما أنتَ صاحبُ مقنب من هذه المقانب تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وسهم، وما زهرة والخلافة وأمور الناس؟!"

- o عثمان بن عفان: "هيها إليك، كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحُبّها إيّاك، فحملت بني أمية وبني أبي مُعيط على رقاب المسلمين، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً! والله لئن فعلوا لَتفعلَنَّ، ولَئن فعلتَ لَيفعلَنَّ!" ثم قال له: "فإذا كان ذلك فاذكر قولي".

- o علي بن أبي طالب: "لله أنت لولا دُعابَة فيك! أَمَا واللهِ لَئِن ولّيتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح والمَحجَّة البيضاء!"

- o وفي رواية أخرى لابن قتيبة في "الإمامة والسياسة" أجمل عمر رأيه في الستة بالقول: «والله ما يمنعني أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك مع أنك رجل حرب؛ وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة! وما يمنعني منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب! وما يمنعني من طلحة إلا نخوته وكبره، ولو وليها وضع خاتمه في إصبع امرأته! وما يمنعني منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك؛ وما يمنعني منك يا عليّ إلا حرصك عليها! وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم».

تعليقات:

- أول عجيبة هي هذه الأوصاف السيئة للخيرة المختارة من الصحابة، فإنه إن اختارهم للخلافة لا بد وأنه يرى فيهم الأفضلية على باقي الأصحاب

- فماذا يكون رأيه إذاً في الصحابة الأقل شأناً؟! وماذا يقول الذين يهاجمون الشيعة ويرمونهم بالنفاق لأنهم ينتقدون بعض الصحابة، وهذا عمر يصف بعضهم بالشيطان والآخر بالفخور وأمره بيد زوجته والثالث بالضعيف وأنه فرعون الأمة وهكذا؟

- يتناقض عمر مع نفسه عندما يدخل طلحة بن عبيد الله على أساس أن النبي(ص) توفي وهو عنه راض ثم يقول له أن النبي(ص) لم يزل ساخطاً عليه مذ نزلت آية الحجاب

- بل يتناقض عمر مع معظم اختياره، وبصراحته هو، عندما يصف الزبير بأنه كافر الغضب وبأنه يوماً شيطان ثم يتساءل من يكون للناس يوم يغضب ويوم يكون شيطاناً! بل ويقول بأن الله لن يجمع له أمر الأمة وهو هكذا!

- وأن عبد الرحمن ضعيف أولاً، وكونه زهري فلا يصلح، لأن زهرة – حسب رأي عمر – لا تصلح للخلافة

- وأن سعداً ليس إلا مقاتلاً، ثم هو زهري أيضاً، فلا يصلح

- ويشتد العجب من أبي حفص وهو يدخل عثمان في الشورى وهو يعلم ويخبره بذلك بأنه سيقرب أقرباءه إلى الدرجة التي سيثور فيها عليه الناس، ثورة عارمة لا تنتهي إلا بذبحه في فراشه!

- أخيراً، نجد الخليفة قادراً على كل شيء، يعين أو لا يعين، يحدد من لهم حق الشورى، يحكم عليهم بالقتل إن اختلفوا، وأي شيء يشاء، فهو يستطيع فعل أي شيء خلا شيء واحد: تولية علي(ع)! إذ يبدو أن القرار القرشي، والاتفاق السابق، لا مجال لنقضه – أو هكذا يبدو. ولعل القارئ يجد المفتاح في قوله عمر لعثمان "كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك"، أي أن الرأي المنتصر سيكون لقريش، وإن كنت لم أنجح في فهم قوله "لحبها إياك" لأن قريشاً إنما هي أفخاذ، وكل فخذ يحب وجهاءه، فلماذا تحب قريش كلها عثمان، اللهم إلا أن تكون أمية هي المصطفاة، وهذا لم أجده في زمن النبي(ص)، ولكن وجدناه في إطلاق يد أولاد أبي سفيان في الشام بعد وفاته(ص)

- الخلاصة هي، كأن عمر يقول: قريش صارت الغلبة فيها لبني أمية ومن يشايعهم، وهؤلاء يريدون عثمان، ولاسيما وأن فرسي الرهان هما علي(ع) وعثمان، وأمية تقبل بالشيطان ولا تقبل بعلي(ع)، وأن عثمان سيقرب بني أمية، بل سيحملهم على رقاب الناس في كناية إلى تقلدهم المناصب وحيازتهم على المنافع، وسيكون ذلك إلى درجة تثور فيها الأمة، أو من وصفهم "عصابة من ذؤبان العرب" – ولا أعلم وجهاً لهذه التسمية لمن يثور من أجل حقوقه ولاسيما المغتصبة من قبل أعداء الله ورسوله(ص) –، في ثورة كبيرة تنتهي بذبح عثمان؛ ولكن علياً(ع) علم أن الشورى مصممة لاختيار عثمان، فهل يمكن أن نقول بأن عمر كان يريد هذه النهاية؟ ولماذا؟ حقاً، صرت في حيرة من أمري بعد اطلاعي على هذه الخطة وهذه التفاصيل المليئة بالتناقضات والأحكام المرفوضة قطعاً.

- ويؤكد كل هذا هو وصفه لعلي(ع) بأنه لو ولي الأمر لحمل الناس على الطريق الصحيح الأبيض، فقد كان علي(ع) هو الوحيد من بين الستة الذي مدحه عمر، ولكنه علم أن الأمر سيكون في أقصى درجات النشوز إن لم يلحق به(ع) شيئاً فاخترع قضية "الدعابة"! ولم أقرأ، ولم أسمع، أن أحداً عاب على علي(ع) أن في خلقه شيئاً من إسفاف في طلاقة وجه أو تبسم أو من قبيل هذه الصفات، بل كان كرسول الله(ص)، كيف لا وقد علم الناس جميعاً أنه(ع) تربى في بيت النبي(ص) بينه سيد البشر(ص) وسيدة النساء خديجة الكبرى(ع)، ومذ كان عمره ثلاث سنوات، كان يقلد النبي(ص) في كل شيء، ليس باختياره فحسب بل كان النبي(ص) يأمره بذلك: ‹‹وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني الى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله وسلم من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل – أي ولد الناقة – أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة››...
- ولكن لعمر رأياً آخر، أو لقريش كلها رأي آخر، فقد روي (شرح نهج البلاغة ج12 ص259) أن عمر قال: "والله إني لأعلم مكان رجل لو وليتموه أمركم لحملكم على المحجة البيضاء، قالوا: من هو؟ قال: هذا المولي من بينكم – وكان علي(ع) جالساً معهم وخرج –، قالوا: فما يمنعك من ذلك؟ قال: ليس إلى ذلك سبيل!"
- ويبدو أن الاتفاق القرشي يحول دون ذلك، لأن الخليفة قال، في رواية أخرجها أحمد في المسند (ج1 ص108) وابن الأثير في أسد الغابة (ج4 ص112) وغيرهما: "إن تؤمروا علياً – ولا أراكم فاعلين – تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الصراط المستقيم".

وجرت الشورى

قبل الشورى قال علي(ع) لعمه العباس: ‹‹عدلت عنّا››، فسأله كيف عرف، قال(ع): ‹‹لأنه (أي عمر) قال كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيوليها عبد الرحمن عثمان، أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني، بله إني لا أرجو إلا أحدهما›› (تاريخ الطبري ج4 ص228، وتاريخ ابن الأثير ج3 ص67).

ثم بدأ الاجتماع، فكان مما قاله علي(ع): «الحمد لله الذي بعث محمداً منا نبياً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب؛ لنا حق، إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ولو طال السرى؛ لو عهد إلينا رسول الله عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت؛ لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم؛ لا حول ولا قوة إلا بالله؛ إسمعوا كلامي وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجمع تنتضي فيه السيوف وتخان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة!» (تاريخ ابن الأثير ج3 ص73).

أما موقف الصحابة فكان على رأيين، بانت معالمهما من الاستشارة التي قام بها عبد الرحمن بن عوف، حيث قال: "أيها الناس، إن الناس قد اجتمعوا على أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم، فأشيروا علي".

فبادر عمار بن ياسر فقال له: "إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً". وثنّى المقدار على قول عمار: "صدق عمار، إن بايعت علياً سمعنا وأطعنا".

أما الاتجاه الثاني فقد عبر عنه عبد الله بن أبي سرح (أخو عثمان في الرضاعة) الذي قال لعبد الرحمن: " إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان". وقام عبد الله بن أبي ربيعة فثنّى على رأي ابن أبي سرح: "إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا".

فعاد عمار بن ياسر – وهو العليم بهؤلاء ظاهراً وباطناً – فقال لابن أبي سرح: "متى كنت تنصح للمسلمين؟!" ثم عاد عمار وقال: "أيها الناس، إن الله أكرمنا بنبيه، وأعزنا بدينه، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟" فقام رجل من بني مخزوم (لعله خالد بن الوليد، وإلا لماذا التعتيم) فقال: "لقد عدوت طورك يا ابن سمية، وما أنت و تأمير قريش لنفسها؟!" فالقضية قضية أمرة قريش وليست خلافة الأنبياء(ع)، بل سيد الأنبياء(ص)، وإقامة الشريعة وهداية البشرية.

كيف حسم الأمر

وفي اليوم الثالث بدأ التنازل بينهم لبعضهم، فوهب طلحة حقه لعثمان، ووهب الزبير حقه لعلي(ع)، ووهب سعد حقه لابن عمه عبد الرحمن بن عوف.

وهكذا، لم يبق غير علي(ع) وعثمان وعبد الرحمن، فبادر الأخير إلى إخراج نفسه منها. ولكن لأنه المعين من عمر لتكون له الكلمة الفصل، فإنه عرض على علي(ع) البيعة بشروط: "هل أنت مبايعي على كتاب الله وسُنّة نبيّه، وفعل أبي بكر وعمر؟"

أجاب علي(ع): "بل على كتاب الله، وسُنّة رسوله، واجتهاد رأيي".

فعاود العرض المشروط وعاود الإمام(ع) تأكيد موقفه. فعرض عبد الرحمن البيعة بهذه الشروط على عثمان، فوافق على الفور، فضرب عبد الرحمن على كفه بالبيعة.

هنا، قال علي(ع) لهما: "والله ما فعلتها إلا لأنك رجوتَ منه ما رجا صاحبكما من صاحبه، دَقّ الله بينكما عطر منشم!" يحلف(ع) أن عبد الرحمن لم يفعل ما فعل من اشتراط شروطه التي يعلم برفض علي(ع) لها وقبول عثمان لوجه الله وإنما لأجل أن تأتيه الخلافة بعد عثمان تماماً كما صنع عمر "صاحبكما" من أبي بكر "صاحبه" لما كان المحرك الأساس لبيعته في السقيفة، ثم يدعو عليهما (ومنشم امرأة تبيع العطور في الجاهلية وقبل الحرب كانوا يغمسون أيديهم فيه، وبالتالي فالإمام(ع) يدعو عليهما أن يقيم الله الحرب – أي الخلاف – بينهما).

ثم توجه(ع) لقريش بالقول: "ليس هو أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون".

ويبدو أن عبد الرحمن لم يقبل كلام علي(ع) فقال مهدداً: "يا علي، لا تجعل على نفسك سبيلاً!" بمعنى أنه يذكره بسيف أبي طلحة الأنصاري المأمور بضرب عنق من يعارض الآخرين. فأجابه علي(ع): "سيبلغ الكتاب أجله".

تعليقات:

- أن علياً(ع) عرف حقيقة خطة الشورى وأنها مصممة لاختيار عثمان وإبعاده(ع)
- ولكنه(ع) دخل لإنهاء فرية أن الخلافة لا تجتمع مع النبوة في بيت واحد، وبالتالي تمنع عن الهاشميين
- أنه(ع) حاول، كما هو العهد به، هداية أهل الشورى إلى الحق بتأكيد مكانة أهل البيت(ع)، وهم يعرفونها جيداً، ولكن لإقامة الحجة أولاً وللتذكير ثانياً عسى ولعل
- أنه(ع) حذرهم من العاقبة السيئة لبعضهم ولما ستؤول إليه الأمور، وهذا من واجباته كإمام حق
- أن بعض الصحابة كعمار ومقداد كان همهم عدم وقوع الخلاف بين المسلمين، في حين أن البعض الآخر كان همه عدم وقوع الخلاف في قريش
- وأن علياً(ع) هو ضمانة عدم وقوع الخلاف بين المسلمين، لكنه ليس مرشح قريش
- أن الإسلام لم يستطع أن يزيل النعرات الجاهلية بحيث أن الطلقاء وأشباههم يردون أصحاب السابقة كعمار بن ياسر بأن ليس له الحق في تأمير قريش نفسها، مع أن عماراً يعتقد أن الأمر هو تأمير المسلمين لا قريش
- لم يقف مع علي(ع) غير الزبير بن العوام، فكان الأمر كما توقع قبل بداية الشورى

- شرط عبد الرحمن بن عوف شرطاً خطيراً وهو الالتزام بسنة أبي بكر وعمر، بحيث تصبح ملزمة ككتاب الله وسنة نبيه(ص)، الأمر الذي رفضه علي(ع)، أولاً لأنه لا يعتقد بسنتهما لأنها تحتوي على الصحيح والخطأ، وثانياً لأنه هو المفوض بالشريعة فيعرف السنن والأحكام والآخرون له تبع فكيف يصبح لهم تابعاً؟

- لا أشك مطلقاً، كما لم يشك سيدي أمير المؤمنين(ع)، أن ما شرطه عبد الرحمن إنما كان لدفع الخلافة بعيداً عنه(ع)، فقال له ذلك ودعا عليه وعلى عثمان بالخلاف؛ وقرأت أنه حتى لو قبل علي(ع) بهذا الشرط – وهو محال – فإن عبد الرحمن كان سيأتي بشرط جديد من أجل إبعاد علي(ع)

- أن علياً(ع) قام بواجبه كإمام على أفضل ما يمكن عندما رفض الالتزام بسنة الشيخين أبي بكر وعمر، لأن واجباته كإمام تتعدى زمانه، وبذا فإنه قال لنا أن لا التزام بسنة الشيخين، ليس لأنها سنة أبي بكر وعمر، وإنما لأنهما ليسا مفوضين بالشريعة وإنما كان هو وأولاده الطاهرون(ع) المهيئيين لهذا الدور، الدور القيادي الذي يجب الالتزام به لا بغيره

- أكد علي(ع) هذه الاستمرارية في تظاهر قريش ضد أهل البيت(ع)

- كما أكد عبد الرحمن استعداد قريش لفعل ما لا يتصور، قتل علي(ع) عملاً بأمر عمر لأبي طلحة، إذا ما هو أعلن الخلاف... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إذاً، لماذا دخل الإمام(ع) معهم؟

أوضح هو نفسه ذلك لابن عمه عبد الله بن عباس الذي اقترح عليه عدم الدخول معهم، قال(ع): ‹‹ولكني أدخل في الشورى لأن عمر قد أهلني الآن للخلافة، وكان من قبل يقول: إن النبوة والخلافة في بيت واحد لا يجتمعان، وأردت أن أظهر أن روايته تناقض فعله››.

وهذا يندرج في ما فعله علي(ع) منذ السقيفة وحتى سقوطه شهيداً في محراب الكوفة، من العمل المستمر من أجل مصلحة الإسلام العليا ومصالح المسلمين، ومنها إحياء أمره(ع) في خلافة النبي(ص) وفي إمامته(ع) التي هي قيادة الهدى التي تؤمن من الضلال. فمهما حاولوا منع ذلك، بدءاً من يوم الخميس يوم منعوا النبي(ص) من كتابة صك الأمن من الضلال، فإن علياً(ع) مأمور بأن يستفرغ الوسع من أجل هداية الناس ما أمكن وأما أتيح له من سبيل.

وهنا يأتي تعليق بخصوص رواية الأمامة والسياسة التي يقول فيها عمر لعلي(ع): "وما يمنعني منك يا عليّ إلا حرصك عليها! وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم" فإنه أراد أن يقول بأن طلب علي(ع) الشديد على الخلافة مانع من استخلافه حتى وإن كان المقدم على الآخرين في إمكانية إقامة الحق المبين والصراط المستقيم. وهذا مرفوض: أولاً لأن الحرص على المنصب إن كان لذاته فهو مانع دون شك، لأنه

يعني أن الهدف ليس تحقيق مسؤوليات المنصب فقط وإنما لتحقيق غايات شخصية، أما إن كان الحرص على المنصب للقيام بالمسؤوليات معرفة من الحريص عليه بأنه أفضل من غيره على ذلك، عندها ليس هناك مشكلة، كيف وأن الحريص ههنا هو الذي حمله الله ورسوله(ص) – على الأقل من وجهة نظره هو(ع) – المسؤولية التي لا يملك التنازل عنها. ولكن عمر وغير عمر ينظرون إلى الخلافة كجائزة لا كمسؤولية لذا فإنهم ينظرون إلى حرص علي(ع) عليها كحرصهم عليها، وإلا فإن كانوا يعتقدون بنظرة علي(ع) وبصحتها فإنهم يصبحون في موضع تهمة عظيمة جداً؛ ثانياً لأن الحريص على المنصب أفضل من المرشحين الآخرين وذلك بنظرة المرشِّح نفسه، ولأن المرشحين الآخرين فيهم من العيوب الكبيرة ما رماهم هو نفسه بها.

بذا، فإن الأمر ليس لمشكلة في علي(ع)، وهو المبرء من كل عيب كما يعلم عمر نفسه، وإلا لما جاء باختراع الدعابة، وإنما المشكلة في قريش وما اختارت.

أخيراً، إن هناك نصاً يسلط الضوء على حقيقة الشورى، بحيث يدعم الاستنتاجات التي توصل الباحثون إليها بخصوص إخراج عمر لتعيين عثمان بثوب الشورى (والتي ألمحنا إليها آنفاً)، وهو أن سعيد بن العاص (إبن عم عثمان) "أتى عمر يستزيده – أي في العطاء – فقال عمر: صل معي الغداة وغَبِّش، ثم أذكرني حاجتك، قال: ففعلت، حتى إذا هو انصرف قلت: يا أمير المؤمنين الحاجة التي أمرتني أن أذكرها لك، قال: فوثب معي ثم قال: إمض نحو دارك حتى انتهيت إليها، فزادني وخط لي برجله، فقلت: يا أمير المؤمنين زدني، فإنه نبتت لي نابتة من ولد وأهل، فقال: حسبك – أي يكفيك هذا الذي زدتك – وخبئ عندك أن سيلي الأمر بعدي من يصل رحمك ويقضي حاجتك! قال: فمكثت خلافة عمر بن الخطاب، حتى استخلف عثمان، فوصلني وأحسن وأقضى حاجتي وأشركني في إمامته" (طبقات ابن سعد ج5 ص31).

وهذا النص استنتج منه البعض ليس فقط أن عمر أراد تعيين عثمان ولكن بثوب الشورى، وإنما أيضاً أن هناك اتفاقاً بين الاثنين، عمر وعثمان، بتولي الخلافة بالتتابع، فكان أن كتب عثمان اسم عمر عندما غشي على أبي بكر وأمضى ذلك الخليفة ثم كانت شورى عمر لتنفيذ القسم الثاني من الاتفاق.

النتيجة هي اصطفاف قريش ضده(ع)

روى شارح نهج البلاغة (شرح ابن أبي الحديد ج9 ص22) عن ابن عباس قال: "وقع بين عثمان وعلي كلام، فقال عثمان ما أصنع إن كانت قريش لا تحبكم، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين كأن وجوههم شنوف الذهب!"

فالثأر لهؤلاء السبعين كلف علياً(ع) وأهل بيته(ع) وشيعته الكثير الكثير. ولكن من كان هؤلاء السبعون؟ أليسوا عتاة المشركين؟ فكيف يكون الثأر لهم ممن يعدون من المسلمين موجهاً لأقرب الناس لنبي المسلمين(ص)؟! ولكن

من سيعترف بهذه الحقيقة، حقيقة أن التعصب القبلي الجاهلي كان وراء الكثير مما حصل لأهل بيت محمد(ص) وما جرّه على الأمة جيلاً جيلاً.

والدليل على هذا أن الذي عنده ثأرهم، وهو النبي(ص) لم يستطيعوا الوصول إليه لحماية السماء له بواسطة الملائكة وبواسطة المخلصين من أصحابه الكرام، وعلى رأسهم الهاشميون، وفي طليعتهم علي(ع)، فكان أن طلبوا الثأر من أقرب الناس إليه – كما هو معمول به في الجاهلية، وفي المجتمعات المسلمة الجاهلية إلى اليوم –، ولما كان علي(ع) أقرب الجميع إليه، كونه ابن عمه أبي طالب الذي كان شقيقاً لأبيه عبد الله(ع)، ولما كان علي(ع) صهره أيضاً، ثم كان المنوه باسمه(ع) من قبله(ص) في كل مناسبة، وبعد هذا كله كان علي(ع) هو السيف الذي قتل معظم هؤلاء السبعين وغير السبعين، فإنه من المنطقي تماماً عند أولئك الجاهليين المتلبسين بلبوس الإسلام كذباً أن يطلبوا ثأرهم من النبي(ص) من علي(ع)، فكان ذلك دون هوادة، منه ومن أولاده الطاهرين من بعده. وهذا هو توضيح أمير المؤمنين(ع): ‹‹اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم أضمروا لرسولك(ص) ضروباً من الشر والغدر، فعجزوا عنها، وحلت بينهم وبينها، فكانت الوجبة بي والدائرة علي؛ اللهم احفظ حسناً وحسيناً، ولا تمكن فجرة قريش منهما ما دمت حياً، فإذا توفيتني فأنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد›› (شرح نهج البلاغة ج20 ص298). وقد حصل بعده: فقد سُمّ الحسن(ع) وقتل الحسين(ع)، هذا بعد أن ماتت أمهما(ع) غاضبة مغصوبة مقهورة مردودة عن حقها وحق زوجها، وقتل هو(ع) نفسه في محراب العبادة – قال الشاعر:

قَضى أَخُوهُ خَضِيبَ الرَّاسِ، وَابنَتُهُ غَضْبى، وَسِبْطاهُ مَسمُومًا وَمَنْحُورا

وفي كلام له(ع) قال: ‹‹وقال قائل: إنك يا ابن أبي طالب على هذا الأمر لحريص، فقلت: بل أنتم - والله - أحرص وأبعد، وأنا أخص وأقرب! وإنما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه؛ فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به. اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، ثم قالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه›› (نهج البلاغة الخطبة 172). وفي هذا جواب بليغ لقول عمر لعلي(ع) إن ما يمنعه من تعيينه خليفة بعده هو حرص علي(ع) عليها، فالإمام(ع) يقول لهم بأنهم أحرص، لأنه إن كان حريصاً على أمر جعل حقاً له، وهو مسؤول عنه، وهو الوحيد الذي يستطيع تأدية التزاماته على وجهها، فإنهم أكثر حرصاً وهم يطلبون أمراً ليس لهم وليسوا بقادرين على القيام به على الوجه الصحيح.

ويثبت(ع) كيف أن قريشاً تحاربه كما حاربت النبي(ص)، وذلك في كتاب لأخيه عقيل أيام خلافته: ‹‹فدع عنك قريشا وتركاضهم في الضلال، وتجوالهم في الشقاق، وجماحهم في التيه، فإنهم قد أجمعوا على حربي إجماعهم

على حرب رسول الله قبلي، فجزت قريشا عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن أمي›› (نهج البلاغة ج3 ص67).

ولا نقول إلا: وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ثانياً: الإعراض عنه(ع) في أمور أخرى

حروب الفتوحات

ذكرنا تقدم علي(ع) في الملكات العسكرية، وذكرنا إقباله على قتال العدو بشكل لا نظير، وهذان جعلاه – كما أعتقد – محل الكرامات الألهية كما حصل في معارك النبي(ص) كلها، ولاسيما في قضية قلع باب حصن خيبر واستخدامه كترس يقاتل به، ثم كجسر عبر المسلمون عليه إلى الحصن. وهذا لا يختلف عليه اثنان، حتى أشد الناس عناداً ولجاجةً ونصباً. ولكن تعال إلى ما بعد النبي(ص) لترى هل كان لعلي(ع) ذكر في حروب الردة أو الفتوحات الإسلامية؟

لا يجد الباحث قتالاً مباشراً، بمعنى أن علياً(ع) لم يشترك ولا في معركة واحدة، في الوقت الذي اشترك غيره. نعم، لم يشترك بعض الصحابة الكبار من المقاتلين الجيدين كالزبير بن العوام، ما جعل بعض الباحثين يذهب إلى أن المسألة كان قراراً من الخلفاء على منع هؤلاء من تسنم قيادات عسكرية، حتى روي أن بعضهم أراد الخروج للجهاد فلم يأذن لهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قائلاً بأن لهم في جهادهم مع النبي(ص) كفاية.

وقد أشار السيد شرف الدين إلى أن الخلفاء لم يدعوا علياً(ع) إلى الدخول معهم في الحروب والاشتراك في الحكم كما لم يدعوا أي أحد من الهاشميين إذ لم يُسمع أن هاشمياً اشترك قائداً في حرب أو حكم في عهد الخلفاء الثلاثة، مورداً محاورة بين عمر وابن عباس تثبت ذلك. ولكن طبعاً لا يتوقف الإمام(ع) عن القيام بواجبه في تبيان الأحكام الشرعية حينما كان يُستشار كما حصل كثيراً على عهد الخليفة الثاني الذي رُوي عنه كثيراً كلمته الشهيرة "لولا علي لهلك عمر" (الاستيعاب ج3 ص1102، وشرح نهج البلاغة ج1 ص18)، أو "ما كنتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن" (فتح الباري ج13 ص286، والاستيعاب ج3 ص1102، وشرح نهج البلاغة ج1 ص18، وفيض القدير للمناوي ج4 ص470، وأسد الغابة ج4 ص23، وغيرهم).

فهل أن الإمام(ع) قاطع حكمهم في هذه المسألة لتكليف شرعي أمره به النبي(ص)، أم أن الخلفاء لم يريدوا أن يخرج للقتال فيستمر عطاؤه الفريد في الوقت الذين يريدون لوهج ذكره أن يخفت شيئاً فشيئاً لإضعاف موقعه من الخلافة التي قالوا بأن قريشاً قررت أن لا تكون في أهل البيت(ع)، أم أنهما الإثنان معاً؟

أتصور أن السببين كانا وراء ذلك، فلا علي(ع) يريد الاشتراك ولا هم أرادوا اشتراكه. ولكن ذلك لم يمنعه(ع) من الإدلاء بدلوه عندما يكون من الضروري أن يفعل ذلك. فقد روى المؤرخون رأيه الذي أخذ به أبو بكر في قتال المرتدين، والذي ذكرناه سابقاً، والذي كان هو الذي دفع الخليفة لقرار القتال وإرسال الجيوش إلى اليمامة وغيرها.

كما رووا نصيحته لعمر في قضية الخروج لقتال الفرس عندما كانت الحرب مشتعلة والأمور لم تحسم، بل كان الفرس قد اجتمعوا لإعادة الفاتحين وأكثر. فقد ورد كتاب من عمار بن ياسر إلى عمر يخبره بأن الفرس جمعوا مائة وخمسين ألف مقاتل في نهاوند ليهاجموا المناطق التي فتحها المسلمون من بلاد فارس والعراق ثم ليتوجهوا إلى المدينة المنورة، وقال فيما قال: "وأنهم قد تعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا وتكاتبوا وتواصوا وتواثقوا على أنهم يخرجوننا من أرضنا، ويأتونكم من بعدنا، وهم جمع عتيد وبأس شديد، ودواب فَرِهٌ وسلاح شاك، ويد الله فوق أيديهم" وأخبره بأنهم بدءوا بذلك فعلاً "فإني أخبرك يا أمير المؤمنين أنهم قد قتلوا كل من كان منا في مدنهم، وقد تقاربوا مما كنا فتحناه من أرضهم، وقد عزموا أن يقصدوا المدائن، ويصيروا منها إلى الكوفة، وقد والله هالنا ذلك وما أتانا من أمرهم وخبرهم..."، الأمر الذي أخاف عمر بن الخطاب كثيراً حتى "وقعت عليه الرعدة والنفضة، حتى سمع المسلمون أطيط أضراسه! ثم قام عن موضعه حتى دخل المسجد وجعل ينادي: أين المهاجرون والأنصار! ألا فاجتمعوا رحمكم الله، وأعينوني أعانكم الله!"

فاستشار الصحابة ليبدوا رأيهم في خروجه بنفسه لقيادة الجيش الإسلامي، وقال فيما قال: "أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا واسطاً بين هذين المصرين فأستنفرهم، ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم في بلادهم وليتنازعوا ملكهم؟"

فقام طلحة ابن عبيد الله وقال فيما قال: "أنت وشأنك وأنت ورأيك، لا ننبوا في يديك ولا نكل عليك، إليك هذا الأمر فمرنا نطع وادعنا نجب، واحملنا نركب، وأوفدنا نفد، وقدنا ننقد، فإنك ولي هذا الأمر".

أما عثمان بن عفان فقال فيما قال: "أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين الكوفة والبصرة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك قلّ في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم، وكنت أعز عزاً وأكثر".

ولكن علياً(ع) قام وقال: «أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات

والعيالات! أقرر هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق: فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم"؛ ثم قال(ع): ‹‹إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب، فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم على نفسك››؛ ثم أعادهم إلى مصدر المدد والقوة فقال(ع): ‹‹وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر››.

فقال عمر: "أجل والله لئن شخصت من البلدة لتنتقضن عليَّ الأرض من أطرافها وأكنافها، ولئن نظرت إلي الأعاجم لا يفارقن العرصة، وليمدنهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب" (راجع فتوح ابن أعثم ج2 ص290 وتاريخ الطبري ج3 ص209) .

وهو الرأي الذي رواه الشريف الرضي في نهج البلاغة(ج2 ص29)، قال(ع): ‹‹إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعده وأمده، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع، ونحن على موعود من الله، والله منجز وعده وناصر جنده. ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه، فإن انقطع النظام تفرق وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام وعزيزون بالإجتماع، فكن قطباً، واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك! إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة››.

وروى ابن الأعثم في الفتوح أيضاً (ج 2 ص291) سؤال عمر لعلي(ع) بعد إشارته الواردة أعلاه: "يا أبا الحسن! فما الحيلة في ذلك وقد اجتمعت الأعاجم عن بكرة أبيها بنهاوند في خمسين ومائة ألف، يريدون استئصال المسلمين؟" فقال له علي(ع): ‹‹الحيلة أن تبعث إليهم رجلاً مجرباً قد عرفته بالبأس والشدة، فإنك أبصر بجندك وأعرف برجالك، واستعن بالله وتوكل عليه واستنصره للمسلمين، فإن استنصاره لهم خير من فئة عظيمة تمدهم بها، فإن أظفر الله المسلمين فذلك الذي تحب وتريد، وإن يكن الأخرى، وأعوذ بالله من ذلك، تكون ردءاً للمسلمين وكهفاً يلجأون إليه وفئة ينحازون إليها››.

فكان مما قاله عمر لهم: "ويحكم! عجزتم كلكم عن آخركم أن تقولوا كما قال أبو الحسن! والله لقد كان رأيه رأيي الذي رأيته في نفسي!"

ثم أقبل على علي(ع) فقال: "يا أبا الحسن! فأشر عليَّ الآن برجل ترتضيه ويرتضيه المسلمون أجعله أميراً، وأستكفيه من هؤلاء الفرس"، فأشار(ع) بالنعمان بن المقرن المزني (الذي يعده بعض الباحثين من القادة الميدانيين لجيوش الفتح الإسلامي من شيعة علي(ع) كأبي أيوب الأنصاري وحذيفة بن اليمان وهاشم بن عتبة المرقال وسلمان الفارسي وأشباههم).

وهكذا هو علي(ع) – ربما لو كان غيره لكانت الفرصة له كي يرجو التخلص من عمر في خروجه لقتال الفرس، أو على الأقل يؤيد ما قاله الآخرون، ولكنه(ع) أبدى رأيه المتضمن لما يلي:

- تنبيههم من الغفلة، فإن الأخبار الخطيرة أذهلتهم عن مصدر القوة والحول والطول وهو الله سبحانه وتعالى، فكان أول شيء ينبههم عليه الإمام(ع)
- ثم نبههم من غفلتهم في وعد الله من خلال إخبار نبيه(ص) بفتح الإسلام للأرض
- ثم بين لهم فساد الخطط العسكرية التي أشاروا بها
- بعدها بين الخطة العسكرية الصحيحة، والتي تحيط بالمشكلة من جوانبها، في لقاء العدو وفي تحصين الجبهة الداخلية
- وتعامل في ذلك كله مع عمر من موقع كونه الخليفة مبسوط اليد الذي يجب الوقوف معه في الأزمات التي تعصف بالأمة، فإن الحفاظ على الدولة الإسلامية ومصالح المسلمين إذا دهمها الخطر الخارجي مقدم على كل اعتبار آخر، فلا يكتفي بأن يبين خطورة ذهاب عمر بنفسه للقتال من زاوية تداعي الفرس حينئذ عليه لاستئصاله، وإنما يبين خطورة احتمال تفرق الأمة بعد ذلك، حتى وهو(ع) موجود، وما ذلك إلا لعلمه بالحال وبما يمكن أن يحدث، وهو ما حدث فعلاً بعد موت عمر وسنين من حكم عثمان

فهذا علي(ع)، وهذه سيرته، حتى مع من تعامل معه ومع زوجته بضعة النبي(ص) أسوأ المعاملة. وها هو يقوم بواجبه حتى في الأمور التي أعرضوا فيها عنه في أول الأمر عندما كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إليه.

جمع القرآن الكريم

من أهم ميزات علي(ع) هي علاقته بالقرآن الكريم التي أعلنها النبي(ص) في مناسبات عدة، بعضها يعمم العلاقة على أهل البيت(ع) كما في حديث الثقلين، وبعضها يخصصها في علي(ع) كما في حديث «علي مع القرآن والقرآن مع علي ...»، والبعض الآخر يشير بشكل غير مباشر إلى علاقة الاندماج بين علي وأهل البيت(ع) من جهة

والقرآن الكريم من جهة أخرى كما في أحاديث اتباع أهل البيت(ع) والمنع والتحذير من الابتعاد عنهم لأنهم سفينة النجاة وباب حطة وغير ذلك من صفات لا تكون إلا لمن يحمل القرآن الكريم الذي فيه الهدى والنور. ومن ضمن هذه الأحاديث عبارات من قبيل «لا تقدموهم فتهلكوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»، وهي عبارات أكدها فيما بعد علي(ع) والأئمة من ولده(ع) بأشكال مختلفة.

من ذلك قول علي(ع): «نحن الشّعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، لا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً» (نهج البلاغة خطبة 154). ومن ذلك قول حفيده علي بن الحسين(ع): «... فمن الموثوق به على إبلاغ الحجة وتأويل الحكم إلا اعدال الكتاب وابناء أئمة الهدى ومصابيح الدجى، الذين احتج الله بهم على عباده، ولم يدع الخلق سدى من غير حجة – هل تعرفونهم أو تجدونهم إلا من فروع الشجرة المباركة وبقايا الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وبرأهم من الآفات، وافترض مودتهم في الكتاب؟» (الصواعق المحرقة).

وعليه فمن غير المتوقع، لأنه من الخطأ أن يتم أي عمل يخص القرآن الكريم دون أن يكون علي(ع) على رأس العاملين. كان هذا ما كنت أتوقعه، ولاسيما وأن اسم علي ابن أبي طالب مكتوب في المصاحف الشريفة التي بأيدينا عندما يذكر في آخرها القراءة المعتمدة للمصحف بأنها قراءة "حفص"، والمقصود حفص بن سليمان الكوفي، وانتهاء السلسلة إلى علي(ع)، وهي سلسلة رجالها شيعة بأجمعهم (وهو أحد الاكتشافات التي لم أتوقعها)، فإن حفص بن سليمان الكوفي من أصحاب جعفر الصادق(ع) أخذ القراءة عن عاصم الكوفي، وهو شيعي، وعاصم أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي، وهو شيعي، وأبو عبد الرحمن هذا من أصحاب علي(ع) وشيعته المذكورين معه وفي حروبه. (سأتعرض إلى دور شيعة علي(ع) الريادي في تأسيس العلوم الإسلامية دون استثناء في كتاب "ما بعد العودة" إن شاء الله تعالى.)

إلا أن الذي حصل في موضوع جمع القرآن شيء آخر. فقد رووا عن جمع القراءات روايات متناقضة، تناولها محمود أبو رية في كتابه "أضواء على السنة المحمدية"، ثم ذكر حيرته بخصوص علي(ع).

تكلم أبو رية كيف كان النبي(ص) يحض الصحابة على حفظ القرآن وضبطه وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار وتكلم عن كتّاب الوحي. ثم تكلم عن جمع القرآن وسببه وهو بالخصوص ما حصل من حروب بعد تولي أبي بكر للخلافة وقتل الكثير من الصحابة فيها حتى خشي من ضياع القرآن بموتهم، فاقترح عمر على أبي بكر أن يكلف جماعة بكتابة القرآن فكان ذلك، وأنه لما اتفق الرأي على جمع القرآن وتدوينه قام عمر في الناس وقال: "من تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به." وأن أبا بكر قال لعمر ولزيد ابن ثابت: "أقعدا على باب

المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه"، وعهدوا إلى بلال أن ينادي بأنحاء المدينة "أن من كان عنده قطعة عليها شيء من كتاب الله فليأت بها إلى الجامع ويسلمها إلى الكتبة".

وأيضاً ذكر أن أبا بكر جمع القرآن في قراطيس أي صحف وهو الجمع الأول.

وذكر بعد ذلك الجمع الثاني على عهد عثمان بعد أن انتقلت هذه الصحف من أبي بكر إلى يد عمر ثم إلى يد عثمان، وذكر ما اشتهر من أنه جمع الناس على قراءة واحدة وكتبوا فيها النسخ. وعهد عثمان إلى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوا هذه في المصاحف، وأن عثمان أمر القرشيين الثلاثة أنهم إذا اختلفوا مع زيد بن ثابت في شيء من القرآن فليكتبوه بلسان قريش لأنه نزل بلسانهم، وبعد ذلك أرسل إلى الآفاق بالمصاحف في أواخر سنة 24هـ وأوائل سنة 25هـ على ما قال الحافظ ابن حجر.

وذكر الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان وهو أنه لم يكن الجمع الأول في موضع واحد وكثر الإختلاف في وجوه القراءة وقرئ بلغات بعد أن فتحت البلدان وأخذ الناس يخطئ بعضهم بعضاً فكان جمع عثمان على لغة واحدة وهي لغة قريش أي قراءة قريش.

إلا أنه وقف وقفة قصيرة بسبب ما اعتراه من حيرة عند النظر في أخبار هذا الجمع والتناقض فيه، حيث أن بعض الروايات تقول أن عمر هو الذي فزع إلى أبي بكر، في حين الثانية أن الجمع لم يكن في عهد أبي بكر، والثالثة تقول أن عمر قتل قبل أن يكمل هذا الجمع، وروايات أخرى تزيد من التناقض. ثم يقول بأنه لو أخذ بالأخبار المشهورة التي رواها البخاري وهي التي فزع فيها عمر إلى أبي بكر لكي يجمع القرآن لما رأى القتل قد كثر في وقعة اليمامة حيث قتل فيها المئات من الصحابة من حملة القرآن، فإنه يتبين أن الصحابة وحدهم هم الذين كانوا في ذلك العهد يحملون القرآن فإذا ما ماتوا أو قتلوا ضاع القرآن ونسي وأنه ليس هناك مصدر آخر يحفظ القرآن على مدى الزمان. على حين ذكروا قبل ذلك في أخبار أخرى ما يقبله العقل ويؤيده العلم أن النبي(ص) كان يكتب كل ما ينزل عليه من قرآن وقت نزوله وأنه اتخذ لذلك كتاباً أحصى التاريخ أسماءهم. ويتساءل: "فأين ذهبت هذه النسخة التي لا يشك فيها أحد ولا يمتري فيها إنسان، لأنها هي التي حفظ الله بها القرآن الكريم في قوله تعالى (﴿إنّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإنّا لَهُ لَحافِظُون﴾) (الحجر:9) وقوله تعالى (﴿إنَّ علينا جَمعَهُ وقُرآنَه﴾) (القيامة:17)، ثم يقول: "إن هذه النسخة الفريدة التي تحمل الصورة الصحيحة للقرآن التي ستبقى على وجه الزمن خالدة لو كانت موجودة لأغنتهم عما وجدوه في سبيل عملهم من عناء، ولأصبحت هي المرجع الأول للقرآن في كل عصر ومصر والتي كان يجب على عثمان أن يراجع عليها مصاحفه التي كتبها قبل أن يوزعها على الأمصار".

وما بين حديثه عن جمع القرآن الأول والجمع الثاني تكلم كلمة لطيفة تحت عنوان "غريبة توجب الحيرة" قال: "من أغرب الأمور ومما يدعو إلى الحيرة أنهم لم يذكروا اسم علي رضي الله عنه فيمن عُهد إليهم بجمع القرآن وكتابته، لا في عهد أبي بكر ولا في عهد عثمان! ويذكرون غيره ممن هم أقل منه درجة في العلم والفقه! فهل كان علي لا يحسن شيئاً من هذا الأمر؟ أو كان من غير الموثوق بهم؟ أو ممن لا يصح استشارتهم أو إِشراكهم في هذا الأمر؟

اللهم إن العقل والمنطق يقضيان بأن يكون علي أول من يعهد إليه بهذا الأمر، وأعظم من يشارك فيه وذلك بما أتيح له من صفات ومزايا لم تتهيأ لغيره من بين الصحابة جميعاً. فقد ربّاه النبي(ص) على عينه، وعاش زمناً طويلاً تحت كنفه، وشهد الوحي من أول نزوله إلى يوم انقطاعه، بحيث لم يند عنه آية من آياته!

فإذا لم يدع إلى هذا الأمر الخطير فإلى أي شيء يدعى؟!

وإذا كانوا قد انتحلوا معاذير ليسوّغوا بها تخطّيهم إياه في أمر خلافة أبي بكر فلم يسألوه عنها ولم يستشيروه فيها فبأي شيء يعتذرون من عدم دعوته لأمر كتابة القرآن؟ فبماذا نعلل ذلك؟ وبماذا يحكم القاضي العادل فيه؟ حقاً إن الأمر لعجيب، وما علينا إلا أن نقول كلمة لا نملك غيرها وهي: لكَ الله يا علي ما أنصفوك في شيء!"

أقول: رحمة الله على محمود أبي رية لجهوده في الدفاع عن سنة المصطفى(ص)، وأيضاً لكلمته الواعية العارفة المنصفة: لك الله يا علي، ما أنصفوك في شيء!

وأقول: أنهم رووا أن علياً(ع) إنما لم يخرج لبيعة أبي بكر لأنه حلف ألا يغادر البيت إلا لصلاة الجمعة حتى يجمع القرآن كله، وكنت قد علقت على هذه الدعوى في كتابي "حجج النهج" بأنه كان يستطيع أن يبايع أبا بكر بعد صلاة الجمعة! وأنه إن كان ذلك كذلك فهذا يعني أنه قد تحققت نسخة كاملة كتبها أعلمهم بالقرآن والوحي، وذلك قبل أن يفزع عمر إلى أبي بكر لجمع القرآن، فلماذا أهملوا هذا القرآن الذي ذكروه هم أنفسهم؟

ثالثاً: محاربته(ع) بعد الخلافة – الناكثون والقاسطون والمارقون

إن النبي(ص) بعد أن أبان منزلة علي وأهل البيت(ع)، منزلة الإمامة التي لا يصح من الأمة إلا أن تتبعها بما تأمر وتنهى، تتبعها اتباعاً كاملاً تاماً «لا تقدموهم فتهلكوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا» ونهى عن التنطع معهم «ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»، وحذر من أن مخالفتهم اتباع للشيطان «إذا خالفتهم قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حسب إبليس»... في أحاديث كثيرة متنوعة، حتى وصل(ص) إلى التحذير من الوقوف موقف المحارب لهم فقال(ص)، برواية زيد بن أرقم: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم» (صحيح ابن حبّان ج9 حديث

6938)، وبرواية أخرى عن زيد بن أرقم، قال(ص) وهو يتحدث مع علي وفاطمة والحسنين(ع): ‹‹أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم›› (سنن ابن ماجة ج1 ص52 حديث 145، ومستدرك الحاكم ج3 ص149). هذا الحديث رواه العديد من المحدثين، كالترمذي في سننه ج10 فضائل فاطمة الحديث 3962، وأصحاب السير والتواريخ كابن الأثير في أسد الغابة ترجمة فاطمة(ع) ج7 الحديث 2619 وما بعده. وروى الحديث أبو هريرة أيضاً.

على الرغم من هذا، فقد وصل البعض في التعامل المناوئ لعلي(ع) إلى درجة العداوة السافرة في حروب أكلت ألوف المسلمين، وكلها من أجل الدنيا فحسب. وكان النبي(ص) قد أخبر علياً(ع) أنه سيحارب فئات ثلاث: الناكثون، والقاسطون، والمارقون. فقد أخرج الحاكم في المستدرك (ج3 ص139) عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: "أمر رسول الله(ص) علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين".

وأخرج البغدادي في تاريخ بغداد (ج8 ص340) أن علياً(ع) قال يوم النهروان أن النبي(ص) أمره بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين.

وأخرج أيضاً (ج13 ص186) حديثاً عن علقمة والأسود أنهما قالا أنهما "أتيا أبا أيوب الأنصاري بعد معركة صفين فقالا له: يا أبا أيوب إن الله أكرمك بنزول محمد(ص) وبمجيء ناقته تفضلاً من الله وإكراماً لك حتى أناخت ببابك دون الناس ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلا الله! فقال: يا هذا إن الرائد لا يكذب أهله، وإن رسول الله(ص) أمرنا بقتال ثلاثة مع علي(ع) – بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فأما الناكثون فقد قاتلناهم أهل الجمل طلحة والزبير، وأما القاسطون فهذا مصرفنا من عندهم، يعني معاوية وعمرو، وأما المارقون فهم أهل الطرقات وأهل السعفات وأهل النخيلات وأهل النهروانات، والله ما أدري أين هم ولكن لا بد من قتالهم إن شاء الله".

وهذا إخبار واضح من النبي(ص) بقتال ثلاث فئات شخصها(ص) بصفات أفعالها أو نتائج أفعالها، إلا أن التعامل بالطريقة ذاتها جرى مع مثل هذه الأحاديث، ولاسيما وأنها تقول بأن الزبير وطلحة نكثا البيعة ما يعني الخروج عن الإمام المبايع دون حدث منه وحكم هذا معروف (يطبقه أصحاب هؤلاء إلى اليوم مع المخالفين، ولكن المسألة تقف عندما تتعلق بعلي(ع)!)، وتقول أن معاوية وأصحابه قسطوا، أي ظلموا وجاروا، وأمثال هؤلاء توعدهم القرآن الكريم كما في سورة الجن. أما الخوارج فيبدو أن أمرهم أسهل، أولاً لأنهم لم يكونوا من الصحابة، وثانياً لأنهم كانوا في جيش علي(ع)، وبالتالي حاربوا معه قبل ذلك وأوقعوا القتلى الكثيرين في صفوف معاوية وجيش الشام، إذاً يستحقون ما لا يستحقه الصنفان الأولان من المعاداة! وهكذا طريقة التعامل التي لا

تأخذ بالحسبان طاعة الله ورسوله(ص) بقدر ما تهتم بكرامة أشخاص، هم على أية حال عبيد لله وأتباع للرسول(ص).

أخيراً، بما أن علياً(ع) حارب ثلاث فئات: في معركة الجمل، ثم في معركة صفين، ثم في معركة النهروان، وأن الروايات تحدد ثلاث فئات، بل وتدرجهم بنفس التسلسل، فكان لزاماً على الذين لا يهمهم سوى كرامة الصحابة أن يديروا ظهورهم لهذه الأوصاف التي جاءت عن النبي(ص)، فيخترعوا أسباباً لأفعال الناكثين والقاسطين بالخصوص، أو يثنّوا على مزاعمهم في أسباب خروجهم وحربهم لعلي(ع)، دون اهتمام بكرامة الصحابة الرواة لهذه الأحاديث كأبي أيوب الأنصاري (رض) أو علي(ع) صاحب الموضوع كله الذي جوبه بالنكث والظلم.

وقد كتب الكثير في حروب علي(ع)، وأسبابها، وتفاصيلها، البعض يشرق والبعض يغرب، البعض ينتحل الأعذار للناكثين والقاسطين، والبعض الآخر يحاول – كالعادة – التوفيق بين المتناقضات حتى وإن وصل الأمر لدماء ألوف المسلمين، بل أن الغالب مما اكتشفت عند النظرة السنية لتلك الأحداث أنها تحكم بالخسران على الأتباع ولكن بالفوز للقادة المتبوعين! ولهم في هذا نقاشات مضحكة حقاً لعلي أتعرض لها في كتاب "ما بعد العودة" إن شاء الله. إلا أن الذي لم يستطع أحد أن يهرب منه هو: أن علياً(ع) كان على الحق في جميع حروبه، فالحمد لله على عدم تكذيب المصطفى(ص) في حديثه المعروف: «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه كيفما دار». ولكن باختصار أوجز تلك الأحداث، بالموجز الذي أقصه دون مصادر أو نقاشات لأن هذا ليس ههنا محله، فإن ما أريده هو فقط كيفية تعامل علي(ع) مع أعدائه، هؤلاء الأعداء الذين وصل الأمر بهم إلى حد رفع السلاح بوجهه والقتال، فإن هذا هو الغرض لوصف سيرته العطرة عليه السلام.

الناكثون

الناكثون هم: الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومن خرج معهما بعد بيعتهم علي(ع) إثر مقتل عثمان بن عفان واندفاع المسلمين لبيعة علي(ع) بشكل وصفه هو(ع) بالقول: «حتى لقد وُطِئَ الحسنان وشُقَّ عطفاي». وروي أن أول من بايع كان طلحة، ثم الزبير، وروي أنه(ع) كان أثناء ذلك يتلو قوله تعالى من سورة الفتح: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾.

يبدو أن الصاحبين أرادا أن يوليهما علي(ع) مناصب مهمة، ولاسيما وأنهما كانا من أشد الناس تحريضاً على الخليفة عثمان، فكأنما كانا ينتظران جائزة، ولكن علياً(ع) أخبرهما أنه لن يتجاوزهما في أي مشورة هو في حاجة إليها. لم يرضهما ذلك، وكتبا إلى أم المؤمنين عائشة، وكانت في مكة، "أن خذّلي الناس عن علي"، وهو طلب تقبلته أم المؤمنين بأحسن القبول، كيف لا وهي التي لم تستطيع أن تحب علياً(ع) كما هو المعروف، وكيف لا وهي

كانت جاهزة لهذا الموقف المواجه، فإنه لما وصل إليها مقتل عثمان وهي في طريقها إلى المدينة فرحت وصارت تمني النفس بمبايعة ابن عمها طلحة، فلما أخبرت أن الناس بايعوا علياً[ع] قالت: "السماء تنطبق على الأرض ولا تتم هذه البيعة!" وما لبثت شيئاً حتى بدأت تقول: "قتل عثمان مظلوماً!"

بدأت حملة التهيئة لحرب علي[ع]، وكان لأم المؤمنين الدور الأعظم – بنظري – لأن الصاحبين لم يكن لهما حظ كبير دونها، فهي زوجة النبي[ص] والقرآن الكريم أمر بأن يتعامل المسلمون معها كتعاملهم مع الأم، بغض النظر عن الموقف منها، إضافة إلى ما تملكه من ذكاء وعلم وكونها بنت الخليفة الأول الذي يؤمن بصحة خلافته أكثر المسلمين في وقتها. لهذا كتبا لها يطلبان الدعم، فقامت بالكتابة إلى أمهات المؤمنين (رض) من أجل أن يخرجن معها، وذلك من أجل الإصلاح! وهو ما لم أفهمه، لأنه لم يكن قد بدأ شيء يحتاج الإصلاح بين علي[ع] والمناوئين، اللهم إلا مع معاوية الذي كان يطلب دم عثمان، ودم عثمان سفكته أم المؤمنين وطلحة والزبير قبل غيرهم بما حرضوا الناس عليه. الروايات تقول بأن مواقف أمهات المؤمنين كانت على ثلاثة أقسام: أرادت حفصة بنت عمر الخروج مع عائشة، بينما أرادت أم سلمة ثني عائشة عما تريد بشكل قوي، أما الأخريات فقد رفضن طلب عائشة.

وكتبت عائشة إلى آخرين، فردوا طلبها بردود مختلفة، بعضها يذكرها بوجوب أن تقر في بيتها كما هو أمر القرآن لنساء النبي[ص]، وبعضها يتهمها بأنها هي التي كانت تحرض على عثمان وتسميه "نعثل" اليهود، وتحرض على قتله، وبعضها يهددها بقتال شديد.

إلا أن رد أم سلمة (رض) كان الأقوى والأشمل، فبالإضافة إلى تذكيرها بكل ذلك، قامت بتذكيرها بحادثة حضرتها معها، يوم جاء أبوها وعمر إلى النبي[ص] وسألاه عن المرجع بعده[ص] وأن النبي[ص] قال لهما أنه يعرف مكانه ولكنه لو أخبرهم لتفرقوا عنه كما تفرقت بنو إسرائيل، فخرجا ولم يسألاه (!)، وكيف أن عائشة سألته بعدما خرجا فقال «إنه خاصف النعل» وكان علي[ع] في الخارج يخصف نعل النبي[ص].

ثم كان من موقفها (رض) أنها بعثت برسالة إلى علي[ع] مع ولدها عمر بن أبي سلمة تعلن انتصارها لعلي[ع] وتعتذر عن عدم القتال معه لالتزامها الشرعي ولكن ترسل ولدها عمر ليحارب مع علي[ع].

وكان بعض أصحاب علي[ع] قد قال لها محذراً: "من رأى قتالك فقد رأى قتلك" بمعنى أن الناس سيكونون مستعدين لقتلك، وهو الشيء ذاته الذي كانت هي ومن معها على استعداد لفعله – قتل علي والحسنين[ع] والصفوة من الصحابة وكثرتهم الكاثرة في جيش أمير المؤمنين[ع]؛ هذا وقد سمعت النبي[ص] يقول أنه حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وحرب لمن يحاربون وسلم لمن يسالمون.

لم ينفع كل هذا مع أم المؤمنين عائشة، بل أصرت على موقفها. واستمر على هذا حتى بعد أن وصلت إلى ماء الحوأب فنبحتها كلاب هناك فعندما أخبرت بالمكان تذكرت تحذير النبي(ص) لها فأرادت الرجوع فكذبوا عليها أن المكان ليس المكان. واستمر بعد أن جاءوها بجمل لكي تقود المعركة من هودج عليه، فلما أخبرت أن اسمه "عسكر" تذكرت تحذير النبي(ص) (وهذه من بعض معاجزه(ص) – إخباره بالمستقبليات من الأحداث)، ولكن ابن اختها عبد الله بن الزبير – وهو أحد المهيجين على علي(ع) وأهل البيت(ع) – جاءها بشهود يشهدون زوراً أنهم استبدلوه.

وهكذا، خرج الناكثان الزبير وطلحة، ومعهما عائشة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر مع من تحالف معهم، إلى البصرة، فقتلوا أكثر من مائة وعشرين من المسلمين، وألقوا القبض على الصحابي عثمان بن حنيف الأنصاري والي البصرة وضربوه ونتفوا شعر لحيته ولولا أن هددهم بأخيه سهل بن حنيف في المدينة لقتلوه، وصادروا بيت المال، ثم صار طلحة والزبير يتنازعان على إمامة الصلاة!

حاول أمير المؤمنين(ع) إرجاعهم عن غيهم، فأرسل ابن عباس إلى البصرة لتذكير الزبير بالبيعة، ولكن الأخير وطلحة أصرا على موقفهما، بل ادعيا – كذباً – أنهما بايعا علياً(ع) مكرهين. فما كان منه(ع) إلا الخروج لقتالهم، فخرج ومعه جل المهاجرين والأنصار، ودخل البصرة في ما يزيد عن اثني عشر ألف رجل.

قبل القتال حاول علي(ع) مرة أخرى إرجاعهم إلى الحق، فذكر الزبير بقول النبي(ص) له: «لتقاتلنه – أي علي(ع) – وأنت له ظالم» فأراد الاعتزال فهيجه ابنه عبد الله باتهامه أنه يخاف من قتال علي(ع)، فقاتل شيئاً ثم اعتزل، فقتله عبد الله بن جرموز وجاء بسيفه إلى علي(ع)... أفتعلم ماذا قال علي(ع)؟ قال: «سيف لطالما كشف الكرب عن وجه رسول الله» مذكراً بحسن بلاء الزبير في معارك النبي(ص).

واحتدم القتال وقاتل أصحاب الجمل حوله قتالاً شديداً، فأمر علي(ع) بالهجوم عليه وقتله، ففعلوا فوقع هودج عائشة، فأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يأخذ الرجال ويحمي أخته، ففعل. ثم أمر أن تحمل إلى أحد بيوت الوجهاء لتكون في حماية، وبعدها أمر بها إلى المدينة المنورة، قيل ومعها خمسين امرأة كي لا تنكشف على أحد من رجال القافلة. هذا، مع أنه أصرت على موقفها بحيث رفضت – في حديثها مع ابن عباس إذ أرسله علي(ع) – أن تسمي علياً(ع) بإمرة المؤمنين، وقالت: "ذاك عمر" أي عمر بن الخطاب فقط.

وعندما وقف على جثة طلحة بن عبيد الله قال(ع): «أصبح أبو محمد غريباً في هذا المكان»!

ولما أراد جيشه المنتصر أن يأخذ الجيش المنهزم غنائم منعهم من ذلك، محتجاً عليهم بسؤالهم عمن يأخذ أم المؤمنين عائشة.

كانت نتائج الحرب سقوط ما بين عشرة آلاف على أقل التقديرات وثلاثين ألفاً على أعلى التقديرات، معظمهم من جيش الناكثين. وهؤلاء ضحايا أول حرب داخلية أهلية بين المسلمين أنفسهم، فمن يتحمل وزر هذه السّنّة السيئة ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؟

الشاهد من هذا هو سيرة علي(ع): حاول الإصلاح ما استطاع، بالرسائل والوفود، ثم بالتذكير بأقوال النبي(ص)، ثم بفسح المجال لمن يريد الاعتزال، ثم بمحاولة إنهاء الحرب بأقل الخسائر، وبعدها التعامل مع المنهزمين كمسلمين باغين، فلا يؤسرون ولا يقتلون ولا شيء من هذا. أما رؤوس الفتنة، فعاملهم معاملة المحب الذي لا يريد لهم المصير الأسود، وبعد هزيمتهم ومقتل بعضهم لم يشمت ولم يذكر إلى الحسن من سيرتهم، وطوى صفحة الموضوع، وهو يطوي قلبه المكلوم بأفعال هؤلاء الناكثين المنكرين لفضله وهم أعلم به من غيرهم، على سنة من ابن عمه ومعلمه(ص) يوم قال: «إذهبوا فأنتم الطلقاء».

ولكن بماذا أجاب الطلقاء؟

القاسطون

هم الجائرون الظالمون، وما أحراهم بهذا الوصف وقد كانت قيادتهم للطلقاء الذين كانوا حرباً لله ورسوله(ص) ثم «ما أسلموا ولكن استسلموا، فلما وجدوا أعواناً ...» وإلا كيف يكونون حرباً لمن أعلن النبي(ص) أنه حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم؟ كيف يرفعون السيوف بوجه علي والحسنين(ع) والمئات من المهاجرين والأنصار من الصحابة في جيش علي(ع) والألوف من التابعين لهم بإحسان؟

ولكن إذا كان هناك – ولا يزال – من ينتحل الأعذار لأم المؤمنين وطلحة والزبير في خروجهم على علي(ع) وإثارة الحرب الأهلية الأولى في تاريخ الإسلام فللمرء أن يتوقع أن يكون العذر موجوداً لمعاوية بن أبي سفيان في إثارته الحرب ضد علي(ع). بل أن ابن أبي سفيان كان سيرضى بالجلوس أميراً على الشام حتى تحين الفرصة للانقضاض على منصب الخلافة، في حين أن أصحاب الجمل الملعون – كما سماه علي(ع) – فإنهم ذهبوا إلى البصرة واعتدوا وقتلوا وصادروا بيت المال معلنين الخروج والعصيان بعد البيعة، في حين أن معاوية لم تكن في عنقه لعلي(ع) بيعة. إضافة إلى حقيقة أن معاوية هو ابن عم الخليفة المقتول عثمان (من الجد الثاني) فمطالبته بالثأر من قاتليه أكثر قبولاً من مطالبة الناكثين وعائشة، التي قالت للناس لتبرير انقلاب موقفها 180 درجة من العداء الكامل السافر لعثمان إلى المطالبة بثأره: "أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟!"

كان عثمان بن عفان يرسل الرسالة تلو الأخرى يستعجل معاوية أن يأتي بجيش الشام ليفك عنه حصار الثوار في المدينة، ولكن معاوية كان يظهر الجدية في القيام بذلك ولكنه يتأخر، حتى أرسل له عثمان بأنه يعرف ما يريد،

وهو أن يقتل عثمان فيتوصل إلى الخلافة عن طريق المطالبة بثأره. وبعد مقتل عثمان ومبايعة علي(ع) عين ولاته على الأمصار ولم يبق معاوية على ولاية الشام وأرسل الرسائل إليه، ولكن معاوية رفض تسليم الشام وبالتالي التسليم لخلافة علي(ع)، وكان ذلك المقدمة لحرب صفين التي كانت بعد سنة من حرب الجمل مع الناكثين.

ولأجل أن يقوي من جبهته إعلامياً فقد استطاع معاوية أن يشتري عمرو بن العاص وذلك بأن كتب له عهداً بولاية مصر، فباع الأخير دينه بهذه الولاية. وعندما خرج عمار بن ياسر للقتال في صفين قال: "يا عمرو بعت دينك بمصر، تباً لك! طالما بغيت في الإسلام عوجاً".

ومثلما فعل الناكثون عندما دخلوا البصرة من اعتداءات على الوالي الشرعي ومن معه فقد فعل أتباع معاوية ذلك، حيث استطاعوا الاستيلاء على مصر وألقوا القبض على الوالي من قبل علي(ع) وهو محمد بن أبي بكر، وهو من أكثر الناس ولاءً لأهل البيت(ع) ومعاداة لأعدائهم، وكان من أكثر الناس تحريضاً على عثمان، ومن بين أصحاب علي(ع) الذين لم يكونوا يرضون بالمساومات المعروضة، حاله حال مالك الأشتر النخعي وعدي بن حاتم الطائي وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري. كان في السابعة والعشرين من العمر، فقتله أصحاب معاوية وأدخلوا جثته في بطن حمار وأحرقوه! (وقبره الآن في قرية ميت دمسيس قرب المنصورة في مصر، مشيد، وفوقه مسجد مشيد تقام فيه الصلوات اليومية).

دارت حرب صفين طويلاً، وكانت تتوقف وتشتعل، وأحياناً كانت تشتد كثيراً، ولاسيما ما عرف بليلة الهرير التي حصدت العدد الكبير من المسلمين من الجانبين. ما حدا بأمير المؤمنين(ع) لطلب المبارزة من معاوية على أساس أن العرب كادوا يفنون وليحسم النزاع العسكري بمبارزة بين القائدين. طبعاً لم يرض معاوية، وعندما قال له عمرو بن العاص "أنصفك الرجل!" رد عليه معاوية: "ما أنصفت! وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره!"، فقال له عمرو: "ما يجمل بك إلا مبارزته"، فقال معاوية: "طمعت فيها بعدي؟!" هنا أقسم معاوية على عمرو أن يبارز علياً(ع) فاضطر للقبول، فلما قابل علياً(ع) ورفع سيفه كشف عمرو عن عورته فحول علي وجهه عنه.

وكان من الأحداث البارزة في حرب صفين هو مقتل عمار بن ياسر (رض)، هذا الشيخ الكبير سناً وشخصية وموقفاً وتاريخاً. لم يقل أن علياً(ع) أصغر منه بما يزيد على ثلاثين سنة فلا يتبعه، كما قال غيره من الذين وجدوا في السن ما يتكئون عليه في التظاهر ضد علي(ع)، ولم يغير ولم يبدل، وكان من الذين لم يستطع السكوت على المظالم في عهد عثمان، فكان من أشد الناس عداوة لمعاوية والأخير عداوة له. أثناء القتال الشديد طلب عمار ماءً ليشرب فجيء له بلبن، فكبر وأعلن قول النبي(ص) له أن هذا سيكون آخر شراب له في الدنيا، فقاتل حتى قتله أبو العادية الفزاري. هنا ثارت بلبلة سببها اشتهار قول النبي(ص) «ويح عمار تقتله الفئة الباغية» ما يعني أن

فئة معاوية هي الفئة الباغية، وهو أمر مؤسف أن تكون هناك حاجة لمعرفة الفئة الباغية عندما يكون علي بن أبي طالب(ع) على رأس إحدى الفئتين، ولكن هكذا كان من معاجز النبي(ص).

ثم صارت الغلبة لجيش علي(ع)، حتى وصل مالك الأشتر إلى مركز معاوية. هنا، قام عمرو بن العاص بواحدة من أشد حيل الخداع أثراً في التاريخ عندما أمر أصحابهم برفع المصاحف على الرماح والمناداة بالدعوة للتحاكم إلى كتاب الله. خرج الألوف من جيش علي(ع) يطالبونه بقبول الدعوة إلى كتاب الله، فحاول إقناعهم بأن يحترموا عقولهم فإنه يعرف هؤلاء القوم مذ كانوا صغاراً فهم ليسوا أهل دين ولا قرآن، وحاول الآخرون مع هؤلاء الخوارج فلم يفلحوا، بل لم تفلح محاولات الصحابة الكبار الآخرين كعمار بن ياسر قبل استشهاده وهو يقول لأحد السائلين، مشيراً إلى راية معينة في معسكر معاوية، أن هذه الراية تحتها عمرو بن العاص وأنه – أي عمار – قاتلها أربع مرات، ثلاثًا في الجاهلية وهذه المرة في الإسلام وأن هذه المرة أسوأهن، أي أن موقف عمرو أسوأ من مواقفه في الجاهلية.

وصاروا يلحون على علي(ع) أن يرسل في طلب الأشتر لإيقاف الهجوم، وأرسل الأشتر رافضاً يطلب إمهاله قليلاً لأنه يشم رائحة الفتح، ولكنهم هددوا علياً(ع) فأرسل إليه مرة أخرى يخبره بالخطر، فأوقف الهجوم وجاء وهو في أشد حالات الغضب فشتمهم وضرب وجوه رواحلهم بالسوط.

ثم كانت عملية التحكيم المعروفة، والتي فيها ظهر سوء دخيلة صحابي آخر هو أبو موسى الأشعري، الذي اتفق مع عمرو بن العاص على خلع علي(ع) وعمرو معاوية، فوفى بالشرط وخلع علياً(ع) ولكن عمرواً لم يخلع معاوية! فكم هو عظيم عقل أبي موسى وكم هي عظيمة نفسه.

وبعد التحكيم انقلب الخوارج على موقفهم فجاءوا علياً(ع) يقولون أنهم عرفوا بخطئهم وأنهم تابوا ويطلبون منه التوبة! تصوروا المصيبة: علي(ع) يخطئ وعليه التوبة، وعلى يد الخوارج العباد الزهاد! ذكّرهم أنهم هم الذين كانوا وراء ما جرى، وأنه لا يمكن أن يتراجع بعد أن اتفق مع القوم، فعلي(ع) لا يتراجع عن كلمته، فخرجوا بالألوف من جيشه وجماعته بشكل نهائي، وسماهم المؤرخون الخوارج.

هنا أيضاً، نجد علياً(ع) مع القاسطين على نفس الطريقة في محاولة إعادتهم إلى الحق ودفع الشر، وهو ما أخذ منه ما يقارب السنتين إلى أن لم يبق مجال إلا للحرب. ورأينا أنه بعد اشتداد الحرب حاول إنهاءها بنفسه ولكن معاوية رفض كما هو المتوقع. وكما فعل مع أهل الجمل، لم يعتبر جيش الشام خارجين عن الدين، بل بغاة من المسلمين، ولم يرض من أصحابه بشتم جيش الشام، قائلاً قولته التربوية العظيمة: «كرهت أن تكونوا سبابين، ولكن لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، ولو قلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله،

ويرعوي من الغي والعدوان من لهج به، فهذا من الكلام أحب إلي ولكم» فقالوا: "يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدب بأدبك".

حتى السب، وهو للتنفيس عن كل هذا الظلم وهذه الدماء المسفوكة والخسائر الفادحة، لا يرضاه علي(ع). فكان أن قابله قائد أهل الشام، معاوية بن أبي سفيان، بما ينتظر منه من سن سب علي(ع) على منابر المسلمين عشرات السنين، ولكن هذا موضوع آخر.

وبقي معاوية على موقفه من العداوة، تارة يرسل بجيش يهاجم جميع المدن والقرى المسلمة تحت حكم الخليفة الشرعي، من جنوب الشام مروراً بالحجاز وحتى اليمن، وأخرى يرسل بالغارات على الأنبار غرب العراق، وثالثة يرسل أعوانه ومقاتليه ويأخذوا مصر، في الوقت الذي كان أعوان علي(ع) آخذين بالوهن، بعد مقتل الكثيرين من القادة من صحابة النبي(ص) والتابعين، إما في المعارك وإما بالسم والغدر، وتعب العشائر في العراق التي كانت تكون جيش علي(ع)، فبقيت الأمور هكذا دون حسم حتى مقتله(ع).

إذاً، كان للخوارج الدور الحاسم في منع حسم المعركة لصالح علي(ع) وجيش العراق وإنهاء فتنة الباغي معاوية، ما جر على الأمة الويلات من خلافة أموية ظالمة وما بعدها.

المارقون

وهم الخوارج الذين خرجوا من جيش علي(ع) في صفين. ولا أقول ذلك لأن الناس يقولونه، ذلك أن المرء يجب أن يتخذ الحذر من اتهام أي شخص أو جماعة معارضة للحاكمين، وقد كان الخوارج من أعداء الأمويين واستمروا على العداوة وشن الغارات هنا وهناك وربما إلى زمان عبد الملك بن مروان، وإنما أقوله لأن وصف النبي(ص) لمن يقاتلهم علي(ع) ومقابلته مع وصف أبي أيوب الأنصاري بأنه قاتل الناكثين والقاسطين وينتظر قتال المارقين وهو ما حصل بعد ذلك، يثبت أن الخوارج الذين خرجوا عن أمير المؤمنين(ع) هم المارقون.

فلماذا سماهم النبي(ص) "المارقون"؟

كل من وصف الخارجين على علي(ع) وصفهم بحسن الصلاة وطول السجود، حتى سموهم "ذوي الجباه السود"، والتخشع، وقراءة القرآن بشكل ترتيل مستمر، وأنهم كانوا إذا قابلوا رجلاً سألوه عن معتقده فإن وجدوه نصرانياً أو يهودياً قالوا "إحفظوا ذمة نبيكم" أم إذا كان مسلماً عندها يسألوه عن رأيه في الخلفاء الأربعة، فإن كان رأيه حسناً في أبي بكر وعمر وسيئاً في عثمان وعلي(ع) فهو مقبول عندهم، وإلا يأمرونه بالتبرؤ من عثمان وعلي(ع)، فإن رفض يتعرض للقتل بسيوفهم. وهذا الأمر لم يكن نظرياً، وإنما جرى مع من كانوا يقابلونهم في النواحي التي كانوا ينتشرون فيها في العراق، فيما ذكر في كتب التاريخ.

فلو جئنا إلى ما أخبر به النبي(ص) عن قوم قال أنه «يمرقون من الدين» أي "مارقون"، وقابلناه مع صفة الخوارج أولئك نجد الانطباق كاملاً.

فقد أعطى النبي(ص) أوصافاً متعددة، وطرحها بأشكال مختلفة، تحذيراً لأمته من أمثال هؤلاء، كما حكم بقتلهم، ووصف من يقتلهم بأنه الأقرب إلى الحق. من هذه الأحاديث:

«إن بعدي من أمتي قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون إليه، شر الخلق والخليقة» (مسند أحمد ج5 ص31 وصحيح مسلم ج3 ص116).

«يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» (صحيح البخاري ج4 ص179).

«سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن» (الطبراني ج17 ص297).

«إن من ضئضئى هذا قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم أقتلنهم قتل عاد» قاله النبي(ص) وهو يتحدث عن ذلك الرجل الذي قال للنبي(ص) "إعدل يا محمد!".

«إن من ضئضئى هذا قوما يقرأون القرآن، ولا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، ثم يعودون فيه، هم شر الخلق والخليقة، سيماهم التحليق» (صحيح البخاري ج5 ص111)، وفي بعضها «يتلون كتاب الله رطباً» (صحيح البخاري ج5 ص110).

«تمرق مارقة عند فرقة بين المسلمين، فيقتلها أولى الطائفتين بالحق» (مسند أحمد ج3 ص32، وسنن أبي داود ج2 حديث 4667، وصحيح مسلم ج3 ص113).

وهكذا، نجد فيهم قراءة غير واعية للقرآن، على الرغم من تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ونجد الصلاة الكثيرة والسجدة الطويلة، والأعمال الخيرية، ولكنها كلها في السطح وليست في العمق، بدليل الجرأة على الدماء، دماء المسلمين، وهي التي لها أعظم حرمة عند الله تعالى حتى من الكعبة المشرفة.

ونجد جرأة على النبي(ص)، بحيث يجبهه أحد رؤوسهم بأنه لا يعدل في القسمة! وهذه جرأة من يجهل حقيقة النبي(ص) أنه المؤدي عن الله بالحرف الواحد، قولاً وفعلاً وهدياً وأمراً ونهياً وأخلاقاً وفي كل شيء صغير وكبير. ولعل هذا هو الذي يجعلهم يبيحون قتل الناس لأنهم يفتون بأنفسهم لأنفسهم بناء على آيات القرآن المتشابهة، في الوقت الذي هم لا يعرفون ألفباء القرآن وعلومه.

وهكذا، كانوا لقمة سائغة بيد إبليس حركها في إحدى لحظات التاريخ الحاسمة لتوقف حسم المعركة ضد الباغي معاوية بن أبي سفيان. مع هذا، كيف تعامل معهم علي(ع)؟

أولاً، أهملهم وآراءهم لأنه(ع) كان يؤمن بحرية الرأي والمعتقد، فلا يجبر أحداً على شيء، ولم يجبر أحداً لا على بيعته ولا على الاستمرار في البيعة.

ثانياً، عندما جاءت الأخبار المؤكدة أنهم صاروا يقطعون الطريق ويقتلون الآمنين كان من واجبه إيقافهم عن ذلك أو استئصالهم. وقد ذكرنا في الفصل السابق أن هزيمة الخوارج كانت مروعة مخزية إذ لم ينج منهم عشرة في حين لم يقتل من جيش علي(ع) عشرة، وكل ذلك من إخبار النبي(ص) لعلي(ع).

ثالثاً، لم يتعامل معهم ككافرين يحل أسرهم، وإنما كمسلمين باغين؛ على الرغم من إخبار النبي(ص) بصفاتهم ما يدل أن إسلامهم لا يكاد يساوي شيئاً، ولكن التعامل مع ظاهرهم التوحيدي هو النهج الصحيح، وهو ما فعله أمير المؤمنين(ع).

رابعاً، أمر بعدم قتالهم بعده(ع)، أي بعد وفاته، وذلك من ضمن ما وصى به الناس، معللاً أمره ذاك بأنه «ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»، أي ليس الخوارج الذين يطلبون الحق، ولكن بالطريقة الخطأ وبالتالي لا يصلون إليه، كمعاوية الذي يطلب الباطل، ولكن بالطريقة المدروسة ويصل إليه. وهذا تعليم هداية ينبغي النظر فيه بشكل دقيق ليس ههنا محله.

مع هذه الفئة الثالثة، فئة المارقين، نجده(ع) على نفس الشاكلة من التعامل: محاولة الإصلاح والهداية، ثم محاولة إيقافهم بالقوة، ثم التعامل معهم كمسلمين باغين لا كافرين خارجين عن الملة على أساس ظاهرهم، وأخيراً قول العدل في حقهم فيما يخص نيتهم بحيث يأمر بعدم قتالهم بعده(ع).

إذاً، مرة أخرى أثبت علي(ع) أنه لا يحيد عن العدل في سيرته، على الرغم من تتابع الخيانات والمؤامرات، وعلى الرغم من هذا الظلم المستمر بحقه(ع)، ولكنه لا يتزلزل ولا يهتز، وهذا لا أستطيع أن أنسبه إلى شيء غير العصمة – شاء من شاء وأبى من أبى. وإلا، أين نجد كهذه السيرة الطيبة مع الخصوم، على اختلاف دوافعهم وقربهم وجمهورهم ومواقعهم وافتراءاتهم التبريرية للعداوة وخصومتهم، خصماً بعد خصم، وجيشاً بعد جيش، وسوءاً بعد سوء؟ بل أين نجد مثل هذا وهو يتعامل مع خصوم كلهم يعرفونه حق المعرفة في قربه من النبي(ص) وفي تقديمه على الناس جميعاً وفي تحذير النبي(ص) من عداوته وحربه، بل من مجرد البغض القلبي له؟ خصوم ليس لهم أدنى مبرر ولا أقل عذر لما قاموا به ضده(ع)، بصفتيه: الشخصية والمجتمعية، وهو على نفس الطريق الذي لا يميل جناح بعوضة عن الحق والعدل المأمور به – سلام الله عليه.

رابعاً: أمر النبي(ص) علياً(ع) أن يدعو على أعدائه

قال علي(ع) أيضاً: «اُنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا» نهج البلاغة خطبة 95.

لكني وجدت أن الكثيرين من الصحابة، ومن بعدهم الكثير من التابعين، وتابعهم على ذلك العلماء عبر العصور، مشوا مع ما اختطته قريش في الاصطفاف ضد علي(ع) وسيرها مع أي أحد سواه، فلم يلزموا سمت أهل البيت(ع) ولا اتبعوا أثرهم، ودونكم المدارس الفقهية والمعاهد والكليات الدينية، من الأزهر الشريف وحتى أصغر معهد في أقاصي الصين وآسيا، هل تجد لفقه أهل البيت(ع) شيئاً إلا الشاذ النادر؟ بل هل يعرف الناس أسماء علماء أهل البيت(ع) من الأئمة الذين يصفهم علي(ع) أنهم لن يخرجوا الناس من الهدى أو يعيدوهم في ردى الضلالة؟ أين هذا الاتباع الصارم «فإن لبدوا فالبدوا وإن نهضوا فانهضوا»؟ وأين منع التقدم لهم ومنع التأخر عنهم الذي دعا إليه(ع)؟

ولكن أين تقع أقوال علي(ع) بعد أن تم تناسي أوامر النبي(ص) في الأحاديث التي ذكرناها والتي تأمر باتباع أهل بيته(ص) دون منازع والتي تنذر بمصير الضلال في حالة الانحراف عنهم.

وهكذا، لم يبق إلا الدعاء!

فقد أخرج ابن سعد في الطبقات (ج3 قسم1 ص24) حديثاً عن الحسن(ع) أنه أتى أباه سحراً فقال له علي(ع): «إني بتّ الليلة أوقظ أهلي فملكتني عيناي وأنا جالس فسنح لي رسول الله(ص) فقلت: يا رسول الله ما لقيت من أمتك من الأود واللدد، فقال: لي أدعُ الله عليهم، فقلت: اللهم أبدلني بهم خيراً لي منهم وأبدلهم شراً مني» ورواه ابن الأثير في أسد الغابة (ج4 ص36).

خامساً: في مقتله(ع)

أولاً: في إخبار النبي(ص) بقتله وإخبار علي(ع) بذلك

ذكرنا، في الفصل السابق "العلم" أن علياً(ع) أخبر بقتله مع التفاصيل: أن الذي يقتله ابن ملجم، وأنه يقتل بالسيف على هامته الشريفة حتى تخضب لحيته بالدم، بل وعرف الليلة التي يقتل فيها، فلتراجع.

ثانياً: في تعامله(ع) مع قاتله

أخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص144 عن الشعبي قال لما ضرب ابن ملجم علياً(ع) تلك الضربة أوصى به علي(ع) فقال: ‹‹قد ضربني فأحسنوا إليه وألينوا له فراشه، فإن أعش فهضم أو قصاص، وإن أمت فعاجلوه فإني مخاصمه عند ربي عز وجل›› وهضم الحق أي أترك حقي بمعنى أعفو عنه.

وفي رواية الإمام الشافعي في مسنده ص180 كتاب قتال أهل البغي رواية عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه(ع) أن علياً(ع) أوصى في ابن ملجم أن يطعموه ويسقوه ويحسنوا إليه... وقال: ‹‹فإن عشتُ فأنا وليّ دمي أعفو إن شئت وإن شئت استقدت، وإن متّ فقتلتموه فلا تمثّلوا›› واستقدت أي آخذ القود أي أقيم عليه الحدّ.

وأخرجها صاحب الكنز ج6 ص413.

كان من وصيته لابنه الحسن(ع) في كيفية التعامل مع ابن ملجم بعد أن ضربه قبل وفاته(ع): ‹‹يا حسن أبصروا ضاربي، أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي، فإن أنا عشت فإني أولى بحقي، وإن مت فاضربوه ضربة ولا تمثلوا به فإني سمعت رسول الله(ص) يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور..›› ثم قال(ع) : ‹‹يا بني عبدالمطلب لا ألفينّكم تريقون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين! ألا لا يُقتلنّ بي إلا قاتلي›› (ذخائر العقبى ص116، والفصول المهمة ج1 ص623، وينابيع المودة ج2 ص30).

ثامناً: مزايا خاصة به

أي المزايا التي لا تتعلق – بشكل مباشر – بالنصوص الشرعية من قرآن وسنة. فإن لعلي(ع) مزايا انفرد بها عن الناس، أذكر منها بشكل سريع:

(1) ولادته في الكعبة المشرفة

وهو المعروف الذي نص عليه الكثير من المحدثين، وليس الحاكم في مستدركه فحسب كما يدعي بعض الذين تزعجهم فضائل أهل البيت(ع) (كونها ترفعهم في مقام التنافس كما يبدو). فقد روى ذلك العديد من المحدثين والعلماء، مصرحين بأنه(ع) كان الوحيد الذي ولد في الحرم المكي، حيث جاء المخاض أمه فاطمة بنت أسد (رض) وكانت عند الركن اليماني فشق الله تعالى لها ذلك الركن ودخلت إلى داخل الكعبة لتلده(ع). من ذلك قول

الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف القرشي الكنجي الشافعي: "لم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه ، إكراما له بذلك وإجلالا لمحله في التعظيم ".

وقول الحافظ نور الدين علي بن محمد بن الصباغ المكي المالكي: " ولد بداخل البيت الحرام ، ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه ، وهي فضيلة خصه الله تعالى بها اجلالا له ، وإعلاء لمرتبته ، وإظهارا لتكرمته".

وهذا القول نقله عنه أيضاً الفقيه المؤرخ نور الدين علي بن عبد الله الشافعي السمهودي (صاحب الكتاب الهام في تاريخ المدينة المنورة "وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى") في كتابه "جواهر العقدين في فضل الشرفين العلم الجلي والنسب العلي"، وغيره.

وقول شيخ الاسلام الحافظ المحدث إبراهيم بن محمد الجويني الشافعي: "ولدت ـ فاطمة بنت أسد ـ عليا عليه السلام في الكعبة، وما ولد قبله أحد فيها".

هذا، إضافة إلى قول علماء الشيعة الأقدمين كافة، كالأخوين الرضي والمرتضى وأستاذهما المفيد.

مع ذلك، أصر البعض على أن الذي ولد في داخل الكعبة المشرفة هو حكيم بن حزام وذلك بناء على روايات أخرى بعضها في صحيح مسلم وبعضها في كتب السير والتواريخ كالاستيعاب وتهذيب التهذيب.

ولكن تجدر ملاحظة عرفها الناس في كل زمان، ومنها زماننا هذا، وهي أن الركن اليماني ما انفك ينفلق أو يحدث فيه شرخ مهما حاول ولاة الأمر سده، بل استمر حدوث ذلك حتى بعد تهدم الكعبة وإعادة بنائها أكثر من مرة. والبعض يقول أنه في يوم 13 رجب، وهو يوم ميلاد علي(ع)، تخرج رائحة طيبة من ذلك المكان، وهو أمر لم أستطع التحقق منه. ولكن فيما يخص الشرخ في الركن اليماني، فإنه ثابت للعيان لكل من زار البيت العتيق، بل وحتى في الصور، وأكده المختصون من المهندسين. سؤالي هو: إن كان هذا حاصلاً، وهو حاصل، ترى ما مزية حكيم بن حزام لكي يبقى الله تعالى هذا الموضع آية للعالمين في كل عصر؟

بل ما مزية حكيم بن حزام كي ينفلق لأمه الركن اليماني حتى تدخل في الكعبة وتلده هناك أساساً؟ لا نعلم أحداً قال أن حكيم بن حزام له ما يستدعي تلك الميزة الفريدة. (ربما نعرض في كتاب "ما بعد العودة" إلى سيرة حكيم بن حزام لنرى إن كان هناك ما يستدعي هذه الفضيلة الكبرى.)

(2) عدم سجوده للأصنام

وهذا معروف مشهور لا خلاف عليه، ولهذا فاز وحده بلقب "كَرَّمَ اللّهُ وَجهَه" أي من السجود للأصنام والحجارة كما كان يفعل الآخرون قبل إسلامهم. وكيف يسجد لصنم وقد انتقل إلى بيت النبي(ص) وهو ابن ثلاث سنين، قبل البعثة بسبع سنين، فتربى بين محمد(ص) وخديجة(ع)، في بيت طاهر مطهر موحد لم يعرف الشرك لحظة واحدة. هذا، مع أني وجدت اعتقاد الشيعة ببيت أبي علي(ع)، أي بيت أبي طالب، أنه كان بيت توحيد على الحنيفية الإبراهيمية، كما هو شأن بعض الذين كانوا في مكة وغيرها، أقرب للتصديق من القول بشركهم، وذلك لأمور عديدة، ثم ثبت لي ذلك بالروايات والبحث.

هنا أيضاً يحاول البعض التقليل من هذه الفضيلة الفريدة لعلي(ع) فيقول بأن هناك من الصحابة من لم يسجد لصنم، ويضربون لذلك مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب. هذا، مع أن عبد الله بن عمر ولد وهاجر إلى المدينة وعمره عشر سنين ما يجعل ولادته بعد البعثة النبوية بثلاث سنين! ومع أن ابن عباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنين! فهل نحيل هذا إلى ضعف العقول أم إلى دخل النفوس؟

(3) قبول إسلامه وهو صبي

وهذا معروف مجمع عليه، حيث كان(ع) في العاشرة من العمر عندما بدأت البعثة النبوية المباركة فكان علي(ع) ثاني من أسلم من الخلق بعد سيدة النساء خديجة(ع). وكان النبي(ص) لا يقبل إسلام أي أحد قبل أن يبلغ سن التكليف الشرعي، إلا علياً(ع) فقد كان في الصميم من البيت النبوي. قال(ع): ‹‹ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله(ص) وخديجة، وأنا ثالثهما؛ أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة›› نهج البلاغة الخطبة 192.

(4) تزويجه فاطمة(ع) بأمر الله تعالى، وبعد رد غيره

روى صاحب كنز العمال ج6 ص153 عن أنس أن النبي غشاه الوحي فلما سرّي عنه قال: ‹‹يا أنس أتدري ما جاءني به جبريل من عند صاحب العرش؟... إن الله أمرني أن أزوّج فاطمة من علي›› وأخرجه إبن عساكر (تاريخ دمشق ج37 ص13 و ج42 ص129 وغيرهما). ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج9 ص204، والطبراني في الكبير ج10 ص155 حديث 10305 و ج22 ص407، والسيوطي في الجامع الصغير ج1 ص258 حديث 1693.

وذكر الهيثمي في المجمع ج9 ص204 أمر الله تعالى بتزويج فاطمة من علي من حديث عبد الله بن مسعود أنه سمع النبي يقول ذلك في غزوة تبوك.

أما صاحب ذخائر العقبى فقد ذكر روايات مختلفة منها عن علي(ع) ومنها عن عمر الذي وصف علياً بالقول: "ذاك صهر رسول الله(ص)، نزل جبريل فقال: ‹‹يا محمد إن الله يأمرك أن تزوج فاطمة إبنتك من علي››" ذخائر العقبى ص31.

وروى المحدثون والمؤرخون أن أبا بكر خطب فاطمة(ع) من النبي(ص) فرده ثم خطبها عمر بن الخطاب فرده كذلك، ثم خطبها آخرون فردهم أيضاً، ثم لما خطبها علي(ع) فرح النبي(ص) ووافق. بل روي أن الشيخين بعد أن ردهما النبي(ص) هما قالا لعلي(ع) أنه(ص) لن يوافق على غيره وشجعاه على خطبتها وورد في هذا الموضوع أن أبا بكر قد خطب فاطمة من النبي(ص) فأجابه: ‹‹يا أبا بكر لم ينزل القضاء بعد››، ثم خطبها عمر وآخرون من قريش وكانوا يسمعون نفس الجواب من النبي(ص)، فقالوا لعلي(ع): "لو خطبت إلى النبي(ص) فاطمة لَخليقٌ أن يزوجكها".

هذا من روايات صاحب الرياض النضرة ج2 ص130 وذخائر العقبى ص29، الذي ذكر فيها خطبة النبي عند تزويج علي من بضعته الزهراء(ع) برواية أنس الذي قال: قال لي: ‹‹أخرج وادعُ لي أبا بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير وبعدةٍ من الأنصار›› فلما دعاهم واجتمعوا عنده وكان علي(ع) غائباً فقال النبي: ‹‹الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع بسلطانه...›› إلى أن قال: ‹‹إن الله عز وجل أمرني أن أزوّج فاطمة بنت خديجة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوّجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك علي بن أبي طالب››، ثم دخل علي(ع) فتبسم النبي(ص) في وجهه وأخبره بأمر الله تعالى له وسأله إن كان يرضى فأجاب إلى ذلك فهنا قال النبي(ص): ‹‹جمع الله شملكما وأسعد جدّكما وبارك عليكما وأخرج منكما كثيراً طيباً›› ويعلّق أنس في آخر الرواية: "فوالله لقد أخرج منهما كثيراً طيباً".

وقد ذكر هذا الحديث إبن حجر في الصواعق ص84 والعسقلاني في لسان الميزان وغيرهما.

(5) جعل نسل النبي(ص) منه حصراً

وهذا معروف مجمع عليه كما لا يخفى.

(6) جعله نفس النبي(ص) في القرآن

وهي آية المباهلة: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ التي تناولناها في فصل دواعي العودة من القرآن الكريم. وكلمة ﴿أنفسنا﴾ طبقها النبي(ص) بإحضاره علياً(ع) معه وفاطمة(ع) ﴿نساءنا﴾ والحسنين(ع) ﴿أبناءنا﴾، وإلا لما كان هناك معنى لإحضاره(ع)، ولا شك أن علياً(ع) حاز بهذا على أرفع وسام في الدنيا، هو جعله كنفس النبي(ص)، بمعنى المصداق الأكمل لاتخاذ النبي(ص) أسوة حسنة على ما في القرآن الكريم، وإلا فإن النبي(ص) لا يماثله أحد في مزية ولا يقترب منه أحد في فضيلة، ولكن كانت هذه طريقة القرآن في رفع علي(ع) إلى أعلى منزلة ممكنة بين الناس.

(7) تمثيله النبي(ص) في الكتابة والتبليغ

فقد كتب صلح الحديبية بين النبي(ص) وقريش، وهذا بالإجماع. ومما روي أنه لما أمره النبي(ص) أن يمحو كلمة "رسول الله" ويضع بدلاً منها "محمد بن عبد الله" وذلك نزولاً عند طلب موفد قريش سهيل بن عمرو، لم يستطع علي(ع) أن يمحو اسم النبي(ص) فقام النبي(ص) بمسحها بنفسه، وقال لعلي(ع) بروايته(ع) نفسه: «أكتب محمد بن عبد الله» ثم قال له: «يا علي أما أنك ستسام مثلها فتعطي!» (شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج 2 ص 275، والخصائص للنسائي ص 149). وفي رواية: «إن لك يا أبا الحسن مثلها» ... «فتجيب وأنت مضطهد» (السيرة الحلبية ج 2 / ص706، والكامل في التاريخ ج 2 ص138، والسيرة الدحلانية ج 2 ص177، وغيرها).

وقد حصل كما أخبر(ص)، وهو من أعلام نبوته(ص)، لأن علياً(ع) تعرض لنفس الموقف عندما كان أمر التحكيم بينه وبين معاوية الذي لم يرض موفده عمرو بن العاص أن توضع كلمة "أمير المؤمنين" بعد اسم "علي"، وقبل أمير المؤمنين(ع). وهذا الخبر، وفيه ما جرى في الحديبية، يرويه علي(ع) جواباً على قول الخوارج له: "فأن عمراً لما أبى عليك أن تقول في كتابك هذا ما كتبه عبد الله علي أمير المؤمنين محوت اسمك من الخلافة وكتبت علي بن أبي طالب فقد خلعت نفسك!" فقال(ع): «لي برسول الله(ص) أسوة حين أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب هذا كتاب كتبه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو وقال: لو أقررت بأنك رسول الله ما خالفتك ولكن أقدمك لفضلك فاكتب محمد بن عبد الله، فقال لي: يا علي أمح رسول الله، فقلت: يا رسول الله لا تشجعني نفسي على محو اسمك من النبوة، فمحاه بيده ثم قال: أكتب محمد بن عبد الله، ثم تبسم إلي وقال: يا علي أما إنك ستسام مثلها فتعطي».

كما كان هو الذي أمره(ص) بتبليغ سورة براءة، فإنه لما أنزلت سورة براءة بعث النبي(ص) أبا بكر لتبليغها إلى القبائل التي كان بينها وبين النبي(ص) مدة من الإتفاق على الهدنة فسار ثلاثاً ثم قال(ص) لعلي(ع): «إلحقه، وبلّغها

أنت››، ففعل فلما قدم أبو بكر على النبي بكى وقال يا رسول الله أحدث فيّ شيء؟ قال(ص): ‹‹ما حدث فيكم إلا خير، ولكن أمرتُ أن لا يبلّغه إلا أنا أو رجل مني››.

فقد روى الترمذي في صحيحه ج2 ص383 بسنده عن أنس بن مالك وأيضاً بسنده عن ابن عباس، والنسائي في الخصائص ص20 بسنده عن علي(ع) وفي نفس الصفحة بسنده عن سعد، وابن جرير في تفسيره ج10 ص46 عن زيد بن يفيع وأيضاً عن ابن عباس، وفي ص47 عن السُدّي، والحاكم في المستدرك ج3 ص51 عن جميع بن عُمير الليثي، والإمام أحمد في المسند ج1 ص3 عن أبي بكر وفي ص151 عن علي(ع) وفي ص330 عن ابن عباس، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة:1)، وغيرهم من محدثين بألفاظ مختلفة متشابهة، أن النبي(ص) بعث أبا بكر بسورة براءة لتبليغها للقبائل في الجزيرة، ثم جاءه جبريل(ع) يأمره بأن لا يبلغ عنه إلا هو أو رجل منه فدعا علياً(ع) وبعثه خلف أبي بكر وأخذها منه وبلّغها. وفي بعض هذه الأحاديث خشي أبو بكر أن يكون قد نزل فيه شيء، أي شيء سلبي، ولكن النبي(ص) طمأنه عندما عاد بأن الأمر من الله تعالى أنه لا يبلّغ عن النبي(ص) إلا هو أو رجل منه.

وفي بعضها أن النبي بعث أبا بكر وعمر جميعاً ببراءة أهل مكة.

فكان علي بن أبي طالب(ع) هو الكاتب المؤتمن على مثل هذه الأمور الخطيرة، من كتابة وتبليغ، لا أن يأتمن النبي(ص) شخصاً طليقاً كمعاوية بن أبي سفيان على الوحي المنزل. وأين كان معاوية ما يزيد على العشرين سنة وهو في المشركين لكي ينتظر النبي(ص) إسلامه يوم الفتح تحت حد السيف فيوكل إليه كتابة الوحي؟ إن هذا الزعم من آكد الأمور التي جعلتني أنظر بريبة إلى الكثير من فضائل أولئك المتأخرين، سواء بالزمن أو بالموقف، بل هو مما يمكن أن يعد إثباتاً، أو قرينة على الأقل، على حصول الكثير الكثير من الوضع في أحاديث فضائل أعداء أهل البيت(ع) ومناوئيهم ممن دالت الدولة لهم فأمروا بكتابة ما يريدون، وكتب لهم خفاف الدين توصلاً لجوائزهم. معاوية كاتب الوحي – يا لسخافة العقول!

(8) تولي تجهيز النبي(ص) وغسله وتكفينه

وهو معروف أجمع عليه المؤرخون، وكان مما استغله بعض قريش والأنصار يوم تنازعوا خلافة النبي(ص) بينما كان علي(ع) والهاشميون منشغلين بهذا الأمر.

من سيرة أئمة الهدى أولاد علي بن أبي طالب(ع)

هذه الشذرات من سيرة أولئك الأبرار(ع) أعطتني فكرة واضحة عن شكل الدنيا لو كانوا هم الذين حكموا المسلمين طيلة القرون الثلاثة الأولى – كانت الدنيا ستكون غير الدنيا، دنيا المسلمين ودنيا غيرهم، وكان البشر سيتذوقون طعم العدل والمحبة والروح الإنسانية الحقيقية التي كانوا ولا زالوا يقرأون عنها أو ينظّرون فيها دون تجربة... لو كان أولئك الأئمة(ع) مبسوطي اليد، وكان ملوك المسلمين الذين تسلطوا في أماكنهم المناسبة (!)، لرأى الناس منهم(ع) ما رآه معاصرو أمير المؤمنين(ع) في فترة حكمه في الكوفة – على قصرها وشدة فتنها.

الإمام الحسن(ع)

إن رجلاً من أهل الشام أقبل على الإمام يلعنه والإمام الحسن(ع) لا يرد عليه ثم أقبل عليه وابتسم له وقال: ‹‹أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبّهت! فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنتَ محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا، وكنتَ ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كبيراً››، فبكى الرجل وقال: "أشهد أنك خليفة الله في أرضه! الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنتَ أنتَ وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحب خلق الله إليّ!" (مناقب آل أبي طالب ج3 ص183، وبحار الأنوار ج43 ص344).

الإمام الحسين(ع)

1) دخل الحسين(ع) على أسامة بن زيد وهو مريض ويقول واغمّاه، فقال الإمام(ع): ‹‹وما غمّك يا أخي؟›› قال: "دَيني، وهو ستون ألف درهم"، فقال الإمام: ‹‹هو عَلَيّ›› فقال أسامة: "إني أخشى أن أموت قبل أن يُقضى"، فقال(ع): ‹‹لن تموت حتى أقضيها عنك››، فقضاها قبل موته. (أعيان الشيعة ج4 القسم الأول ص126).

أقول: مع أن أسامة كان من الذين امتنعوا عن بيعة أبيه علي بن أبي طالب(ع)، فلم يحملها عليه.

2) سئل ولده الإمام السجاد(ع) عن الأثر الذي وُجد على ظهر أبيه الحسين(ع) بعد مقتله فقال: ‹‹هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين›› (من أعيان الشيعة ج4 القسم الأول ص132).

الإمام علي بن الحسين زين العابدين(ع)

في واقعة الحَرّة عندما ثار أهل المدينة على بني أمية هرب بنو أمية من المدينة إلى الشام ويظهر أن مروان بن الحكم لم يستطع في تلك العجالة أن يحمل معه عائلته ومنهم امرأته عائشة بنت عثمان بن عفان، فطلب من عبد الله ابن عمر أن يؤوي أهله عنده فرفض ذلك، فكلّم مروان الإمام السجاد(ع) وقال: "يا أبا الحسن إن لي رحماً وحرمي تكون مع حرمك؟" قال الإمام(ع): «أفعل». فعندما جاءت عائلة مروان أخذها الإمام سلام الله عليه مع أهله إلى مكان أمين بيَنبُع. (تاريخ الطبري ج4 ص372، وبحار الأنوار ج46 ص138).

أقول: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، سلام عليكم أيتها النفوس الطاهرة التي لا تعرف الحقد ولا الكراهية ولا الانتقام ولا التشفّي. من أسوأ من مروان، ومن أكثر مصيبة من السجّاد(ع) الذي كان الشاهد العيان على مجزرة كربلاء، قتل أبيه(ع) وإخوته وأعمامه وبني عمومته وأصحاب أبيه(ع) وعمه الحسن(ع) وجده علي(ع) الأبرار، وحرق الخيام ومنع الماء والسبي إلى الكوفة ثم الشام ورأس أبيه الحسين(ع) وعمه العباس(ع) على الرماح أمام المفجوعين، وإذا به يستجيب لطلب مروان هذا دون تردد! بل إن مروان ما كان ليخطر بباله مجرد خاطرة أن السجاد(ع) يمكن أن يوافق لولا أن مروان يعلم علم اليقين بنفسه الطاهرة المبرءة من الأحقاد. فالحمد لله الذي جعلنا من مواليكم.

الإمام الباقر(ع)

روى الإمام الصادق(ع) أن هشاماً ابن عبد الملك أرسل بإشخاص الإمام الباقر(ع) إلى الشام فأرسل الإمام الباقر(ع) ومعه ولده الصادق(ع) إلى الشام، وعندما دخلوا وجد الخليفة جالساً والشيوخ من قومه يهمون كأنما نوع من أنواع السباق على الرمي فطلب هشام من الإمام الباقر(ع) أن يرمي فاعتذر الإمام بأنه كبرت سنه عن ذلك فحلف عليه هشام إلا أن يرمي، ثم أشار إلى أحد شيوخ بني أمية لإعطاء الإمام(ع) القوس، فتناول الإمام الباقر(ع) القوس ثم تناول سهماً ورمى الهدف فنصبه فيه، ثم رمى سهماً ثانياً فأنبته في نصل ذلك السهم، وتابع ذلك حتى شقّ تسعة أسهم بعضها في جوف بعض، مما جعل هشام يضطرب في مجلسه وقال: "أجدتَ يا أبا جعفر أنت أرمى العرب والعجم". ثم بعد ذلك سأله عن تعلّمه الرمي فأخبره بأنه تعلمه عندما كان في حداثة سنّه ثم تركه، فسأل هشام الإمام الصادق(ع) إن كان يرمي مثل أبيه فأجابه الباقر(ع): «إنا نحن نرث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه(ص) في قوله: ﴿اليَومَ أكمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وأتمَمْتُ عَليكُم نِعمَتِي ورَضِيتُ لَكُم الإسلامَ دِيناً﴾ والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الأمور التي يقصر غيرنا عنها!» فانقلبت العين اليمنى لهشام – أي احولّت – واحمرّ وجهه علامةً على غضبه، ثم سأل الباقر(ع): "ألسنا بنو عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد؟" فقال(ع): «نحن كذلك، ولكن الله جل ثناه اختصنا من مكنون سره وخالص علمه بما لم يخص به غيرنا» (دلائل الإمامة ص104 بتصرف).

الإمام الصادق(ع)

دخل سفيان الثوري على الصادق(ع) فرآه متغير اللون فسأله عن ذلك فأوضح له الإمام: ‹‹كنتُ نهيتُ أن يصعدوا فوق البيت، فدخلتُ فإذا جارية من جواريّ ممن تربّي بعض ولدي قد صعدت في سلّم والصبي معها، فلما بصرت بي ارتعدت وتحيّرت وسقط الصبي إلى الأرض فمات، فما تغيّر لوني لموت الصبي، وإنما تغيّر لوني لما أدخلتُ عليها من الرعب!›› وكان(ع) قد أعتقها قبل ذلك قائلاً: ‹‹أنتِ حرّة لوجه الله، لا بأس عليك›› (أعيان الشيعة ج4 قسم2 ص136).

الإمام الكاظم(ع)

عندما حُبس(ع) تحت رقابة عيسى بن جعفر العباسي وجعل عليه بعض الجواسيس في السجن لينقلوا له كل ما يقول سمعوا الإمام(ع) يقول في دعائه: ‹‹اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد›› (الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص222).

الإمام الرضا(ع)

من وصية له(ع) إلى عبد العظيم الحسني يوصي فيها شيعته: ‹‹ولا يشغلوا أنفسهم بتمزيق بعضهم بعضاً فإني آليت على نفسي أنه من فعل ذلك أو أسخط ولياً من أوليائي دعوت الله أن يعذبه في الدنيا أشد العذاب وكان في الآخرة من الخاسرين›› (الأنوار البهية ص109).

الإمام الجواد(ع)

1) قال الصفدي: "كان يبعث – أي الجواد(ع) – إلى المدينة في كل عام بأكثر من ألف ألف درهم، وقال كان من الموصوفين بالسخاء ولذلك لقّب بالجواد" (الوافي في الوفيات ج4 ص105)

2) روي أنه تعرّضت أموال له ذات قيمة كبيرة للسرقة في الطريق وهي تحمل إليه، كتبوا إليه يخبروه بذلك، فأجابهم(ع) كتابةً: ‹‹إن أنفسنا وأموالنا من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة، يمتع ما يمتع منها في سرور وغبطة، ويأخذ ما أخذ منها في أجر وحسبة، فمن غلب جزعه على صبره حبط أجره، نعوذ بالله من ذلك›› (أعيان الشيعة ج4 قسم3 ص244).

الإمام الهادي(ع)

1) قال علي بن حمزة بأنه رأى الإمام الهادي(ع) يعمل في أرض وقد استنقعت قدماه في العرق فسأله: "أين الرجال – أي العمال –؟" فقال(ع): ‹‹يا علي، عمل بالمسحاة من هو خير مني ومن أبي في أرضه››، فسأله: "من هو ذاك"، فقال: ‹‹رسول الله(ص) وأمير المؤمنين وآبائي كلهم عليهم السلام عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين›› (بحار الأنوار ج11 ص266).

2) قال أبو هاشم الجعفري بأنه أصابته ضائقة شديدة فذهب إلى الإمام الهادي(ع) فلما جلس ابتدأه الإمام(ع) بالقول: ‹‹يا أبا هاشم، أي نعم الله عز وجل تريد أن تؤدي شكرها؟›› يقول أبو هاشم بأنه وجم ولم يدري ما يجيب به، فقال الإمام(ع): ‹‹رزقك الإيمان فحرّم به بدنك على النار، ورزقك العافية فأعانتك على الطاعة، ورزقك فصانك عن التبذل؛ يا أبا هاشم، إنما ابتدأتك بهذا لأنني ظننت أنك تريد أن تشكو إليّ من فعل بك هذا، وقد أمرتُ لك بمائة دينار فخذها›› (بحار الأنوار ج12 ص130).

الإمام العسكري(ع)

1) ما أخبر به صالح ابن وصيف الذي وُكّل إليه سجن الإمام العسكري(ع) عندما قال العباسيون "ضيّق عليه ولا توسّع"، فقال صالح: "ما أصنع به وقد وكلت به رجلين شرّ من قدرت عليه، فصارا من العبادة والصلاة والصيام إلى أمر عظيم!" فأُحضر هذان فسئلا فقالا له: "ما تقول في رجل يصوم النهار ويقوم الليل كله، لا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة، فإذا نظر إلينا أُرعدت فرائصنا وداخلنا ما لا نملكه من أنفسنا!" (أعيان الشيعة ج4 قسم3 ص307).

2) أرسل إلى داوود بن الأسود ناصحاً: ‹‹إذا سمعت لنا شاتماً فامض لسبيلك التي أُمرت بها، وإياك أن تجيب من يشتمنا أو تعرّفه من أنت›› (المناقب ج2 ص442).

الإمام المهدي(ع)

قال الإمام الصادق(ع): ‹‹ يسير فيهم – أي المهدي – بسيرة رسول الله(ص)، ويعمل فيهم بعمله›› (سفينة البحار ج2 ص705).

الفصل الحادي عشر

لا يقاس بهم أحد

بغض النظر عن كل شيء

جدول مقارنة

نتيجة المقارنة

"لم يرد في حق أحد من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من الفضائل بالأسانيد الحسان أكثر ما جاء في علي"

(النسائي)

بغض النظر عن كل شيء

بغض النظر عن قول بعض العلماء الأعلام، كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في قوله المنقول عن ولده عبد الله أن علياً(ع) "من أهل بيت لا يقاس بهم أحد"، وكالنسائي صاحب أحد الصحاح الستة في الحديث "لم يرد في حق أحد من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من الفضائل بالأسانيد الحسان أكثر ما جاء في علي"؛

وبغض النظر عن استخدام لفظة "عليه السلام" بعد اسم علي(ع) في العديد من الكتب المهمة لأهل السنة، كما فعل البخاري في صحيحه (الشيء الذي فعله مع فاطمة(ع) وعلي بن الحسين(ع) مع أنه تابعي وليس صحابياً)، في حين لم يُستخدم مطلقاً إلا لفظة "رضي الله عنه" في حالة جميع الصحابة، الأمر الذي يشير إلى رفع علي(ع) بنظر هؤلاء الأعلام على الآخرين طرّاً، وذلك لأن التسليم هو للاصطفاء قبل الابتلاء ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ في حين أن الرضوان هو بعد العمل والابتلاء ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾؛

وبغض النظر عن تمييز علي(ع) عن باقي الصحابة وإدراج سيرته بعد النبي(ص) مباشرة، كما فعل ابن سعد في الطبقات الكبرى، والذي استخدم هو الآخر لفظة "عليه السلام" بعد اسم علي(ع)؛

وبغض النظر عما ذكرته، في بحثي المتواضع هذا، اهتداء بما ذكره وبحثه وناقشه وأوضحه وفصل فيه العلماء الأعلام من شتى المذاهب الإسلامية، من آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي المصطفى(ص)، وأقوال علي(ع) وأولاده(ع) أنفسهم، وآراء العلماء والفقهاء من رؤساء المذاهب وغيرهم، والتي ترفع من علي(ع) إلى عنان السماء والآخرون ينظرون إليه من الأرض؛

بغض النظر عن كل هذا الذي يجعل من السهولة حقاً معرفة من هو المبرز من بين الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي(ع)، أحب أن أطرح موقع علي(ع) في الناس من خلال مقارنة بسيطة مختصرة في جدول (حسبما يتسع له طبيعة مساحة هذا المطبوع) يبين الفارق بين الأربعة من النواحي المهمة المفصلية في حياة كل منهم، آخذاً بنظر الاعتبار ما قيل بحق أبي بكر وعمر وعثمان من المصادر السنية التي تشيد بهم لا من خلال ما يقوله الشيعة

عنهم ولا ما أعتقده أو أظنه أو أستقربه من بعض هذه الأقوال أو الروايات، وهو ما يجعل النتيجة أشد وضوحاً...

وإلا فإن في أحاديث الفضائل ما يدعو للأسف (وإن كان بعضها يدعو للضحك من ضعف عقول واضعيها)، فقد اتسع الفتق على الراتق بعد أن منعت كتابة الحديث النبوي تسعين عاماً أو يزيد، وفي أثناء ذلك كان هناك منع من جانب وفتح الباب على مصراعيه من جانب:

(1) منع الأحاديث الصحيحة في فضل علي(ع) وأهل البيت(ع)، و

(2) فتح الباب على مصراعيه لذكر الأحاديث المروية ووضع غيرها في فضل غيرهم ولاسيما الخلفاء الثلاثة موضوع المقارنة. فهذا معاوية بن أبي سفيان (الصحابي الجليل!) لم يكتف بسن سب علي(ع) على المنابر "حتى يربو عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً" على حد تعبيره (شرح نهج البلاغة ج4 ص57)، وإنما يوصي عامله على الكوفة المغيرة بن شعبة بالقول "... ولست تاركا إيصاءك بخصلة: لا تتحم عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان، رضوان الله عليه، والإدناء لهم، والاستماع منهم" وطبعاً قام المغيرة (الصحابي الجليل!) بالمهمة على أكمل وجه فقد أقام بالكوفة "عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حباً للعافية، غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه!" (نفسه ص69).

بل وتصل بمعاوية الجرأة أن يطلب من الهاشميين أنفسهم عدم التحدث بفضل آل محمد(ص) فيأمر ابن عباس بذلك بل ويطلب منه أن يسأل في تفسير القرآن "غير آل بيتك!" فيجيبه ابن عباس: "نزل القرآن على أهل بيتي فنسأل عنه آل أبي سفيان؟!" فيجيبه معاوية فيما يجيبه "... لا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم وارووا ما سوى ذلك!" ولما يرفض ابن عباس يطلب منه أن يفعل ذلك – إن أراد – سراً!

وبالغ معاوية في كم الأفواه عن ذكر فضل علي(ع) فكتب كتاباً رسمياً إلى عماله جميعاً "أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته"، فسارع عبيد الدنيا إلى منابر المسلمين، التي شادها سيف علي(ع) تحت ظل عهد النبي(ص)، تلعنه(ع) وتسبه وتتبرأ منه، وعم القمع شيعة علي(ع) ولاسيما في الكوفة (نفسه ج11 ص44).

ثم أسقطهم من الاعتبار بكتابته كتاباً رسمياً آخر "أن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة" (نفسه)، وهو ما يكون إلا في حق من يرمون المحصنات بالزنا ثم لا يأتون بأربعة شهداء وأشباههم فصار في حق سادة الناس وشيعتهم.

وأما الجانب الآخر، فقد شجع بمختلف وسائل التشجيع كتابة فضائل ابن عمه عثمان بن عفان، وذلك في تعميم رسمي إلى عماله في البلاد "أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، الذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوهم إلي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته" (نفسه ج11 ص45). ولا شك في أن البعض هرعوا للحصول على المكاسب بوضع الحديث.

وأخيراً كتب لهم: "لا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضائله!" (نفسه).

فلينظر ناظر بعين عقله إلى ما يأتي أمامه من أحاديث، فيما يقرأ من كتب أو مقالات أو نقاشات على صفحات التلفاز أو الانترنت، قبل أن يقع فريسة هذه الكتب الأموية الرسمية التي خلطت الحق بالباطل ورفعت أقواماً إلى أعلى، وبكثير، من حقيقتهم في سابقتهم وبلائهم وعطائهم، وهبطت بأقوام شادوا الإسلام بجهودهم وعنائهم وعطائهم اللامحدود، وإن كان نجاح ذلك الباغي نجاحاً نسبياً لأن الله يأبى إلا أن يتم نوره، والحمد لله رب العالمين.

وتجدر ملاحظة:

من طبيعة المقارنات خلقها لجو من التنافس بين أنصار هذا وأنصار ذاك، وهو جو يؤدي أحياناً إلى إهمال المنهج العلمي في المقارنة والانزلاق في مدح وذم، كل يمدح من ينصره ويذم الآخرين، أو على الأقل يغمط حق الآخرين؛ هنا أزعم أني لا أقوم بذلك، لا لأني أريد اتباع المنهج العلمي، ولكن لأني ما رأيت المقارنة تحتاج إلى كثير معاناة بحيث ينتج عنها جنوح نفسي بعيداً عن المنهج العلمي، وعندما تقرأ المقارنة تعلم ذلك. والبعض من شيعة علي(ع) يذهبون – مع الأسف – إلى أحاديث ضعيفة أو ليست ذات دلالة كبيرة بينما هم في غنى تام عن مثل هذه، بل الآخرون ربما احتاجوا إلى مثل هذا – وقد أوصى الإمام الصادق(ع) أحد الناس الذي يبدو أنه كان يجنح لمثل هذا: ‹‹وإنك أخذته بالحق والباطل، وقليل الحق يغني عن كثير الباطل››، فإن قليل الحق مما نطق به التنزيل المبين والنبي المعصوم(ص) يغني عن كثير الباطل الملفق من أقوال المغرضين).

نعم، كلما توسعت في البحث وجدت نفسي تردد مع الإمام أحمد بن حنبل أن علياً(ع) "من أهل بيت لا يقاس بهم أحد"... وهو صدى لما قاله علي(ع) نفسه: ‹‹لا يقاس بآل محمد(ص) من هذه الأمة أحد››... بل هو صدى لما أعلنه صاحب الشريعة محمد(ص): ‹‹نحن أهل بيت لا يُقاس بنا أحد››...

جدول مقارنة

		أبو بكر	عمر	عثمان	علي(ع)
1	**الولادة**	-	-	-	في جوف الكعبة
2	**ما قبل البعثة**	مشرك يعبد الأصنام، حرم الخمر على نفسه في الجاهلية	مشرك يعبد الأصنام	مشرك يعبد الأصنام	موحد لم يسجد لصنم
3	**السبق**	قيل أول من أسلم بعد علي(ع)، وقيل بعد خمسين نفراً	أسلم بعد 6 سنين من البعثة، بعدها صارت الدعوة علنية	من السابقين، أسلم على يد أبي بكر	الثاني بعد خديجة(ع)
4	**القرب النَسَبي منه(ص)**	الجد السادس	الجد الثامن	الجد الرابع	الجد الأول
5	**المصاهرة**	صهر / أبو أم المؤمنين عائشة	صهر / أبو أم المؤمنين حفصة	زوج بنت خديجة(ع)	الأقرب صهراً / زوج فاطمة(ع)
6	**من ضمن الأولاد**	أم المؤمنين عائشة، وأختها أسماء ذات النطاقين، وعبد الرحمن صحابي معروف، ومحمد ربيب علي(ع) ومن شيعته	أم المؤمنين حفصة، عبد الله صحابي معروف فقيه، عبيد الله صحابي قتل مع معاوية في صفين	ذكور ماتوا صغاراً، وإناث	أولاد فاطمة(ع): الإمامان الحسن والحسين(ع) سيدا شباب أهل الجنة وزينب، وغيرهم كمحمد بن الحنفية، والعباس وإخوته شهداء كربلا ء
7	**التوجيه النبوي**	بضمن الصحابة القريبين جداً	بضمن الصحابة القريبين، ولكن قال: "كان يلهينا عنه(ص) الصفق في الأسواق"	بضمن الصحابة، ربما هناك قرب نتيجة لزواجه من بنت خديجة(ع)	بشكل يومي منذ ما قبل البعثة، وفي المدينة له يومياً مدخلان عليه(ص)، وإذا لم يسأل(ع) ابتدأه(ص)
8	**الهجرة**	بصحبة النبي(ص) إلى المدينة	قبل النبي(ص) إلى المدينة، قيل أنه أول من هاجر علناً	قبل النبي(ص) إلى الحبشة، ثم إلى المدينة	بعده(ص) حيث بات في فراشه، ثم أدى الأمانات، ثم حمل الفواطم إلى المدينة
9	**طاعة النبي(ص)**	لم يشتهر عنه عصيان، ولكنه لم يقتل ذا الثدية (من رؤوس الخوارج بعد ذلك) عندما أمره(ص)	إعترض في الحديبية حتى قال "ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ"، ولم يقتل ذا الثدية، ومنع طلبه(ص) كتابة الأمن من الضلال في مرض موته(ص)	لم يشتهر عنه عصيان، بغض النظر عن عدم الثبات في المعارك	طاعة كاملة تامة، حتى أنه سأله ولم يلتفت عندما أمره(ص) بأن يمضي إلى حصن خيبر ولا يلتفت

10	**الإيمان**	يرجح إيمانه على إيمان أهل الأرض جميعاً لقول النبي(ص): ‹‹لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح››	كان يحب نفسه أكثر من النبي(ص) ثم صار يحب النبي(ص) أكثر من نفسه بعد أن أخبره النبي(ص) أنه لا يؤمن حتى يكون كذلك	كان شديد الحياء وبما أن الحياء شعبة من الإيمان فقد كان شديد الإيمان	الإيمان كله لقول النبي(ص) عندما خرج لمبارزة عمرو بن عبد ود: ‹‹خرج الإيمان كله إلى الشرك كله››
11	**العلم**	إحتاج إلى علي(ع) وغيره	إحتاج إلى علي(ع) وغيره، وصرح بأنه لا يعرف معاني كلمات في القرآن وبأنه حتى النساء أفقه منه	إحتاج إلى علي(ع) وغيره	باب مدينة العلم، وأقضى الأمة، لم يحتج إلى غيره مطلقاً ولم يسأل غيره مطلقاً
12	**الجهاد بالنفس**	لم يشتهر بالقتال، لم يثبت في أحد وحنين، ولم ينجح في حملته على حصن خيبر	لم يشتهر بالقتال، لم يثبت في أحد وحنين، ولم ينجح في حملته على حصن خيبر	لم يشتهر بالقتال، لم يثبت في أحد وحنين	الأول دون منازع، وبفارق لا نظير له، صاحب لواء النبي(ص) في جميع الوقائع، قتل على الأقل ثلث قتلى قريش في بدر، وجميع أصحاب لوائها مع غيرهم يوم أحد، وعمرو بن عبد ود يوم الأحزاب، وفتح خيبر بعد وصف النبي(ص) أن الفاتح ‹‹كرّار غير فرّار››، ومن القلة الثابتين مع النبي(ص) في أحد وحنين؛ تخلف عن غزوة تبوك فقط ليقول له النبي(ص): ‹‹أنت مني بمنزلة هارون من موسى››
13	**الجهاد بالمال**	كان غنياً أعتق الكثير من العبيد بضمنهم بلال الحبشي	لم يكن موسراً	كان غنياً موسراً، جهّز ثلث غزوة تبوك (جيش العسرة) فتعرض لبشارة النبي(ص) بالجنة، واشترى بئر أرومة وجعلها وقفاً	لم يكن موسراً، ولكنه الوحيد الذي عمل بآية النجوى التي تأمر بإعطاء صدقة عند مناجاة النبي(ص)
14	**الآيات النازلة فيه** (لا نذكر آيات	على الرغم من أن ابنته عائشة قالت: "ما نزل فينا شيء من القرآن،	لا شيء، ولكن رووا له موافقات بين ما أراد وبين نزول الآيات، منها	لا شيء	روي عن ابن عباس أنه نزل ثلاثمائة آية في علي(ع)، ولكن نذكر أن

	روي نزولها في أحد الأربعة وهي لا تدل على شيء من ذلك، لا في ألفاظها ولا في مناسبات نزولها، ناهيك عن عدم شهرتها لا بين العلماء ولا العوام، وذلك لضعفها من جميع الجهات)	إلا أن الله أنزل عذري" أي بخصوص حديث الإفك، إلا أنه روي أنه نزل فيه آية ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ وآيات في سورة الأعلى ﴿وأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى﴾ الآيات، وآية الهجرة ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾	أنه أراد أن تحتجب نساء النبي(ص) عند مخاطبة الرجال فنزلت آية الحجاب، ومنها أنه أراد قتل أسرى بدر فنزلت الآية تعلن أن الله غفر لهم فبكى النبي(ص) وأخبر عمر أنه لو نزل العذاب ما نجا غيره (أي النبي(ص) كان سيكون من الهالكين!)		آية المباهلة جعلته نفس النبي(ص) ﴿وأنفسنا وأنفسكم﴾، وآية التطهير أذهبت عنه الرجس وطهرته تطهيراً، والآيتان جمعته مع النبي(ص) وفاطمة(ع) والحسنين(ع)، وآية الولاية جعلته ولي المؤمنين بعد الله ورسوله(ص)، وآية المودة جعلت محبته الأجر الذي يجب أن يدفع للنبي(ص) جزاء تبليغه الرسالة، وآية الصلاة على النبي(ص) أشركته في الصلاة معه(ص) سواء بشكل عام أو في تشهد صلاة الفريضة والنافلة، وآية ﴿ولكل قوم هاد﴾ جعلته هادي الأمة بعد النبي(ص)، وآية الصدقة عند المناجاة عمل بها وحده دون العالمين حتى نسخت بعد أيام، وآية ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾، وآية سورة البينة ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ جعلته وشيعته خير البرية
15	**من الأحاديث المروية فيه** (لا نذكر أحاديث	"آمن الناس عليّ في ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً	"اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام"، نفس	حديث أن النبي(ص) لم يهتم بتغطية ساقه المكشوفة عندما دخل	حديث الثقلين «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا

	روي نزولها في أحد الأربعة وهي لا تدل على شيء من ذلك، لا في ألفاظها ولا في مناسبات نزولها، إضافة إلى معارضتها لأحاديث صحيحة أخرى مجمع عليها، ناهيك عن عدم شهرتها لا بين العلماء ولا العوام، وذلك لضعفها من جميع الجهات؛ كما أن المجال ولا الهدف ههنا لمناقشة بعض هذه الأحاديث وكيف أنها تقابل الأحاديث الواردة في شأن علي(ع)، أو مما تشرك في الفضل أبا بكر وعمر ثم تقف، وأحياناً تشرك معهما عثمان ثم تقف عندما تصل إلى علي(ع)، وتكاد تكون كلها مما لا مناسبات قرآنية معها بحيث تؤكدها كما هي مناسبة التطهير/الكساء والمباهلة والتصدق بالخاتم وحديث	لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام"، سئل(ص) عن أحب الناس إليه فقال "عائشة" ومن الرجال "أبوها"، وعندما سألته امرأة إن جاءت فلم تجده، أي الموت، قال "فإن لم تجديني فأتي أبا بكر"، وأنه(ص) أمر في مرض موته بكتابة كتاب فيه قوله(ص) "فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر"، نزل جبرئيل على النبي(ص) ينقل قول الله تعالى: "إني راض عن أبي بكر فاسأله هل هو راض عني؟"، حديث أنه(ص) سد الخوخ المشرعة على المسجد "إلا خوخة أبي بكر"، "ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر"، "أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة"، "إقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر"، وحديث يوصي(ص) فيه عمار بن ياسر: "إذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت"	الحديث المذكور في باب أبي بكر سئل(ص) عن أحب الناس إليه فقال "عائشة" ومن الرجال "أبوها" ثم "عمر" فعد رجالاً، "أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة"، "إقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر"، "لو كان بعدي نبي لكان عمر"، "عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة"، "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"، "هذا رجل يكره الباطل"، "ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك"، "إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر"، وحديث أنه(ص) رأى رؤيا يشرب بإناء وناول فضله عمر فسئل عن تأويله فقال "العلم"، وحديث رؤيا أخرى الناس تعرض عليه(ص) وعليهم قمص مختلفة الطول وكان قميص عمر يجره فسئل عن تأويله فقال "الدين"، ورؤيا ثالثة أنه(ص) ينتزع ماء من بئر ثم أخذها أبو بكر ففعل ولكن فيه ضعف ثم أخذها عمر "فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فريّه"،	أبو بكر ثم عمر ولكنه غطاها عندما دخل عثمان فسئل فقال "ألا أستحي ممن تستحيي منه ملائكة السماء"، "من يشتري بئر رومة وله الجنة" فاشتراها عثمان، ولما جهز عثمان جيش العسرة قال(ص): "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم"، وعندما ماتت زوجته رقية (بنت النبي(ص) أو ربيبته من خديجة(ع) أو ربيبتهما من اختها هالة) زوجه النبي(ص) أختها أم كلثوم فلما توفيت قال(ص) "لو كان عندنا أخرى لزوجناها عثمان"، وحديث عن ابن عمر: "كنا نقول على عهد رسول الله(ص) أن خير الناس هم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان" (ويسكت بعدها!)، وحديث يوصي(ص) فيه عمار بن ياسر: "إذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت"،	بعدي:.... كتاب الله ... وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا...››، حديث الخلفاء الإثني عشر ‹‹يكون بعدي إثنا عشر أميراً›› وأمثالها ولا تنطبق إلا على علي(ع) والأئمة من ولده(ع)، حديث السفينة ‹‹مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى››، ‹‹... وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف››، ‹‹من سره أن يحيا حياتي ... فليتول علياً وذريته من بعده...››، ‹‹إلزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا›› ثم ‹‹والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا››، حديث المنزلة ‹‹أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي›› عندما خلفه(ص) بالمدينة في غزوة تبوك، ‹‹رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار››، ‹‹علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض››، حديث الدار ‹‹أنت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي››،

	المنزلة غزوة تبوك وأشباهها التي ذكرتها من ضمن أحاديث علي(ع)، ربما سأناقشها في كتاب "ما بعد العودة")		ورؤيا رابعة في الجنة يمشي(ص) فيرى بيتاً جميلاً وعليه جارية فلما عرف أنه بيت عمر استدار بسرعة لأنه "ذكر غيرة عمر"، وحديث يوصي(ص) فيه عمار بن ياسر: "إذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت"		«لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»، حديث المؤاخاة «أنت أخي في الدنيا والآخرة»، حديث سد الأبواب أنه(ص) سد الأبواب المشرعة على المسجد إلا بابه(ص) وباب علي(ع) فتحدث الناس فقال(ص) «ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته»، حديث النجوى يوم طال اجتماع النبي(ص) مع علي(ع) فتكلم الناس (كالعادة!) فقال(ص) «ما انتجيته ولكن الله انتجاه»، «وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا علي»، «علي وليكم من بعدي»، حديث الغدير «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وحديث يوصي فيه النبي(ص) عمار بن ياسر ولكن وصية تختلف عن وصيته المروية بشأن الشيخين وعثمان: «أوصِ من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب...»
16	**من أبرز إنجازات خلافته**	حرب المرتدين والممتنعين عن أداء الزكاة، بدء الفتوحات	فتح العراق وفارس والشام ومصر، التأسيس الإداري للدولة من دواوين وبيت مال واستخدام التاريخ الهجري، قطع سهم	فتح أرمينيا وآذربيجان وإفريقية (أي تونس) وقبرص، جمع القرآن على أساس قراءة واحدة وتعميم النسخ على الأمصار	بعض الفتوحات، إخضاع الناكثين والخوارج المارقين ومحاولة إخضاع القاسطين، سيرة العدل والزهد، المساواة في

			المؤلفة قلوبهم من الزكاة النازل في القرآن، العدل بين الرعية حتى أنه جلد ابنه لشرب الخمر وأمكن المصري من الاقتصاص من ابن واليها عمرو بن العاص، محاسبة الولاة		العطاء بين جميع المسلمين
17	**بعض ما أخذ عليه في خلافته**	لا شيء (لأن أهل السنة لا يعرفون قضايا عديدة من قبيل حرق صحف الحديث الشريف بدعوى حماية القرآن، ولا عدم إقامة الحد على خالد بن الوليد في قضية مالك بن نويرة، ولا حرق الفجاءة السلمي، وبالطبع لا يعرفون حرمان فاطمة(ع) من إرثها)	لا شيء (لأن أهل السنة لا يعرفون قضايا كثيرة من قبيل عدم المساواة في العطاء من بيت المال، أو منع كتابة الحديث الشريف، أو المبالغة في العقاب، أو العقوبة دون وجه حق كجلد صبيغ التميمي لسؤاله عن معنى ﴿والذاريات ذرواً﴾، أو تغيير مقام إبراهيم(ع) حول الكعبة، أو إلغاء "حي على خير العمل" من الأذان، أو تحريم الزواج المؤقت/متعة النساء ومتعة الحج)	بدء تغيير سنة الشيخين بخصوص تعيين الأقارب غير الأكفاء وتوزيع الثروات على الأقارب ما أثار عليه المسلمون وبضمنهم الصحابة الكبار كابن مسعود – فعاقبه بالضرب، وعمار بن ياسر – فعاقبه بالضرب، وأبي ذر – فسيره إلى الشام ثم أرجعه معاوية إليه في المدينة ثم نفاه إلى الربذة حتى توفي فيها وحيداً، على أنه بدأ بعدم إقامة الحد على عبيد الله بن عمر الذي ثأر لقتل أبيه بقتل أبي لؤلؤة إضافة إلى ابنته وجفينة والهرمزان، وبرد ابن عمه الحكم بن العاص وابنه مروان بعد أن طردهما النبي(ص) ورفض أبو بكر ومن بعده عمر وساطة عثمان لإرجاعهما في عهديهما – بل وجعل مروان وزيره وساعده الأيمن، وجعل الحمى حول أراضيه (وروي أنه	لا شيء، لا من شيعة ولا من سنة، وكيف يكون وهذا عبد الله بن أحمد بن حنبل: "سألت أبي ما تقول في علي ومعاوية؟ فأطرق، ثم قال: إعلم أن علياً كان كثير الأعداء ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا فجاؤوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم له"، اللهم إلا من الخوارج عندما أجبروه بقوة السلاح على قبول التحكيم في صفين ثم عادوا عن ذلك وطلبوا منه نقض الاتفاق مع معاوية

				اعتذر عن ذلك أنه إنما زاد في حمى إبل الصدقة التي كان في وقت عمر)، والبعض عاب عليه حرق مصحف ابن مسعود وغيره، وصلاته تماماً (أربع ركعات) في منى بدل ركعتين تقصيراً، وأخيراً الأمر في كتابه بنقش خاتمه يأمر عامله على مصر ابن أبي سرح بقتل محمد بن أبي بكر الذي أعلن تعيينه بدلاً من ذاك ووقع الكتاب بيد محمد ومن معه من المصريين (ولكنه أنكر عندما عادوا وواجهوه)، ثم رفضه الانسحاب من الحكم على أساس أنه "سربال سربلنيه الله" ما أدى إلى مقتله	
18	**التعامل مع كل منهم**	أهمل حق علي(ع) ولو بالمشاورة في السقيفة، وأرسل مجموعة تهدده(ع) بالإحراق، ومنع زوجته(ع) من إرثها من أبيها(ص)، ثم أهمل حقه(ع) عندما أوصى لعمر	أهمل حق علي(ع) ولو بالمشاورة في السقيفة، وهجم على بيته مهدداً بالإحراق، لم ينص عليه(ع) بالخلافة بينما يقول أنه الوحيد من أهل الشورى الذي يمكن أن يحمل الناس على الحق	أهمل حق علي(ع) وأيد تنصيب عمر بكتابة اسمه في وصية الخليفة المحتضر أبي بكر	أذن لأصحابه ببيعتهم منعاً للخلاف، ونصحهم وأشار عليهم إلى درجة النصيحة التي تحافظ على حياتهم (كما في نصحه عمر عدم الخروج بنفسه لقتال الفرس)، ومنعهم من الخطأ ما وسعه ذلك
19	**الوفاة**	في الفراش	قتلاً على يد أبي لؤلؤة (في ظروف غامضة كما يبدو لي)	قتلاً على يد الثوار أو المتمردين أو في الفتنة كما يسمونها، وأن النبي(ص) أخبره باستشهاده	قتلاً على يد الخارجي ابن ملجم الذي سماه النبي(ص) أشقى الآخرين
20	**من أشهر ما يعرفه عامة المسلمين من**	ثاني اثنين في الغار مع النبي(ص)، من العشرة	من العشرة المبشرة بالجنة، الخليفة العادل،	من العشرة المبشرة بالجنة، المقتول وهو يقرأ	البائت في فراش النبي(ص)، من العشرة

	فضائله	المبشرة بالجنة، الصدّيق لأنه صدق النبي(ص) في حادثة الإسراء وغيرها	الفتوحات، الفاروق أي يفرق بين الحق والباطل	القرآن، ذو النورين لزواجه من بنتي خديجة اللتين اشتهر أنهما بنتا النبي(ص)	المبشرة بالجنة، زوج ابنته(ص)، أبو الحسنين، بطل الجهاد، إمام البلاغة، الإمام
	رأي المسلمين السنة	أفضلهم	الثاني في الفضل	الثالث في الفضل	الرابع في الفضل
	ما رأي القارئ؟				

نتيجة المقارنة

مما تقدم، سواء من الفصول المتقدمة أو من الجدول أعلاه، لم أستطع أن أجد مجالاً لتقديم الشيخين أو عثمان بن عفان على علي بن أبي طالب(ع)، وذلك لأنه حتى إن قبلنا جميع الروايات الواردة أعلاه فإننا نجد المسافة كبيرة جداً بين منطوق بعض روايات فضائل الخلفاء الثلاثة وبين الواقع على الأرض الذي تمثل في سابقتهم وجهادهم وعطائهم ومنزلتهم عند الله ورسوله(ص)، في حين لا نجد ذلك عندما ننظر في فضائل علي(ع). ما كان من ميزات علي(ع) الخاصة به دون غيره، وما كان من جهاده وطاعته، تجعل من التنويه بفضله من الله ورسوله(ص) بهذا الشكل الواضح من التطهير والولاية والمودة والمنازل المختلفة التي يشترك فيها بشكل مباشر مع النبي(ص) ليس غريباً، في حين وجدت افتراقاً بين عطاء الآخرين مع ما ذكر من فضائلهم أو بعضها على الأقل.

مثلاً، من غير المعقول أن يكون الذي يرجح إيمانه على إيمان الناس جميعاً يهرب من معركة قائدها النبي(ص) الذي هو مؤمن به أكثر من إيمان الناس مجتمعين...

ومن غير المعقول أن يكون فضل علم النبي(ص) إلى رجل دون غيره ثم يحتاج هذا الرجل إلى غيره ليصحح له أحكامه...

ومن غير المعقول أن يكون الشيطان يهرب من رجل تأخر إسلامه ست سنوات دون مبرر، ثم يستمر في حبه لشرب الخمر بعد الإسلام وبعد نزول الآيات الأولى التي تشجع على تركها، ثم لا يتركها حتى ينزل النهي الشديد عنها...

ومن غير المعقول أن يقدم رجل عطاء للإسلام فيقول النبي(ص) له أن يعمل ما يشاء بعد ذلك لأن الأعمال بالخواتيم كما قال النبي(ص) نفسه...

هذا ناهيك عن فشلي في محاولتي فهم معنى أن تستحي الملائكة من رجل، أو أن يسأل الله تعالى العليم بكل شيء أحد عبيده إن كان هذا العبد راضياً عنه، أو أن يكون المؤهل للنبوة لو كان ثمة نبي آخر هو من تأخر إسلامه سنين ومن اعترف أنه شك في إسلامه في الحديبية، وغيرها من فضائل...

علماً أني لم آت بفضائل أخرى مروية لأني لم أشأ أن أستخف بعقل القراء. وإلا هل يعقل أن يسأل النبي(ص) جبريل(ع) عن فضل عمر بن الخطاب فيجيبه "لو حدثتك عن فضائل عمر منذ ما لبث نوح في قومه ما نفدت فضائل عمر، وإن عمر حسنه من حسنات أبي بكر!" مثل هذه الفضائل التي اعترف المحققون في الأحاديث أنها موضوعة، لا يزال الناس يتداولونها ولاسيما الآن بعد أن صار كل شيء ينقل من موقع أو منتدى على الإنترنت إلى آخر.

ولكن الحمد لله الذي أنزل في كتابه الكريم فضل عبده ووليه علي بن أبي طالب(ع) في آيات محكمات تتلى في أنحاء الأرض وعبر العصور كلها تصرح عالياً بأن هذا العبد الصالح وصل إلى قمة الإيمان والإخلاص والعلم والجهاد، بل والاصطفاء من قبل الابتلاء، ما لم يصل إليه غيره، لا من الخلفاء الثلاثة الذين تقدموه ولا من غيرهم، الذين صرح نفس الكتاب العزيز بنكوصهم وضعفهم في مواقف كثيرة، وهي ليست سبة عليهم وإنما هو الطبيعي تماماً من بشر يخطئون ويصيبون ويتقدمون ويتأخرون، بل ويشكون لأن الإيمان يزيد وينقص كما هو مقرر في العقائد، فهم لم يُهَيَّئوا للمهمة التي عهدت إلى علي(ع) وأولاده الطاهرين من بعده، فكان الفارق بين هؤلاء وأولئك. لقد كفاني كتاب الله – الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – مؤونة مناقشة الكثير من هذه الأحاديث لأنه أجمع أهل السنة على أن الكتاب مقدم على غيره.

على أن من شاء أن ينظر في غير الكتاب العزيز فسيجد المجال واسعاً رحباً للتأكد من هذه الحقيقة، وذلك من حديث النبي(ص)، والبحث فيه في مقام تعارض الأحاديث، ومن أقوال العلماء، ومن الوقائع الثابتة في التاريخ والسيرة.

أخيراً، فإنه لمقام هذا العبد الصالح من ربه فقد شاء جل وعلا أن يحفظ له دوره الذي جعله له، وهو الإمامة العامة على الناس، فلا تسمع بكلمة "الإمام" إلا وتعرف أنه علي بن أبي طالب، وذلك عند جميع طوائف المسلمين، سنة وشيعة. فلم أسمع، ولم يسمع أحد، ولم يقرأ أحد، أن أبا بكر أو عمر أو عثمان يلقب بالإمام. حتى المؤلفين، ترى – مثلاً – عباس محمود العقاد رحمه الله يكتب سلسلة العبقريات: "عبقرية الصديق"، "عبقرية عمر" الخ، ولكنه عندما يأتي إلى أمير المؤمنين(ع) يعنون كتابه "عبقرية الإمام". وهكذا، أجرى الله تعالى على لسان عباده المؤمنين – من سنة وشيعة – هذا اللفظ لعبده ووليه الذي أخلص له تمام الإخلاص فكافأه

برد جميع محاولات أعدائه – وهم أعداؤه تعالى – في هذه المنزلة التي هي دوره في الحياة: الإمام على الناس، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة الجزء الأول

في الجزء الأول من كتابي "العودة إلى الأصل إلى آل محمد(ص)" حاولت تبيان القسم الأول من الدواعي التي أدت إلى قراري باتباع مذهب أهل البيت(ع)، وهي الأدلة على دور أئمة أهل البيت(ع) في الإسلام التي نزلت في آيات الكتاب المجيد ورويت في أحاديث النبي محمد(ص). وقد حاولت أن أطرح تلك الأدلة في إطار مشابه – ما أمكن – لزمان انفتاحي عليها، وإن كان ذلك أمراً متعذراً أو عسيراً – على الأقل –، ما جعل المادة تحتوي على إضافات هي نتاج التفاعل المستمر مع القضية طيلة أكثر من خمس عشرة سنة تأجل فيها تأليف الكتاب.

كما أوضحت في المقدمة أن الغاية من الكتاب هي: أنها تجربة إنسانية وجدتها تستحق التسجيل، وأن الكتابة فيها تحدث بنعمة الله، وأن في الكتاب فوائد لمن يريد، وأنه سيكون مقدمة لدعوة أصحاب الأصل العلوي الذين يتبعون المذاهب الأخرى للانفتاح على مذهب أجدادهم الطاهرين(ع).

وأتمنى أن يسهم الكتاب في تحقيق الفائدة منه، ليس من خلال هذه الغايات أعلاه، وإنما من خلال المساهمة في إطفاء نار الفتنة الطائفية التي ما أن تبرد قليلاً حتى ينفخ فيها أعداء الأمة – الداخليون والخارجيون –، وذلك من خلال توضيح عقائد شيعة أهل البيت(ع) الذين كانوا ولم يزالوا هدف الهجوم الظالم لهؤلاء الأعداء، الأمر الذي من شأنه أن يحصن الناس من أن يقعوا فريسة الخداع، والذي يؤدي إلى تفاعل إيجابي من قبل الشيعة أنفسهم، وصولاً إلى الجو الأخوي الذي لا يتأثر مطلقاً بالاختلافات، بل ولا يحولها إلى خلافات، ولاسيما عند من وضعوا مصالح الأمة نصب أعينهم وتعاملوا مع الناس، كل الناس، بمنطق الإنسان لا بمنطق الأنداد والخصوم.

وسيكون من دواعي السرور الحقيقي حصول ردود فعل إيجابية من القراء – علماء وباحثين وعامة وغيرهم – من أي شكل كان طالما يسهم في إثراء البحث والنقاش والنظر في الأدلة والشبهات؛ وأعني بردود الفعل الإيجابية تلك التي تنطلق من رغبات صادقة في السؤال والبحث والنظر وإعمال العقل، لا التي تبحث عن سقطة هنا وخطأ هناك من أجل التهجم، فهذه لا تحقق شيئاً لا لي ولا لأصحابها. وسأكون مسروراً بالشبهات الجديدة والملاحظات الصعبة أكثر من الشبهات المكررة والملاحظات البسيطة وذلك من أجل تحقيق فوائد أخرى، وهو شيء عايشته طوال هذه السنين حيث وجدت نور الحق يشتد سطوعاً كلما أثيرت شبهات وملاحظات تتحدى النصوص لأنها تدفع الباحث للنظر من زوايا أخرى وبشكل أكثر عمقاً، ما يؤدي في أحيان كثيرة إلى وضع اليد على حقائق غفلنا عنها ويفتح أمامنا آفاقاً جديدة رائعة متينة البنيان تجعل المادة موضوع البحث تتجدد.

عزيزي القارئ: إذا وجدت الكتاب نافعاً أرجو أن تعمل على نفع الآخرين به بإعطائه لمحبي الاطلاع، ولاسيما من الذين يلقون الشبهات على مذهب أهل البيت(ع) أو الذين يمارسون الهجوم على شيعة أهل البيت(ع) سواء من

يفعلون ذلك كفعل أو كرد فعل – من نتاج العقل أو العاطفة –، من أجل أن تتضح بعض الحقائق ويعود النفع على الجميع.

في الجزء الثاني سأكمل تبيان دواعي العودة إلى الأصل، وذلك من خلال المقارنة بين المدرستين، السنية والشيعية، في موارد ثمانية: الله تعالى، العدل الإلهي، النبي(ص)، الحُكم، الصحابة، الفقه، التاريخ الإسلامي، أهل البيت(ع)، والتي هي بمثابة التطبيق العملي لتعامل المسلمين المختلف مع النصوص القرآنية والحديثية التي بحثتها في الجزء الأول، فأدت إلى افتراق الأمة إلى أتباع لأهل البيت(ع) وأتباع لغيرهم. بهذا الشكل يتضح أن مسألة إمامة أهل البيت(ع) ليست مسألة نظرية من متعلقات التاريخ وعلينا أن لا نتكلم فيها، كما يقول البعض من أجل صد المسلمين عن التعرف على أئمة الهدى(ع)، بل يتضح أنها مسألة ألقت بثقلها في جميع مفاصل الفكر الإسلامي: عقيدة وشريعة وأخلاق، في الماضي والحاضر المعاش والمستقبل بلا شك.

ثم أعرض، في فصلين، لأمرين في غاية الأهمية:

الأول – متى بدأ التشيع؟ لأن هناك آراءً متعددة عند أهل السنة، أقربها عهداً من العهد النبوي هو آخر خلافة عثمان بن عفان زاعمين أن المؤسسين هم من أعداء الإسلام الأوائل، أو أنه (التشيع) كان بعد مقتل الحسين(ع) زاعمين أن التشيع إنما كان ردة فعل، في حين أن الشيعة يدّعون أن بداية المذهب كان في العهد النبوي زاعمين أنه المذهب الأصيل أو الممثل الأصيل للإسلام الذي بدأ قبل وقوع الانحراف؛

الثاني – هل الشيعة على مذهب أهل البيت(ع) حقاً؟ ذلك لأن أهل السنة، عندما يجدون أنفسهم قبالة حقيقة أنهم لا يتبعون أهل البيت(ع)، على الرغم من النصوص الكثيرة الحاسمة – من قرآن وحديث، بل وأقوال علمائهم أنفسهم – تقول بوجوب اتّباعهم أو على الأقل بسموهم فوق الآخرين، فإنهم يلجأون إلى القول أن الشيعة ليسوا على مذهب أهل البيت(ع)، لذا لا بد من التحري والتأكد من ادعاء هؤلاء وهؤلاء.

سيتلو ذلك – بعون المولى تبارك وتعالى – كتاب آخر (بعنوان أولي هو "من ثمرات العودة") فيه عرض لبعض الثمرات المتحققة من العودة إلى الأصل، في معرفة الكثير من الحقائق من جانب وفي تقييم العديد من الأمور.

ثم كتاب (بعنوان أولي هو "ما بعد العودة") فيه عرض لكثير من الأمور بشكل أكثر عمقاً، علاوة على عرض أمور أخرى جديدة تشمل آيات قرآنية وأحاديث نبوية، ومناقشات مع آخرين؛ كما أن فيه دعوة مخلصة صادقة لمن يريد الانفتاح على أئمة الهدى(ع)، من القراء عموماً، وممن يمتون إلى المؤلف بصلة القربى والعشيرة والنسب العلوي خصوصاً.

فكأن الكتابين المشار إليهما تتمة لهذا الكتاب "العودة إلى الأصل".

ملحق الجزء الأول

(الفصل الخامس) الآيات في حق أهل البيت(ع)

(الفصل السادس) الأحاديث في حق أهل البيت(ع)

(الفصل الثامن) حديث الغدير وبيعة الغدير

يتضمن الملحق مزيداً من المصادر لبعض الآيات والأحاديث، ومزيداً من المناقشات لبعض الموارد التي وردت في فصول الكتاب المختلفة.

(الفصل الخامس) الآيات في حق أهل البيت(ع)

هذه إضافات لما لم أذكره في الفصل الخامس.

أولاً: آية التطهير

وهي قوله تعالى: ﴿إنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ الأحزاب:33

السيوطي في الدر المنثور ج5 ص198، الإمام أحمد في مسنده ج3 ص229، الواحدي في أسباب النزول ص267، إبن جرير في التفسير الكبير، الطبراني أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج9 ص167 وغيرها، الحاكم المستدرك ج3 ص133، البيهقي ج2 ص149، مسلم في صحيحه ج2 ص331، إبن كثير في تفسيره ج3 ص484، كنز العمال ج7 ص103، الترمذي ج2 ص308، وغير هؤلاء كثير.

ثانياً: آية الولاية

قول الله تعالى ﴿إنّما وَلِيُّكُم اللهُ ورسولُهُ والّذينَ آمنوا الّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويؤتُونَ الزَّكاةَ وهُم راكِعون﴾ (المائدة:55).

وأما المفسرون فقد ذكر الفخر الرازي في المجلد 3 ص417 من التفسير الكبير نزولها في علي بن أبي طالب من أكثر من طريق. ومثل ذلك الزمخشري في تفسيره الكشاف ج1 ص422، وأبو بكر الرازي الحنفي في كتاب أحكام القرآن المجلد 2 ص543، وإبن حجر العسقلاني في كتاب الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص56، والقرطبي في كتاب الجامع لأحكام القرآن ج6 ص221.

ومن المتأخرين شهاب الدين الألوسي في المجلد 6 ص149 من تفسير روح المعاني، ورشيد رضا في ج6 ص442 من تفسير المنار.

وغير هؤلاء آخرون ذكروا نزول الآية في أمير المؤمنين(ع) عدّ منهم العلامة الأميني في كتابه الغدير ج3 ص156 ستة وستين من علماء السنة ذكروا هذا الحديث ونزول الآية في علي(ع).

ثالثاً: آية المودة

ومن روى نزولها في مودة أهل البيت علي وفاطمة والحسنين:

الزمخشري في تفسير الكشاف ج2 ص339، الرازي في تفسيره، وهامش تفسير الرازي ج7 ص 665، البغوي في تفسيره، والثعلبي في تفسيريه، الإمام أحمد في المناقب، والحاكم في المستدرك ج3 ص172، وإبن أبي حاتم رواية 18472 ورواية 18477، وروى البخاري في ج6 ص129 تحديد القربى بأنهم قربى آل محمد من حديث ابن عباس وسعيد بن جُبير، والطبراني في المعجم الأوسط وفي المعجم الكبير ج3 ص47 رواية 2641 و ج11 ص350، رواه الهيثمي في المجمع ج7 ص103 و ج9 ص168، وآخرون غيرهم كمحب الدين الطبري في ذخائر العقبى، والنيسابوري في تفسيره، والنسفي في تفسيره ج4 ص99، وأبو حيان في تفسيره ج7 ص516، وكثير غير هؤلاء.

ويعلق الشيخ الأنطاكي رحمه الله على ذلك بالقول: "وبالجملة فقد تعين بهذه الآية الكريمة كون الإمام والخليفة بعد رسول الله(ص) بلا فصل والإمام أمير المؤمنين علي لظهور دلالة الآية الشريفة على أن مودة علي(ع) واجبة بمقتضى الآية حيث جعل الله تعالى أجر الرسالة بما يستحق به الثواب الدائم مودة ذوي القربى، إذ مع وقوع الخطأ منهم يجب ترك مودتهم لقوله تعالى ﴿لا تَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ باللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللّهَ ورَسُولَه﴾ (المجادلة:22)، وغير علي(ع) ليس بمضمون بالإتفاق، إذاً يكون هو الإمام بالفصل ليس إلاّ..."

ومما ذكره السيد شرف الدين (الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع) أبيات شعرية لمعاصره النبهاني التي يخاطب بها أهل البيت:

آلَ طهَ يا آلَ خَيرِ نَبيٍّ — جَدُّكُمْ خِيرَةٌ وأنتُمْ خِيارُ

أَذْهَبَ اللهُ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ — البَيتِ قِدماً فأنتُمُ الأطهارُ

لَمْ يَسَلْ جَدُّكُمْ على الدِّينِ أجْراً — غَيرَ وُدِّ القُربى ونِعمَ الإجارُ

ثم ذكر ما وصف به النبهاني في كتابه الشرف المؤبد من أرادوا صرف الآيات عن أهل البيت فوصفهم بأنهم "جهّال غرقوا من أحوال البغضاء لآل محمد في أوحال فأخذوا يتأولون بجهلهم ما ورد من الآيات والأخبار في فضل أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي ومنبع الحكمة، ويخرجونها عن ظواهرها بأفهامهم السقيمة وآرائهم الذميمة ومع ذلك فقد زعموا أنهم لأهل البيت من أهل المحبة والمودة ولم يعلموا أنهم هائمون من الخذلان في كل واد..." إلى آخر قوله.

ثم ذكر قول النبهاني في كتابه: "فقد رأينا من إذا سمع بذكر مزية امتاز بها أهل البيت أو منقبة أسندت إليهم ووصفوا بها من الله ورسوله(ص) أو السلف الصالح أو علماء الأمة أو أوليائها يقطب وجهه ويتغير خلقه ويود

بلسان حاله أن تلك المزية لم تكن لهم، وقد يتكلف الأقاويل الواهية والأخبار الموضوعة والآثار المصنوعة ليطفئ بها نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون". (أقول: هذا مع أن النبهاني لم يعاصر زماننا ويطالع مواقع الإنترنت ليدهش من هذه الدرجة من الانحراف عن أولياء الله العظام بتكلف الأقاويل الواهية والأخبار الموضوعة والآثار المصنوعة، وهو في نفس الوقت يكذب الأخبار الصحيحة التي عليها نور النبوة والتي تطابق ظواهر آيات الكتاب العزيز وبواطنه.)

رابعاً: آية المباهلة

جميع المفسرين والمحدثين والمؤرخين أجمعوا على هذه القصة وعلى أشخاصها عليهم السلام وذكرها منهم:

مسلم في صحيحه ج7 ص120 ذكر فيه قول سعد بن أبي وقاص لمعاوية الذي يذكر المباهلة كإحدى فضائل علي(ع)، والإمام أحمد في مسنده ج1 ص185، والطبري في تفسيره ج3 ص192، والسيوطي في الدر المنثور ج2 ص38، والواحدي في أسباب النزول ص47، والحاكم في المستدرك ج3 ص150، والفخر الرازي في ج8 ص85 من تفسيره، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ج3 ص104، وإبن حجر العسقلاني في الإصابة ج2 ص503، وآخرون غيرهم كثير.

ويعلق الشيخ الأنطاكي (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) بأنه "عندما يثبت النبي(ص) أن علياً(ع) جعله الله تعالى كنفس النبي(ص) فإنه لا يجوز تقديم أحد عليه مطلقاً لأن المتقدم عليه كالمتقدم على رسول الله(ص) وهذا غير سائغ شرعاً". أي لا يجوز تقديم أبي بكر ولا غيره على علي(ع) لخلافة النبي(ص) بعد وفاته(ص) مباشرة لأن الذي جعله اللّه تعالى كنفس النبي(ص) سيصبح رعية لمن هو لم يقترب من هذه المنزلة السامية، وهي منزلة تنطوي على العلم والطهارة المعنوية المعدة لهذا الدور الخطير.

ومما ذكره السيد شرف الدين (الكلمة الغراء) نقطة أخرى ذكر فيها قول فخرالدين الرازي (تفسير مفاتح الغيب من ج2 ص488) بخصوص مناقشة "هل أن علياً(ع) أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد(ص) إستدلالاً بقوله تعالى ﴿وأنفُسنا وأنفُسكم﴾؟" قال الرازي أن "المراد بقوله وأنفسنا ليس نفس محمد صلى الله عليه وسلم لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد غيرها، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فدلّت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد ولا يمكن أن يكون المراد أن هذه النفس هي عين تلك، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس وذلك يقتضي المساواة في جميع الوجوه، تركنا العمل بهذا العموم في حق النبوة وفي حق الفضل بقيام الدلائل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان نبياً وما كان علي كذلك، ولانعقاد الإجماع على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من علي رضي الله عنه فبقي مما وراءه معمولاً به. ثم الاجماع دلّ على

أن محمدا عليه السلام كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء".

(أقول: وهو تأييد للفخر الرازي لما تقوله الشيعة في تفضيل علي(ع).)

(الفصل السادس) الأحاديث في حق أهل البيت(ع)

هذه بعض الأحاديث التي رويت في حق أهل البيت(ع) مع مصادرها مما لم أذكره في الفصل السادس.

(1) حديث الثقلين

بالإضافة إلى المصادر المذكورة في الفصل السادس، فقد أخرج حديث الثقلين المفسرون والمحدثون كما في مسند أحمد ج3 ص17 وص26 وص57 عن أبي سعيد الخدري، والمسند أيضاً ج4 ص367 عن زيد بن أرقم، والترمذي ج2 ص308 أخرجه عن رواية جابر بن عبد الله الأنصاري، وذكره الترمذي من حديث زيد بن أرقم، والحاكم (إضافة إلى أعلاه) في ج3 ص148 وص532 وقال أنه صحيح على شرط الشيخين (أي البخاري ومسلم)، والبيهقي في سننه ج10 ص114، وابن كثير في تفسيره ج3 ص486، وأبو نعيم في حلية الأولياء ج1 ص355، وإبن الأثير في أُسد الغابة ج2 ص12 وج3 ص147، وإبن الجوزي في تذكرة الخواص الباب الثاني عشر ص332، والثعلبي في كتاب الكشف والبيان في تفسير آية الإعتصام وتفسير آية الثقلان، والفخر الرازي في ج3 ص18 من تفسيره في تفسير آية الإعتصام، وكذا تفسير النيسابوري ج1 ص349، وإبن كثير في تفسير آية المودة في ج4 ص113، وأيضاً ج3 ص485 تفسير آية التطهير، وكثيرون غيرهم.

وقد روي الحديث عدد من صحابة النبي(ص) هم: علي بن أبي طالب، والحسن بن علي، وجابر بن عبد الله الانصاري، وابن عباس، وزيد بن ارقم، وابو سعيد الخدري، وابوذر، وزيد بن ثابت، وحذيفة بن اليمان، وحذيفة ابن أسيد، وجبير بن مطعم، وسلمان الفارسي. كما ذكر صحابة آخرون من ضمن من شهد لعلي(ع) أنهم سمعوا النبي(ص) يقول مقالته (ومن ضمنها حديث الثقلين) يوم غدير خم، منهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن سعد الساعدي، وعدي بن حاتم الطائي، وعقبة بن عامر، وأبو ايوب الانصاري، وابو الهيثم بن التيهان.

وقد وجدت مؤخراً في فصل روايات حديث الثقلين حسب المناسبات، وهي أربع:

(1) موقف يوم عرفة: سنن الترمذي 662/5 رقم 3786 ، كنز العمال 48/1 عن ابن أبي شيبة والخطيب ، نوادر الاصول للحكيم الترمذي: 68 ، المعجم الكبير 63/3 رقم 2679 ، مجمع الزوائد 195/5 و

163/9 و 363/10 و 368 ، المصابيح للبغوي 206/2 ، جامع الاصول 277/1 رقم 65 ، تهذيب الكمال 51/10 ، تحفة الاشراف 27/2/2 رقم 2615 ، مقتل الحسين للخوارزمي 114/1 ، مشكاة المصابيح 258/3 ، نظم درر السمطين : 232.

(2) موقف يوم الغدير: النسائي في خصائص علي: 96 رقم 79 ، التاريخ الكبير للبخاري 96/3 ، صحيح مسلم : باب فضائل علي رقم 2408 ، مسند أحمد 17/3 و 366/4 ، مسند عبد بن حميد رقم 265 ، المطالب العالية لابن حجر 65/4 رقم 1873 عن إسحاق بن راهويه في صحيحه وقال: هذا إسناد صحيح ، سنن الدارمي 310/2 رقم 2319 ، تذكرة خواص الامة: 322 ، السنة لابن أبي عاصم : 629 رقم 1551 و 630 رقم 1555 ، تاريخ اليعقوبي 112/2 ، حلية الاولياء 355/1 و 64/9 ، المعرفة والتاريخ 536/1 ، كنز العمال 36340/13 و 36441 ، جمع الجوامع 66/2 و 357 و 395 ، أنساب الاشراف : ترجمة أمير المؤمنين ، مشكل الاثار 307/2 و 4/368 ، المعجم الكبير 2679/3 و 2681 و 2683 و 3052 و 5 / 4969 و 4970 و 4971 و 4986 و 5026 و 5028 ، المستدرك على الصحيحين 19/3 بثلاث طرق وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأقرّه الذهبي و110/3 بطريق آخر وقال: صحيح على شرط الشيخين ، تاريخ بغداد 442/8 ، مصابيح السنة 205/2 ، منهاج السنة 4 / 85.

(3) موقف مسجد المدينة: تفسير المحرّر الوجيز لابن عطية 34/1 ، تفسير البحر المحيط 13/1 ، الصواعق المحرقة: 75 و 136 ، ينابيع المودّة : 40.

(4) موقفه(ص) في مرضه في الحجرة: رواه ابن أبي شيبة كما عن العصامي في سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي 502/2 رقم 136 ، وأخرجه البزار في مسنده كما في كشف الاستار 221/3 رقم 2612 ، تهذيب اللغة للازهري 78/9 ، مقتل الحسين 164/1 ، الصواعق المحرقة: 89.

(2) حديث الإثني عشر خليفة

1 - عن داود بن هند، عن الشعبي، عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي(ص) يقول: «يكون لهذه الأمة اثنا عشر خليفة» (مسند أحمد ج5 ص106). وقد روى الإمام أحمد في مسنده النص على الخلفاء الإثني عشر من أربع وثلاثين طريقاً: المجلد الخامس ص86 حديث واحد، ص87 حديثان، ص89 حديث واحد، ص90 ثلاثة أحاديث، ص92 حديثان، ص93 ثلاثة أحاديث، ص94 حديث واحد، ص95 حديث واحد، ص96 حديثان،

ص97 حديث واحد، ص98 أربعة أحاديث، ص99 ثلاثة أحاديث، ص100 حديث واحد، ص101 حديثان، ص106 حديثان، ص107 حديثان، ص108 حديث واحد.

2 - قال جابر بن سمرة: سمعت رسول الله(ص) يقول: «يكون بعدي اثنا عشر أميراً»، ثم تكلم بشيء خفي عليّ، فقال: «كلهم من قريش» (تاريخ بغداد ج14 ص353).

3 - عن الشعبي، عن مسروق، قال: بينا نحن عند ابن مسعود نعرض مصاحفنا عليه، إذ قال له فتى شاب: هل عهد إليكم نبيكم كم يكون بعده خليفة؟ قال: إنك لحدث السن، وهذا شيء ما سألني عنه أحد قبلك. نعم عهد إلينا(ص) أنه يكون من بعده اثنا عشر خليفة، بعدد نقباء بني إسرائيل (إكمال الدين ج1 ص387 رواه بطرق كثيرة).

4 - قال جابر بن سمرة: دخلت مع أبي على النبي(ص) فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة»، قال: ثم تكلم بكلام خفي عليّ فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش» (صحيح مسلم ج2 ص201 رواه من عدة طرق).

5 - قال(ص): «يكون لهذه الأمة إثنا عشر قيّماً، لا يضرّهم من خذلهم، كلهم من قريش» (منتخب كنز العمال ج5 ص312، أخرجه الطبراني في الكبير).قال الشعبي: قال جابر بن سمرة: قال رسول الله(ص): «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة، ينصرون على من ناواهم»، ثم تكلم بكلمة خفيفة أصمتها الناس، سألت أبي عنها قال: فقال: «كلهم من قريش» (الملاحم والفتن ص132).

6 - وفي رواية: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش» (مشكاة المصابيح ق2 ص162).

هذا، وقد ذكروا أن الروايات الصحيحة لهذا الحديث بلغت ما يقرب من عشرين: 3 في صحيح البخاري، و 9 في صحيح مسلم، و 3 في سنن أبي داود، و 1 في صحيح الترمذي، و 3 في مسند الحميدي وهو شيخ البخاري.

(3) حديث المنزلة

مصادر حديث المنزلة:

صحيح البخاري ج3 ص54 باب غزوة تبوك و ج2 ص185 كتاب بدء الخلق، وصحيح مسلم في ج2 ص236 فضل الصحابة – فضائل علي، وصحيح الترمذي في سننه ج2 ص301، وسنن ابن ماجة ج1 ص12 (رواية

112)، ومسند أحمد ج1 ص98 وص118 وص119 و ج6 ص369، ومجمع الهيثمي ج9 من ص109 وغيرها، ومستدرك الحاكم ج3 ص109، والاستيعاب لابن عبد البر ج2 ص473، وخصائص النسائي ص7 وص15، وسيرة إبن هشام ج2 ص520، وتاريخ إبن عساكر ج4 ص196، وأسد الغابة لابن الأثير ج4 ص26، وتاريخ بغداد ج11 ص432، وتذكرة الحفاظ للذهبي ج2 ص95، وطبقات ابن سعد ج3 ص24، وكثيرون غير هؤلاء من المحدثين والمؤرخين.

أقول: في تاريخ دمشق لابن عساكر ج12 ص349 هناك ذكر لموقف حريز بن عثمان من علي(ع) حيث كان يلعنه 70 مرة بعد صلاة الفجر حسبما قال يحيى بن صالح الوحاظي الذي صلى خلفه سبع سنين وقال بأنه لا يكتب الحديث عنه لأنه كان يلعن علياً بهذا الشكل! فاسأله: كيف تصلي خلف رجل كهذا أنت نفسك تعترض على موقفه الناصبي هذا؟! رجل غريب حقاً. حريز هذا قال بأن الصحيح هو: أنت مني بمنزلة قارون من موسى! وقال بأنه سمعه من الوليد بن عبد الملك على المنبر! فأكرم به من سامع وأكرم بمن سمعه منه!

(4) من حديث المؤاخاة

وروايات مثلها في المستدرك ج3 ص14 و126 و159 والأخيرة هي في موضوع تزويج علي من فاطمة(ع) حيث يأمر النبي(ص) أم أيمن بالقول: ‹‹يا أم أيمن إدعي لي أخي›› فقالت: "هو أخوك وتنكحه؟!" قال: ‹‹نعم يا أم أيمن›› فجاء علي(ع)" إلى آخر الحديث.

وروايات أخرى عديدة في كنز العمال والرياض النضرة وأسد الغابة والاستيعاب والصواعق المحرقة ومجمع الهيثمي والإصابة لإبن حجر، الذي روى في ج8 القسم 1 ص183 رواية عن ليلى الغفارية بأنها كانت تغزو مع النبي(ص) لمداواة الجرحى والتمريض فخرجت مع علي(ع) إلى البصرة، فلما التقت بأم المؤمنين عائشة سألتها عن فضيلة من فضائل علي(ع) فقالت عائشة: "نعم، دخل على رسول الله(ص) وهو معي وعليه جرد قطيفة، فجلس بيننا فقلتُ: أما وجدتَ مكاناً أوسع لك من هذا؟! فقال النبي(ص): ‹‹يا عائشة دعي لي أخي، فإنه أول الناس إسلاماً وآخر الناس بي عهداً وأول الناس لي لقياً يوم القيامة››".

أقول: إن كانت الرواية صحيحة، فلعل ذكر أم المؤمنين لبعض فضائل علي(ع) إنما كان بعد الموقعة وهزيمة جيشها؛ فإن كان ذلك كذلك فلعله من باب "والحق ينطق منصفاً وعنيداً"، لأنها لم تكن تطيق ذكر فضيلة واحدة لعلي(ع) في معظم فترات حياتها، بل حتى بعد انتهاء معركة الجمل كما يظهر من محاورتها مع ابن عباس لما ذهب إليها موفداً من علي(ع) فرفضت أن تعترف بعلي(ع) أميراً للمؤمنين وقالت: "أبيت" (أعيان الشيعة ج1 ص461). أو لعلها – كما يذهب بعض الباحثين – صارت تحدث بفضائل علي(ع) بعد مدة، ربما بعد أن خلت الدنيا

منه(ع)، وقرّت عينها كما رددت قول الشاعر يوم جاء نعيه(ع): "وألقت عصاها واستقرَّ بها النّوى * كما قُرَّ عيناً بالإياب المسافرُ". واللطيف في الحديث أنه يجعل علياً(ع) الرفيق الدائم والأول للنبي(ص) في المفاصل الحاسمة من حياته(ص): بدء الإسلام، ويوم وفاة النبي(ص)، ويوم القيامة.

(5) من حديث سد الأبواب

مصادر أخرى ممن روى حديث سد الأبواب أيضاً الحاكم في المستدرك ج3 ص125 برواية عمر بن الخطاب وبرواية لزيد بن أرقم وأيضاً ص116 برواية سعد بن أبي وقاص، ورواه الإمام أحمد في المسند ج1 ص175 برواية سعد وفي ص330 برواية ابن عباس وفي ج2 ص26 برواية عمر، وروى هذه الروايات أبو نعيم في الحلية ج4 ص153، والنسائي في الخصائص وصاحب كنز العمال في ج 3 ص155 والذهبي في ميزان الاعتدال ج2 ص194 والهيثمي بروايات مختلفة في ج9 ص115 في مجمع الزوائد.

أما رواية منع مرور الجنب والحائض غير الخمسة أصحاب الكساء فممن رواها صاحب الكنز في ج3 ص154 و ج6 ص159 والهيثمي في المجمع ج9 ص115. وكذلك صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج8 ص16 برواية ذكرها إسماعيل القاضي في أحكام القرآن أن النبي(ص) لم يأذن لأحد أن يمر بالمسجد وهو جنب إلا لعلي بن أبي طالب.

أبيات شعرية في قاتل علي بن أبي طالب(ع) وأبيات مضادة

أما ابن ملجم فقد مدحه أحد الخوارج وهو عمران بن حطّان بالقول:

يا ضَربةً مِنْ تَقِيٍّ ما أرادَ بها   إلاّ لِيَبلُغَ مِنْ ذِي العَرشِ رِضوانا

إنّي لأذكُرُهُ حِيناً فأَحسَبَهُ   أَوفى البَرِيَّةِ عِندَ اللهِ مِيزانا

فأجابه بكر بن حمّاد التاهرتي، على ما في نور الأبصار للشبلنجي ص98، بأبيات منها:

قُلْ لابنِ مُلجِمَ والأقدارُ غالِبَةٌ   هَدَمْتَ وَيلَكَ للإسلامِ أركانا

قَتَلْتَ أفضَلَ مَنْ يَمشِي عَلى قَدَمٍ   وأوَّلَ الناسِ إسلاماً وإيمانا

وأعلَمَ الناسِ بالقُرآنِ ثُمَّ بِما   سَنَّ الرَّسُولُ لَنا شَرعاً وتِبيانا

صِهْرَ النَّبِيِّ ومَولاهُ وناصِرَهُ   أضحَتْ مَناقِبُهُ نُوراً وبُرهانا

وكانَ مِنهُ على رَغمِ الحَسُودِ لَهُ　　ما كانَ هارُونُ مِنْ مُوسى ابْنِ عِمرانا

ويقول فيها في ابن ملجم:

إنِّي لأحسَبُهُ ما كانَ مِنْ بَشَرٍ　　يَخشى المَعادَ ولكنْ كانَ شَيطانا

أشقى مُرادٍ إذا عُدَّتْ قَبائِلُها　　وأخسَرَ الناسِ عِندَ اللهِ مِيزانا

كعاقِرِ النّاقَةِ الأولى الَّتِي جَلَبَتْ　　على ثَمودَ بأرضِ الحِجْرِ خُسرانا

ويقول فيها في ابن ملجم وعمران بن حطان:

فَلا عَفا اللهُ عَنهُ ما تَحَمَّلَهُ　　ولا سَقى قَبرَ عِمرانِ بْنِ حِطّانا

لِقَولِهِ فِي شَقِيٍّ ظَلَّ مُجتَرِماً　　ونالَ ما نالَهُ ظُلماً وَعُدوانا

(يا ضَربةً مِنْ تَقِيٍّ ما أرادَ بِها　　إلاّ لِيَبلُغَ مِنْ ذِي العَرشِ رِضوانا)

يا ضَرْبَةً مِنْ غَوِيٍّ أورَدَتْهُ لَظىً　　فَسَوفَ يَلقى بِها الرَّحمنَ غَضبانا

وأما القاضي أبو الطّيّب الطاهر بن عبد الله الشافعي فردّ بأبيات منها:

يا ضَرَبةً مِنْ شَقِيٍّ ما أرادَ بِها　　إلاّ لِيَهدِمَ بالإسلامِ أركانا

إنِّي لأذكُرُهُ يَوماً فَألعَنَهُ　　دِيناً وألعَنُ عِمراناً وَحِطّانا

الغريب أن عمران بن حطان، الذي يدعو عليه التاهرتي، والذي يلعنه القاضي الشافعي، هو ممن اعتمد على روايتهم البخاري في صحيحه – حديث 5387 وحديث 5496. ولا شك أن التاهرتي والشافعي يعرفان ذلك، فهلاّ عتبا على البخاري اعتماده على من استحق عندهما الدعاء عليه أو اللعن؟ وهلاّ عتبا على البخاري إذ اعتمد على من يمدح قاتل علي(ع) ولم يعتمد على جعفر بن محمد الصادق(ع) الذي ملأ الدنيا علماً، بل ولم يعتمد على وصي علي(ع) وخليفته المبايع، سبط النبي الأكبر وريحانته من الدنيا وسيد شباب أهل الجنة، الصحابي، أبي محمد الحسن(ع)؟!

(الفصل الثامن) حديث الغدير وبيعة الغدير

وهذه إضافات تتعلق بحديث الغدير وبيعة الغدير: بعض المصادر، مكان البيعة، مناقشة شبهات.

بعض مصادر حديث الغدير

إليك قائمة ببعض مصادر الحديث في كتب أهل السنة لم أذكرها في الفصل الثامن الخاص بحديث وبيعة الغدير:

1 -إبن كثير : تفسير القرآن ج2 ص15/ ط. بيروت

2 -محمد رشيد رضا : المنار ج6 ص464/ ط. بيروت

3 -أحمد بن حنبل : العلل ومعرفة الرجال ج3 ص262/ ط. الرياض

4 -السيوطي : الجامع الصغير ج2 ص66/ط. بيروت

5 -النسائي : السنن ج5 ص130/ ط. بيروت

6 -الطبراني : المعجم الأوسط ج3 ص69/ ط. الرياض

7 -البغوي : مصابيح السنة ج4 ص172/ ط. بيروت

8 -العيني : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج18 ص206/ ط. بيروت

9 -الذهبي : التلخيص ج3 ص109/ ط. بيروت

10 - البيهقي : الاعتقاد على مذهب السلف 217/ ط. بيروت

11 - السيوطي : الحاوي للفتاوى ج1 ص106/ ط. بيروت

12 - النسائي : خصائص علي عليه السلام ص43/ ط. إيران

13 - السيوطي : الدر المنثور ج2 ص293/ ط. بيروت

14 - النسائي : فضائل الصحابة ص15/ ط. بيروت

15 - الذهبي : ميزان الاعتدال ج3 ص294/ ط. بيروت

16 - الطبري : الرياض النظرة في مناقب العشرة ج3 ص127/ ط. بيروت

17 - الخوارزمي : المناقب ص156/ ط. قم

18 - إبن المغازلي : المناقب ص31/ ط. بيروت

19 - البلاذري : أنساب الأشراف ج2 ص111/ بيروت

20 - إبن طلحة الشافعي : مطالب السؤول ص4/مخطوط

21 - القندوزي : ينابيع المودة ج1 ص33/ ط. النجف

22 - المناوي : فيض القدير ج4 ص358/ ط. بيروت

23 - الشبلنجي : نور الأبصار ص78/ ط. المكتبة الشعبية

24 - إبن الصباغ المالكي : الفصول المهمة ص40/ ط. بيروت

25 - الطبري : ذخائر العقبى ص67/ ط.القاهرة

26 - المناوي : كنوز الحقائق ج2 ص118/ ط. بيروت

27 - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص169/ ط. مصر

28 - إبن خلدون : المقدمة ص246/ ط. بيروت

29 - إبن كثير : البداية والنهاية ج5 ص209/ ط. بيروت

30 - إبن عبد ربه : الاستيعاب ج3 ص1098/ ط. بيروت

موقع غدير خم

إن "غدير خم" ليس من المواقع التي ذكرت في التاريخ ولم يعرف موقعها على وجه الدقة، بل هو مكان معروف يقع الآن في بداية وادي الجحفة على يسار طريق الحجاج القادمين من المدينة المنورة، وعلى مسافة حوالي 183 كم من المدينة المنورة. والوصول إليه عبر طريقين:

الأول – طريق الجحفة، ويبعد بضعة كيلومترات من ميقات الجحفة

الثاني – طريق رابغ، ويبعد حوالي 26 كم عن غدير خم

الخريطة الشاملة

خريطة طبيعية عبر الأقمار الصناعية

خريطة الطريق الى وادي غدير خم

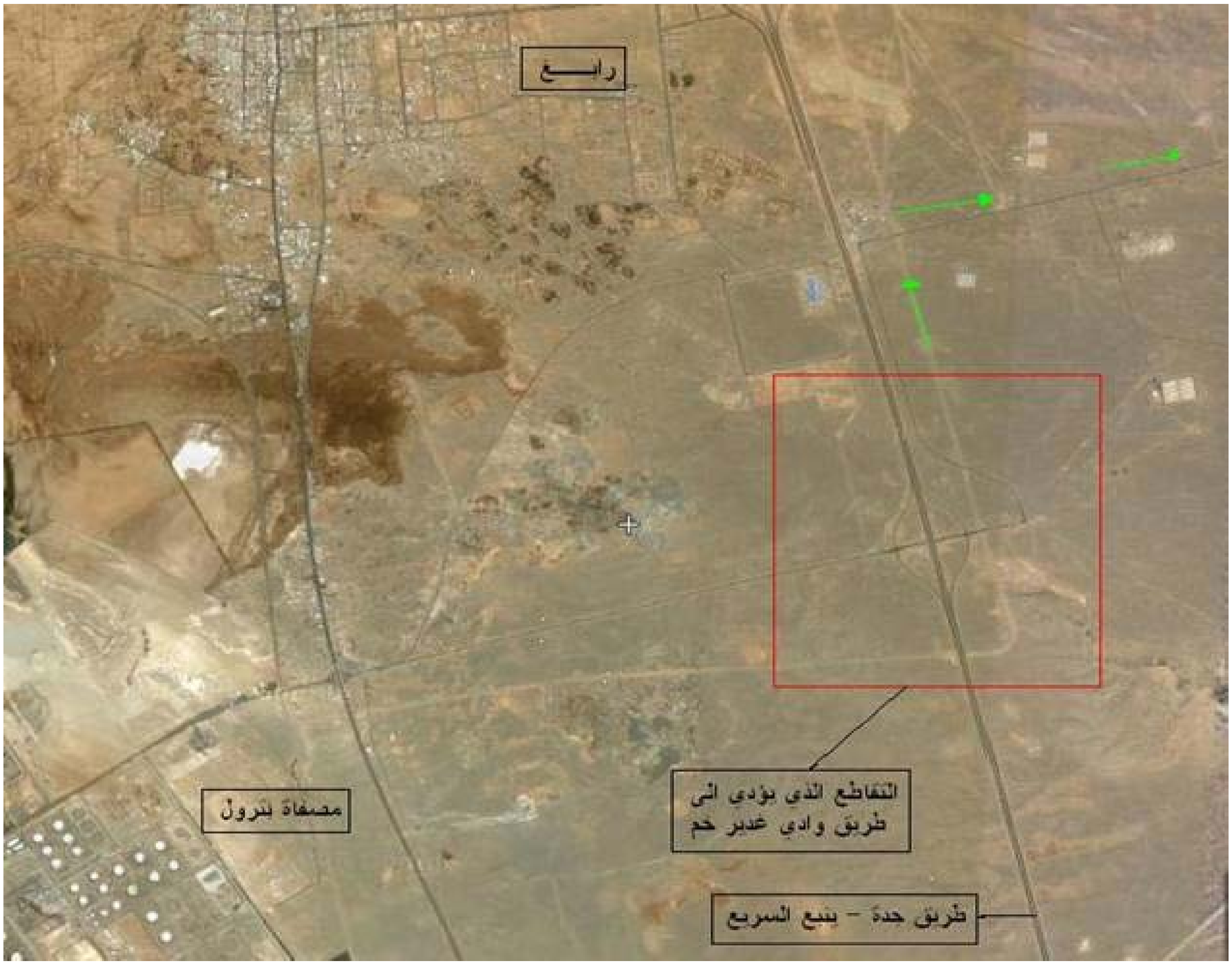

خريطة تحديد التقاطع

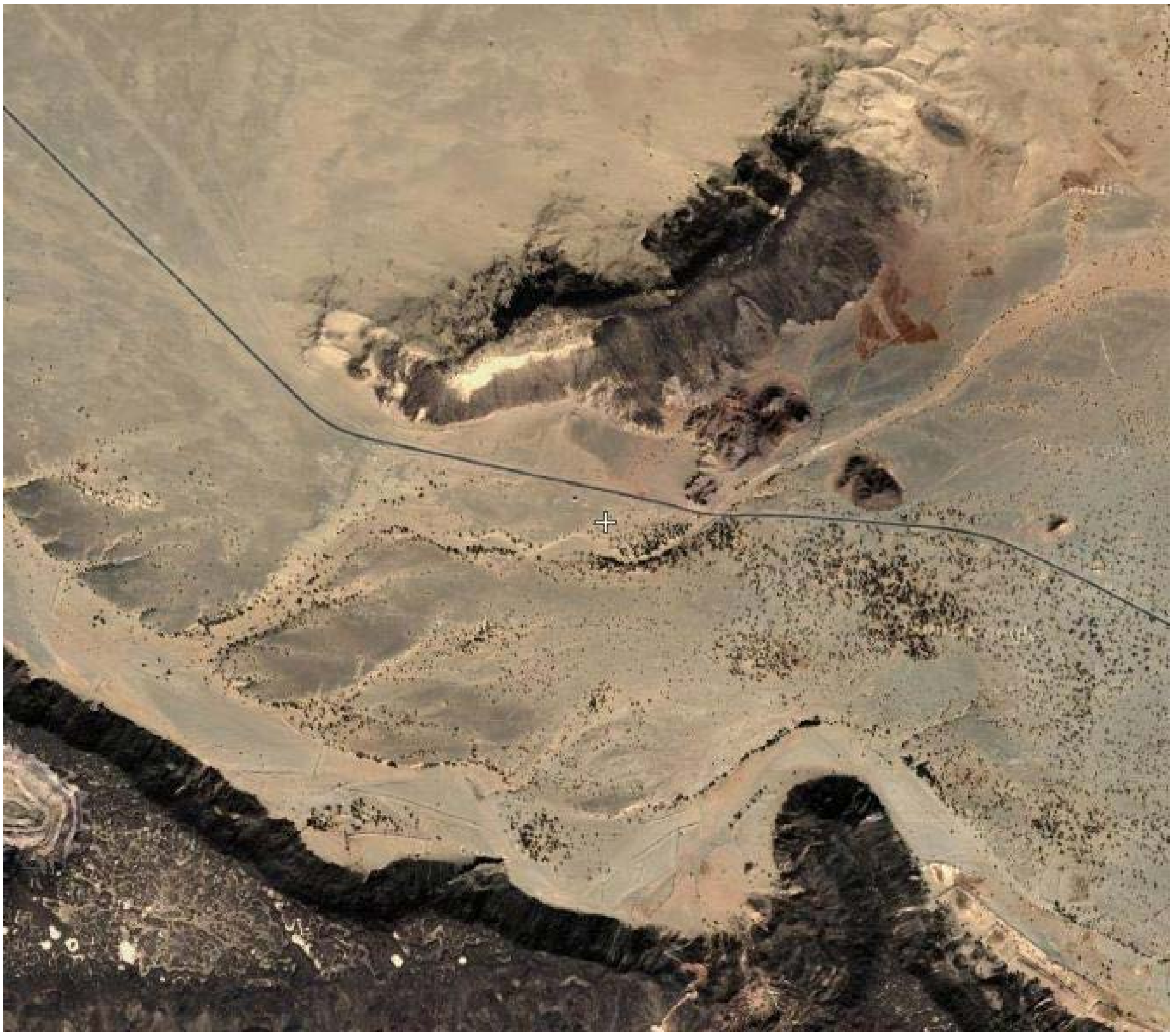

خريطة طبيعية عبر الأقمار الصناعية لوادي الغدي

منظرعام للمنطقة

جبل وادي الغدير

رد شبهات حول حديث وبيعة الغدير

من كتاب "السقيفة" للشيخ محمد رضا المظفر

وذلك بدءاً من ص172

الشبهة الأولى: أن حديث الغدير لم يؤمن بصحته جميع المسلمين وأن بعض من آمن بصحته فسره بشكل مخالف لتفسير الشيعة وذلك بالنظر إلى دلالة كلمة "المولى"، أي قول النبي(ص): ‹‹من كنت مولاه فهذا علي مولاه››؛ أيضاً أن الحديث لم يروه البخاري ومسلم.

الجواب على الشبهة: أولاً: أن عدم رواية البخاري ومسلم لحديث الغدير لا يضر به كحديث مستفيض بل متواتر وذلك لأن الحاكم النيسابوري استدركه عليهما في المستدرك ج3 ص109 وج4 ص381 وقال بأنه صحيح على شرطي البخاري ومسلم، وكذلك في كنز العمال ج6 ص390. ثم أن البخاري ومسلم كم من الأحاديث الصحيحة على شرطهما استدركت عليهما وتركوها، فهناك الكثير من الأحاديث الصحيحة التي لم يوردها البخاري ومسلم باعترافهما هما بأنهما اختارا البعض القليل من الأحاديث الكثيرة التي صحت عندهما، فتركهما لحديث الغدير أو غيره لا يدل على عدم صحته. ثم إنهما لم يرويا ولا حديثاً واحداً عن الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) الذي كان أوثق فقهاء عصره وأعلمهم، إن لم يكن إماماً حسبما يعتقد الشيعة، بل لم يرو البخاري ومسلم أي حديث عن أبنائه الأئمة من الكاظم(ع) وبعده. هذا في الوقت الذي رويا عن الكثير من المجهولين بل والمطعون في عدالتهم من ناحية الكذب أو الوضع أو النسيان أو غير ذلك.

وبمراجعة الجزء الأول من كتاب الغدير للأميني نعرف أن الحديث له أسناد كثيرة وهو متواتر بالروايات التي جاءت من غير مسلم والبخاري، بغض النظر عن أنه صحيح على شرط الشيخين مسلم والبخاري كما قلنا آنفاً.

ثانياً: : نظرة في بعض رواة البخاري ومسلم المطعون فيهم

منهم أحمد بن عيسى المصري الذي حلف فيه ابن معين "أنه كذاب" وغير ذلك مما قيل فيه (تهذيب التهذيب لابن حجر وميزان الاعتدال للذهبي). ومنهم اسماعيل بن عبد الله بن أويس أن ابن معين قال عنه: "لا يساوي فلسين وأنه هو أبوه يسرقان الحديث" (تهذيب التهذيب لابن حجر وميزان الاعتدال للذهبي).

ومنهم عبد الله بن صالح المصري قال أيضاً في ميزان الاعتدال أنه "روى عنه البخاري في الصحيح ولكنه يدلّسه فيقول عبد الله ولا ينسبه".

ومنهم عمران بن حطّان الخارجي الذي مدح ابن ملجم المرادي بضربته التي قتل بها أمير المؤمنين(ع)؛ روى عنه البخاري.

ومنهم عنبسة بن خالد الذي قال عنه يحيى ابن كثير، كما في التهذيب والميزان: "إنما يحدث عنه مجنون أو أحمق لم يكن موضعاً للكتابة عنه".

ومنهم محمد بن سعيد الذي اشتهر بالكذب وصلبه أبو جعفر على الزندقة، وهذا تعرض اسمه إلى تغيير كثير وذلك ليستروه ويستروا رواياته حتى قال أحد العلماء كما في الميزان أنهم قلبوا إسمه على مائة اسم أو أكثر!

ومنهم هشام بن عمار خطيب دمشق وعالمها الذي قيل أنه حدث بأربعمائة حديث لا أصل لها.

(أقول: في هذا الخصوص، من المناسب الرجوع إلى ما يخص الحديث الشريف وما تعرض له، في هذا الجزء من الكتاب، وفي كتاب "ما بعد العودة" الذي سينشر لاحقاً بعون اللّه، ولاسيما بحوث الحديث لمحمود أبي رية كتاب "أضواء على السنة المحمدية".)

الشبهة الثانية: أن الحديث لم يدوّن أي لم يكتب، في حين لو أن النبي(ص) أمر بكتابته كما أمر بكتابة القرآن لما اختلف الناس فيه حيث نجد أنهم اتفقوا على القرآن المكتوب بين أيديهم واختلفوا في حديث الغدير.

الجواب على الشبهة: بأن النبي(ص) لم يأمر بتدوين الحديث كالقرآن أي لم يأمر بتدوين الحديث بشكل عام لأنه يكفي أنه ترك لنا الثقل الأصغر وهم عترته للتمسك بهما مع القرآن مما سيتكفل بإخراج الأحاديث الصحيحة عبر ما يزيد عن القرنين من الزمان من عمر الإمامة الحاضرة وبالتالي سيكون الإمام هو الذي يبين لنا ما أُجمِل في القرآن وما نُزّل من أحكام، أما بالذهاب خلف من قال "حسبنا كتاب الله" فإنه هو الذي سيؤدي إلى الاختلاف في الأحكام كما جرى لأنه لو كان القرآن يكفي لما قرنه النبي(ص) بالثقل الآخر.

(وهنا أضاف المؤلف التفاتة لطيفة بخصوص تعيين النبي(ص) لعلي خليفة ووصياً من بعده وهو لما يزل في العاشرة من عمره وهو في أول الدعوة عندما نزلت الآية: ﴿وأنذِر عَشِيرَتَكَ الأقرَبِين﴾ (الشعراء:214)، تساءل المؤلف: "هل هذا جدّ أم هزل؟" أي أن الأمر لو كان بيد النبي(ص) وليس أمراً إلهياً أيعقل أن يعيّن صبياً لم يبلغ الحلم أميراً على الكبار والشيبة من عشيرته، ومنهم أبوه أبو طالب سيد مكة، ويأمرهم بأن يطيعوه؟)

الشبهة الثالثة: أن أمراً بهذه الأهمية أما كان ينبغي أن ينزل فيه قرآن بحيث يكون جزءاً من القرآن، بمعنى أن ولاية علي تنزل في القرآن بشكل صريح؟

الجواب على الشبهة: (أقول: لم يرد جواب من المؤلف المظفر بخصوص نزول آية صريحة في القرآن، ولكن الجواب الواضح هو أن هناك آيات كثيرة أعلنت مقام علي(ع) ودوره، أولاً. وأما ثانياً فلأن الله تعالى يعلم ماذا كانوا سيفعلون بأي آية صريحة. وفي الواقع فإننا لو تأملنا في البدائل القرآنية الممكنة التي يطرحونها، مثلاً أن يقول "علي هو الإمام" أو "علي هو الولي" كما اقترح بعض المخالفين على الفضائيات، سنجد أن أي ذكر صريح كان يمكن تأويله بخلاف ما جاء في الآيات النازلة في علي(ع) دون أن تسمّه. ولنأخذ أمثلة:

آية الولاية: لو قال "إنما وليكم الله ورسوله وعلي" لقالوا "نعم هو ولينا فهو يحبنا ونحن نحبه إلى آخر الكلام الذي قالوه ويقولونه بخصوص حديث الغدير ‹‹من كنت مولاه فعلي مولاه››.

آية المباهلة: لو قال "فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وعلياً وأنفسكم" لانتهت أعظم فضيلة لعلي(ع) – حسب رأيي – بتقليده وسام كونه "نفس النبي(ص)"، ولربما قالوا بأن الأمر هو بدعوة أقربائه القريبين تأكيداً لصدقه لأنه لا يضحي بهم، وبذا لانتهت فضيلة فاطمة والحسنين(ع) أيضاً.

آية المودة: لو قال "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في علي وفاطمة وأولادهما" لقالوا: "كلنا نحبهم وهذا لا خلاف عليه" إلى آخر الكلام، بل لشتموا الشيعة بأنهم لا يحبون أهل البيت(ع) كما يفعلون هم، وهو ما لم يزالوا يسطرونه في كتبهم.

آية الصادقين: لو قال "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع علي" لقالوا: "إن الله أمر بأن يكون المسلمون مع علي(ع) عندما يخالفه أحد، وهذا هو رأينا في حروب الجمل وصفين أن علياً هو مع الحق وأن الآخرين بغاة، فنحن مع علي(ع). بل كانوا سيقولون بأن الآية واضحة في عدم إدانتها للبغاة على علي(ع)، فتصبح مبرئة لهم.

آية الشاهد: لو قال "أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه علي" لقالوا: "نعم لقد تبعه علي تماماً وأبلى بلاء حسناً" ولكن هذا لا يعني أنه الإمام.

وهكذا في جميع الآيات النازلة في علي(ع).

ولو أخذنا ما اقترحه ذلك الشيخ الوهابي على الفضائيات أن ينزل قرآن فيه "علي هو الإمام"، لقال هو نفسه: "نعم إن علياً هو الإمام ونحن نعترف به بعد أبي بكر وعمر وعثمان". فلو قيل: ماذا لو كانت الآية المقترحة "علي هو الإمام بعد النبي مباشرة" لقال هو نفسه: "نعم هو إمامنا بعد النبي لأنه من جملة الصحابة الكبار

الذين نقتدي بهم جميعاً ونأخذ عنهم الأحكام بعد وفاة النبي". فلو قيل: ماذا لو كانت الآية المقترحة "علي لا غيره هو الإمام بعد النبي مباشرة"، لقال قولاً مشابهًا، بل وكان سيورد قول عمر "لا أبقاني الله لمعضلة ليس فيها أبو الحسن". ولقال في جميع هذه الاحتمالات أن علياً(ع) رضي بخلافة الذين تقدموه وأنه طالما رضي فإن معنى الآيات المقترحة يكون إمامته المباشرة لو لم يرض، وهذا ما قالته المعتزلة قديماً ويقوله الشيعة الزيدية دائماً.

أما الآية المقترحة "علي هو الولي" فهذه ستذهب أدراج الرياح كما حصل مع حديث الغدير بصرف كلمة "الولي" عن دلالتها.

بالجملة نقول أن اللّه تعالى أعلم حيث جاءت الآيات الكريمة في علي(ع) وأهل البيت(ع) بهذا الشكل الذي منع التلاعب بها من جهة، وجعل الحجة بيد شيعة علي(ع) من خلالها، وإن كان بوجود كيد الشيطان من خلال أوليائه بصرف الآيات عن سبب نزولها أو عن دلالاتها... ولكن كيد الشيطان كان ضعيفاً وبقيت وستبقى الحجة مع علي وشيعته أبد الدهر.)

الشبهة الرابعة: وهذا من أهم ما أثير حول حديث الغدير وهو كيف يحصل هذا الارتداد عن حديث الغدير من قبل سبعين ألفاً أو أكثر ممن سمع الحديث مع أن المدة الفاصلة بين يوم الغدير وبين وفاة النبي(ص) بحدود الشهرين وهي مدة قصيرة لا يمكن أن يحصل فيها هذا التناسي أو النسيان لهذا الحديث.

الجواب على الشبهة: أقول: لم يرد جواب مختصر، ولكنه ناقش موقف الأنصار وغيرهم.

لكني أقول:

(أولاً) بخصوص العدد: لم يكن في المدينة من عشرات الألوف الذين حضروا بيعة الغدير إلا عشرة بالمائة أو ما يقرب من ذلك وهم أهل المدينة الذين كانوا في الغدير (لأنه من الواضح أن المدينة لم تخرج عن بكرة أبيها لأداء حجة الوداع مع النبي(ص)، وبالتالي فإن العدد الهائل الذين حضروا الغدير ليس وارداً في المقام. هؤلاء العشرة بالمائة من أهل المدينة على قسمين رئيسيين: وهم المهاجرون والأنصار؛ وأكثر الأنصار يريدون علياً(ع) ولكن لضعفهم أمام المهاجرين – وهو ما بينه الشيخ المظفر في "السقيفة" – وإن عددهم، وهم الأكثر بالطبع، لم يشكل ثقلاً في الميزان كما يتوقع، ناهيك عن أن أبا بكر وصاحبيه تمكنوا من سحب البساط من تحت أقدام الأنصار الحاضرين في السقيفة – وهم يمثلون ألوف الأنصار كونهم رؤساءهم – كما تم توضيحه في محله؛ وأما المهاجرون فكان حالهم بين منافس لعلي(ع) ومناوئ له؛ وفي الفريقين، المهاجرين والأنصار، جماعة من المنافقين وجماعة ممن في قلوبهم مرض – بنص القرآن الكريم – والمنافق لا يمكن إلا أن يكون ضد ما يريده الله ورسوله(ص) والذي في

قلبه مرض أنى له أن يكون هواه مع علي(ع)؟ إن جميع هؤلاء، المؤمنين والمنافقين والذين في قلوبهم مرض، وجدوا في مسألة صغر سن علي(ع) بالنسبة إلى غيره، وفي مسألة كراهية قريش لبني هاشم، والتي أخرجوها بعنوان كراهية اجتماع النبوة والخلافة، وغيرها من مسائل، ربما، ما أخرج الإعراض عن بيعتهم في الغدير إخراجاً مشروعاً.

(ثانياً) بخصوص فكرة البيعة: ما أن تحصل بيعة لأحد فلا يمكن بعدها العودة عنها حتى ولو كانت بيعة باطلة في قبالة بيعة الحق، وذلك لأن أفراد المجتمع المديني – من مهاجرين وأنصار – وباقي المسلمين من عرب الجزيرة كلهم عشائر كانت المفاهيم العشائرية متحكمة فيهم بشكل كامل، وكان إسلام معظمهم حديثاً جداً لا يمكن له أن ينتزع فكرة البيعة النافذة بمجرد حصولها حتى ولو كانت في مقابل بيعة للنبي(ص)، لأن بيعة النبي(ص) بيعة لقائد الدين في حين البيعة الأخرى هي بيعة رئيس العشيرة (راجع ما قاله أبو بكر وعمر للأنصار في السقيفة)، وإذا كان المجتمع العربي اليوم، ولاسيما خارج العواصم والمدن الرئيسية، بل وحتى في هذه المدن في بعض البلدان، لا يزال يراعي المفاهيم العشائرية إلى درجة مراقبة بعضها بدرجة أشد من مراقبة المفاهيم الإسلامية في موارد التعارض، فكيف يكون الحال في أول الدعوة الإسلامية وجميع المسلمين هم ممن عاش فترة في الشرك، اللهم إلا أن نصدق فكرة أنهم كانوا ما أن يسلموا حتى يتحولوا إلى ما يشبه الملائكة، وهو ما لا يمكن قبوله بحال من الأحوال لأنه لا الطبيعة البشرية تقبله ولا الحوادث التاريخية تؤيده.

(ثالثاً) بخصوص إمكانية حصول الفشل العام: أن القرآن الكريم أثبت في آية، تتلى وستظل تتلى، أنه من الممكن تماماً أن يفشل جميع الصحابة في العمل بأمر إلهي نزل في الكتاب العزيز وبشكل واضح، وذلك عندما نزلت آية المناجاة ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا إذا ناجَيتُم الرَّسُولَ فقَدِّموا بَينَ يَدَي نَجواكُم صَدَقَة﴾ (المجادلة:12) فإن المفسرين أجمعوا أنه لم يعمل بهذا الحكم إلا الإمام علي(ع) – وهو حديث لم يروه الشيخان البخاري ومسلم ولكن الحاكم استدركه عليهما بشرطهما في ج2 ص482. وبعد ما امتنع جميع الصحابة إلا علي(ع) عن العمل بها نزلت الآية بعدها ﴿أأَشفَقتُم أَنْ تُقَدِّموا بَينَ يَدَي نَجْواكُم صَدَقاتٍ، فَإِذْ لَمْ تَفعَلُوا وَتابَ اللّهُ عَلَيكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ، وَاللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُون﴾ (المجادلة:13). وقد صرحوا بذلك في موقع "المكتبة الإسلامية" على شبكة الانترنت بقولهم هكذا:

"وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه .

قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي – صلى الله عليه وسلم – فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال علي، رضي الله عنه: آية في كتاب الله عز وجل لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية..."

وقد ظنوا أن بتصديرهم الكلام بكلمة "وقد قيل" أنهم يضعفون الموقف العلوي الفريد، ولكن هيهات لهم ذلك، بل أن هذه الكلمة منهم أكدت لي أن التفسير لا مهرب منه فلجأوا إلى مثل هذه الألاعيب.

الشبهة الخامسة: شبهة حول بعث أسامة بن زيد ص176. أثير أن تدبير النبي(ص) بتأمير أسامة في جيش وفيه وجوه المهاجرين ولكي يبعدهم عن المدينة ولكي يهيء المسلمين لقبول قاعدة الكفاية، أو أنه كان تدبيراً من النبي(ص) كي تخلو المدينة ممن ينافس علياً، فإنه في الواقع أشبه بتدبير الضعفاء من تدبير الأنبياء، لأنه من الممكن أن هؤلاء إذا ذهبوا بعيداً عن المدينة وعلموا بوفاة النبي(ص) سيرجعون ويهاجمون المدينة وخصوصاً أنه ليس في عنقهم بيعة لعلي(ع) ويحتلون المدينة بالقوة ويفسدون ذلك التدبير. وبما أن النبي(ص) لم يكن من الذين يخافون في اللّه لومة لائم فإنه من غير المعقول أن يذهب إلى مثل هذا التدبير.

الجواب على الشبهة: إنه إنما فعل ذلك بعد أن علم من إصرارهم على المخالفة بل وتأكد ذلك من تباطئهم في الذهاب في الجيش ومن طعنهم في تأمير أسامة ومحاولاتهم الكثيرة والتي نجحت في أن يعطلوا البعث حتى توفي النبي(ص).

الشبهة السادسة: شبهة حول رزية يوم الخميس ص177. البعض شكك في أصل الحادثة وبأن النبي(ص) طلب دواة وكتف ليكتب لهم الكتاب الذي يؤمنهم من الضلال وذلك لأنه من غير المعقول أن يتمكن عمر من منع النبي(ص) أن يكتب وإلا لاستطاع هو أو غيره منع النبي(ص) من كتابة الوحي الذي كان ينزل عليه. وليس هناك من داع لكتابة هذا الحديث طالما كان قد نصّ على إمامته في يوم الغدير قبل ذلك بأسابيع قليلة؛ ويقولون لو أن عمر والذين معه حاولوا منع النبي(ص) من الكتابة وقالوا "حسبنا كتاب الله" كان ذلك أدعى أن يصرّ النبي(ص) على كتابة الكتاب.

الجواب على الشبهة: بأن الذي حدث أن عمر ألقى شبهة إمكانية تعرض النبي(ص) لحالة الهذيان وبالتالي كان ذلك سيثير الخلاف أبد الدهر وهو: هل كان النبي(ص) يهذي أو غلبه الوجع عندما أمر بهذا بل وبغيره من

الأوامر أم لم يكن، وبالتالي فكان سيبطل مفعول هذا الكتاب حتى وإن كتبه، بل إن الكتاب المفترض لمنع الضلال سيكون سبباً له وللخلاف.

الشبهة السابعة: شبهة حول أقوال أمير المؤمنين بخصوص بيعة أبي بكر ص179. أن البعض يقول بأن قول أمير المؤمنين(ع): ‹‹إحتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة›› أو قوله لأبي بكر: ‹‹أفسدت علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترعَ لنا حقاً›› لا يدل إلا أن علياً(ع) يرى نفسه أنه أحق بالخلافة من أبي بكر وليس دليلاً على نص موجود عليه، وأن ذلك ليس بغريب على ما جرى في التاريخ من ترؤس المفضول على الأفضل في جميع الأزمان.

ويشكك البعض في قول علي(ع): ‹‹فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فظننت بهم على الموت›› لأن هذا يعني أن الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس بنص القرآن تعلم أن علياً(ع) إمامها ومع ذلك تدير ظهرها لكل ذلك من أجل أبي بكر وعمر فقط، أو أن يكون بغض علي(ع) قد بلغ بهم حدّاً هوّن عليهم دخول النار.

الجواب على الشبهة: قضية "كنتم خير أمة" لم يقل القرآن أنتم خير أمة أبد الدهر بل قال ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّة﴾، وأن الآية عندما تقول ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ تَأمُرونَ بالمَعرُوفِ وتَنهَونَ عَن المُنكَرِ﴾ (آل عمران:110) فإنه في الأزمان، ولاسيما في العهود الحاضرة أي عهود المؤلف (أواسط القرن العشرين)، والتي استمرت لحد الآن، لم يبق من المعروف حتى رسمه فضلاً عن أن يكون جميع الناس من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

(أقول: ولكن المؤلف رحمه الله لم يجب على أقوال علي(ع) التي لا يبدو منها نص واضح في خلافته، وهو ما أجيب عليه من قبل آخرين، وهو من نفس نمط فعل النبي(ص) عدم كتابة الكتاب يوم الخميس السابق لوفاته – أرواحنا فداه – وذلك لأن شبهة الهذيان أو الهجر قد ألقيت عليه فلو كتب الكتاب فإن القوم لن يجدوا مفراً من استخدامها لإلقاء الشك في الكتاب وبالتالي كان سيؤدي إلى إلقاء الشك في جميع ما سيروى عنه(ص) من أحاديث وأفعال وتقريرات التي تشكل السنة النبوية المطهرة، فإن علياً(ع) حرصاً منه على النصوص المقدسة والتي توّجت في يوم الغدير تجنب استخدامها في التحاجج مع أبي بكر مخافة أن يقوموا بتفسيرها تفسيراً آخر، وهو الذي فعله علماء مدرستهم فيما بعد على كل حال ما يثبت أنه كان سيحصل وما يثبت صحة ما ارتآه أمير المؤمنين(ع) بنظرته الثاقبة، وربما بأمر رسول الله(ص)، فإنه(ع) صرح بمثل هذا ‹‹قال لي رسول الله(ص): إن اجتمعوا عليك إفعل ما أمرتك، وإلا فالصق كلكلك بالأرض؛ فلما تفرقوا عني جررت على المكروه ذيلي، وأغضيت على القذى جفني، وألصقت بالأرض كلكلي›› (شرح نهج البلاغة ج20 الحكمة 736) وبالتالي فإن النبي(ص) هو الذي أمره بعدم المجازفة بالنصوص الشريفة في ساحات التنافس الدنيوي مع الآخرين. إذاً، إستخدم علي(ع) هذه

الحجج: أن أهل البيت(ع) هم الثمرة وبالتالي فإن حجة أبي بكر وصاحبيه عمر وأبي عبيدة على الأنصار هي هي بيد علي(ع) عليهم. كما أن قوله(ع) «أفسدت علينا أمرنا» صريح في أن ما فعله أبو بكر هو إفساد للأمر، فهو إدانة ورفض حتى وإن لم يستخدم نص الغدير أو غيره.)

الشبهة الثامنة: هناك شبهة حول موقف علي(ع) من قوله: «فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً» بأن تباطؤه عنهم وعن البيعة لهم والوقوف بجانبهم بشكل كامل هو أيضاً يؤدي إلى الثلم أو الهدم للإسلام وبالتالي لا يعقل أن أمير المؤمنين كان سيتخذ مثل هذا الموقف.

الجواب على الشبهة: أن هذا لا يوجد فيه أي تناقض، لأنه بعدم مناهضته ومقاتلته عندما لم يجد أنصاراً يعني أنه سالمهم ثم أمسك نصرته عنهم ولكن لمّا رأى أن الإسلام في خطر وجد أن من واجبه ألا يبقى على حالة المقاومة السلبية وإنما عليه أن يقوم لنصرة الإسلام لا لينصر هؤلاء الأمراء الذين دفعوه عن حقه.

الشبهة التاسعة: شبهة بخصوص عدم ورود ذكره عليه السلام في الحروب التي جرت على عهد أبي بكر وعمر أن ذلك لا يدل على عدم تعاونه معهما وإلا فأين الحروب التي اشترك فيها عمر وعثمان وطلحة والزبير في زمن أبي بكر؟

الجواب على الشبهة: (لم يرد رد على هذه، ولكن الجواب واضح في الفارق الشاسع بين علي(ع) والآخرين بخصوص الحاجة له ولهم في الحروب، فإن علياً(ع) كان بطل المسلمين دون منازع وسبق الآخرين كلهم سبقاً بعيداً حتى قال النبي(ص): «لولا سيف علي ومال خديجة ما قام للإسلام عمود ولا اخضر للإيمان عود» فالحاجة إليه في فتح العراق وفارس والشام وغيرها حاجة ماسة لا غنى عنها، وبالتالي فعدم اشتراكه يدل على موقف واضح منه إزاء القوم.

أما طلحة والزبير فلعل الشيخين لم يريدا اشتراكهما لأنهما لم يريدا لهما التمكن من القوة، ولاسيما أن الزبير كان من حزب علي(ع) في ذلك الوقت.

أما أبو بكر وعمر وعثمان أنفسهم فالأفضل السكوت عن هذا لأنه لم يعرف لأي منهم بلاء في غزوات النبي(ص)، بل كان هروبهم هو الذي روي في أكثر من وقعة.)

أخيراً، موقف لأبي حامد الغزالي

ذكر الأنطاكي (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) قول الغزالي في كتابه "سر العالمين" والذي ذكر فيه حديث الغدير في ص9 بما نصّه: "ولكن أسفرت الحجة وجهها وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته(ع) في يوم غدير خم باتفاق الجميع وهو يقول: ‹‹من كنت مولاه فعلي مولاه›› فقال عمر: بخٍ بخٍ لك يا أبا الحسن لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. فهذا تسليم ورضا وتحكيم. ثم بعد هذا غلب الهوى بحب الرئاسة وحمل عود الخلافة وعقود البنود وخفقان الهواء في قعقعة الرايات واشتباك ازدحام الخيول وفتح الأمصار سقاهم كأس الهواء فعادوا إلى الخلاف الأول فنبذوا الحق وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما اشتروا."

وبما أني أعلم أن الغزالي من أهل السنة، وأنه ترك الفلسفة ودخل في التصوف، وقد تركت بغداد وعندي كتبه في الرياضة الروحية مثل "أيها الولد" و"معارج القدس في مدارج معرفة النفس" وكتاب "إحياء علوم الدين"، فإني عجبت لقوله أعلاه فبحثت عن حقيقته بعد ذلك ولم أصل إلى نتيجة مطمئنة تماماً، فالبعض يؤكده وبالتالي يذهب إلى تشيعه آخر عمره، على أساس أن هذا القول لا يصدر إلا من شيعي، والبعض ينفيه على أساس ورود معلومات في كتاب "سر العالمين" هذا لا تصح وكتب أخرى للغزالي لم تذكر مثله، والبعض وقف حائراً كما قال الذهبي: "وسرد – أي الغزالي – كثيراً من هذا الكلام الفسل الذي تزعمه الإمامية (أي الوارد أعلاه، وفي نفس المقالة الغزالية هذه قوله: ولما مات رسول الله صلى الله عليه وآله قال وقت وفاته: إيتوني بدواة وبياض لأزيل عنكم إشكال لأمر، وأذكر لكم من المستحق لها بعدي! قال عمر: دعوا الرجل فإنه ليهجر وقيل ليهذر، وهذا يؤكد التشيع)، وما أدري ما عذره في هذا! والظاهر أنه رجع عنه وتبع الحق فإن الرجل من بحور العلم، والله أعلم". في حين أن الذين يذهبون إلى صحة نسبة الكلام يقولون أن كلام الغزالي كان في آخر عمره.

وأحب أن أقول هنا كلمة ينبغي لشيعة أهل البيت(ع) أن يلتفتوا إليها، وهي أنهم – لشدة حبهم لعلي(ع) وأهل البيت(ع) بشكل عام – تجدهم يحتفون بكل إنسان يقول كلمة حق واحدة في حقهم(ع) ويناضلون من إجل إثبات ذلك، ولا ضير في ذلك في نفسه، ولكن ينبغي لهم أن يلتفتوا إلى حقيقة مفادها أن هذا الإنسان إنما يحسن لنفسه إذا قال كلمة إنصاف في حق علي وآل علي(ع) لأنه إن كان قالها في طريق المودة في القربى فهو متعرض للأجر من الله تعالى، وإن كان قالها كأي كلمة حق يقولها باحث صادق فإنه يكسب احترام الناس. نعم، جميل أن يجد الإنسان تقديراً لموقف حق وقفه، ولاسيما إن كان صعباً.